أسيوط

سيتي ستان

Assiut Citystan

رواية

مايكل برنس

أسيوطستان

رواية

مايكل برنس

طبعة جديدة منقحة

إلى ك. ح.

أعتقد أن هذا من واجبي...

إنه لإحساس تعس جداً أن تشعر بالعار من بيتك. ثمة عقوق أسود في ذلك، وعقابك قد يكون مستحقاً وواجباً.

(ديكنز، آمال عظيمات ١٨٦١)

مقدمة

لطالما عددت المقدمات الأدبية تلفاً أورثنا إياه السابقون، غير أني وجدت أنه لا يمكن فض مغاليق تلك الرواية بدون ضرب ما من التقديم، أو على أضعف الإيمان التمهيد، تماماً كما جرى العرف في الكتب القديمة.

فما هي المقدمة؟ هل هي مجرد سطور يضربها الكاتب في بداية سرده، أم هي حدث سابق، أم هي كائنٌ عليمٌ، فهيمٌ، قائم بذاته، يسمو فوق مرتبة الحكاية ويتنبأ عنها؟

لإله الفن العلم. وما علينا عبّاده إلا الانصياع والترتيل:

يقال أن اسم أسيوط مشتق من اسمها في السجلات المصرية القديمة «ساوييت»، الذي معناه المحمية[1]، وقد بدأ تاريخها منذ العصر الفرعوني عندما انضمت لطيبة –عاصمة البلاد آنئذ– في حربها ضد الهكسوس، مما أدى إلى استنزاف مواردها في خدمة الوطن. وفي العصر الروماني تخلفت أسيوط بسبب اهتمام الرومان بالأقاليم الشمالية وإهمال الوجه القبلي. ثم أتت المسيحية فلاقت رواجاً في أسيوط بسبب دورها كمحطة مميزة في رحلة العائلة المقدسة وبسبب الآثار التي خلفتها تلك الرحلة. ومع مجيء الفتح العربي تستقر كثير من القبائل العربية في أسيوط ونواحي أسيوط (مثل المحاميد والعمايم وعرب مطير والعوامر وعرب المشارقة والجهمة وأجلاص وهيثم، وغيرهم)، بالإضافة إلى إسلام عدد من السكان الأصليين، مما يؤدي إلى زيادة هائلة في أعداد المسلمين بالمنطقة. وفي عهد المماليك زار الرحالة العربي ابن بطوطة أسيوط فأطراها وقال عنها أنها 'مدينة رفيعة وأسواقها بديعة'. أما أشهر الأدوار الوطنية لأهل أسيوط على الإطلاق فهو حين ثار أبناء قرية بني عدي ضد الفرنسيين في ١٧٩٩ ونزلوا لمهاجمة سفنهم عند النيل، ومن هنا جاء عيد المحافظة القومي في ١٨ أبريل من كل عام. ثم وكأنها عادة لازمتهم (أو كأنهم ظنوها عادة) فقد نزل مئات من فلاحي أسيوط إلى النيل بعد أكثر من قرن ونصف بذات الطريقة

[1] في مصادر أخرى: من «سوت» المشتقة بدورها من «سأوت» بمعنى حارس الحدود لمصر العليا عند انضمامها لطيبة في حربها ضد الهكسوس.

(مسلحين بالبنادق القديمة هذه المرة) للاستيلاء على سفينة إنجليزية كانت مرسلة إليهم إبان ثورة ١٩١٩.

أسيوط من أكبر محافظات مصر و أغناها، حيث تبلغ مساحتها الإجمالية حوالي ٢٦ كيلومتر مربع، وتقع على ضفتي النيل، وتحدها من الجانبين سلسلتا الجبال الشرقية والغربية وبعرض يترواح مابين ١٠ و ٢٠ كم، وهي محصورة بين خطي عرض ١٣ و٢٧ شمالاً وخطي طول ١٤ و ٣٠ شرقاً، وتتوسط محافظتي المنيا شمالاً وسوهاج جنوباً، والبحر الأحمر شرقاً والوادى الجديد غرباً، وتحد من الغرب بالهضبة الغربية (ومنها يبدأ أهم طرق القوافل القديمة التي تربط مصر بالسودان — دارفور وكردفان — عن طريق درب الأربعين)، ومن الشرق بالهضبة الشرقية، التي يمتد بها الوادي الأسيوطي الذى تحيط به سلاسل من جبال الرخام (والذي توجد به أهم المزارات السياحية بمحافظة أسيوط، وهى — كما يقال — محمية الوادي الأسيوطي: التي علّ أهل أسيوط أنفسهم لا يسمعون عنها). أما عاصمتها، مدينة أسيوط، فهي مدينة استثمارية ضخمة، تحتوي على مصنع من أكبر مصانع الأسمنت في البلاد (أسمنت أسيوط)، و مصنع مهم للسماد، بالإضافة لتوكيلات عالمية شهيرة وفروع لأغلب البنوك.

أسيوط هي مسقط رأس الإمام جلال الدين السيوطي، وسيد قطب، ومصطفى لطفي المنفلوطي، وحافظ إبراهيم، ويوسف السباعي، وجمال عبد الناصر، والمخرج الراحل نيازي مصطفى، والشاعر نصر لوزا الأسيوطي، و قداسة البابا شنودة الثالث.

على كل هذا، فلم فشل اسم أسيوط في أن يقترن في ذهن العامة سوى بخمسٍ: البخل الأسيوطي، والنصارى (الذين يمثلون نسبة كبيرة من السكان حتى لقد أشيع في فترة أنهم يبطنون أخذها عاصمة)، فالإرهاب (وكانت أسيوط عاصمة بحق له في أوان السبعينيات والثمانينيات، وما برحت رفده تسري فيها حتى الآن)، فـ«أسمنت أسيوط» وفريق كرة القدم الخاص به، ثم أخيراً الجامعة، التي صارت محور الحياة داخل المدينة وعضواً فعالاً في بدنها المضغوط الصغير منذ أن افتتحت عام ١٩٥٧ كأول جامعة إقليمية في البلاد؟

المحللون يقولون كلاماً متضارباً، وللشعب تأويلات بعضها أسطوري. يقال أن البخل يعود لـ«أبو جورج» (قديس أسيوطي شهير)، وأن الإرهاب ما هو إلا رد فعل لوجود النصارى بهذا العدد. والمصنع شهير بسب إنتاجه، ولفريق كرة القدم صيتاً خاصاً مذ أن دخل الدوري الممتاز. أما الجامعة، فلعل شهرتها ترجع لسببين: الأول أنها –وكما أسلفنا– أول جامعة إقليمية في البلاد، وهي جامعة بعض كلياتها (مثل كلية الطب البشري) معترف به في خرائط عالمية (مثل خريطة منظمة الصحة العالمية «WHO») وتشتهر بالمؤتمرات ومن الذائع حتى بين العامة في الجنوب أنها أفضل جامعة بالمنطقة، أما السبب الآخر فهو حصول الجامعة على مركز متميز آخر إنما في عدد رؤوس التنظيمات الإرهابية التي خرجت منها على مر الزمن، والمتهمون بقتل السادات ذاته: مثل عصام دربالة، ناجح إبراهيم، كرم محمد زهدي، عاصم عبد الماجد، فؤاد محمود حفني، ومحمد ياسين همام، حمدي عبد الرحمن، أسامة إبراهيم إبراهيم، أحمد حسن دياب، وغيرهم.

وقت كتابة هذه السطور كانت جامعة أسيوط تضم العديد من الكليات والمعاهد، أشهرها على الإطلاق هي كلية الطب البشري والمستشفى الجامعي الملحق بها (والمعروف بـ'قصر العيني' نظراً لانبثاقه من جامعة القاهرة)، وكان 'القصر' يحتوي على مبنى رئيسي بطاقة ثلاثة آلاف سرير ما بين مجاني وخاص، فمستشفيين إضافيين للأطفال وصحة المرأة، فثلاثة تحت الإنشاء، وكانت العيادات تستقبل نحو مليون مريض سنوياً.

الجزء الأول
نايلة خاتون

١. المظلوم

قال مارك سعد:

– 'أنا جدي ما كانش راجل غني قوي كده زي ما انت فاكر...'

كان مارك يخاطب زميلاً له في سنة الامتياز، شاباً سميناً بنظارات مستديرة اسمه روماني كمال. كانا يسيران سوياً في مستشفى أسيوط الجامعي بعد بداية السنة بأيام، وكان جل الجلوس والمارة يحدقون في مارك أينما سار. مارك نفسه كان على دراية بذلك الانتباه المكثف، ولكنه كان قد اعتاده منذ أمد بعيد. لم يعد يشعر بالخجل كما كان في صباه ومراهقته. ما قُدر قد تم. أمهق أم لا، تلك هي الحياة الوحيدة التي أتاحها له الرب.

لابد أن هيئته قد تحسنت كثيراً الآن، من بعدما فقد ما يقرب من نصف وزنه العام الماضي بسبب صيام قاس، بات يشبه رعاة البقر في الأفلام القديمة بشعره الباهت الممشوط جيداً وقامته المرتفعة وجسمه الجديد الرائع بساقين طويلتين مصبوبتين صباً وحوض ضيق وبطن مشدودة خالية من الدهون ثم صدر عريض مثير للإعجاب، كما أن ذوقه الأزلي من البنطلونات الجينز الزرقاء، يحشو فيها قمصاناً مكوية نظيفة من الماركات الغالية أمثال «روبان» و«BTM» و «سيليني»، كل ذلك قد صار يصب في جانبه أناقةً ورقياً وإيحاءً بقدر معقول من الغنى. بيد أن مهقه ظل له مشكلة، ولاسيما عيناه الحمراوان المتخاذلتان اللتان يغطيهما دائماً بنظارات نظر داكنة. فكان جسده كله هكذا أبيض كالثلج، ما خلا شفتيه ومنخريه وأجفانه (وأغشيته المخاطية عامة) فكن ورديات، مما أثار بعضاً من زملائه أن يستهزئ به ويطلق عليه: 'الفار الابيض'، تشبيهاً له بفئران الأبحاث البيضاء التي كانوا يجرون عليها التجارب في قسم الفسيولوجي في العامين الأول والثاني، وكان أقل ما يوصف به في خلال اليوم العادي أنه 'أبرص'. على أن هذا لم يحل دون تفوقه، بل بالعكس: كانت تلك

المضايقات محفزاً رهيباً له، فتفوق في دراسته عاماً بعد عام حتى حصل على المركز العاشر بعد المائة على دفعته، والثالث على بني دينه، الذين احتفوا به أخيراً وشعروا نحوه بالاعتزاز (بعد باع طويل في الاستهزاء)، معتبرينه «بطلاً قومياً»، حارب وانتصر ضد «الشر» المعلن ضدهم، ورفع رؤوسهم.

وكان مارك قد بكر في الحضور لعيادات الأطفال يومها فلم يجد أحداً قد أتى بعد، فاختار أن يقوم بجولة متأنية في أنحاء المستشفى ريثما يأتي الحين، خاصة وأن أمراً معيناً كان يشغل باله في ذلك الصباح، فقابل روماني كمال، زميلهم الذي تأخر عنهم ستة أشهر بسبب رسوبه في مادة الباطنة، في غضون تمشيه، ولم يكن مارك يحب روماني كمال كثيراً ولا نوعيته، لكنه كان ساهماً، فدعاه ليرافقه في المشي عساه أن يسري عنه... ودارا حول مبنى القصر الكبير، ثم سارا في شارع مبنى العيادات الضيق الطويل، ومارك يتابع روايته:

– 'أنا جدي كان راجل تقدر تقول كده «مبسوط»: بنى عمارة ع القد وكان معاه مصنع ومخبز وبقالة ومش عارف إيه. صحيح انه عمل مصنع خل لابنه الصغير في يوم من الأيام لكن المصنع وقع عليه بخسارة وقفله. وحتى المصنع اللي كان فاتحه تحت بيته كان زمان مصنع كولا وما كانش بيبيع إلا على قد مصاريفه—'

فقاطع روماني وهو يحدق فيه من خلف نظاراته المستديرة الكبيرة:

– 'لكن انت أبوك ما كان لهوش نصيب في المصنع... ؟'

تمهل مارك قليلاً قبل أن يرد، وقد أزعجه ألا يقرن اسم والده المتوفي بـ'ربنا يرحمه'، فقال وهو يشد قبضته على كشكوله السلك وسماعته (التي كادت أن تسقط منه) ويهز رأسه الناصع في إيجاب بطريقة مبالغ فيها:

– 'أيوه... صح... لكن ما تنساش إن الراجل – «ربنا يرحمه» – خد من ابوه فلوس كتيرة عشان يتجوز بيها. اشترى شقة وبتاع، واشتغل وبقي موظف، وكان اخواته تعبانين ومعاهمش شغل، فاتنازل لهم عن نصيبه في المصنع...'

ثم أردف بغصة وهو يقطب وينكمش محياه الوردي تحت الشمس كوردة – على غير الطبيعي – تجفل من الشمس:

– ’لكن اللي ما خطرش للراجل الغلبان على بال، إن مصنع الكولا التافه التعبان ده هيتحول بقدرة قادر لمصنع بلاط، وإن مصنع البلاط هيشتغل زي النار زي ما انت شايف اهوه، وإن اخواته هيبنوا بدل العمارة اتنين، هه، وإنه كمان في الآخر هيموت هو وامراته ناقصين عمر ويسيبوا ابنهم على كده اهوه...‘

في الحقيقة كانت حياة مارك جديرة بالرثاء، ففوق عاهته الجسمانية الشديدة التي أثرت على نفسيته أيما تأثير، فإن وفاة الوالد بجلطة في المخ وهو بعد في سن ليست بالمتقدمة، ثم الأم بعده بعلة غامضة لم يتسن الوقت لتشخيصها (والفتي بعد لم يتم عامه التاسع عشر)، ثم بعد جميعه ارتحاله ليقيم مع عمه وامرأة عمه وكيف تدوي المشاحنات إلى آخر الشارع يومياً، كل ذلك لقد تعد مأساةً من مآسي القدر التي قد يظن أنها لا تحدث إلا في القصص. بيد أننا لا يجب أن نغفل أبداً عن تطور هذا داخل نفس اليتيم الشاب، وكيف أنه قد بات مدمناً على الشفقة والمواساة يومياً كأنهما قوته اليومي، ثم أنه صار ماكراً أشد المكر في استغلال قصته المؤثرة للوصول إلى أهداف أخرى قد لا تخطر على بال إنسان... فمرة بكى أمام قريبة حسناء لهم اسمها مدام رجاء متذرعاً بتذكره أمه حتى قامت واحتوته بين ثدييها الكبيرين تطيب خاطره، ومرة ولج لجنة للشفوي دكتورها متعصب شهير بقسم الهستولوجيا، فلم يخرج منها الفتى ظافراً إلا بعدما ادعى أن المرض الذي سئل فيه – التليف الكبدي – كان عند والده المتوفي (ونطقها متظاهراً بكامل الأسى والحزن) نتيجة الفيروس الكبدي B، وأنه انتقل إلى والدته بعدئذ فتسبب في وفاتها هي الأخرى، وكان يفرط في إبداء التأثر أمام تلاميذ مدارس الأحد في كنيسة الإصلاح بيسري راغب التي يتردد عليها ويخدم بها (وهي كنيسة بروتستانتية) إذا ذكر الموت، حتى ينال قبول أمين الخدمة الأستاذ دانيال عندما يجد الصبية المتأثرين، العارفين حكايته، خارجين من الحصة وكلهم وجوم فيظن أنهم خاشعون.

بهذه الصورة أيضاً تمكن من استخراج عطف زميله الطيب روماني كمال، الذي بعدما أطرق وهو يسير بجانبه واجماً، رفع يده الرابية وربت فوق كتفه في تأثر:

– ’ما تزعلش يا مارك... ما تزعلش...‘

ومشيا مشياً وئيداً حتى وجدا نفسيهما قد خرجا من المستشفى الجامعي وتعديا مبنى الكلية فجاورا كافتريا صيدلة، حيثما كان زميلهم مينا موريس واقفاً يحادث فتاة فاتنة بشعر داكن وقد دقيق وأسنان لؤلؤية صغيرة، جعلت تضحك بأسلوب ساحر وتغطي فيها. واقترح روماني أن يمدا المسير إلى كافتريا طب، لكن مارك – بعد أن تأمل في الفتاة بما يكفي – رفض في شكر متعللاً بتأخره على ميعاد الحضور بمستشفى الأطفال.

فاء مارك من نفس الطريق الذي قدم منه وعيناه تنتفضان نفضاً من الشمس، وعندما بلغ جراج الأتوبيسات، عرج يميناً وتخلله فنفذ إلى مستشفى الأطفال من جهته الخلفية (من حيث قسم الاستقبال). صعد للدور الأرضي، فوجد نفسه في بهو متوسط المساحة، يؤدي إلى ممرين: أحدهما يؤدي إلى العيادات، والثاني يحوي مكاتب الموظفين ومكتب رئيس القسم الدكتورة فايدة. فاختار الممر الأول، وسار فيه حتى آخره، ثم اخترق عدة أزقة وطرق مختصرة فألفى نفسه إزاء العيادات العامة وعيادة الجهاز الهضمي.

كان المستشفى حديث البناء، افتتح عام ٢٠٠٤ على مساحة ٧٠٠٠ متر مربع وبطاقة تصل إلى ٤٠٠ سرير في الأقسام المختلفة. وقد أقيم بارتفاع ٥ أدوار، على نفس الطراز المميز للجامعة الذي ابتكره المهندس عبد المنعم حسن كامل الذي صمم جل الجامعة تقريباً: التقسيم الإنجليزي للأدوار: البدروم، ثم الأرضي، ثم الأول والثاني .... إلخ، السلالم المنفصلة ببسطة الصاعدة إلى مدخلٍ للأرضي، المدخل المسقوف اتقاءً للشمس، الممرات المحيرة المتقاطعة، والنوافذ الكثيرة المتوافرة في كل الحجرات، والتي جعلت واجهة المبنى تبدو من الخارج كأنها لوح مكعبات مفرغ. غير أن المستشفى الجديد قد تميز بذلك الجسر، الواصل بينه وبين مستشفى صحة المرأة المجاور، تماماً كالحبل السري الذي يصل بين الجنين وأمه، كما أن ممراته وأروقته كانت أكثر اتساعاً، وخاماته المستخدمة أحدث وربما أبهظ.

وألقى مارك نظرة على عيادة الجهاز الهضمي فوجد نائبة «سنيور» (أي نائبة متقدمة) محجبة تشرح لاثنين من زملائه لم يتذكر اسميهما، فانتقل

إلى العيادة العامة الأولى، حيث جلست على بابها ممرضة مسيحية مكتنزة قصيرة تنظم الدخول، والتي رحبت به ما أن أبصرته مشرفاً أيما ترحيب، ونهضت قائلة:

– ’صباح الخير يا دكتور، أدخل لك عيانين؟‘

كانت تعرفه وتعي تفوقه من بقية زملائه. وكان كثيراً ما يستلم العيادة وحده في غياب النواب، ليفحص الحالات ويكتب لها العلاج وحده.

– ’هو الدكتورة رانيا مش جوه ولا إيه؟‘

– ’الدكاترة النواب الجداد في اجتماع مع الدكتورة صحراء.‘

– ’أمال مين بيكشف امال؟‘

– ’الدكاترة زمايلك: الدكتور رامي والدكتورة سوزي...‘

دخل العيادة على استحياء نافذاً بعسر من وسط الأبدان المتلاصقة. كان كلهم هناك: آسر عطالله الذي يلعب بمحموله في عالم آخر مستنداً بشيء من مؤخرته على أقرب مكتب، رامي سعيد الذي استولى على المكتب وعلى مكانه المعتاد وراح يكشف بالسماعة على صدر طفل دون الخامسة ممدد فوق سرير الفحص إلى يساره (وكان رامي شاباً ليس به امتلاء وإن بدا متيناً قوياً كأن عضلاته تختبئ داخل عظامه، وجهه مفعم بحبوب الشباب الصغيرة التي تشبه قرصات الناموس ويلبس نظارات طبية رقيقة)، محمد فضل زميلهم المسلم الوحيد في المجموعة وهو شاب أسمر بنظارات تميز بتفاحة آدم بارزة تتحرك باستمرار كلما نطق أو ازدرد ريقه، سوزي عطية زميلتهم السمينة الظريفة التي احتلت بجسدها المهول المكتب الثاني، رانيا شوقي المبتسمة دائماً والجالسة في حالها على كرسي أمام المكتب تراقب، وتبتسم، فحسب، وماريان فوزي التي ظهر رأسها من خلف سوزي وهي فتاة رقيقة ناعمة البشرة وإن كانت عجزاء بشكل محزن، ثم أخيراً مربط الفرس التي لم ينزل عينه من عليها: إيمان مختار...

لم تكن جميلة، كما هو الحال في معظم قصص الحب التي سجلها كاتبوها بصدق، وكانت في ذلك الوقت تعطي له ظهرها – المنحنئ قليلاً بالرغم من كل محاولاتها لستره – فلم تُنبَّه لتحيته التي ألقاها ناحيتهن وصوبها بالخصوص. وردت سوزي التحية ثم ما عتمت أن ارتدت لانشغالها في حل أحجية الحالة الغريبة المعروضة عليها: فما يا ترى الذي يجمع بين

القيء واحمرار العين والتهاب اللثة، حسب وصف الأم ؟! وأخذ آسر كفه فأفرغ فيها «كفاً» عاتية صفقت صفقة رنت حتى الرواق خارج العيادة، وهو يقول له: 'كنت فين يا ابو سعد يا لئيم ؟ !'، بينما اكتفى رامي بقوله: 'إزيك يا مارك ؟' ببرود وهو يشتغل، وكأنه يقول له: لماذا جئت ؟ فقد أحتل مكانك. كان رامي سعيد منافساً قديماً له، وكان يظن في السنين الأولى أن ترتيباً مهماً سيصير له على المسيحيين، بل على الدفعة كلها. فكان يتشدق كثيراً بسرعة مذاكرته، وتحصيله المبكر حتى كان يقرأ كل محاضرة قبل ميعادها بأسابيع، وببراعة حله وإجاباته لدرجة أن القصص خرجت عليه من ضمنها أن الدكتور «عبد الودود حسن» — الجراح الشهير — قد امتحنه في لجنة التشريح بالعام الأول فصافحه في تبجيل وقال له: 'أنا اتشرفت بمقابلتك يا بني'— وبإيمانه بأن الله 'سيقيمه على بقية إخوته' في النهاية لاجتهاده ولصبره. فإذا بتقديراته تهبط تدريجياً بداية من الصف الثالث، وحصل على تقدير «جيد» فقط في الأنف والأذن لأول مرة في حياته في السنة الرابعة، كما لم يحصل إلا على نصف درجة الشفوي عند الدكتورة صفية الديب دكتورة الأطفال في العام الخامس، وهكذا خلص به الحال إلى تقدير عام «جيد جداً» بنسبة ٧٩٪ فقط، وبترتيب على دفعته مقداره الثامن والثمانون بعد المائة، في الوقت الذي تفوق فيه أناس مثل مارك سعد وغيره. ولطالما أنبه الناس بعد الأوان بعدها قائلين: 'داري على شمعتك يا بني، تقيد'...

وأفضى مارك لآسر في غير تركيز بأنه كان يجول. كانت عيناه ما انفكتا على إيمان، التي تحركت الآن فزايلت الشباك القبنوري الأخضر المشيش الذي كانت تنظر من خلاله إلى لاشيء، وعقدت ساعديها الملفوفين داخل البودي الصوفي المقلم المذهل هذا، فسارت بسأم نحو باقي البنات. كانت سمراء، ببشرة غير صافية وجسم مشعر نوعاً (وإن عنت بإزالة الشعر في جل الأوقات)، محجراها ناتئين، وأحدهما بارز عن الآخر إن دققت النظر، لكنها اشتهرت بين الشبان بأنها 'أوكشة' (وتعني الفتاة الباهرة الجمال لكن قصد بها هنا الفتاة المثيرة الجذابة في الحديث والوقفات والتي تصلح للمواعدة والشجار)، وأنها 'شخصية'، وأنها جامحة مثل الفرس البرية لا تخضع لأحدٍ ولا تستحي من شيء. تروى عنها القصص أنها لكثرما أحرجت

شباناً أمام الجميع لأنهم فقط حاولوا التقرب منها ولم يعجبوها، وأنها عاشت حياتها في الكلية ملكة لقطيع كامل من الصبيان يروح ويجيء وراءها طوال النهار كالخصيان: أشهرهم ثلاثة فتيان من قنا: مينا وبيشوي ودميان، الذين واظبوا على السير في ركابها رواحاً وإياباً حتى إذا بالجميع يتغامز عليهم ويخرج عنهم النكات مما أزرى بسمعتهم كثيراً في حين أضاف لشهرتها، وللهفة الشباب عليها، هي. ويحكى أيضاً أنها أقامت علاقة غرامية مع شاب مسلم فترة لكنهما انفصلا قبل تمام عام. والسبب مجهول لكن خرجت شائعات شتى. هذه الواقعة بالذات كان لها أعظم الأثر في تدمير سمعتها بعدئذ تدميراً لم يمكن إصلاحه في وسطها الديني، بل أنه ليقال أن والدها أصيب بأول أزماته القلبية بعدها بالضبط، أي بعدما علم. وحتى أزمات والدها المتكررة خرج عنها كلام وقصص. قيل أنه لما كان يحجز في عناية الدكتورة مارجريت فهمي في شارع السادات، كانت هي تشْخص هادئة مبسوطة، متبرجة ومرحة، لا تلوي على شيء! وقيل أنها لم تكشر تكشيرة واحدة على والدها، وأن أحد الأطباء المتابعين لحالته حين أخبرها أن السيد الوالد مصاب بما يسمى «موت قلبي» (cardiac death)، أنها ضحكت، وأنها قالت له: 'على كده بابا طلع حالة نادرة عمري ما سمعت عنها... كويس والله!'، وأن ذلك الطبيب جعل بعدها يسخر منها ومن ذكرها وهو يهز دماغه ويشوح بيده قائلاً: 'أبوها «بيموت» جوه، وهي عمالة تتكلم لي في الموبايل وتغير لي في بنطلونات الجينز!' (وقد انتشر هذا القول وتدوول مراراً من وراء ظهرها)، وأنها مرة بعد خروج والدها من العناية سئلت من قبل اثنين من الشباب القناوية عن صحته، فاختطفت زجاجة «فيروز» من يد أحدهما، ورشفت منها وهي تضحك —وتضحك معها صاحبة لها اسمها نسرين سمعتها حالياً (لأسباب أخرى) في الحضيض —وقالت: 'للأسف... خف!'، وأنها كانت تستغل فترة غيابه لتضع يدها على سيارته الـ«فيرنا» (تشهد تدور بها بكثرة في شوارع أسيوط وحيدة)، وأنها 'بتروح'[٢] كثيراً، سواءً في غياب السيد الوالد عن المنزل، أو في وجوده. يمكن إذن تخيل السمعة التي حاقت بها ولازمتها، تلك المؤلفة

[٢] أي تغشى المواخير.

من الاستهجان، وفي نفس الوقت، الاهتمام: من الازدراء والنفور، ومن الإعجاب الشديد الخفي، لذلك فقد كانت أثناء الدراسة – وما تزال – محطاً للأنظار وموضوعاً شاغلاً للبال جداً بين الشبان: شخصية يحب المرء أن يتعامل معها ويدنو منها ويصاحبها ويهواها، بل ويفقد نفسه في هواها دون زعل! ولقد أوصل الرجل كل النساء السيئات السمعة في التاريخ إلى مراكز ما كن ليصلن إليها لولا درايتهن بسره (الذي يحاول دوماً أن يخفيه)، بأنه مهما كان متزمتاً أو مستقيماً من الخارج، فإنه ضعيف أشد الضعف من الداخل تجاه الغانية والمومس، وكل سيدة سيئة الخلق! أنظر على أضعف الإيمان كيف يبتسم حتى أوقر الشيوخ وينزل عن تأملاته العقلية العاتية إذا جيء بفتاة لعوب راحت تداعبه شويا، واختبر في أي شأن آخر قد تتصاعد قهقهات أكثر الشباب استقامةً وخلقاً غير إن سردت لهم نكتة ماجنة أو حادثة خليعة؟... ولم يكن مارك سعد، الفأر الابيض المهمش، هو بدوره سوى رجل!

وحول له آسر وجهه عن ناحية البنات وهو يعود ويسأله عن سبب تأخره. ثم إذ عاد فألفاه يرجع إلى سابق عهده بالنظر في عين الاتجاه، شارداً عالقاً عاقداً حاجبيه، مرة أخرى حول له رأسه، وهنا غمغم له: 'شكلك كدا ها تتعبنا معاك السنة دي'، فلم يظفر منه بالانتباه إلا عند هذه النقطة. واندهش مارك بشدة، ولكن ماذا عساه؟ هل خال فعلاً أن «سره» دفين؟!

وأوعز إليه آسر – في صوت خفيض – بأن 'يعقل'، ثم بعدها انحرف بغتة إلى رامي خلفه يرفع عقيرته في دلالة وثغره باسم:

– 'إنما يا رامي... مش ملاحظ إن سوزي بتاكل العيانين؟'

كانت عبارة في الصميم، فضجت رانيا ضاحكة وغطت على أسنانها، بينما ابتسمت ماريان، وترقرق الاهتمام في مقلتي إيمان – التي كانت ما برحت عاقدة ساعديها – وابتسمت بشيء من الحذر. كانت لآسر موهبة خاصة مع الفتيات. ولحسن حظ «آكلة العيانين» كان آخر مريض قد غادر قبل أن ينفلت لسان آسر. فهتفت بصوت مدوٍ وهي تصفق بكفيها الرابيتين اللحيمتين، وترجرج غوائشها السميكة المكومة في الناحيتين:

– 'هي هي هي هي، بتاكل العيانين يا عود قصب ناشف ما في حد مستنضف يمصه!'

فقهقه آسر في طرب، وهتف بها:
– ’يا بت يا برميل!‘
– ’يا فرقع لوز يا شاليمو!‘
– ’بخ—!‘
– ’هاو هاو!‘
مفرقعاً بإصبعيه وهو يميل ناحيتها:
– ’أوع—الهوا يصطك يا سوزي!‘
– ’أنا برضه ؟! إقفلوا له الباب يا جماعة لاحسن دا خيال مآتة متسمر بمسمار واحد مصدي!‘
– ’مسمار في... نافوخك!‘
(هنا تنفس الشبان الصعداء بعد أن كادوا يجزمون بأن زميلهم ’المشتوت‘ سيصنع لهم فضيحة).
فقهقهت سوزي وقالت:
– ’طب أنا جسمي تخين وما بيدخلش فيه المسامير ؟‘
– ’نجيب لك شنيور!‘
– ’ولا يمكن تنطحني بالقرنين بتوعك !‘
كانت توعز لصورة قديمة أراها آسر للفتيات عن أيام مراهقته كان إبانها يطلق شعر ذؤابته على الجانبين ويرنو للعدسة بعينين حالمتين كالمدوخ. ومن العسي بالذكر أنه دسها بعدها عن كل زملائه الذكور من بعدما أخذوا يستهزئون به وبالصورة، داعينه بكلمة نابية «أولها خاء». فرد آسر وهو يمسح على فروة رأسه «الفيرزتشية» الآن:
– ’مسكينة يا بنتي، ما تعرفيش القرنين دولا كانوا عاملين إيه أيامها، كانوا عاملين أحلى شغل والله.‘
– ’ما هو باين... أمال... كنت شغال بيهم «دوك - تور» قد الدنيا في ساقية !‘
– ’وانا مش عاوز أقول لك تنفعي ايه إنتي وانتي عارفة...‘
فصفقت بكفيها قائلة:
– ’على إيه ؟ ما انت قلت خلاص.‘

كانت لحظات النكاف هذه معتادة بين آسر وزميلته السمينة سوزي، وكان من المفهوم ضمنياً أن ثمة «إعجاب مستتر» بينهما... إعجاب من الطراز الكامل جداً لدرجة أنه يستحيل أن يصل بأيٍ من طرفيه إلى أي تفكير في الارتباط، وإلا لقامت الساعة وانطبقت السماء على الأرض، فكانا ينفسان عن إعجابهما هذا — وعن عجزهما عن إتيان «ثمر» لهذا الإعجاب — بتبادل الشتائم والألقاب. إلا أنه هنا بتر لحظات نكافهما المرح المعتاد ولوج رجل بابنته للفحص، وتقدم نحو سوزي.

وكان منظر سوزي وهي تكشف مثيراً للريبة بالفعل، ففوق أن خبرتها بالفحص العملي والعلاج الموجود في السوق كانت قليلة ومحدودة جداً، فإن منظرها وهي ترنو للطفل المريض بشدقين مفتوحين وعينين محملقتين (كأنها فعلاً ستأكله)، ثم وهي تكشف عليه بسماعة الأطفال الصغيرة جداً الخاصة بها في كل موضع (حتى فوق حلقه)، ثم وهي تتشاور مع ماريان ورانيا في تشخيصه — وإذا حرن لجأن إلى رامي — أمام الأب أو الأم وكأن الناس مغيبو العقل مغفلون، كل ذلك كان مثيراً للتوجس والقلق جداً. أما رامي فكان يجري الكشف على الطفل في تعالٍ وغطرسة وكأنه «مجدي يعقوب» الصغير الذي لم يميزه أحد هنا بعد، أو كأنه مصاب بحساسية من أولئك الناس المقرفين الغريبي المنظر الذين يراهم لأول مرة في حياته، وأحياناً كان يعطس ليؤكد ذلك. هذا في الوقت الذي جلس فيه مارك وآسر ومحمد وإيمان بلا نشاط تقريباً سوى الفرجة، والأول ما ينفك يرمي بنظره إلى الأخيرة من حين لآخر.

وكان مارك قد نوى (بعد صلوات عديدة) أن يصارحها أخيراً بحبه قبل نهاية هذا اليوم. عضده على هذا القرار المصيري إيمانه الذي لا يدحض بأن الله «سيشفق» عليه، وأنه لن يسمح لحبه بالضياع من بين يديه أبداً... فكيف يفعل الله هذا وهو يعلم أن مشاعره نحوها قد انطلقت من مهدها عفية قوية بدون أن تكون له أي يد فيها؟... كان ذلك في أول الامتياز، يوم اجتماع الدكتور طارق النائب المسئول عنهم، لما خرجوا جميعاً كنصارى للبحث في شأن المجموعات الفرعية التي وزعوا عليها. لقد حداهم الموقف أن يتناقشوا على عجل حتى انتهوا في دقائق إلى الانضمام تحت لواء مجموعة واحدة، ثم الإكمال بمحمد فضل ليتم العدد ٨. هذه كانت

التقاليد ويجب أن يحترموها، وكذا فعل المسلمون فترابطوا سراعاً بحيث لا يحدث الاختلاط، على هذا كانت ثمة «وثبات» بين المسلمين والمسيحيين، وكانت «الدوائر» تتماس، وبعدها يرجع كل شيء لأصله. بعدما خرجوا وقفوا معاً جميعاً، فقدم كل واحد نفسه. كان آسر — للغرابة — لا يعرف بعد أياً من الفتيات، أما رامي فكان يعرفهن كلهن عدا إيمان، وأما إيمان فقد جاءت عنده فقالت وهي تضحك: 'لا ده أنا عارفاه كويس، ده الـ«genius» بتاعنا' وكانت ترنو إليه بعينين مسبلتين أغرقهما الإعجاب!... ولم يكن قد قابلها أو كلمها قبلاً، أو على أضعف الإيمان اقترب منها، لكن سمعتها الفاضحة بلغته، فحاول التزام العقل والحصافة وجاهد في إقناع نفسه بأن ما قالته كان إما مجاملة عادية، أو شركاً لكي تلعب به هو الآخر، ولكن أي عقل وأي حصافة خليقان باحتجاز كل تلك المشاعر الصارخة المكظومة التي كانت تنتظر من يطلقها؟... وزادت إيمان من اقترابها منه، فكانت تتمشى معه بكثرة من دون باقي الزملاء، وتدردش معه، وتحكي له عن والدها ووالدتها (باحترام، وهذا ما أربكه أولاً بشأن ما سمعه عنها)، وعن هوايتها الوحيدة الباقية وهي قراءة الروايات الإنجليزية القديمة لديكنز وجين أوستن وجيمس جويس (تشتريها من دار المعارف أو ترسل في طلبها من القاهرة)، وكانت إن رأته من بعيد تأتي له خصيصاً وتأخذ في الكلام معه بشوق، مما جعل الناس يغمزون له وهو واقف معها، وكان هو يشعر بزهو وانبساط شديدين. وكانت لا تخجل من ملامسته إن رغبت أن تشبك ذراعها بذراعه وهما سائران، كأنه خطيبها، ولكثرما اختلت به فقصت على مسامعه أموراً لا يصدقها عقل، مشاكل نسائية تواجهها، لاسيما بعد أن سمعت أنه متدين أيضاً فوق أنه متفوق. لقد انتقته من بين الناس جميعاً ليغدو «صديقها» أو «خليلها» إذن كما يحلو له أن يردد لنفسه، بل لقد عافت القناوية أخيراً فلم تعد تزاملهم أو تسمح لهم بمرافقتها، فكانت المسئولة الأولى والأخيرة عن مشاعره المتطورة تجاهها، وكان أيضاً إله السموات بدوره هو الموفق الأول بينهما بشكل مؤكد.

بيد أن الاحتمالات المتعددة لما يمكن أن يؤول إليه اعترافه هذا قد أرهقت تفكيره، وأصابت شرخاً في هيكل إيمانه المتواضع، ليس إيمانه

بالله، ولكن بالعلاقة التي امتدت بينهما. سيخبرها عن ظروفه بالتفصيل، فسيقول لها أن لديه شقة والديه في علي مكارم لا ينقصها إلا بعض الطلاء وبعض السيراميك وهي حالياً مؤجرة لبعض الطلبة الذين سيخرجون بنهاية العام، وهو ليس بمتعجل، وسيبسط لها أموره المالية كافة، وكيف أنه يرتقب نيابة لكنه سيعتمد بشكل كبير على إرثه في البنك ما يقدر بـ٣١,٠٠٠ جنيه، كما أنه معفى بشكل طبيعي من الجيش، وسيقول لها وهو يضحك أن رب ضارة نافعة، وأنه ربما بسبب مهقه سيتمكن من الزواج بها، و 'ماعلهش نصيبك وقع في واحد "أبرص" يا إيمان'، و 'إيه رأيك بقى؟ أديني عملت فيها راجل وجيت أتقدم رسمي كمان، هل ممكن تحجزي لي ميعاد مع بابا؟'، و 'كان نفسي أعملها لك مفاجأة وأزوركم في البيت من غير ما أقول لك، لكن خفت منك قلت دي مجنونة ويمكن ترفضني عِند. ودلوقتي إيه ردك يا ستي بقى؟'. سيفعل كل هذا، ولكن، ترى ماذا يكون رد الفعل؟... هل توافق في سعادة تليق بالمجهود البالغ الذي بذله في التخطيط؟، أم تصمت وتزلزل كيانه ثم تقول أنها ستوافق أخيراً وتبتسم ابتسامة بسيطة؟ هل ستقول أنها ستفكر ملياً في الأمر؟ هل تقطب وهي تقول له أن الأوان لم يحن بعد؟... هل ترفضه؟!... هل يعقل أن تستهزئ به وتفرج الناس عليه وهي تهتف وتقول: 'إلحقوا يا جماعة، مارك عاوز قال يتقدم لي!' وهي تستكثر عليه مجرد التفكير في الموضوع؟! (مجنونة ويتوقع منها أي شيء!) هل تأخذه إلى جانب وتخبره بلطف أنهما صديقان فحسب ولا تعود العلاقة بينهما إلى ما كانت؟ هل تحيره بكلام غامض مثل: إني موافقة وغير موافقة وإلى آخر هذا الهراء؟ هل تقول له مثلاً: 'دور ع الإجابة لوحدك'؟ هل تنظر له في العينين ثم تطرق وهي تقول: 'يا مارك أنا لي ماضي' مثل الأفلام؟!... رباه، شأن عظيم الحيرة بالفعل، يفترض أن إجابته الوشيكة بعد ساعات!

وانتظر مارك حتى جاءت الفرصة المناسبة حينما عاد النواب من الاجتماع. وفي وسط الضجيج والهرج الذي عم بدخول الدكتورة رانيا ملاك (ابنة الدكتور ملاك فايق الجراح الشهير بأسيوط) العيادة، دنا منها بخفة فطلب منها بلباقة أن تنتظره بعد انتهاء العيادة لأن أمراً هاماً يريد أن

يحادثها بشأنه. فهزت البنية رأسها في بساطة بمعنى 'حاضر'، فعاد لمكانه – إلى يمين المكتب – شاعراً بالزهو والراحة.

وبدأت الدكتورة رانيا في تلقي الحالات تباعاً والكل من حولها. كانت إنسانة قصيرة القامة، مكتنزة، فاتحة البشرة، ما تزال بغير خطوبة ولا زواج حتى الآن، شعرها أسود ناعم تربطه من الخلف على شكل كعكة، وأسنانها بيضاء كبيرة ومنها اثنتان تركب إحداهما على الأخرى. وبدت مهمومة لسببٍ بعد الاجتماع. وكانت تكبرهم بعام واحد (مما يعني أنها نائبة صغيرة «جونيور»)، وكانوا يعتزون بها لأنها من دينهم واستطاعت أن تصل لهذا المنصب بمجهودها. على أنها دوماً كانت «بعيدة» عنهم. ويوماً فتحوا معها أمر الاضطهاد فاستغربت جداً وصمتت. ولم تكن تحب الكلام في الدين، كما أنها كانت تثقل على كل الامتياز الذين تحتها في النوبتجيات فترسلهم بـ'ريكويستات'[٣] كثيرة وبعيدة ولا تسمح لهم بالانصراف مبكراً، لذلك فلم تصب من قلوبهم الحب بقدر الاعتزاز الرمزي.

استهلت بحالة نزلة معوية حادة فحولتها إلى عيادة الجهاز الهضمي في الحجرة المجاورة، ثم شرحت لهم على حالة التهاب بالشعب الهوائية كيف يميز بينها وبين التهاب الرئة، وأكدت:

– 'لازم نعد الـrespiratory rate[4] كويس يا جماعة.'

وبعدها فحصت لوزتي طفل مشاكس بصعوبة وهي تطلب منهم أن يذكروها بإملائهم روشتة التهاب اللوزتين مع روشتات أخرى بعد الانتهاء من الحالات، ثم أتى التهاب بالأذن الوسطى، ففطريات في الفم، ثم التهاب بالرئة لطفل رضيع لم يتعد شهريه الأولين، وبعدها جاءت حالة محولة من مستشفى طهطا على أنها التهاب بالمخ، فاستضحكت النائبة الجونيور وهي تخاطب الامتياز بصوت خفيض قائلة:

– 'لا أنا لسه صغيرة هنا، encephalitis[5] مين ؟'

---

[٣] Requests: وهي الحالات التي تحجز في قسم ما ثم يكتشف أنها مصابة بمرض آخر فترسل من بين كل حين والآخر لقسم آخر لتفحص، عادة بواسطة طبيب امتياز أو ممرضة وعامل.

[4] معدل التنفس.

ثـم قامـت لتوصـل الأب – الـذي حمـل ابنتـه المريضـة فـوق كاهلـه كشوال الدقيق – إلى الدكتور إدريس بعيادة أمراض الدم. أخذت آسر معها لأنها كمتدربـة جديدة لـم تكـن تعلـم أيـن تقـع عيادة أمراض الـدم. وحينما عادا، كانت سوزي قد تكفلت بالتهام بقية الحالات.

وجلست الدكتورة رانيا إلى المكتب والكل من حولها. بدأت تمليهم بعـض الروشـتات الجاهزة مـن أجنـدة حمـراء مهترئـة: ابتـدأت بوصفة مثاليـة لعلاج التهاب اللوزتين بنوعيه، ثم بطرق السوق في علاج النزلة المعوية والاسهال فالأساليب العلمية المفروض استخدامها، ثم شرحت جزءاً من النوبات الصرعية وبالأخص النوبات الصرعية الناتجة عن الحمى (febrile convulsions)، وبعـد ذلـك جعلـت تمليهم بعـض الجرعـات. كلهـم كـان يكتـب فـي اهتمـام، حتـى آسـر الـذي لـم يبـد عليـه أنـه اهـتم يومـاً واحـداً بالطب، لكننا إن نظرنا إلى كشكول مارك سعد في خلال هذه الجلسة، فلـن نجـده قـد سـطر سـوى أربـع كلمـات بالإنجليزيـة فـي طيـات شـروده: 'HELP ME MY LORD'...

وفضت الجلسة وانتهى وقت الحضور. فسارع مارك بالخروج خارجاً، وانتظر بقلـق وشـغف. رأى النائبـة تخـرج أولاً ورامي في عقبهـا يثقـل عليهـا بالعديد من الأسئلة. ثم خرج محمد وهو ينظر لأسفل، فاختفى في ثوانٍ بين الممرات. أما آسر فقد طفق يداعب الفتيات بالداخل ويمازحهن، حتى ارتفعت قهقهات سوزي وعلا لغطها الطريف. ولم ينقض كثيرٌ من الوقت حتى لُفظ آسر بدوره، يهتز على قائمتيه، ويرسل رأسه يميناً ويساراً، وهو ينظر نحوه ويدندن، فأحال بينه وبين الفتيات. عطف مارك رأسه بسرعة يستبين، إذا بالأربع فتيات منصرفات ضاحكات لا يلوين على شيء: في المقدمة سوزي ورانيا، تتبعهما إيمان وماريان. لم تنتبه له إيمان بالمرة، لم تلـق حتـى نظـرة واحـدة إليـه، لـم تتـذكره... وتابعهـا بعينيـه القـرنفليتين المتألمتين تبتعد، ثم تتلاشى في عالمها الخاص، الغريب عنه.

والتقط آسر ذراعه فاشتبك فيها قبل أن يخرجا سوياً من مستشفى الأطفال.

---

[5] التهاب بالمخ.

٢. المهووس

يقول آسر عطالله (بألف واحدة) عن نفسه دائماً أنه 'شاب زي الورد'. والحقيقة أن مع ظهور كلمات وتعبيرات في زماننا هذا تخالف معانيها الأصلية – «سكر» بمعنى 'غلث'، و«فظيع» و«بشع» بمعنى عظيم ورائع– فإن أحداً، سواءً من جانب الجد أو السخرية، لم يعارض آسر. وكان هذا الشاب الطويل النحيل الشاحب، الذي يثبت شعره بالجيل دائماً ويلبس عوينات «frameless»، قد ولد في القاهرة وأهله قاهريين، يجلو هذا في لهجته الحقة التي لم يستطع أحد من زملائه الصعايدة تقليدها بالكامل، إلا أنه عاش طفولته وصباه كلهما في الفيوم، لأن عمل والده في تجارة البط كان يستدعي ذلك. ومنذ الصغر اشتهر بخفة الدم والفكاهة الماجنة حتى عدت له موهبة. من نوادره يحكى أنه يوم جنازة جدته، وهو بعد طفل، جلس مع بعض المعزيين فإذا بكلمتين منه يكرههم على الضحك رغماً عنهم في وسط الجنازة، مما حمل والدته على أن ترسله لشقة خالته فيحبس فيها حتى نهاية الواجب. حتى زملاء والده في مزرعة البط، والعمال، كانوا يرتقبون زياراته بشوق، فإذا شخص وافداً من بعيد، صاح أحدهم بالشطر الأول من اللازمة التي انتقاها لهم وداوم على ترديدها في كل زيارة: 'تعالي لي يا بطة'، فيرد هو: 'وانا ما لي هوه'. ومن الجدير بالذكر أنه لم يكن يسأم لازماته –وإن استمرت سنوات – أبداً... وكان حبه للنكت واللازمات لا يضاهيه حب، حتى جاء ميل آخر لازمه في المراهقة ولم ينفك عنه قط بعدها، وهو الطرب والأغاني...

ويقال أن أول من استمع إليه كان محمد منير، أحبه وبجله وبجل فنه، ثم أعقبه بفؤاد، فعمرو دياب وراغب علامة، ولم يقصر نفسه على هؤلاء، فسرعان ما استمع للخليجي، وراقه بوجه خاص، فكان يرقص مع راشد الماجد، ويغني بحرقة مع محمد عبده، وبالنسبة لأصالة فكانت تفعمه أغانيها قوة، وحينما قدم كاظم قدَّم له القرابين، أما عن فيروز وماجدة الرومي فحدث ولا حرج. ولما كبر قليلاً نازعته نفسه إلى عبد الحليم. ولقد توغل في بحر الطرب حتى بات فيه خبيراً يسأل الشورى ويفتي بعلم، فإن رام «أحد الشباب» أن يعمل «كوكتيل»، كتب له الائحة الممتازة،

وإن صدر أي شريط جديد تلفيه قد بادر إلى اقتنائه قبل كل الناس حتى يقيمه تقييماً صحيحاً يسترشد به الباقون. وكان يستطيع أن يميز الأصوات المتقاربة والكلمات المغشوشة، ويعرف أسماء كل الملحنين، من الموجي إلى عمرو مصطفى، وكل المغنيين، وكل الشعراء الغنائيين، بل أنه بلغ درجة صار يهفو فيها إلى اسم جديد ينعش مياه بحر علمه الغزيرة. ولقد وبخ مراراً بسبب 'جنانه' هذا في الأغاني الذي اقترب من الهوس، كما أن علاقته بالترانيم الكنسية لم تكن — من ناحية أخرى — على ربع هذا المستوى، لكنه كان شديد التعصب لهوايته الأثيرة تلك، ولا يألو جهداً في الذود عنها، بالحجج والبراهين إن أمكن. مرة أنبه أحد الخدام الكنسيين بصدد سماعه للأغاني، فإذا به يتحداه قائلاً: 'إن قدرت تجيب لي آية واحدة من الإنجيل تقول إن الأغاني حرام، أبطلها فوراً'. فقال له الخادم: ﴿إن كانت تسلية ما ففي المسيح﴾، فقال له: 'دي مش آية واضحة تمنع الإنسان من هواية رقيقة ما نلاقيش فيها أي عيب أو أي «فسق». يمكن معناها إن احنا ما نسبش المسيح عشان تسليات مؤقتة، أو إننا ما ننساش دينّا مهما انشغلنا في العالم، إنما مش معناها أبداً إن احنا نبطل تسالي: الحياة من غير تسالي تساوي الموت'.

وتمر الأيام، والفتى — الذي صار شاباً الآن — ينسج على نفس منواله، فيدهشك بلسانه الذي يشبه ماكينة الكاسيت لا يكف عن الدندنة والترديد، وهو حين يدندن يجعل في هز رأسه هزات متتابعة متناغمة، وحتى حين يكون مجهداً يغني، وعند الأكل يغني، وإن قابل شخصاً جديداً يغني له. ولقد مازج بين هوايتيه الأثيرتين فغدا يقتطع لازماته من أغانيه، أو في بعض الأحيان تكون أغانيه هي لازماته، لذلك فليس نادراً أن يخرج دفعة واحدة بنكتة مسجعة موزونة لا يعرف أحد مصدرها.

لعل هذا ما آزره أن «يندمج» في الدنيا وهو في سن مبكرة، فوجدت الألفاظ النابية إلى لسانه درباً معبداً فسيحاً، وامتدت صداقاته وعلاقاته من سائق الميكروباص إلى الغني غناءً فاحشاً، ولقد وجد نفسه على الأخص بين الفتية الأغنياء الفاسدين المبذرين، وكان يلم عليهم والعلم عند الله بأية طريقة، ولم يكن يفرق بين مسيحي ومسلم، وكون فكرة عن الوسط الذي اختاره على أنه «أشرف» الأوساط بين بني البشر، ففيه تجد اللص

يعترف ويقول: ’أنا لص‘، و’الكويس‘ يقول: ’أنا كويس‘، و’بتاع العيال‘ يقول: ’أنا بتاع عيال‘، والمؤدب مؤدب، والوسخ وسخ، والوفي وفي، والخائن خائن، لذلك فإن المستوى الذي بلغه آسر قد راقه وأراحه، وكان وفياً لأصحابه وأصحابه أوفياء له، وإن مارس معهم الرذائل شتى لكنه بقي نظيفاً من ناحية الجنس، وكان يخرج كل عام بتقدير «جيد»، وقد كان هذا يرضيه.

يبقى فقط أن نقول عن آسر أنه برغم اختلاطه بأشذ طبقات المجتمع وبأكثرها رقياً، إلا أنه لم يتمرغ بجد في مشكلات من شأنها أن تجعله يعتق في دروب الحياة العملية، أو لعله فعل، لكنه لم يفد منها بمخزون يصلح ليوم اختبار قادم. وربما هذا هو سبب فكاهته وروحه المنعشة الدائمين، فقد كان آسر يري الدنيا، ويصرح، أنها مكان بديع للغاية...

أما عن تلك الشقة التي يرقبها آسر الآن من شباك غرفته بالدور الرابع من مبنى «أ» باستراحة الأطباء بنايلة خاتون، بعينين متوثبتين كالنمر، فقد وقع عليها منذ أول يوم فض فيه حرمة الغرفة (التي يعتبرها كل نزيل بكراً خالصاً له). كانت في العمارة المقابلة للسكن، وشرفتها الكبرى تمتد بامتداد الشقة كلها، لكن يفصلها حاجز هش عن بلكونة أصغر خاصة بإحدى الغرف. وحينما رأى آسر في ذلك اليوم فتاة «بشعرها»، ذات سمرة وذقن بارز تقف في الشرفة الكبيرة، ثم ارتدت بسرعة للداخل إذ ألفته يرمقها بجرأة خيالية، حينها أدرك آسر أنه قد وقع على كنز مكنون، خليق بالتجربة والمحاولة وعسي بترطيب هذا الصيف الطويل المجتاح خلال عام كامل، وفوق جميعه قادر على إشباع غروره الرجولي إن نجح. لكن رويداً رويداً يا أبو الشباب، لئلا تفسد الطبخة فتعيش باقي السنة حزيناً متحسراً...

إلا أنه ما لبث أن قلق. فقد اكتشف لاحقاً أن بنات هذه الشقة مسلمات محجبات كلهن، وهو لم يواعد محجبات من قبل، وكل من خرج معهن كن إما مسيحيات أو مسلمات متحررات وخاصة من بحري، فترى ماذا يكون رد الفعل هذه المرة؟ ومن ناحية أخرى فسكن الفتيات قبالة سكن الأطباء مباشرة: أي أن آلاف الأعين يمكن أن ترصده، لاسيما في منطقة مثل نايلة خاتون موبوءة بالتزمت والإرهاب، ألا يكفيه فحسب ما حدث له ولرامي سعيد وجورج نظمي في الأسبوع الماضي لما تاهوا في

المنطقة بحثاً عن طريق للمطرانية ولم يقبل مخلوق أن يسعفهم أو يدلهم، وكان كلٌ يكشر في وجوههم ما أن يسمع لفظ 'المطرانية' كأن عفريتاً ركبه؟!... ولو وصل الأمر للإخوان المنظمين معه في السكن لقطعّوه إرباً إرباً! على أن قلقه لم يعش طويلاً، لأن شهوته العارمة ما مكثت أن سيطرت على إدراكه.

وكان قد رجع من المستشفى قبل نصف ساعة، فتغدى بالمطعم في الدور الأرضي من مبنى «ب»، ثم حمل عشاءه معه للأعلى، فلجأ للشباك في ملل إذ لم يجد في نفسه نزوعاً إلى استبدال ملابسه. لم يكن هدف محدد يشغله، لكنه ارتفق الشباك وأخذ يرخي في ساق ويشد في الأخرى في تناوب كأنه يتراقص. وثبت نظره على الشقة فكانت البلكونة الكبيرة مفتوحة على مصراعيها، وبالإمكان تبين هيكل الصالة القائم على عرض، حيث تبدى تليفزيون توشيبا ضخم قديم يعرض فيلماً لنور الشريف من أفلام السبعينيات من خلف الأنتريه الأنيق الذي غلب عليه اللون البني، وكانت الفتيات يجئن ويرحن فيما وضح أنه إما إعداد للمائدة (في الغرفة الداخلية التي لا يظهر بابها) أو تنظيف لها، كلهن بملابس الخروج مما أوحى بأنهن جئن من الجامعة بدورهن قبل وقت قصير. وكانت بعض الوجوه الجديدة من غير أعضاء الشقة، فهو قد حفظ وجوههن باحتراف في خلال الفترة القصيرة التي راقبهن فيها: فهنالك السمراء ذات الذقن البارز التي رآها أولاً، فاثنتان بيضاوان إحداهما بحسنة في خدها الأيسر، فواحدة قمحاوية سمينة، ثم أخيرة وجهها مثلث بارز الصدغين لها عينان ساجيتان ساحرتان. ولقد مال للأخيرة لسبب خفي وإن لم تكن أجملهن، عرف بدراسته أنها تشارك البيضاء ذات الحسنة الغرفة الخارجية ذات البلكونة المنفصلة، وكان يمر على تلك البلكونة قبل كل شيء ما أن يطل من الشباك، لكنه لم يقصر نظراته عليها وحدها، فحتى السمينة كان يترقب بلهفة أن تعطي له عجيزتها كي يغوص فيها بعينيه.

على أية حال فيبدو أنه قد شرد طويلاً دون أن يشعر، فها هي فتاته المحببة قد برزت تواً من باب العمارة بشنطتها الصغيرة المثيرة تحت إبطها تتأود كأنثى الأيل، وعم رضا بواب العمارة (وهو كهل شبه معتوه، كل ما

يفعله طول النهار هو بيع السجائر على ترابيزة مقاهٍ نحاسية قديمة واستلام المكواة لميشيل جورج) يمسحها بنظرة ليست بريئة أبداً هو الآخر.

في ثوانٍ كان قد التقط محموله وهبط، ثم انبجس كالطلقة من باب الاستراحة. لكنه لم شتات نفسه وهو يمشي في إثرها لئلا يلاحظ. رآها تنعطف في اتجاه شارع المكتبات، فتبعها، بيد أنه حين وصل هناك، لم يعثر لها على أثر. قدر أنها أخذت تاكسياً نحو وجهتها، فرجع محزوناً خائب المسعى.

٣. الأصلع والبخيت

قبل أيام من بداية سنة التدريب، قامت سيارة عم جمعة البيجو الأجرة البيضاء برحلتها اليومية من الأقصر إلى أسيوط. كانت تحمل مسافرين خصوصيين في تلك السفرية بالحجز مسبقاً، فقلت كلاً منهما من أمام منزله: الأول في شرق السكة، والثاني بحي السواقي. وقد بادر الشاب الأول بالجلوس في المقعد الأمامي لصق الشباك كالأصفال الصغار، فصارع وجهه الأحمر الهواء البارد طول السكة، وجعل يتشوف للغيطان المتقطعة التي دكنت خضرتها تحت الظلمة الراحلة، وللفلاحات السائقات جواميسهن على مبتدأ البكرة، وللهضاب الحجرية المترائية آخر حد النظر، حتى لعواميد الكهرباء، في اغتباط بالغ كأنه يسافر لأول مرة في ذلك الطريق الذي اعتاده وألف كل منهما الآخر على طول ست سنين، أما الثاني، خلفه تماماً، فسقط في غفوة إجبارية من أثر السفر المبكر فارتجاجات السيارة المستمرة طوال ساعات. وكانت السيارة قد تحركت من الأقصر قبل الخامسة بقليل، فما أن بلغت سوهاج في الثامنة، حتى توقفت وسائقها الكهل الأعجف يعلن عن نيته في احتساء كوب من الشاي، ثم ويعزم على ركابه في أي مشروب يروق لهم إن أتيح (من غرزة صغيرة للسائقين في طريق الموقف).

وترجل مينا موريس ليمرن أطرافه ويتنسم الهواء، ففوجئ بزميله ما فتئ ناعساً بالخلف، فتناول عوداً من الأرض وراح يداعب أذن زميله في شغف، حتى هب زميله من نومه مذعوراً وهو ينفض أذنه ويفتح ويغمض في عينين محمرتين من خلف عويناته البيضاوية المغبشة. في الحقيقة لشتان بينهما، فقد كان مينا –الواقف بالخارج– شاباً مكتنزاً إلى درجة خفيفة مستحبة، أحمر الوجه والجسم (وقد ورث بشرته عن عائلة لها باع طويل في الحسن وحسن انتقاء الأزواج)، بني الشعر عسلي العينين، ذا شعر خشن أكرت غير أنه حلقه حلقة جيدة باستمرار على طراز «كاريه»، ثم أنه كان أنيقاً من الأناقة في غاية، يلبس ذلك الصباح بنطلوناً كاكاوياً سابغاً («فانكي»)، وتيشيرت أسود انبسطت على صدره صورةٌ بيضاء كبيرة لأرنب، ويطوق رسغه بساعة فضية لامعة أصلية من ماركة «Citizen»،

ذات عقارب فضية وقد أحضرها له خاله من هولندا إذ كان نصف عائلته من طرف أمه هناك. أما هاني – الذي كان ناعساً وأيقظ – فلم يكن سوى شخصٍ نحيلٍ ضعيف البشرة، تبدد الشعر عن معظم رأسه قبل عام واحد فصارت له صلعة واضحة براقة لا يدحضها شيء (وإن تبقى بعض الشعر الواهن الخفيف كالعشب الضال وسط صحراء قافرة بنى عليه الفتى آماله فغدا يحافظ عليه بالقطرات الطبية – مثل قطرة «Diprosalic» – والزيوت النفاذة ويمشطه بعناية كل يوم)، يلبس نظارات تلوح دائماً مغبرة بشمبر قديم مقشر، ترتكز على أنف معقوف ضخم ينتشر النمش على جانبيه كفتات الخبز حول منضدة منبعجة، وأما وجهه فمستطيل ضعيف ممصوص، يوحي بالفقر والطيبة ويجتلب العطف واللين مع كم غير قليل من السخرية، وأما ملابسه فخليط لا يتغير من القمصان الكاروهات المقبضة والبنطلونات التفصيل (من الجبردين أو الصوف السميك – في الشتاء – أو السيلكا) والبلوفرات الرخيصة الخفيفة الممطوطة التي يلبسها في أحايين عدة فوق بعضها البعض فكأنه متدرع للقتال، كل ذلك بأسلوب من زهد في العالم أو من شذ فيه أو من رغب عنه أو من جهله، وكان دائماً يضع قدميه الطويلتين جداً في جزمة سوداء لامعة، قلما يدفع فيها أكثر من خمسين جنيهاً... ولعل هذا لم يكن مرجعه فقراً شديداً أو بخلاً، بل إنه كان يعد من المسرفين في أمور أخرى، لكن الشاب عاش أغلب حياته آملاً أن يكون حكيماً في 'اقتصاد ما ينبغي اقتصاده'، ولم يكن موضوع الهيئة والمظهر في الحقيقة مما يشغله كثيراً.

وهوى مينا في نوبة من الضحك – المسموع – إثر استيقاظ (أو إيقاظ) صاحبه فطفق يضرب كفاً بكف في تعجب. وحينما سأله صاحبه بنبرة فاترة عما حداه أن يضحك، سار في الضحك غير مثنٍ على شيء حتى دمعت عيناه. إلى أن توقف من نفسه بعد فترة مصرحاً في سعادة وهو يسترد أنفاسه: 'والله انت واد زي العسل يا هاني!'، ثم ضحك مرة أخرى ومسح عينيه من فرط «السعادة». ثم سأله أن ينزل ليصاحبه إلى دورة مياه قريبة قد تعود أن يقضي حاجته فيها في أغلب السفريات، فقال هاني محجماً أنه لا يشعر بحاجةٍ للذهاب لدورة المياه، لكن مينا فتح الباب، ثم جره، فلم يعد القرار قراره. وقد اختفيا قرابة عشر دقائق انشغل فيهن باقي

الركاب بتجاذب أوتار الحديث وقراءة جرائد البارحة (المتحدثة عن الإفراج عن أول مجموعة من معتقلي «الجهاد»، أو إلغاء حظر بيع الدواجن الحية —بسبب إنفلونزا الطيور —أو القاصة حكاية طبيب الامتياز الذي جمع ١,٥ مليوناً من ٦ ضحايا)، وفي أثناء قفولهما شخص مينا يدندن بصوت مسموع: 'طلعت ياما احلى نورها . . . .' وهو يحتسي من كوب صغير للشاي...

وتحركت السيارة مرة أخرى فقطعت باقي الطريق لأسيوط في ساعة وثلث بالضبط، ولجت أسيوط من ناحية موقف الأربعين، حيث تجمعت عشرات السيارات والميكروباصات في أرض منخفضة كأنها قطع مكعبات ملونة تركها طفل في حفرة، وبعد أن أنزل عم جمعة (السائق) الركاب وشيلهم في بقعة ترابية في أول الموقف، تريث مينا موريس قليلاً قبل أن يسأله أن يوصلهم إلى وجهتهم. لكن السائق أبى وقطع، وقال أن سيارات الأجرة ما عادت تستطيع دخول المدينة. غير أن بسبب لجاجة مينا موريس (والذي تعود علاقته بالسائق إلى معرفة عائلية موغلة في القدم)، فقد تمكن السائق بصعوبة أن يقف معهما على حل وسط، وهو أن يحضر لهما بنفسه تاكسياً من التاكسيات العديدة المتناثرة أمام الموقف، وأن يوصيه عليهما. فأذعن مينا أخيراً على مضض، وهو يفضي لصاحبه من خلف الشيل: 'والله كان بيوصلنا زمان!'، وكان ممتعضاً من السائق.

وأتى تاكسي أسود فرصت فوقه الأحمال بعسر. كانت لدى مينا شنطتان هائلتان وكرتونة، وهاني كرتونتان وشنطة ملابس قماشية قديمة من ذلك النوع الذي لم يعد يستخدم بعد. وأخذهما السائق من سكة خلفية للموقف، كانت غير مرصوفة وغير معبدة، فتضعضعا من خبطات السيارة فوق الأرض مما زاد من امتعاض مينا موريس. وأخيراً توقف التاكسي أمام الباب الأخضر، الغاطس المنغرس في الأرض، لاستراحة الأطباء بحي نايلة خاتون بأسيوط، توقف على مبعدة خطوات فقط من الطوار الملاصق للمبنى، حيثما جلس على كرسي خشبي عامل أكرش بعمامة بيضاء ويونيفورم أزرق ذابل (من أثر الغسيل) يحتسي الشاي ويتطلع إلى الوافدين بنظرة هدأ فيها الفضول وتبقى حب الاستطلاع المجرد. ثم ترجل من الباب الأمامي، المقابل لباب السائق، فمن الذي

يليه بالترتيب، مينا موريس، ثم هاني طلعت، وسرعان ما بدءا يرفعان متاعهما المتراكم فوق ظهر السيارة العجوز كالجبل. وترك العامل كوب الشاي على أرض الرصيف ثم ابتدأ يعاون القادمين الجديدين في شيل الشنط والكراتين الموثقة بالحبال، وأخذ مينا موريس يجادل السائق من الجهة الأخرى من السيارة — بعيداً عن زميله والعامل اللذين توليا الآن شأن استنزاع الشيل — حول الحساب. وكان السائق يتشكى أنه شال شيلاً بمقدار اثنين طن، غير أن مينا كان صلداً، هادئاً، ملاهياً، فأرقد ساعده المفرود على منكب السائق متملياً مجادلته والفصال معه، حتى انتهيا أخيراً إلى جنيهين والسائق يضحك. ثم غادر التاكسي آخراً بعد تمام إفراغ الحمولة فخطا مينا بخطى وئيدة نحو الداخل، حيث غطس زميله والعامل موضع الباب الغاطس في الأرضية المبلطة، كأن ابتلعهما السكن.

كانت استراحة الأطباء عبارة عن عمارتين ملتصقتين لكن ليس ثمة ما يوصل بينهما سوى ممر مفتوح في الدور الأرضي، يؤدي إلى المطعم الواقع في قاع أول عمارة (والمدعوة مبنى «ب»)، لها بابان منفصلان لكن الأول دائماً مغلوق (كتسهيل في الدواعي الأمنية)، بينما الثاني نصف مفتوح أو موارب كأنه يخشى من هجوم قد تقوم به جهات غامضة. وقد كسا الأخضر الليموني السطح جميعه من الخارج، تباين بشكل ممل مع العمارات المجاورة والمقابلة الخلو أديمها من أي طلاء غالباً، كما جعل — الطلاء — الجلد الخارجي للاستراحة يبدو ناعماً خواءً في الوقت الذي انشغلت فيه واجهات العمارات الأخرى إما بالنقر أو البثور التي تصنعها أحجار البناء المتآكلة، أو بحبال الغسيل والهدوم المنشرة، ثم بالسكان ذوي الوجوه الأليفة. (تلك لعنة كل بناء حديث). وقد وقعت الاستراحة في مستهل حي نايلة خاتون أو بعد المقدمة بقليل، فوق ناصية احتلها دكان بقالة، وكانت ثمَّ بالقرب طابونة، ومكوجي، ومحل بقال أكثر تطوراً نسبياً، ومخبز آلي يبيع العيش الفينو والفطائر، كما كان هناك مطعم أو اثنين للأكلات الشعبية، وصيدلية صاحبها سني ملتحي. وقد وافق اليوم — الأول من مارس — بداية سنة التدريب بالنسبة لخريجي طب الجدد، فكانت حركة بالمبنيين، وكانت ضوضاء خابية إذ راح الوافدون الجدد يعاينون الحجرات وينتقون لأنفسهم أفضلها بركن الشنط والحاجيات من

قبيل «وضع اليد»، لكن مينا موريس وهاني طلعت أحسا أنهما تأخرا عن البدء في إجراءات استلام العمل، فأرجئا اختيار الحجرات إلى آن آخر، خاصة وأن من المعلوم ضمنياً أن «للنصارى» شققاً خاصة لن يقربها أحد. ونقد مينا للعامل الذي ساعدهم — عم مختار — بضع جنيهات، أجر المساعدة وحراسة الشيل إلى حين قفولهما من الجامعة بعد ساعات.

وخرجا الرفيقان من الاستراحة يستنشقان نسمات اليوم الجديد فكأنه أول امتزاج لهما بنهاره. كان الجو طيباً ما يزال لا تغشاه برودة أو سخونة، والشمس تبدأ نشاطها في تيقظ. وسارا ناحية مدخل المنطقة حيث يطل شارع المكتبات بعرضه، ممتداً إلى اليسار نحو المدخل الرئيسي لجامعة أسيوط، فقطعه الشابان في دقائق... وكان ثمة زحام كثيف من الطلبة الداخلين أو من السيارات الوالجة عند البوابة: في أحيان كثيرة كان يتعثر دخول السيارات إلا الخاصة بأعضاء هيئة التدريس (الـ«staff» كما يدعونهم الطلبة) أو أبنائهم، وفي أحيان يطلب من طالبٍ الترجل من التاكسي بهدوء إن كان يشاركه مع ابن عضو هيئة تدريس. وأبرز الشابان كارنيهيهما لرجل الأمن ففحصهما وهو مقطب، ثم اعترض على أنهما من كارنيهات السنة المنقضية. إلا أن مينا موريس شرح له — بصبر نفذ منذ وصوله إلى أسيوط — أنهما من طلبة الامتياز وأن الكارنيهات الخاصة بهم لم توجد بعد. فسمح لهما رجل الأمن بالدخول منصرفاً عنهما بوفد آخر، لافظاً: ’طيب، خش‘، مما أثار حنق مينا موريس بشكل بالغ وشعر أنه أهانه. فأكمل المسيرة وهو يسب ويشتم، الحكومة والأشخاص.

وحلي لهاني صاحبه أن يداعبه، فطيب خاطره مما أدى في نفس الوقت إلى أنه استثاره وحضه. واشتعل مينا موريس بشكل هزلي غريب:

— ’يعني سيادته شايفنا دكاترة، ومحترمين (يعني مش شوية «خو . . . . ات» داخلين «يتن . . . . وا») جوه في الجامعة، روح يعملي فيها العسكري الأخضر ؟! والله العظيم يا آخي ينعل أبوها دنيا اللي خلت واحد زي كده يتحكم فينا... أرجع له ؟! أروح أتخانق معاه ؟! (ما هو ما فيش حاجة تنفع معاه غير كده!). هاه ؟ ترجع معايا ؟!... ما ترجع خليه ياخد له قلمين!‘

كانت هذه من الصفات الطريفة في مينا موريس: ذلك أنه يغضب ويثور لأقل سبب، ويفرح ويهلل لأقل سبب، بذلك فإنه كان مخلوقاً مهتماً بأقل تفاصيل الدنيا، لا يفلت منه شيء: إنسان يهوى الحياة بحلوها ومرها ويستمرئ حتى أتفه الأشياء وحتى أثقل الأشياء، وكان يعرف كيف يكيف نفسه في أكثر ظروف الحياة ضنكاً، فإن وضعته في حبس انفرادي، لاستطاع أن يخلق حياة وأن يستمتع بوقته على ذلك. وكان هاني يحب في صديقه صفته تلك، فبجانب أنها تطربه في وقت الحموة ببعض الألفاظ النابية المضحكة، فإنها تهبط بصاحبها إلى مرتبة الطفل الصغير الذي وجد لعبة يريد من يلعبها معه، فيشاركه هاني اللعب بغبطة.

٤. المبدع والموكوس

خرج هاني طلعت مع وسيم هلال، خرجا بعد هجوع الشمس بنحو ساعة. ترجع أصول وسيم لبني مزار بالمنيا، وكان شاباً ممشوق القوام، مستقيم الظهر والساقين، يطلق فوق شفتيه الحادتين شارباً رفيعاً أنيقاً مع أنه لم يعن بتشذيبه يوماً، أما صفحة وجهه فكانت مقبولة القسمات مع بروز طفيف للوجنتين واتساع بيّن لفرجتي أنفه. قد يخال بهذه المواصفات أنه شاب نبيل وجيه حسن العشرة إذن، غير أن هذا للأسف لم يكن الحال. فقد كان عاتياً في مزاحه وهزره لا يطيقه إنسان، كما كان عظيم الخجل – حتى في سنه هذه التي تفوق زملاءه بعام ونصف على الأقل – إزاء الفتيات (مما جعله انعزالياً إلى حد ما)، هذا غير لهجته الريفية المضحكة التي لم يعن بتحسينها ولو قليلاً في الوقت الذي انغمس فيه معظم رفاقه في اللهجة البحراوية حتى فيما بينهم، ثم يضاف على جميعه أنه كان يبقي – في إهمال – على ضرس مسوس خبيث كان يلوث رائحة فيه دائماً وينفر منه محدثيه. أما عن العلاقة بينه وبين هاني فقد ابتدأت قبل عامين فقط. كانوا أوانها في السنة الخامسة للكلية، وكان مينا موريس يشاطر وسيم السكنى في شقة طلبة بأبراج الزراعيين مع مجموعة من الشباب. وكان هاني كثيراً ما يزور ابن بلده وصاحبه – مارك – لأنه بدوره كان يسكن قريباً من الشقة، فتعرف على أعضائها كافة، وصادقهم كلهم: استطرف السوهاجية بمناظرهم المتقاربة: القامة الطويلة، النحول، النظارات الشبابية الأنيقة، والشعر المثبت بالجيل، وأحب خفة دمهم وخبرتهم بألوان اللهو والفساد شتى، ومال للقناوية لطيبة قلبهم وشهامتهم وصراحتهم، أما المنيا فكان وسيم هو ممثلها الأوحد، ولا نحتاج أن نسهب بعمق في أنه لم يكن لها مثالاً حسناً. على أنه أحب فيه شخصيته المتفردة التي جمعت ما بين الطيبة والمجون، ورآه إنساناً ذا أصل طيب لكنه تائه في الحياة مثله، فزامله وصاحبه حتى باتا صديقين حقيقيين، ولئن ضايقه منه في أحايين عدة حب الاستحواذ والتملك اللذين كانا يتناوبانه، إلا أن لمحة واحدة من الطيبة والوفاء اللذين تميز بهما هذا الإنسان بحق كانت

لترده فوراً إلى حبه له، واعتزازه به، ثم أنه كان يقدر – في شقاوة – صديقه هذا حق التقدير أيضاً حين كان يستخدم 'غلاثته' وثقل دمه على شخص آخر، ساعتها كانت المشاهد الظريفة التي يشهدها لكفيلة بإضحاكه شهراً.

قررا أن يتمشيا قليلاً في علي مكارم فشارع يسري راغب ثم المنفذ قبل أن يجمعا على الكافتريا التي سيقضيان بها الأمسية. كانت الساعة وقتئذ السابعة والثلث، وقد توارى النهار نهائياً بعد وداع غائم استمر لأكثر من نصف ساعة، وكانت بالجو حرارة وكان الشتاء إلى نهاية في تلك الأيام، فتصبب جسد هاني الممصوص عرقاً خاصة وأنه كان يلبس بلوفر داخلي برقبة أسفل القميص الصوف والبلوفر الخارجي، وأفضى لزميله في زهق بأن الجو خانق حار، وأنه يتمنى لو لم يثقل في الملابس ذلك المساء. فرده وسيم ضاحكاً:

– 'خير... خير... كله خير... (وهو يتتبع بنظره فتاة ببنطلون ضيق إلى يساره) وآه من الصيف وتعبه!'

فشده هاني من ذراعه في لوم وإن كان يبتسم:

– 'شكلك كده هتودينا في داهية باين عليك.'

– 'ليه بس يا «هنوني»؟'

– 'أصلك إنت مش عارف مين اللي كنت بتعاكسها دي.'

– 'مين دي؟'

– 'عارف بيتر سميح؟'

– 'ما له؟'

– 'أهي دي البت بتاعته.'

فقهقه وسيم وضرب كفاً بكف وهو يجنح برأسه ناحية الرصيف:

– '«سماحة» العبيط بقى له بت؟! والله عال.'

– 'إنت ما شفتهوش بيلعب جيم عشانها؟ دا بقي زي البغل.'

– 'يا سلام يا أخي... ودا على كده ناوي يتجوزها؟'

فرمقه هاني بنظرة مستغربة، كأنه يستنكر السؤال، وقال:

– 'إنت عبيط ياد؟'

– 'طبعاً لا.'

– 'برافو عليك... هو انت صدقت إنها ممكن تبص عليه صح ياك؟'

وسيم مقهقهاً (وهو حين يقهقه يلفظها بالضبط كما في الأسفل):
– 'والله العيال دولا حشاشين صح، صدق من قال عنهم شلة المعاتيه، هيئ هيئ هيئ هيئ.'
– 'لكن طيبين يا خي...'
– 'هيئ هيئ هيئ هيئ.'
وبلغا الإشارة[٦] فمد هاني في عنقه النحيل يحاول أن يصل ببصره لمكان معين، لكن وسيم منعه بشدة وهو يشده من ساعده:
– 'لا... بقيناها من شارع المنفذ النهاردة.'
– 'طب بس نروح نتفرج ع السريع، يمكن ألاقي لي كتاب ولا اتنين عن السينما أنا كنت موصيهم!'
– 'كتابين مين والله ما اسيبك. دا الواحد حفظك خلاص من كتر ما جبت له الضغط والسكر.'
كانا يتحادثان عن مكتبة دار المعارف الواقعة في أول شارع المنفذ، والتي أدمن هاني غشيانها في كل فرصة سانحة حتى صادق موظفيها من كثرة تردده، وحتى حفظ أصدقاؤه كتبها رفاً رفاً من فرط زيارتها – مرغمين – معه. ولم يكن هاني قارئاً فذاً ولا مثقفاً كبيراً، بل في الحقيقة فإن مخزونه من الكتب يعتبر جد قليل بالنسبة لامرئ يهفو هفواً لزيارة مكتبة كلما مر بالجوار بهذه الصورة (وأغلبها كتب دينية ولاسيما تفاسير الكتاب المقدس للأب تادرس يعقوب ملطي)، لكنه في الواقع كان يبطن شيئاً واحداً كلما دخل مكتبة: أن يبحث عن كتب جيدة في السينما... أجل، لما الاستغراب؟ نعم، فهاني طلعت من الطريف جداً أنه من كبار عشاق السينما، ولطالما رغب وحلم بأن يصير مخرجاً... بدأ هذا الحلم من أيام الدراسة الإعدادية، حينما وجد نفسه معاقباً ذات يوم ومطروداً خارج الفصل فلجأ إلى المكتبة ليضيع الوقت. ولم يكن قد ولجها قبل آنها إلا مرة واحدة ولسبب نسيه، فأخذ يتنقل بين الأرفف المتربة المعنونة يبحث عما يشغله إلا أنه لم يجد شيئاً ذا بال. وأخذ بعض الوقت يقرأ في الجرنال حتى أحس بالملل، حينها سأل أمينة المكتبة أن تناوله أي كتاب بجانبها، ومن

[٦] إشارة يسري راغب، عند تقاطع شارعي يسري راغب والمنفذ.

قدره أنها كانت تتصفح كتاباً في السينما. كان كتاباً لا ينساه حتى الحين اسمه «قصة السينما في العالم: من الفيلم الصامت إلى السينيراما» تأليف آرثر نايت وترجمة سعد الدين توفيق عن دار الكتاب العربي. وارتقب أن تكون قراءته مملة، لكنه شعر بالحرج من أمينة المكتبة التي تنازلت له عما تقرأ بنفس صافية ما أن طلب، فاطلع على أول صفحة، فالثانية، ثم قفز إلى فصول معينة بشغف غريب، ولم ينقض اليوم (الذي فوّت باقي حصصه) حتى كان قد قرأ على الأقل ربع الكتاب. من هنا بدأ اهتمامه بالسينما كفن قائم بذاته، ليس كطريقة عرض أكثر تقدماً للآداب كما يراها الكثيرون، وسعى في البحث عن كتب أخرى في السينما، وأصبح يقرأ آراء النقاد في الصحف، ويحاول أن يزيد من خبرته بأساليب التصوير وطرائق المخرجين المتباينة، وبعد أن أنهى الثانوية العامة صدم أهله برغبته في دخول المعهد العالي للسينما (وكان الثالث في الترتيب على مديرية الأقصر). وهاج الجميع عليه دون استثناء، حتى أشد من عرفهم ثقافة وفكراً آنذاك — وهو الأستاذ أحمد مرتضى مدرس العربي — لم يأخذه على محمل الجد ووبخه بظرافة قائلاً: 'يا بني إنت في صمولة في مخك اتفكت. لكن أنا ها ارجعها لك بإذن الله قبل ما تروح ما ترجعش، ها ها ها'. وهكذا فلم يجد مناصاً من دخول كلية الطب، وغدا صاحبنا طبيباً. وإن احترم الطب بعد ذلك ولم ينفر منه (وإلى درجة كبيرة خطط حياته على أساسه)، لكن الأمل ما يزال يحدوه في تحقيق حلمه القديم من حين لآخر... يحلم هاني، ولا يتوقف عن الحلم، أن يلتحق بالمعهد العالي للسينما أيضاً في آخر الأمر (بأية وسيلة كانت)... ويحتويه عالم الفن بنجومه... فيبحر فيه إلى السماء السابعة... بعيداً بعيداً عن كوكب الأرض.

ولقد غامر في سبيل حلمه هذا وسافر مرة ليقابل عميد المعهد في القاهرة (مضى في مأموريته تلك ببلوفره الأخضر ذي الأزرار وبنطلونه الجبردين الفئراني وجزمته الملمعة بعد أن لمعها كذا مرة عند أقاربه في شبرا)، فقالت له العميد بلطف أن المعهد لا يقبل طلاباً ملتحقين بكليات أو معاهد أخرى، كما أن الدراسة المنزلية — «من منازلهم» — غير مسموحة في المعهد، وأن عليه أن ينتظر ريثما ينتهي من كليته حتى يتسنى له الالتحاق بالمعهد. لم تبد اندهاشاً لرغبته الشاذة أي اندهاش، ولم تهزأ به،

بل رحبت بميوله وقالت له أن الكثيرين من الأطباء صاروا بعدئذ فنانين ناجحين جداً، ويكفينا فخراً الدكتور يحيى الفخراني والدكتورة لميس، ثم تركته في المكتب مع رجل خمسيني على درجة عالية من الأناقة عرف بالتقاط بعض الكلمات وهو واقف أنه يشغل منصباً هاماً في معهد النقد. وحاوره الرجل بصدر رحب حول السبب الذي دعاه للتفكير في هذا الطريق الوعر بينما لديه آخر أسهل بكثير وفي مجال محترم مثل الطب مثلاً، فقال له دون خشية أنه قد أخرج عدداً من المسرحيات الدينية الناجحة في مهرجانات الكنيسة، وأنه محب وعاشق للسينما منذ زمن، وأنه يحلم منذ الصغر بأن يصير مخرجاً، هذا هو مصيره. فأخبره الرجل أن يتريث وألا يتسرع لئلا يندم، وعندما سأله عن طرق أخرى لدراسة السينما قال: 'مافيش قدامك غير المعهد بتاع لبنان... أو إذا كنت مش بتاع سفر صحيح يبقى إقرا ع النت'. ثم سأله أخيراً عما إذا كان لديه نص يريد تقديمه، فماذا يفعل؟ فقال له الرجل (الذي عرف بعدها أنه يدعى مصطفى حامد وأنه كاتب سيناريو أيضاً لا بأس به وله العديد من الأعمال) أن بإمكانه أن يتصل به عن طريق الإنترنت، فإن كان 'حاجة كويسة' فإنه سيرى ما يمكن عمله، وأعطاه بريده الإلكتروني...

على هذا الوعد عاش هاني، وأحس أن الحياة ما زالت تبتسم له وأنه فعل خيراً بسفره إلى القاهرة مطاردةً لحلمه، وله من الوقت الآن ما يربو على العام يحضر في سيناريو طويل يحاول أن يخرج فيه كل ما بداخله، وكل مكنوناته المكبوتة. ولقد أبقى قصة السيناريو مستورة عن الجميع، لم ينجع أحد في إغرائه على سرد فكرته الأساسية حتى، وهو يكتب وقت القيلولة والناس نيام كي يحصل على كثير من العزلة، وفي آخر إجازة قطع فيه شوطاً هائلاً حتى قارب أن ينهيه، في شهر أبريل بإذن الله، أي بعد شهر واحد من الآن.

وكانت كافتريا وسيم الأثيرة هي الكافتريا الشهيرة بـ«نسكافيه» في آخر امتداد يسري راغب والتي لا يعلم إلا قليلون الاسم الحقيقي لها، توجها لها، وصعدا للدور العلوي المكشوف كما جرت العادة. من هذا المكان اعتاد الفتيان أن يختلسوا النظر من الأفلام التركية المعروضة في السينما الصيفي قبالة الكافتريا، وبيد أن المسئولين عن السينما قد استطاعوا

بعدئـذ أن يرفعـوا جـدار السـينما حـوالي متـراً آخـر بواسـطة بعـض الألـواح الخشـبية، إلا أن هـذا لـم يسـتر الشاشـة بأكملهـا، لـذلك فقـد داوم الشـباب ممن لا يجد في نفسه الشجاعة لارتياد السينما الصيفي بنفسه، أو ممـن يعـد الإنفاق في هـذا المجـال تضييعاً للنقـود، علـى الاسـتمتاع بـاختلاس النظـر حتى مـن الجـزء العلـوي فقـط مـن الشاشـة. وقد لا يعده المـرء عيباً هنـا أو حرجاً أن يقف ويمد هامته أمام الجميع إن وجد أن ما يتبدي لـه مـن المشـهد الساخن لا يكفي.

واختـار الشـابان منضدة على الطرف لصـق الحـاجز مـن ناحيـة شـارع المحطـة لـيس مـن ناحيـة السـينما، ومـا أن جلسـا وتنهـدا حتـى قـال هـاني بجدية حقيقية:

– 'لكن أنا على فكرة زعلان منك بجد.'

سأله وسيم عن السبب، فقال في تبرم:

– 'أنـا كـان نفسـي فعـلاً أروح دار المعـارف النهـاردة... إنـت عـارف إنـي ما رحتهاش خالص من ساعة ما جيت ؟'

فقال وسيم مكشراً وهو يشوح بيده في لا اكتراث:

– 'رحها بكره يا خي مش مهم!'

فثار هاني واشتعل وجهه الضعيف غضباً بشكل مضحك، كأنه يقـوم بدور نسخة من صاحبه مينا موريس:

– 'لأ، ما تقولليش مش مهم! دي حاجات مهمة بالنسبة لي زي ما في حاجات مهمة بالنسبة لك!'

وشـاء القـدر أن يحضـر صـبي المقهـي فطلـب منـه وسـيم معسـل تفـاح ومبسـماً ثـم كوبـاً مـن الشـاي، وطلـب هـاني زجاجـة بيبسـي حجـم صـاروخ. ومرت دقيقـة مـن الصـمت قبـل أن ينطـق وسـيم وهـو ينظـر ناحيـة التلفـاز الضخم الموضوع في صدر المكان بجانب السلم:

– 'إنت مجنون.'

– 'ليه إن شاء الله ؟'

– 'سينمة إيه بس يا عم هاني ؟ مش تدور على مستقبلنا الزفت اللي جاي بس.'

وازداد عبوساً (ووسيم يكشر كلما تكلم في موضوع جاد)، وهو يضيف:

– 'والله العظيم اللي انت بتعمله دا فضا. دور لك على شغلانة يا خي تستفيد منها بدل ما احنا أدينا مش لاقيين حاجة نعملها. السينما والتمثيل دا كلام فارغ يا عم هاني.'

كان هذا دوماً ما يحنقه: كيف يستطيع إنسان «جاهل» مثل وسيم أن يوصل إليه وجهة نظره بالمنطق، بينما هو لم يتأت له أن يقنع مخلوقاً واحداً في الكون بميله؟! إنه يخاف ولشد ما يخاف، أن يكون كلام وسيم صحيحاً، وأن يكون هو يطارد السراب ولا يدري، مثل تابعٍ لوهم كاذب يفقد رقبته في سبيله فلا يعرف حقيقة الذي اتبعه إلا في الجحيم. المشكلة أنه «مغلف» بعقيدة السينما لا يبغي منها فراراً، فحتى المبادئ التي بنى عليها آراءه، والتي تحكمت في اختيارات حياته، لم يتعلمها إلا من الأفلام، وإلى حد قليل من القصص... قاعدة أن 'الخير ينتصر دائماً على الشر'، وقاعدة أن 'الإنسان إذا جاهد في سبيل تحقيق طموحاته، فإنه سيصل إليها حتماً'، فمن أين تشبع بها غير من الأمثلة التي قدمت له في السيناريوهات الخيالية؟... وهو إنسان قليل الخبرة بالحياة مع ذلك ولا يدري هل تتحقق السيناريوهات في الدنيا فعلاً أم لا. فيالمأساته إذن لو غدت حكايته ذات يوم فيلماً تراجيدياً عن إنسان خطر له أن يهجر قدره، ويبحث عن المجهول!

لذلك فإنه هاج على وسيم واختنقت أنفاسه:

– 'السينما كلام فارغ يا وسيم؟!'

ثم باسطاً كفته، محولاً عنه رأسه، أردف محاولاً الإبقاء على ثباته:

– 'باااس! إنت ما تتكلمش تاني خالص!'

ثم جاء الصبي بالطلبات، فوضع النارجيلة إلى يسار وسيم والمبسم أمامه على الترابيزة وبجانبه كوب الشاي، فالصاروخ أمام هاني وبينهما كوباً من المياه. ثم غادر فوضع وسيم المبسم وارتخى إلى الحاجز واختبر أول نفس بحنكة، أذاب الدخان ذوباناً في حَنَكه ثم أخرجه براحة من خياشيمه، ثم قال محاولاً الاقتراب من زميله:

– 'طب أقول لك حاجة... بذمتك يا شيخ إنت لسه عندك أمل؟'

كان هاني قد هدأ قليلاً، فأجاب بعد وقفة:

– ’طبعاً الإنسان لازم يعمل اللي عليه.‘

– ’وهو دا واجب وطني عليك ولا فرض؟!‘

– ’... نقدر نقول أيوه.‘

صمت وسيم لحظة، وهو يأخذ أنفاسه من الدخان، ثم ما مكث أن سأله بهدوء:

– ’إزاي واجب يعني؟‘

كان الآخر قد ادخر الكلام لهذه المناسبة، ولأي مناسبة شبيهة، وكرره كثيراً وردده بينه وبين نفسه، لذلك فسرعان ما اعتدل في مجلسه وانبرى «يشرح» لزميله:

– ’بص يا عم وسيم... ربنا لما يحط حاجة في الواحد، موهبة معينة مثلاً يعني، يبقى مش المفروض إنه هيحاسبه على وزنته دي في الآخر؟‘

– ’... معاك.‘

– ’تمام. يبقى إذن الواحد «ملزم» باكتشاف مواهبه واستغلالها قبل ما يفوت الأوان. لو ما عملش كده، يبقى أزرى بنفس—‘

– ’يبقى إيه؟ ‘

– ’أزرى بنفسه. قصّر في حق نفسه يعني. وعشان كده لازم الواحد يكتشف ربنا عاوز إيه منه في حياته، لأنك لو ما عملتش كده، يبقى ما قمتش برسالتك على الأرض كاملة.‘

انتهى الفتى من كلماته، فارتخى يستبين وقعها على صاحبه. لم يحر وسيم أدنى تأثر، وظل ينظر ناحية التلفاز والمبسم بين شفتيه، وأخيراً قال:

– ’طب بأقول لك إيه؟‘

– ’هاه؟‘

– ’مش انت رحت في مصر وسألت ع الموضوع دا قبل كده باين؟‘

صمت هاني للحظة.

– ’وافرضن يعني؟‘

– ’مش قالوا لك لأ؟‘

نخزته الكلمة، فاستدار ناحيته وهتف:

– 'ما حدش قال لي كده خالص!'

– 'أمال قالوا لك إيه يعني ؟'

– 'قالوا لي إن المعهد ما بيقبلش حد بيدرس في كلية تاني!'

– 'تمام. طب ما اديك عملت اللي عليك أهوه، عايز إيه تاني ؟'

استفزه في حديث وسيم أنه كان يتكلم في لا مبالاة شديدة، كأنه يجاري مخبولاً في خباله لمجرد تضييع الوقت. وكان وسيم كأي إنسان عادي لا يجنح للحوار فيما ليس له فيه، يعتبر نفسه إنساناً عملياً تمكن من دروب الحياة الدنيا من بعدما توفي والده في سن مبكرة فتولى هو زمام الأسرة المكونة من أم وأخ وأخت، ومن المعلوم أن لديه مشاكل عائلية مقوضة لكل المتع، لكنه كان يسري عن نفسه بالهزر والمزاح. وقال له هاني:

– 'لسه برضه.'

– 'لسه إيه تاني ؟!— خلاص يا سيدي، روح إجري ورا الكلام الفارغ وسيبك من الطب اللي ضيعت فيه سبع سنين دراسة.'

هنا قال هاني في هدوء:

– 'الواحد برضه بيفكر بعقله يا عم وسيم: مش معنى إن رغبتي في حاجة معينة، إني أدمر نفسي.'

فقال وسيم ظافراً بلهجة باتة كي ينهي الموضوع:

– 'عليك نووور، كده يبقى انت جاوبت نفسك بنفسك. إتكي لورا كدا خلينا نتفرج ع التليفزيون'.

بعد حوالي ساعة أشرف ثلاثة من الشبان، كانوا على درجة واحدة تقريباً من الأناقة ووجاهة المظهر وإن تباينوا كثيراً في البنية. أولهم كان شخصاً رفيعاً جداً ممصوص البدن منحني الظهر داكن اللون يشبه الصرصار، وثانيهم كان ربعة بيضاوي الوجه أحمر الوجنتين كالعرائس، أما الثالث فكان ضخماً مورداً تكاد تبلغ قامته المترين وله كرش محترم يحجزه بلوفر أحمر قيم. أجال الشبان النظر في الأركان بحثاً عن منضدة شاغرة، غير أن الثالث – الشاب الضخم – ما تلعثم أن أومأ ناحية الترابيزة المتطرفة التي شغلها هاني ووسيم، فتوجه إليها وهو يبتسم. تقدم نحو

وسيم (الذي كان ينظر إليه في لا مبالاة مع أنه كان مقطباً) فأمسكه من ياقته وهو يبتدره بخشونة:

— 'الترابيزة دي ترابيزتنا يا كابتن.'

تابع وسيم تدخينه لا يلوي على شيء في تجاهل تام، في حين جذبه الشاب الضخم من ياقته وهو يقول:

— 'إنت مين اللي سمح لك إنك تيجي هنا، هاه؟ من اللي دخلك هنا أصلاً ياض؟'

فضحك هاني وقال للشاب:

— 'حرام عليك يا خي سيبه.'

ارتسمت ابتسامتان في نفس الوقت على ثغري وسيم والشاب، الذي كان في الواقع شريك هاني في الغرفة ميشيل جورج، والذي أفلت قبضته من على ياقة وسيم تدريجياً. وسأل وسيم هاني في حركة تمثيلية مشيراً لميشيل:

— 'مين الحيوان دا؟'

ضحك ميشيل وقال:

— 'ده عمك.'

فقال وسيم وهو ينظر له بعين مرحة:

— 'أنا ما ليش عمام.'

فأمسكه الآخر من ياقته مرة أخرى، وطفق يتظاهر بأنه يلطمه على خديه وهو يقول له:

— 'عمك وسيدك ولا لأ؟ هاه؟'

حينئذ بدا الضيق على وجه وسيم بجد، فنتر يده عنه، وجعل يصلح من وضع ياقته، لكنه ما لبث أن طلب منه الجلوس هو وصاحبيه.

وجلس الشبان حول الترابيزة (أحضر الشاب الشبيه بالصرصار كرسياً من القسم المغطى بالداخل وجلس بجانب هاني، بينما التقط الربعة البيضاوي الوجه كرسياً من منضدة مجاورة دون أن يسأل أو يستأذن حتى ثم جلس إلى جوار وسيم، وبينهما كان ميشيل) في نصف دائرة تنتهي بهاني ووسيم. وقال ميشيل لهاني، الذي ظهر مقارنة بجسده الهائل — الواضح من بين جميع الرواد — كالفأر الجوعان:

– 'ما أديك بتيجي الأماكن النجسة دي ؟'
فرد هاني ضاحكاً وهو يشير إلى وسيم:
– 'بأمانة هو اللي علمني.'
لكن وسيم نفث الدخان من فمه وهو يقول:
– 'يا عم اللي عنده مبدأ ما فيش حد يقدر يأثر عليه.'
فقال الوافد الجديد:
– 'مش انت كنت عمال تقول لي: "هذا يليق" و"هذا ما يليقشي" و"صورة أبناء المسيح" ومش عارف إيه ؟ أمال أديك قاعد في «مجلس المستهزئين» اهوه. وعامل لي فيها أبونا يوسف أسعد ؟!'
ثم انتبه إلى أنه لم يقدم مرافقيه، فقدم النحيل إلى يساره على أنه ريمون، والثاني إلى يمينه على أنه أحمد. ثم سأل وسيم الشابين عن مهنتيهما أو دراستيهما فقال ريمون ببساطة:
– 'إحنا صيع.'
قهقه الجميع، وغدا شكل هاني مضحكاً أكثر بفمه المفتوح على اتساعه وأسنانه الصفراء، ثم قال أحمد:
– 'إحنا كلية تربية رياضية.'
وقال ريمون، وقد تخصص بصوت رجولي خشن للغاية على غير ما تفصح هيئته:
– 'تخصص بلياردو.'
– 'أنا تخصص كورة حمرا وريمون تخصص كورة سودا.'
– 'وهايعملوا اتحاد جديد للبلياردو حسب التخصص.'
فضحك وسيم، إلا أن هاني سأل بشيء من الحيرة:
– 'إنتوا بتتكلموا جد يا جماعة ولا . . ؟'
فأكد أحمد:
– 'جد يا عم والله، ولو مش مصدقنا نوريلك الكارنيهات!'
فبسط راحته بمعنى لا داع ثم ارتد بظهره للخلف. غير أن ريمون ما مكث أن قال:
– 'طب ما تيجي «تلاعبنا» يا كابتن ؟'

لحظتها تهالك ميشيل وأحمد ووسيم مقهقهين، كله عدا هاني، الذي عرف بأي مأزق أوقع نفسه باستفساره الساذج. فحاول مجاراتهم في الضحك بصعوبة وهو يردد النظر بين وجوههم ليتأكد أن أحداً لا يظن أنه لم يكن يمزح نفسه، وفي النهاية قال لريمون:

– 'لاا، أنا مش قدك يا كبير.'

ثم أتى النادل فطلب الشبان الجدد مياهاً غازية، واستغرب هاني فقال لميشيل:

– 'كانت فاكرك جاي هنا تشيش.'

– 'ما ليش فيها.'

– 'أمال ليك في إيه إن شاء الله؟'

– 'سجاير وبس.'

– 'إشمعنى يعني؟'

– 'الشيشة دي بتاعة عربجية وسواقين.'

– 'اسم الله على السجاير!'

أخرج ميشيل علبة مارلبورو، فقال في أسف:

– 'زمان يا بني، كانت السجاير دي ما يدخنهاش غير الباشوات. فاكر السيجار بتاع الأفلام؟... **زكي رستم باشا**... (وقدح من ولاعة رخيصة تناقضت مع المرتقب) يا سلام! كانت الدنيا موزونة، وكان الهرم معدول مش مقلوب.'

لكل إنسان هواية، وهواية ميشيل جورج روستوف (الذي ترجع أصوله حقاً إلى أحد أسر الباشوات من قبل الثورة) هي النقد البناء – في رأيه – للمجتمع، وكيف أن الدولة سقطت عندما جعلت ابن الفلاحين يجلس على الكرسي، وابن الباشا يهيم على وجهه في الشوارع، ولديه مخزون هائل من القصص والحكايات والأخبار (أغلبها خاطئ للأسف) عن 'ناس زمان' من الباشوات وعلية القوم، وكيف كانت حيواتهم، وكيف كانوا يأكلون، ومع من كانوا يخرجون، ومن كانوا يحبون، وكم تلقى الفنان الفلاني أجراً عن فيلمه كذا في الأربعينات فبنى قصراً في المكان العلاني، ولماذا قتلت الفنانة الفلانية وحتى الآن كلٌ يحاول أن يغطى على الموضوع لأسباب سياسية، وكيف كانت الحياة مريئة سعيدة طالما الباشا باشا

والصعلوك صعلوك، و إلى آخره من كلام لا يمل من ترديده كلما صادف فرصة، هذا غير الكم الذي لا يستهان به أيضاً بصدد أثرياء اليوم (خصيصاً من النصارى)، وأخبارهم.

ووافقه وسيم وهو يهز رأسه:

– 'دلوقتي بقت كل حاجة مقلوبة.'

فقال ميشيل (الذي كان قد بدأ في تدخين سيجارته بالفعل):

– 'يعني خد عندك مثلاً إحنا اهوه: في أي بلد في العالم تلاقي الطبيب بياخد أعلى أجر في الدولة، لكن هنا تلاقي الموظف لو قديم شوية بياخد أكتر منك... مرة كان في واحد أعرفه – راجل كبير شوية صاحب ابويا – معاه ابن خريج سياحة وفنادق شغال في الغردقة. بياخد كام يا عمي كان؟ بياخد حوالي سبع آلاف في الشهر. راح جات له أمريكا، وفرح الواد راح ساب شغله، ووظيفته اللي بياخد فيها سبع آلاف، وهاجر... وقعد هناك شوية ما لقيش شغل في الأول، وبعدين قالوا له لازم تعمل معادلة ومش عارف أيه، المهم في الآخر عمل شهادة معادلة كده خلته يشتغل محاسب باين ولا مش عارف مندوب تأمين.

'اتصل بيه أبوه بعد شوية سأله عن أحواله ومش عارف إيه، تخيل؟ الواد قال له إنه مش مرتاح هناك. سأله ليه، قال له إنه في مصر كان بياخد سبع آلاف في الشهر، راح لما راح أمريكا بقوا يدوا له ما يساوي أربع آلاف مصري في الشهر لا غير، بيدفع يا عمي نصهم سكن. راح فرح أبوه، وقال له كلمة أنا لا يمكن أنساها، قال له: "يا بني، أصل في مصر عندنا كان الهرم مقلوب، لكن عندك انت الهرم معدول"...'

هذه عينة من حكايات ميشيل جورج وأحدوثاته البعيدة عن التدقيق التي يلقيها في كل مناسبة وعلى كل موقف. إلا أن وسيم هتف وهو يرفع يده بذراع الشيشة ولا عنترة بن شداد رافعاً سيفه:

– 'والله المفروض الواحد يروح له بلد تاني زي أمريكا ويسيب البلد الوسخة دي!'

ولابد أن منظره كان كوميدياً لأن ريمون وأحمد بدءا في الضحك، فالتفت إليهما ميشيل وهو يبتسم بدوره:

– 'وسيم سخن، ها؟'

ثم استدار إلى وسيم مرة أخرى وهو يقول:

– ’لا يا شيخ وسيم، العملية مش بالبساطة دي، والناس ما بقتش هبلة بعد ١١ سبتمبر خلاص، ولو رحت لهم وعملت لهم كده (ورفع ساعده مبيناً الصليب الموشوم)، هيقولوا لك لا وورينا عرض كتافك برضه.‘

هنا صرح هاني من أطراف الترابيزة:

– ’أنا عن نفسي ما بفكرش لا في السفر ولا الهجرة، هنا أهلنا وناسنا يا راجل ودي البلد اللي الواحد إتولد فيها وعرف ثقافتها. أمريكة مين يا حاج وكندة مين ؟‘

فقال له ميشيل:

– ’على قد ما أنا نفسي ما بفكرش في الهجرة زيك، لكن انت آراءك «بـ . . . . ان» ياض.‘

فسقط ريمون وأحمد على وجهيهما متهالكين من الضحك، وكذا فعل وسيم (لكن بثقل أكثر)، أما هاني فاحتقن وجهه من الحرج ولم ينبس ببنت شفة. وتابع ميشيل وهو يحدجه في امتعاض منحنياً بظهره الهائل ومشرئباً برقبته القصيرة:

– ’قال عرفت ثقافتها قال. تصدق إن انا حاخد إكليل عشان رضيت أسكن معاك ؟!‘

واستمر الجميع متهالكين من الضحك، ومسك ريمون ذراعه كأنه يقول له: كفاك، تعبنا! ثم أخيراً رشف ميشيل من زجاجته فأشار لرفيق غرفته بأن يرحمهم شويا قبل أن يصيبهم بداء السكري وداء المرارة دون أن يعي.

الجزء الثاني
مدينة النور والظلمات

١. من الظلمة إلى النور

I. قبل أن تنتهي أوراق مارس على نتيجة حائط السكن بورقة واحدة —وكان العالم بأجمعه يعلق الأنظار على كسوف لم يتكرر منذ عقود —بدأ اليوم عادياً لا ينذر بوقوع خارق: الجو معتدل فاتر، والشمس بادية بلا منازع كأنها تعاند ما تناقلته الألسن، والطلبة ماضون إلى كلياتهم يتفاكهون. وغير إقبال الموظفين الزائد على شراء الجرائد المتحدثة عن الكسوف المرتقب، والاحتياطات الوقائية الواجبة قبل الكسوف المرتقب، والمستشفيات المجهزة لاستقبال الذين لن يحترموا الاحتياطات الوقائية الواجبة قبل الكسوف المرتقب، ثم المظلات المخصوصة المعدة لـ'الناس الكبار' كي يشوفوا الكسوف المرتقب، فإن الدنيا ظلت تقريباً كما هي. هبط ميشيل في الصباح آتلاً في مشيته من الاستراحة وركب سيارته الهيونداي بعد أن خيل إليه أن المفتاح يشاكس قليلاً. ثم تحرك على سرعة مباغتة لا تخلو من مهارة فاجتاح من خلال مدخل نايلة خاتون وشارع المكتبات في أقل من دقيقتين. كان في ذلك الصباح يرتدي بنطلوناً أسود من الجبردين وقميصاً كتانياً سكرياً هائل الحجم يحيط بجسده العظيم المتكوم داخل السيارة كفرس النهر، ذات لباس الليلة الماضية ما بين السينما (فيلم «ويجا»)، وقهوة السندباد، فشقة ريم أخيراً ولم ينحل منها قبل الثالثة، فشعر بالإجهاد والنعاس بسبب سهره وبسبب «المجهود» الذي بذله في الليلة الماضية. وفرك جبينه الضيق وأرخى جفنيه العلويين قليلاً على الرغم من أنه لم يبطئ من سرعته. كان ميشيل جذاباً مع أنه لم يكن وسيماً بالمعنى التقليدي: فشعره خشن أكرت ويغرقه دوماً بالجيل، وجبينه ضيق تشعر أن خط شعره قد اغتصب منه نصف حقه، وجسمه كله أسمر، حتى خضرة عينيه لم تناسب مظهره العام وبدت عجيبة ومنفرة. مع كل ذلك، فقد شع جسده فحولة جعلت العديد من الفتيات يحلمن بمشاركته الفراش يوماً ما. قطع ميشيل شارع الجامعة في لحظات وتعدى بوابات القصر

الرئيسية وانعطف يميناً، حتى وصل إلى بوابة مستشفى الأطفال الخلفية (حيث اعتاد أن يكذب على حارسين ساذجين بأن يقول لهم أنه نائب بالمستشفى فكانا يسمحان له بالدخول)، وصعد على الكوبري الخلفي فخلص إلى الجهة الأمامية من مستشفى الأطفال. قاد ميشيل بتؤدة حتى انتهى إلى الواجهة الرسمية لقسم الحوادث.

كان مقرراً عليه أن يحضر في قسم الحوادث عشرة أيام كاملة آخرها اليوم، فكان يهمل كثيراً في الحضور، لولا أن بلغه أن نائباً يمنياً صارماً يدعى وليد جمعة سيكون هو المسئول عن أطباء الامتياز نوبتجية النهار، وهذا ما أرغمه على الاستيقاظ مبكراً (نسبياً، العاشرة صباحاً) والمجيء. فركن السيارة دون الحواجز المقامة أمام مدخل القسم، ثم نزل يستطلع الجو بشيء من الملل... ما يزال قسم الحوادث بالنسبة إليه كما هو، لا جديد تحت الشمس الكاسفة: مآسٍ وموت وخناقات ورياء بعضٍ وعذاب الآخر، وصراخ وقلة أدب وجور وجنس وجميعه معروض للفرجة ببلاش. حياله، إلى اليسار قليلاً بعد قسم الأشعة متربعات على البلاط ومتكئات إلى الحائط الذي تلوثه بقعة كبيرة غريبة أعلى الشمال، جلست مجموعة من النسوة القرويات المتشحات بالسواد، يبدون في قمة من الإنهاك والإجهاد، إحداهن بدأت تلطم بوهن ويأس كأنها تمارس طقساً تعلم أن لا رجاء منه. كانت امرأة بارزة الصدغين، كأن رأسها مثلث مقلوب، منحولة الوجه، ساهمة النظر، يفتر ثغرها من لحظة لأخرى عن رعشة كالابتسامة المريضة ثم ما تمكث أن تتلاشى. ولم تتربع بشكل كامل، ففردت واحدة من ساقيها منحسراً عنها الرداء دون مبالاة، فانجلت دوالٍ مزمنة متقرحة أعلى كعبها الأيسر اشمأزت منها نظراته. أما فوق قليلاً — عند حراس الأمن — فقد انبرى شجار عاتٍ بين 'عم رجب' — الحارس الأكبر سناً — ورجل فلاح من المرافقين يروم الدخول بالقوة للاطمئنان على حفيده، مع بعض الفلاحين الآخرين.

— 'يعني عافية هي ؟!'

— 'آه عافية.'

فشد الرجل جلبابه يريد أن يشقه وهو يجهش بالبكاء:

— 'يعني نسيب الواد يموت جوه لوحده يا اولاد الحلال ؟'

فجذبه الرجال فيما بينهم وجعلوا يضربون على عاتقه ويطيبون خاطره بينما لوى عم رجب كفيه في زهق كأنه يخاطب المولى ثم قال للرجل بليونة وهو يقترب منه:

— 'ما هو في واحد منكم دخل معاه يا عمي الحاج!'

فقال الرجل سانداً رأسه على كتف رجل آخر أصغر سناً يمضغ الكلام بالبكاء كأنه كلب جريح:

— 'طلعوه... طلعوه ابن الكلب عباس خلوني أقعد معاه!'

وأخذ يبكي بحرقة فتهامس الحارس مع آله حتى سمح له أخيراً بالولوج، من دون أن يلفت أنظار الدكاترة بالداخل ذوي الأوامر المشددة. إلا أن هذا لم يكن بالتصرف الحكيم تماماً، لأن جيوشاً من المرافقين المحجوزين بالخارج قد أقبلت تريد معاملة على نفس المنوال الذي حدث مع الرجل الفلاح.

تقدم ميشيل وسط الهرج والمرج الذي حدث، فحيا رجل الأمن الآخر (الأسمر السمين) تحية يسيرة، فسمح له الرجل بالدخول دون أن يرد التحية، وهو يمد ذراعه من خلفه مغلقاً الطريق على أي ممن سولت له نفسه النية في التذحلب. فتبدى القسم من الداخل عبارة عن طرقة طويلة بها شيء من الضيق تبحثرت على جانبيها الحجرات، طرقة حسنة الإنارة ذات سقف صناعي يشع بالضوء النيون القوي تحتل غرفة التسجيل أول حجراتها، وتتبعها غرفة الجبس، فغرفة التذاكر — كلهن إلى اليسار — ثم حجرة الاستقبال الواسعة إلى اليمين وهي أول حجرة إلى اليمين، أما باقي الصفين فكانا موزعين بين غرفة للكشف على السيدات بعد حجرة الاستقبال، فحجرات خاصة لحجز بعض المرضى، فبعض الاستراحات للنواب، فغرفة صغيرة للغرز ودورات للمياه، وينتهي القسم آخر ما ينتهي بباب مودٍ إلى قسم عمليات الاستقبال على الناحية الأخرى حيث تجرى العمليات الطارئة في الغالب. وكان القسم في خلو هذا الصباح على غير العادة، ودنت منه ممرضة يعرفها اسمها أسماء — فتاة نحيلة الجسم بطرحة بيضاء تكثر من المزاح باليد ووجهها عظمي شهواني — فضربته براحتها على صدره وقالت بصوت ناعم مزيف:

— 'برضه تغيب عنا ليلة أول امبارح؟ طب أنا مخاصماك.'

كانت تحمل تذكرة مريض وعينة دم معها في طريقها للمغادرة، فجذبها من ذراعها وسألها عن سبب هذا الهدوء الغير معتاد في القسم، فأخبرته أن رئيس القسم يستعد للمرور فجاءت التنبيهات مشددة على كل رجال الأمن بطرد المرافقين أغلبهم وتنظيم الدخول، وكان السبب في ازدحام أي قسم في الغالب هو فتح الباب أمام المرافقين مما يخلق ضجة ويجري ارتباكاً وفوضى. ثم زايلته وهي تتأود بشكل ملحوظ فاتجه نحو غرفة الجبس يلقي عليها نظرة. كانت غرفة الجبس غرفة ضيقة مربعة، كأنها زنزانة من زنزانات القرون الوسطى، مدفونة في الجبس الأبيض الذي غزا كل شبر منها. وكان زميلٌ لهم اسمه عصام (من أحباء مينا موريس) بالداخل بكامل ملابسه، لا يرتدي بالطو، يقوم بتجبيس رجل فتاة مراهقة تدلت طرحتها عن شعر أسود ذابل مفروق ومربوط من الخلف بخيط أبيض، طفقت — الفتاة — تتأوه عند كل حركة وتطلب من عصام أن يأخذ حذره. وقد عُرف عن عصام منذ زمن عشقه البالغ لتخصص العظام، فكان يرافق النواب والأساتذة المساعدين في عملياتهم من بعد وهو في سادسة طب، ويشتري المراجع في مادة جراحة العظام (مثل كتاب «McRae» الشهير وكتاب «Manual of Internal Fixation») من أيام الدراسة، وقد تعلم الجبس قبل الامتياز على يد ابن خاله نائب العظام في مستشفى أم المصريين، وتمنى من كل قلبه أن تواتيه الفرصة في نيل هذا التخصص الذي اندمج فيه كيانه كله. لكن تصدرت إزاءه مشكلة ممضة جداً للأسف، ذلك أنه كان مرتباً على دفعته بعد الثمانين، وهو كان يحلم بنيابة الجامعة وقسم العظام لا يأخذ أبداً نواباً إلى هذا الحد، وهو القسم رقم واحد في الإقبال عليه. لذلك فقد آيس عصام من إمكانية حصوله على نيابة العظام في مستشفى جامعة أسيوط، ولفته الحيرة كثيراً بصدد موقفه من النيابة. وكان من المتواجدين بقسم الإصابات أربع وعشرين ساعة، يساعد النواب ويتعلم منهم، لذا فلم يستغرب ميشيل وجوده وحياه بتحيته الدائرة على لسانه:

— ’صباح الخير يا برنس.‘

التفت له عصام فما عتم أن ابتسم وهو يرده التحية. كان عصام شاباً طويلاً، فاتح البشرة، تميز برأس بيضاوي طولي قمته على شكل قبة من

الشعر الأسود القصير الخشن، كأنها قطعة من أرض جولف، وجهه بيضاوي كرأسه غائر في مكان مقلتيه، وبالنسبة لفيه فعندما ينغلق طرفاه لا يظهر سوى كخط مستقيم رفيع. ودعاه عصام للدخول فمانع ميشيل وقال أنه سيتوجه للنائب المسئول عنه كي يعلمه بحضوره، ومضى بالفعل قدماً لغرفة التذاكر حيث يتواجد النواب في معظم الأوقات، وسأل عن الدكتور وليد جمعة نائب الجراحة فقال له ممرض وسيم أسمر بدوجلاس أنه تواً قد غادر متوجهاً للقسم بالأعلى. فسأل عن مكانه فضحك نائب من نواب العظام، بشعر طويل ونظارة ضخمة يشبه أغنام المارينز، وهتف:

— 'مكانه الشيطان!'

فتظاهر بالغباء وتساءل:

— 'أينعم ؟'

فعاد النائب يؤكد أن مكانه الشيطان. وكان تجلس بجانبه ممرضة مليحة تقضم من ساندويتش، فانفلتت في القهقهة، وغطت على فيها. وأعاد النائب ذو الشعر الناعم تأكيده أن النائب المذكور قد غادر وأنه ترك خلفاً له الشيطان، ثم زعق:

— 'إنت مش عاوز تفهم ولا إيه ؟'

فهز ميشيل رأسه وهو يبرحه قائلاً:

— 'معلهش يا باشا أصل احنا فهمنا على قده.'

وعاد لغرفة الجبس مرة أخرى فكان عصام قد فرغ من تجبيس الحالة فقال لها وهو يفرك كفيه:

— 'هاكتب لك كارت متابعة يا ماما تجي لي بيه بعد شهر ونص، في العيادات مش هنا، وما فيش تحميل خالص قبل اسبوع ع الأقل، ها، فاهمة يا ماما ولا عاوزانا نجبسك تاني ؟'

فقالت الفتاة أنها فهمت، ثم هبطت من على ترابيزة الجبس المرتفعة التي كانت جالسة عليها بمساعدة شابين بدوا أخويها، وجعلت تثب بحرص على قدمها السليمة وعصام يضيف لها وهو يغسل يديه في حوض متسخ بالركن أنها لابد أن تنتظر ريثما يكتب لها كارت المتابعة. فهزت الفتاة رأسها وهو تخرج، ثم سأل عصام ميشيل أن يعطيه قلماً، مسكه

بأنامله المبلولة والتقط ورقة كرتونية خضراء من فوق الترابيزة فخط داخلها بضع كلمات، ثم أعطاها للعامل ليعطيها للفتاة بالخارج.

ثم سأل عصام زميله عما إذا كان قد وجد النائب، فنفى ميشيل في تأفف وحكى له ما بدر من النائب ذي الشعر الناعم الذي يشبه أغنام المارينز. فقال له عصام ضاحكاً:

— 'أصل انت مش عارف، الدكتور وليد كان دايماً بيقول إن له قرين. باقول لك إيه، أحسن حاجة عشان تبقى في المضمون استناه شوية كمان.'

ثم نظر إليه فجأة من أعلى لأسفل، كأنه يراه للمرة الأولى، فسأله في دهشة:

— 'أمال فين البالطو بتاعك ؟!'

فأجابه ميشيل في قرف:

— 'ما جبتوش.'

فضحك عصام — وكانت تعجبه 'دماغ' زميله الكبيرة — فضربه كفاً وهو يقول:

— 'أنا قلت برضه مش أبو جورج اللي يشرفنا مرة واحدة وعاوز يحضر!'

واستمر عصام في الضحك بينما مكث ميشيل ثابتاً ورماه بنظرة لائمة بمعنى 'مش وقته'، ثم أبدى ميشيل ضيقه ورغبته في الانصراف أياً كان الوضع، فريثه عصام، وبعدها استطرد مرة واحدة:

— 'إنما انت فصيلتك إيه يا ميشو ؟'

في تلك اللحظة أدخل عامل قصير يدعى عم إبراهيم رجلاً مصاباً في وجهه وساقه اليمنى على سرير نقال الغرفة، وقاطعهما لحظة فقال: 'العيان دا عاوزين له slab[٧] يا بيه'، قبلما يرد ميشيل في غير راحة:

— 'بتسأل ليه ؟'

استعرض عصام الحالة الواردة واقترب منها، ثم قال مخاطبه دون أن ينظر إليه:

---

[٧] دعامة مؤقتة للكسر قبل العملية.

– 'ما فيش... أصل في واحد تبعكم هنا محجوز جوه في الـCPR[٨] مش لاقيين له متبرعين.'

صمت ميشيل لحظة ثم تساءل:

– 'مسيحي يعني ؟— حالته تعبانة قوي يعني ؟'

– 'إنت الأول قل لي على فصيلتك، إنت ما قلت ليش أي حاجة لغاية دلوقتي.'

سكت لحظة قبل أن يرد في تردد:

– 'O موجب.'

انطلق صخب بالخارج في خلال هتف عصام وهو يدور حول المريض المسجى أمامه من ناحية ميشيل:

– 'تمام! أنا كنت عارف على فكرة، مينا قال لي، بس انا كنت عايز أختبرك بس.'

ثم دفعه بجنبه وهو يدور حول المريض المسجى أمامه فتراجع الآخر القهقري وأردف عصام:

– 'كدا انت تستناني لغاية ما اخلص أروح معاك. ولا اقول لك، اتكل على الله على كده وروح للميس نجلاء في أوضة الـCPR، هي هتتولى الموضوع.'

خرج ميشيل إلى الخارج، حيث درأ عليه نفر من الأشخاص يسأله الشورى في حالة المريض الموجود بغرفة الجبس فقال لهم أنه لا يعرف شيئاً على الإطلاق. كان متبرماً، في هذا الزمان الناس كلهم أولاد كلب، وهو لم ينم البارحة جيداً. كان بالفعل ناعساً فلم يعرف كيف يفكر جيداً، وتذكر كأضغاث أحلام يوم أن طلب منه صاحب قديم في نجع حمادي يدعى شنودة أن ينقل أمه بسيارته للمستشفى الجامعي بأسيوط فتكاسل وأبى بلطف، وعندما زادت لجاجة شنودة عن المعقول خسره دونما ندامة. نظر حواليه فأبصر طفلة صغيرة حافية هرولت كحشرة صغيرة تحت قدميه للخارج، ثم أقبل عامل من العمال اسمه حسان حالقاً نظيفاً يضع طاقية

[٨] Cardio—Pulmonary Resuscitation: الإنعاش القلبي الرئوي، مصطلح قريب من غرفة العناية المركزة.

فلسطين كعادته فحياه ببسمة كبيرة من تحت شاربه الكبير وأسنانه البنية، لأنه — ميشيل — رشاه في كذا مناسبة كي يغطيه في هروبه من النوبتجيات الليلية. واستند إلى الحائط حيال باب غرفة الجبس ينتظر عصام باسطاً عليه راحته، ثم شد يده خشية من العدوى، وانتظر حوالي خمس دقائق، قبل أن يتذكر فجأة كمن أفاق من تنويم أنه قد أخبره في النهاية أن عليه أن يتجه لغرفة الـCPR مباشرة دون أن ينتظره، وأنه سيجد الميس نجلاء هناك. حينئذ تيقن من أنه ناعس بجد فقرر المغادرة.

دار على عقبيه متوجهاً ناحية الباب إلا أن عصام خرج فجأة فاستوقفه دهشاً:

— 'إنت رايح فين ؟ !'

فشعر بالحرج وهو يرجع إليه ببطء:

— 'ولا حاجة، كنت رايح أشتري لي علبة سجاير بس.'

— 'سجاير ايه دي اللي قبل ما تتبرع ؟ [العامل يخرج بالسرير النقال والمريض فوقه ساقه مدعمة وملفوفة بالشاش] في حد يشرب سجاير قبل ما يتبرع بالدم ؟'

ثم استدار مولياً وجهه شطر طرقة القسم الممتدة وهو يستطرد سائلاً إياه:

— 'رحت شفت العيان قريبك ؟'

فقال بثبات:

— 'أديني رايح اشوفه معاك.'

مضيا سوياً إلى غرفة الـCPR التي كانت في منتصف طرقة القسم. كانت حجرة متسعة شيئاً تكاد تكون في نفس مساحة حجرة الاستقبال، ولم تحو سوى أربعة سرائر كل اثنين على حدة وواحد منهن فارغ. على أول سرير — من ناحية الباب — رقد رجل سمين جداً، لدرجة أن شطراً من لحمه تدلى من خارج السرير، ضاعت ملامحه بين الكدمات والتورمات والجروح المتعددة التي فعمت كل الوجه وحتى أعلى الصدر، أما شعره فكان للعجب ممشطاً، وكان غائباً كل الغياب والأسلاك والخراطيم به متصلة، أما السرير الذي يليه — وكأنه النقيض — فقد احتوى طفلاً في حوالي العاشرة من العمر احتواءً تاماً، طفلاً ضعيفاً انثنى على نفسه وضم

يديه إلى صدره كأنه نائم على فراشه في المنزل في دعة، وامتد من أنفه خرطوم التغذية وإذا قدرت حركته ليقال أنه لولا ارتفاع وانخفاض صدره الجامح من كل لحظة للأخرى – كأنه يتثائب – فإنه لم يكن يتحرك على الإطلاق، ولم تجل عليه أية إصابات أو كسور، وكانت الممرضة في طريقها لضخ بعض الأغذية من خلال الخرطوم المتصل بأنفه. المريض الأخير كان في آخر الغرفة بجوار السرير الخاوي. كان عبارة عن شاب نحيل يفغر فاه على كدمات لوثت أسنانه الظاهرة وورمت شفتيه، وكانت كلتا ساقيه مربطة بالشاش ومدعمة. اقترب عصام من سريره حيث وقفت إليه فتاة تنظر للراقد بهدوء فصبح عليها داعياً إياها بالآنسة، وسألها كيف حال المريض، فقالت ببساطة لا تخلو من استغراب أنه بخير والحمد لله. لم يكن يلبس البالطو لذلك لم ينذر منظره أنه طبيب، ووقف ميشيل من خلفه بقامته المديدة كأنه يحتمي به. ثم قدم عصام زميله من خلفه باسمه على أنه المتبرع المطلوب، فانفرج وجه الفتاة وأشرقت كأنها الشمس تحس بالخفة بعد انقشاع الغيم وهتفت:

– 'متشكرين خالص! إحنا مش عارفين نقول لكم إيه!'

بدت مضطربة لا تدري ما تفعل، وفحصها ميشيل بنظرة فاستملح محياها السوي الطولي وأنفها المستقيم وبشرتها الفاتحة النظيفة. إلا أنها كانت تعقص شعرها من الخلف في تقشف وتلبس بلوزة «فلاحي» من تلك البلوزات الحرير الصناعي ذات الورود الصفراء والخضراء، وبنطلوناً أسود من القماش التفصيل. أما عصام فقال وهو يعقد كفيه ويميل برقبته وهو يكلمها ويبتسم (وكانت له كعادة):

– 'طب ياللا كدا روحي هاتي لنا الوالد ولا حد م الأهل يروح مع الدكتور والميس عشان يتبرع.'

أجفلت الفتاة في مكانها وهرعت يميناً وشمالاً كأنها مسلسلة في الأرضية، ثم انطلقت دفعة واحدة للخارج وهي تقول:

– 'حاضر حاضر، لحظة واحدة بس.'

وخرجت واتكأ ميشيل بكوعيه على حاشية السرير المرفوعة آخذاً في التطلع للجسد الراقد وكتاب معجزات البابا كيرلس الموضوع تحت إبطه، فسأل على تردد:

– 'وهو ليه ما تتبرع لهوش الأخت دي يعني ؟'

هز عصام منكبيه المنحنيين فقال:

– 'الله أعلم. أنا ها اسأل لك الميس.'

ذهب ليستفسر من الميس نجلاء، وكانت امرأة في نهايات العشرينات عريضة الجسمان والعجيزة وكبيرة الثدي ذات عينين خضراوين ووجه أحمر كالفاكهة، ثم رجع يقول:

– 'بتقول إن العيلة كلها عندها Hepatitis C[٩].'

فحملق فيه مذعوراً:

– 'إيه ؟!'

– 'آه والله، بتقول إن العيلة كلها عندها Hepatitis C.'

– 'يعني عاوز تقول لي إن البت دي اللي كانت واقفة معانا عندها Hepatitis C ؟...!'

– 'يا عم باقول لك كل العيلة، العيلة كلها، هي دي مش من ضمن العيلة ولا إيه ؟'

رغماً عنه، ولدهشته العظيمة، اهتز حتى كادت الدموع تطفر من عينيه. ماذا جرى له ؟ هل جن ؟ لكنه لم شتات نفسه وكاد يسأله عن بقية أعضاء العائلة لولا أن الفتاة قفلت وامرأة ريفية متشحة بالسواد تسير في ركابها كأنها مربوطة، يتبعها رجل على درجة من السمنة يلبس قميصاً أزرق وبنطلوناً بنياً غير متناسق. كانت عين المرأة التي شافها قبل قليل تفترش السلالم خارج القسم مع بعض النسوة الأخريات، والتي اشمأز من قرحة قدمها، أما الرجل فكان في نحو العقد السادس، أشعث الشعر والشارب وإن حليق الذقن تماماً. قدمت الفتاة المرأة على أنها أمها وأم المريض – رزيقي – والرجل على أنه خالها، ثم استطردت مخاطبة ميشيل في نظرات تفيض بالعرفان والفخر:

– 'الراجل اللي واقف ع الباب ما كانش مصدقني لما قلت له إن في دكتور ها يتبرع لنا، لولا ما قلت له الدكتور ميشيل.'

---

[٩] الفيروس الكبدي سي.

هز ميشيل رأسه وابتسم بحرج لم يعرف ماذا يتكلم، في حين خاطبته أمها بتأثر صادق:

— 'المسيح بعتكم لينا يا ولدي. بتوعوت بنك الدم دولا يا ولدي ربنا يجازيهم، كلنا رحنا عاوزين نتبرع له يقولوا لنا استنوا شوية وبعدين يقولوا دمكم بايظ ما ينفعش قال... وإني أفهم ليه مش عارف!'

(كانت — كبعض النساء — تتكلم بصيغة المذكر).

أطرق ميشيل وطفق في تحريك قدمه، بينما تصدى عصام قائلاً:

— 'معلش يا ماما ماهو في حاجة اسمها فصائل، وحاجة اسمها توافق، وبعد دا كله يشوفوا الدم ها ينفع ولا لأ. المهم ما تشغليش نفسك انتي بس وخلينا نشوف الممرضة تروح مع الدكتور عشان ما يتأخرش.'

ونادى على الميس فجاءت ثم أخذت في تجهيز السرنجة لسحب عينة من المريض، واعترضت الأم فهتفت:

— 'ما كفاياكم ها تصفوا دم الواد!'

لكن الميس أفهمتها بهدوء — قد يحسب بروداً — أن أخذ العينة لازم لعمل التوافق بالنسبة للمتبرع. ثم استأذن عصام فانصرف فسألت الأم منقذهم الباقي عما إذا كان زميله مسيحياً، فأجاب أن لا باقتضاب، فمكثت صامتة.

وأخذتهم الميس خارج القسم، ثم صعدت بهم من سلم المبنى الخلفي إلى الدور الثاني حيث أقسام الجراحة وغرف العمليات، قطعت بهم ممراً طويلاً بين الأقسام حتى نزلت بهم إلى بنك الدم، فتوقفت قبل أن تلج القسم الداخلي وقالت وهي تشير براحتها:

— 'لو سمحتوا يا جماعة ما تعملوا لناش ربكة، الدكتور وحده هيخش يتبرع ولو ممكن يبقى معاه الراجل. [وأشارت للفتاة وأمها] إنتي وإنتي تقعدوا هنا بره وتستنوني لغاية ما اخلص شغلي جوه.'

ثم أومأت لميشيل بالدخول لغرفة التبرع وهي تقول: 'هنا يا دكتور'، ثم دلفت من خلال باب القسم الداخلي وتركتهم.

كان الرواق الخارجي — الذي هم فيه — عبارة عن صالة صغيرة تمتد قبالة الغرفة، صالة مبطنة بالكراسي البلاستيكية الصفراء من جهاتها الثلاث، وكان بشر متوزعين بالمكان فرادى وزرافات: هنا فلاحون —

وأغلبهم فلاحون — بعضهم واقف إلى مدخل الحجرة ينتظر دوره والبعض الآخر احتل كنبة بأكملها متجاوراً، وهنا امرأة في حوالي الأربعينيات تقعد مع ابنها ينتصب أمامهما أفندي بقميص وبنطلون مكويين يتلفت ذات اليمين وذات اليسار من حين لآخر ولاسيما ذات اليسار من جهة حجرة التبرع، وهنا شاب بشارب كث على أناقة يجلس بجانب شاب أسمر متين والأخير منكفئ منعطف تجاهه يكلمه — والآخر كأنه ما بسامع — كأنه يتضرع إليه، وهناك إلى الحائط بالأعلى صورة قديمة مبروزة لسيدة تشبه سوزان مبارك كتب تحتها في نفس الإطار: 'السيدة الفاضلة الدكتورة فوزية علوان'.

ومضت الأم وابنتها للجلوس على كرسيين شاغرين، بجوار السيدة الجالسة جنب ولدها في هدوء، فقال الخال على تحرج:

— 'ماعلهش ها نتعبك معانا يا دكتور.'

فهز ميشيل رأسه، المائل كشجرة ساقطة، وقال بصوت يكاد لا يسمع: 'على إيه؟'، ثم تقدم فدخل الحجرة والرجل في أثره.

وقبل أن يضع له وسيم هلال الإبرة أضحكه منظره الخائف فوق السرير كالأرنب، العملاق، المذعور، فتقهقر شويا للخلف متهالكاً يسترجع أنفاسه وهو فاقد الزمام في القهقهة، فالتقط ميشيل خرطوم الضاغط الوريدي من على السرير المجاور له ورماه به وهو ينتهره:

— 'ما تخلص يا بن الجزمة!'.

خرج من المستشفى دائخاً بمشقة تمكن من استقلال سيارته. وعند البوابة الداخلية للقصر — المفضية للجامعة — رأى الحارس يرنو للقرص الكاسف من خلال ورقة أشعة. كان قد نسي أن اليوم به كسوف. والشمس لم يلمسها احتجبت إنما قليل من الظل. لمح بضعة فتيان يتمازحون مع الحارس فأعطاهم ورقة الأشعة يختلسون منها النظر بدورهم. وآن عبوره بالضبط سمعه يقول لهم ومحياه الأسمر الممكتنز المستدير يضحك فذكره بقرص الشمس نفسه في كتب التلوين:

— 'فركش فركش، كدا كل واحد إيده على سبعين قرش. ها ها ها.'

لكن مال الدنيا دكنت هكذا كأنها تذوي ؟ هل بسبب الكسوف أم أنه يفقد وعيه ؟ بعد مسافة قصيرة أوقف السيارة فأخذ أنفاسه، ثم استلقى للخلف ومال على الكرسي المجاور ورفع رجليه بصعوبة، وأرخى جفنيه ومنع عنه التفكير.

ولم يتحرك ثانية حتى تيقن من أن الكسوف قد مر وأن النور كافٍ ليرشده للمنزل في أمان.

II. عند الرابعة والثلث أيقظه رنين جهازه المحمول. زمجر هاني معلناً عن سخطه وتقلب، بينما التقط هو الجهاز في شبه غيبوبة وداس الزر الأخضر. فأتاه صوت ريمون منقريوس يهتف من الجهة الأخرى وسط ضجيج عظيم، كأنه يتكلم من العتبة أو الموسكي في عز ازدحامهما:

– 'إنت لسه نايم يا ابو الكلاب ؟!'

فسأله بصوت خامد ما فتئ عبداً للنعاس:

– 'عايز ايه يا بن «الشر . . . . » ؟'

فصرخ ريمون:

– 'قوم يا عم فز، العدرا بتظهر!'

شيئاً بشيئاً كان ميشيل قد دفع جسمه من فوق الفراش، مغمض العينين، وهو يتابع منه أنباء هذا الخبر الخطير. الظاهر أن الناس دنو نهاية القداس في كنيسة الملاك قد شاهدوا شيئاً ما، فهللوا وصاحوا حتى أن كل من بالشارع سمع، ثم قام كلٌ بالإرسال لذويه وأقاربه فسرعان ما انتشر الخبر في المدينة كلها وغص المكان قرب الكنيسة كله بالبشر.

وبعد أن أنهى ميشيل المكالمة لاح الاهتمام في وجه هاني طلعت الذي كان قد نهض مقعياً يتابع المكالمة في حزر، فأخبره ميشيل بما سمع. فما كان من هاني إلا أن قفز على سريره كالجرادة السعيدة وصمم على الذهاب، ولم ينزل عن مرافقة ميشيل إياه. فقام ميشيل مغصوباً على أمره وإن لم ينزعج جداً من الأمر، واستبدل ملابسه، ثم هبط خلف صاحبه الأصلع والأخير يستحثه ما بين كل لحظة والأخرى ثم ما يلبث أن يهرول على السلالم فيختفي عن ناظريه... وبرزا للشارع فكانت كل هوجة

الكسوف قد انجلت والشمس الآن في دربها للراحة، والشارع شبه خالٍ إلا من عم رضا قدام ترابيزته يسرح ببصره يميناً ويساراً، والذي حياه ميشيل باسماً ثم تبع هاني (الذي كان قد سبقه إلى السيارة يشد مقبض بابها في عصبية، منزعجاً جداً أنه يرفض أن ينفتح) فضم له أنامله وهو يضغط زراً في ميداليته (فأزت السيارة وفتح الباب)، قائلاً:

— 'بالراحة بالراحة، كل حاجة تيجي بالراحة'.

وبلغا المنفذ في خلال عشر دقائق، فما أن تبدى لهما النميس حتى هالهما الزحام: أمواج من الرؤوس سدت الشارع ككرات دم متجلطة تسد وعاءً دموياً، وكان الشرطة قد منعوا المرور وقفلوا الشارع رسمياً بالحواجز. فاضطر ميشيل أن يدور من الجهة المخالفة راجعاً أدراجه كي يركن السيارة في أقرب موضع، في شارع الجيش.

وركنا السيارة وعادا سوياً على الأقدام وهاني يقول لزميله في أمل وهو يتشوف ناحية الشارع المسدود:

— 'أكيد في حاجة، ما داموا سدوا الشارع وعملوا كده يبقى أكيد في حاجة.'

فرغب ميشيل في أن يشاكس زميله قليلاً فقال متظاهراً بالامبالاة التامة:

— 'مش لازم، ممكن دا كله يطلع في الآخر هجص.'

ودنوا من الشارع ففتح له هاني عينيه في إنكار وهتف:

— 'إيه الكلام اللي انت بتقوله ده؟! إنت مش فاكر ظهورات العدرا في المطرانية ولا إيه؟'

ذكريات حقة لكنها عزيزة المنال. أيام القناديل والفول المقلي والسهر الصباحي وبيت الشهيد أبادير ربنا يرحم أيامه. ولم يخل الأمر من حوادث مدفونة ربنا يسترها علينا ويرحمنا. وأجاب ميشيل يتسلى به وهو ينظر للأرض:

— 'لأ.'

فجن جنونه وهو يهتف فيه مرة أخرى:

— 'سنة أولى! إنت مش فاكر سنة أولى؟!'

لم يتعارفا إلا في السنة الثالثة، أيام متحف الباثولوجي والأوقات الصعبة وعبد الرحمن والساعات الطويلة في الرسم والمذاكرة والضغوط الفتاكة. سنة ثالثة أصعب سنة في كلية الطب وأوعرهن على الإطلاق، لذلك خرجت صداقتهما قوية لم تتحطم تحت وطأة الاختلاف.

— 'لأ.'

هكذا كرر ميشيل. ثم لم يتمالك نفسه فضحك، فضربه الآخر في كتفه:

— 'إنت بتستعبط.'

— 'لا مش باستعبط، كفرت وحياتك من وش سيادتك اللي دايماً في بوزي ليل نهار.'

فابتسم هاني وهما يلجان الشارع ويختلطان بالحشود رويداً كما يختلط تيار ماء جديد بمياه بركة ثم ما يعتم أن يندمج فيها:

— 'وش سيادتي دا هو اللي هتشاور عليه في يوم من الأيام وتقول: "هو دا اللي انا كنت ساكن معاه زمان وما عبرنيش بعدين".'

— 'بعد ما نضف يعني؟'

فرد هاني وهو يعدل نظاراته متأهباً للحظة الاندماج الوشيكة:

— 'نضف نضف، على راحتك، بس احنا نتمنى ننضف.'

كان الزحام مرعباً لدن باب الكنيسة، وامتدت أمواج البشر المتلاطمة حتى عمق الشارع وحتى الطوار المقابل، لكن ميشيل اندفع معولاً على جسده المتين بين الأبدان فالتصق به صاحبه من الخلف يحتمي به. وزاح بينهم ودفع بلا رحمة حتى انتهى إلى داخل الكنيسة بشق النفس. تساءل ميشيل في نفسه من أين تأتي هذه الأعداد الهائلة؟ (ورأى فلاحين أيضاً)، فهل بلغ الخبر خارج أسيوط بهذه السرعة؟ كان هنالك رجال متلاصقون يمسحون عن رقابهم العرق وآخرون يدفعون في عكس الاتجاه، نساء، أطفال فوق الرؤوس وبين الأقدام، أولاد وبنات في سنى يافعة متشبسون بحقهم في الزيارة، عجز، وأناس بالكاد يقدرون على الحركة يتخبطون في الزحام، كلهم قدم لرؤية العذراء حتى ليقال لم يتخلف أحد. ثم بحث عن صديقه في ظهره فلم يجده. دور وجهه في كل النواحي يتحقق من أثر له ولكن هيهات، الموج كله كان هائجاً حوله كبحر غاضب والناس تدفع

وتدفع وتدوس، ولولا جسمه العظيم البين حتى من وسط الجموع الهائلة لديس بالنعال مثلما حدث لصبية قدامه وهي ليست بالحادثة الفريدة تماماً في تلك المناسبات.

ونزل ميشيل من السلالم أخيراً فتنفس الصعداء وإن لم يخف الزحام. كان جسمه كله وملابسه مبتلة بالعرق، ومد نظره فرأى حوش الكنيسة المتواضع المساحة المزدان بأشجار الزينة قد صار الآن كأنه مزرعة خلوية غصت البشر لدرجة أن لم يتضح منهم غير أعلى الشعر ومن حين لآخر — وبصورة متفرقة — الأقفية والجبهات... جبهات كثيرة ومختلفة بيضاء وقمحاوية وسمراء وعريضة وضيقة ومرتفعة وواطئة يغطيها الشعر... حتى الكنيسة العليا والسلالم الراقية إليها اكتظت بالأجسام وإن وضح بشكل لا يقبل الجدل أن الحدث كله — إن كان — يتركز في الكنيسة السفلية المنخفضة عن الحوش بعدد كذا درجة من الدرجات. ووقف على مدخل هذه الدرجات الهابطة شبان بزي الكشافة (القميص الأبيض والبنطلون الأسود والمنديل القرمزي المربوط حول الرقبة والبادج المشبك بدبوس في جيب القميص) يمنعون الاندفاع الغشيم على الكنيسة التحتانية وينظمون المرور. وتصاعدت صيحات الاحتجاج من الناس تتهمهم بسد الطريق وسوء الإشراف، ومنع الناس من دخول بيت ربنا . . . . إلخ، ثم تبدى أمل جديد في مجموعة من الشباب بينهم نفر من الرجال خارج من تحت، فرتب فتى الكشافة (وكان البادج يقول: 'عماد') طابوراً للوالجين مكانهم وعددهم فقط اثنا عشر، لكن ميشيل اندس في آخرهم فصاروا ثلاثة عشر فلم يجرؤ أحد على مراجعته. وسار الطابور في نظام وقدسية ككتيبة من الجيش إلى حين بلوغ الكنيسة نفسها، حينئذ كأنهم كيس أرز وانفلت، تبحثروا في كل صوب، وهرع كلٌ إلى فرجة تخيلها يحشر جسمه فيها.

وبدا مدخل الكنيسة كسد مصمت في الحقيقة، فمن ذا الذي يصل إلى هنا ثم يخرج؟ ثم علت أصوات هتاف وصياح وترنيم بدأ قوياً ثم انفثأ فجرت حركة جماعية من الاضطراب والتوتر والهياج انتقلت من أقصى الكنيسة بالداخل حتى المنتظرين بوله بالخارج، ووجبت القلوب. على أن الحركة ما تلعثمت أن هدأت وتفشت خيبة الأمل، حتى أن ميشيل — في

عرقه وسأمه وقرفه وحبسته بينهم بالأسفل — ضحك. ثم نظر خلفه فوجد فتى الكشافة يسمح بدخول دفعة أخرى، فقال بصوت مسموع: 'ما بدهاش'، فمن ثم مال برأسه وانطلق فيما بين الأجسام المتلاصقة دون تحرج كأنه أداة حفر جاسئة تحفر خندقاً... ولم يكن الأمر عسيراً للغاية، فكلها دقيقة وتقدم لموضع متوسط داخل الكنيسة التي وجد أنها مطفأة الأنوار والمراوح. وروعه ما لقاه في داخل الكنيسة: الناس إما بسبب التزاحم أو لهفة على الرؤية قد تراصوا فوق بعضهم البعض كأنهم في طبقات: الطبقة الأولى تألفت من المنبوذين في الطرقة خارج الكنب وإليها انتسب هو، والطبقة الثانية كانت من المشمولين داخل إطار الكنب ووقفوا وقوفاً بالأسفل، تحول أقدام أصحاب الطبقة الثالثة والرابعة — الواقفين فوق الكنب فالواقفين فوق ظهور الكنب بالترتيب (وهم أعلى وأسمى طبقة الذين تمكنوا من رؤية كل شيء منذ البداية) — دون تمتعهم بأقل حقوق «الحاج» العادي، في التطلع على الأقل لما جاء يحج إليه. لم يتمكن ميشيل بدوره من رؤية أي شيء بسبب هذه الحيطان المتراصة عالياً حتى أقصى المكان عند الهيكل، وارتفع صرير الخشب من الكنب تحت حمل الوقوف فوقه منذراً بكارثة لم تحدث حتى الآن. ثم ارتفع صوت رجولي ليس كبير السن من الميكروفون يبتدر الجمع الغفير بما يشبه الالتماس قائلاً:

— 'يا جماعة...'

ثم توقف الصوت. ثم عاد محاولاً إبداء الصرامة:

— 'ياجماعة، كدا ما ينفعش... كدا إحنا بنلوث مكان ربنا وربنا كدا مش ها يرضى عننا...'

سرت همهمة بسبب الأعداد الفائقة تحولت إلى ضجيج تام، فتابع المتكلم وبدا أنه واحد من الكهنة:

— 'كدا يا جماعة إنتو هتجبرونا على فعل فعل ما يسرناش... إحنا مش عاوزين نحرم حد وسيدنا نفسه مش راضي ع اللي بيحصل ده...'

لم تتوقف الأصوات، بل ظهر أنها علت، فقال الكاهن متمثلاً بالحزم:

— 'سيدنا يا جماعة قرر يقفل الكنيسة خلاص وكل واحد بره.'

علت همهمة كسيرة الفؤاد كبيرة إلا أن مخلوقاً لم يتحرك من فوق الكنب. ثم صفر الميكروفون إيذاناً بالتحدث مرة أخرى غير أن دفعة واحدة أغرق ضياءٌ المكان. ضياء أبيض صافٍ قادم من قلب الهيكل صارت الكنيسة بعده كالجذوة المشتعلة وصم الصياح الآذان. صفق الناس بحرارة وهتف بعضهم:

'هلِّي بنورك يا ام النور! هلِّي بنورك يا ام النور!'

زغردت بعض النسوة، دبت الأقدام فوق الكنب تطلب منظوراً أفضل، تحرك الناس وكأن الهواء دخل من منفذ مجهول، ارتعشت الأوصال برعدة، وأخرج بعضٌ تليفوناتهم النقالة يصورون الهيكل في تنافس من حيث خرج النور الباهر. ميشيل لبث ساكناً اكتسح وجهه شلل مفاجئ، وجعل يتشوف للناس فوق، ولناحية الهيكل التي لم يرها، مطبق الشفتين كأنه يرنو من خلال زجاج قطار إلى حادثة مفجعة على الطريق.

ثم ارتفع نفس صوت المتكلم مرتعداً من السماعات في غبطة وابتهال:

– 'نشكر أمنا العدرا... دي—دي بركة إحنا ما نستحقهاش وحنان—'

وقطع صوته بزوغ ثانٍ للنور. وماد المكان بالهتاف والتهليل كأن الحيطان لن تقوى على الصمود هذه المرة. وصور بعضٌ الحدث بكاميرات الموبايل المصوبة نحو الهيكل فأخذوا يتناقلونه فيما بينهم في اضطراب وحبور، وزغردت النساء مرة أخرى، وماجت الكنيسة وخارج الكنيسة كقلب بركان فائر يبعث خارجه زلزالاً رهيباً، وسمعت دأدأة الناس من الخارج تبغي الدخول ولو يكونون طبقة خامسة، أما أغرب ما في هذا الموقف كله فكان ميشيل، الذي امتنع عن الصلاة أو الترنيم أو التهليل وراح يبص في وجوه كل الخلق من حوله، ودون إنذار اندفع بين المبتهلين والمرتلين يرميهم ذات اليمين وذات اليسار بلا هوادة شاقاً طريقه نحو المقدمة، تمام المقدمة عند الهيكل، في عزم وتصميم مشددين.

وكان الزحام زائداً عند الهيكل، لكن لم تكن هناك عوائق تعوق الرؤية كالأجسام الواقفة على الكنب، فاستطاع معاينة خورس الشمامسة المسيج بالحديد حيث وقف كاهنان: أحدهما شاب بلحية سوداء وعينين بارزتين قليلاً جسمه مائل للنحول، والآخر شيخ مدور البطن كالبرميل أشمط الشعر يلبس نظارات سميكة جداً أخفت عينيه، كلاهما مع الأنبا ميخائيل أسقف أسيوط، والذي خبأ مقلتيه تماماً خلف نظارة سوداء كبيرة يلبسها بانتظام (عنها خرجت قصص كثيرة)، ورقبته وطاقيته تحت شال أسود عريض، فلم يظهر غير شعر لحيته القصير الأبيض مثل الثلج. أشخاص آخرون كانوا على الخورس بدورهم، حتى أنه قد صار به تكدس نفسه، وغالباً كانوا من الشمامسة الكبار أو ممن نجحوا وتسلقوا الحاجز الذي يفصلهم عنه، لأن منهم كان أطفال. وكانت المقدمة حارة أكثر من الخلف ربما بسبب الزحام الأشد، وكان النور مفصولاً فكان خورس الشمامسة والهيكل كأنهما في كنف سحابة كبيرة مظللة كسحابة بني إسرائيل. واستمر الصخب وأخذت عشرات الصور على لا شيء، وانقسم الناس على ماذا يرنمون، فرنم بعضٌ (من ناحية الإناث):

'يا عدرا يا أم النور   اظهري لينا ظهور
'عاوزين شفاعتك يا بتول   عاوزين صلاتك على طول'

وردد بعض الشباب وهم يصفقون بقوة:

'وسباني حبك   يا فخر الرتب
'موسى رآكِ يا مريم   عجب من عجب
'والصلبان فضة (بتضوي)   والأكاليل دهب'

ثم أنيرت الكنيسة فجأة فمسك الكاهن الأصغر سناً الميكروفون ورفعه إلى مستوى ذقنه وتكلم فجلا بغير نقاش أنه هو المتكلم منذ البداءة، رفع صوته للشعب طالباً منهم قبل كل شيء الهدوء:

– ’يا جماعة... أرجوكم... إحنا عارفين إن دي بركة ودا يوم عظيم، لكن احنا مش عاوزين تتحول البركة لعنة...‘

فتزايدت همهمات عدم الاستحسان، فتابع وهو يحاول أن يهدئهم بإشارة من يده:

– ’ماعلهش... ما علهش... كدا اللي بيحصل مش كويس، وربنا مش راضي ع المنظر اللي اصبح فيه بيته... ﴿بيتي بيت الصلاة يدعى﴾... ﴿بيتي بيت الصلاة يدعى﴾... كل واحد لو سمحتوا يروح لبيته وبكره إن شاء الله الكنيسة هتبقى مفتوحة للجميع.‘

تكررت الهمهمات الحزينة الآبية لكن وضح أن انتابها التسليم درجة، فاستغل الكاهن الفرصة فعاد يؤكد:

– ’ياللا يا جماعة... إحنا كدا منظرنا مش كويس عشان الناس بره. وسيدنا نفسه بيطلب منكم إنكم تنصرفوا بسلام.‘

كان الأنبا ميخائيل واقفاً إلى جانبه يتابع في صمت. وكان هذا الأسقف قد تميز بنظام فريد في إيبارشيته: فحدد مواعيداً صارمة للقداسات والطقوس المختلفة بلغت درجة الكمال حتى أن من الناس من كان يضبط ساعته على ميعاد خروج القداس، ومنع الاجتماعات المختلطة بناءً على نصائح أمن الدولة منذ أيام موجات الإرهاب، وهو رجل على عدم طوله مهيب المنظر مرهباً قوياً الشكيمة لا يخشى مخلوقاً ولم ينثن في حياته لإنسان، لذلك فلم تعجبه هذه الفوضى الواقعة قدام عينيه المخبأتين خلف النظارة السوداء، وأين؟ في بيت الرب! بيد أنه بدا متساهلاً شيئاً في ذلك اليوم فلم يتكلم حتى الآن. ميشيل وقف مزنوقاً لصق الحاجز الذي يفصله عن الخورس تقريباً تحت أقدام الأسقف نفسه، أحياناً كان يرفع ناظريه للهيكل المبارك، وأحياناً يختلس النظر من الصورة التي رآها في موبايل شاب بجواره ينبجس منها النور –وكان نوراً عجيباً لم ير مثله من قبل متكتلاً كأن له كياناً حياً يغشى بياضه اللون الأزرق النفيس –وأحياناً يرنو لعل ويحك رقبته أو يغمض في عينيه كثيراً.

وبدأ الناس في الإنصات تدريجياً فمنهم من انزال من فوق الكنب ومنهم من دار على عقبيه راجعاً، وتزاحم الآخرون عند الباب الخارجي يرومون الحلول محل المتراجعين، لكن الأغلبية مكثت مكانها. حتى

وإنهم لفي هذه الخلخلة على حين غرة يضرب النور مرة أخرى بقوة، وتخرج من الهيكل في هذا الوقت كتلة مستقلة من النور تجوب أفق الكنيسة فوق الأرؤس في سرعة مبهرة ثم تختفي فجأة. حينئذ انقلب المكان بثوران جلل كأن ضربته عاصفة وصرخ الناس متشفعين وارتجت الأرض تحت وطأة آلاف الأقدام.

٢. كابوس

I. كانت حجرة مينا موريس (الحجرة الثانية في شقة ٧ بالدور الرابع من مبنى أ) قد أصبحت في أقل من شهر «مركز السمر الرسمي» للاستراحة بأجمعها، تجتذب من المسيحيين والمسلمين على حد سواء وتصخب بالضحك والفرفشة والنكات حتى مطلع الفجر. عصب هذه الجلسات — مينا موريس — كان يجلس متربعاً على سريره في الجهة الشرقية من الغرفة، بالشورت والفانلة الداخلية المجلية جسده البض الأحمر المترهل (لاسيما لدن الثديين والبطن)، فيأخذ في حكاية القصص ورمي القفشات والتندر والتفكه بكل ما هو ظريف ومميز، فتشمل روحه الفكهة التي لا تعي الهم القعدة كلها وتُنسى المشاغل وتتوارى كل الأفكار السلبية المنغصة. لذلك فكان رواده عديدين. وكان في تلك الأمسية يحكي بأسلوب مهازل متقن عن قصته مع قسم جراحة القلب والصدر الذي يتدرب فيه: كان المتدرب الوحيد بالقسم، وحاول التحويل منه كذا مرة ففشل، لهذا فقد 'باع القضية' — كما قال — وانبرى في التهرب والغياب بدون حساب فلم يوجد من استطاع أن يحاسبه. رئيس القسم نفسه — الدكتور أبو المجد فرغلي — جل ما عمله أن خاطبه مرة بلهجته الصعيدية الثقيلة في فقدان أمل فقال له: 'يا ولدي إنت مش ناوي لك تحضر لك يومين معانا خلينا نعرف نحط لك تقرير ولا إيه بس؟'، والنواب عاتبوه في كياسة وأحدهم يضربه في كتفه قائلاً: 'طب ابقى تعال ورينا وشك بس يا سيدي وبعدين امشي!'، بل وعرضوا عليه بنية صادقة أن يشاركهم في حضور بعض 'الأفلام' في حجرتهم بالقسم وقت الظهيرة علهم يغرونه، لكنه رفض شاكراً وهو يضحك. وقد خبأ دفتر الحضور والانصراف (الخاص به وحده) خلف الدولاب في حجرة السكرتارية لكيلا ما يتمكن أيٌ من التشطيب عليه وكان يملؤه كله في زيارته الأسبوعية التي لا تأخذ أطول من ربع ساعة، كما تسنى له أن يطلع على تقريره السري الخارج قبل الأوان (ويفترض أن يصدر كل شهري تدريب) فصوره بكاميرا موبايله الـ«N70» وأراه للموجودين كافة ليلتها، فضجوا جميعاً ضاحكين، لأنه كان قد حصل على تقدير عام ٩٥ في المائة.

وكان عصام يجلس بجانبه في جلباب أبيض ناصع تلألأ تحت ضوء النيون القوي (لمبتان، وهذه مزية لم تتح لكل الغرف)، وخلفه كان الشباك المفتوح يطل على الخواء المظلم، فابتسم وقال:

– 'على كدا انت طلعت معلمهم الأدب يا واد يا مينا!'

فانعقدت ملامح مينا واربد وجهه وهو يقهقه لا يستطيع أن يأخذ أنفاسه:

– 'آخر مرة زرتهم عملوا لي شاي!...'

فقال سمير رمضان – الشهير أيضاً بـ«Columnar» تشبيهاً لقامته المديدة ونحوله وشعره الأكرت الواقف بنوع من أنواع الخلايا المبطنة – وهو يرمي بيده:

– 'الله يا سيدي!'

في آن قهقه جورج باخوم من أعماقه البعيدة وتردد صدى ضحكته البريئة القوية في النفوس:

– 'جاتنا نيلة في حظنا الهباب!'

وكان يعاني الأمرين في بنك الدم تلك الأيام. إلا أن ريمون عادل قال مستطرداً وهو يغمز بعينه اليمنى كسجيته كلما يتحدث:

– 'لكن كان المفروض تستفاد من الناس دول بدل ما انت سايبهم كدا يا مينا.'

سأله مينا في ازورار:

– 'إزاي يعني؟'

– 'يعني تحضر معاهم في العيادات، تشوفهم بيكتبوا إيه. يعني، أي حاجة أحسن من القعدة كده.'

قال مينا في نفسه أنها كلمة «الأخ ريمون» (وكان ريمون بروتستنتياً)، فقال له وهو يعوج رأسه ويتخلل شعره البني بأصابع يمناه:

– 'العيادات دي يحضر فيها أبوك لا مؤاخذة.'

ضربه عصام بقبضته على فخذه فتأوه، بينما قال ريمون ما برح يلازمه الهدوء والتريث:

– 'إنت ما تعرفش ابويا يا مينا فما تقولش حاجة عليه.'

وضحك جورج فاهتز وهو يشير لمينا الجالس على سريره في تندم مستتر:

— '«خو . . . . » كبير ما تاخدش على كلامه.'

فرفع مينا صوته في نرفزة يود أن يصالح نفسه على ريمون منحلاً من الاعتذار:

— 'واعمل ايه يا خي ما بلاش طريقتك «البضـ. . . . » دي في الكلام يا عم ريمون!'

عدا أن ريمون كظم وجهه فكرر موكداً بسبابته يدوس كل كلمة وهو ينظر للأرض:

— 'إنت ما تعرفش ابويا فما تقولش حاجة عليه لو سمحت!'

هنا هب عصام فطوق ريمون من كتفيه وضغط عليه وأجمع الجمع: 'أووه...' مهدئاً زميلهم حتى ابتسم ريمون فانحل عنه عصام ورجع لمكانه. فاستطرد عصام مستفسراً عن ميشيل جورج كي ينأى بهما عن إعادة التفكير في الموضوع، فتنهد مينا موريس مستهزئاً وقال (ولما يكن يحب ميشيل جورج لسبب غامض):

— 'أديه عمال يبات بالليالي بره، وما حدش بيشوفه، وييجي على وش الفجر، ويتطوح... هه... ويا عالم بتباتي فين كل ليلة يا بت يا بهية ؟'

فسأله عصام مستضحكاً:

— 'هي مين بهية دي ؟'

فإذا بعقيرة مرتفعة من الخارج تتبرع بالرد الكريم بطريقة لا تعرف الحياء:

— 'بهية دي تبقى «أمك» يا «معر . . . . »'.

دخل آسر فنهض عصام دون أي حز بسبب إجابته التي ارتاع منها بعضٌ وابتسم الآخر، فاحتضنه باسماً وهو يدعوه بـ'المعلم'. فقاطع آسر مجرى الحديث بعرض أزمته على الشباب الأكفاء 'المتين': قال أنه أحضر كلباً من استاد الجامعة ذلك الصباح، وأنه حائر في تسميته، وأنه سأل 'الخو . . . . ات المعر . . . . ين' في الحجرة الأخرى فلم يمدوا يد المساعدة فلم يجدوا اسماً أفضل للكلب من «عطاالله»! وكان يعني بـ'الخو . . . . ات

المعـر . . . . يـن' أصدقاءه المقـربين الملفـوفين في حجرتـه — المجـاورة — حـول الكلـب الـذي لـم تتحـدد كنيتـه بعـد. فقهقـه الشـبان فـي حجـرة مينـا وتزامن ذلك مع ظهور بيتر لطفي عند عتبة الباب يبتسم في استملاح مبرزاً سـنتيه الأمـاميتين الطـويلتين — وكـان مـن ضـمن 'الخـو . . . . ات المعر . . . . ين' — فهتف بصوته الحاد المتخاذل كأنه يتردد إزاء إطلاقه:

— 'والله مش اسم على مسمى يا اخوانّا ؟'

ثـم ابتـدأت عمليـة التصـويت. فـرأى أيمـن سـليم الجـاد شـريك مينـا مـوريس فـي الحجـرة — وكـان شـاباً قصيراً شيئاً مـا ذا رأس حليـق بالكامـل يلبس عوينـات بإطـار مذهـب — أن اسـم «ركس» اسم مناسـب إذ أنـه مـن أشـهر الأسـماء التي تطلـق على الكلاب، في حين قال هاني طلعت الذي خـرج مـن حجرتـه — المجـاورة — علـى الدوشـة: 'أحسـن اسـم ينفـع عليـه «سـبينوزا»' لأنـه كـان قـد قـرأ الاسـم فـي أحـد المقـالات ورام أن يتشـدق بمعلوماته، أما شلة الأسوانلية بالكامل — سمير رمضان الساكن مع وسيم هلال وخالد نشأت الأول على النصارى والتوأم أغاثون وأبانوب عطية ثم رامي خيرالله — فقد أجمعوا على «بيتر»، لأنهم أجمعوا على كراهية شاب من بلدهم اسمه بيتر. كذلك عبر جورج باخوم مساكن رامي سعيد — جورج ذاك المخلوق العملاق القاتم كأنه جبل مرعب يختفي خلفه قرص الشمس — عن رأيه فاقترح وهو يضحك ضحكاً طفولياً لذيذاً أن يدعى الكلب «عبد الناصر» على اسم أحد أقسى دكاترة الكلية في الأيام الأكاديمية، وأبو علي — مـن المسـلمين المطـردي الاخـتلاف علـى حجـرة مينـا مـوريس — أدلـى بصوته وهو متكئ برأسه إلى الحائط فوق السرير المقابل لمينا موريس فرفع يده ممازحاً وقال أنه موافق على أي اسم تقرره الحكومة بالنيابة عنه ولو كـان اسـمه شخصياً (محمـد فريـد)، ثـم انحـرف سـمير رمضـان عـن جـادة الأسوانلية فأعلن استقلاله برأي «فتح الباب» حيث أنه اسم لم يفكر فيه أحد من قبل، وقال ريمون عادل أنهم يهذرون بلا طائل فالكلب ينبغي أن يسمى ركس فعلاً كما اقترح أيمن سليم الذي كان قد غادر ساعتها ماضياً نحو عمله كمندوب أدوية. بيد أن مينا موريس طلب أن يرى الكلب بأم عينيه، فلما أحضره آسر (فتبعه سامح سيف وجرجس ثروت اللذان كانا في

غرفته للحين الأول يهز كرشه ويبتسم وعينه الحولاء والثاني يتبختر في تباهٍ بقامته المستقيمة وتكوينه الرياضي) تسلمه مينا باحتراس وهو مشغوف به:

– ’ده كلب أصفر من بتاع الشوارع... دا كلب اعمى ده على كده؟‘

وكان الجرو مطبقاً جفنيه كأنه نائم أو منزعج من النور، فأجاب آسر قائلاً بأن الكلب قد تعدى ذاك السن وهو الآن على أعتاب المراهقة (كان يهزج في كلامه). فرفعه مينا عالياً وقال:

– ’والله لو ما كانش ده «قدري» يبقى انا ما افهم حاجة.‘

وهكذا تحدد اسم الكلب فجأة فتبادل الجميع النظرات في استحسان غريب كأنهم مسحورون. مع أن آسر ضحك على الاسم مصرحاً بأنه اسم مضحك يذكره بشخصية «قدري» في رجل المستحيل ذاك الشخص السمين بشدة المولع بأكل ’الشطائر‘، ثم أنه اسم – بشكل ما – ينتمي إلى «قدرة الفول». لكن الكلمة راقته في النهاية فأعلن جروه «قدري بن آسر» بغير نكوص.

ثم استؤمن مينا موريس على قدري إلى حين عودة ولي أمره، وبعدها خرج آسر مع صحبه.

II. الناظر إلى صحبة آسر عطالله يراهم جميعاً صنفاً واحداً. بزغوا من باب الاستراحة السائخ حتى نصف ارتفاعه في الرصيف تباعاً: سامح سيف، ثم جرجس ثروت، فآسر يسير في ظله بيتر لطفي بالترتيب. كان سامح أغناهم على الإطلاق على رغم أنه الوحيد الذي لم يكن طبيباً، كان عبارة عن شاب قصير سمين له كرش نامية، فاتح البشرة، وجهه أكبر من سنه وشعره منحسر للخلف درجة ملحوظة، وكانت عينه اليسرى حولاء: في النظر للأمام تنظر للأعلى وخارجاً، أما عن الثراء الفاحش الذي أوتيته عائلته فإنه عائد إلى أخيه وأعمامه في فرنسا: كان أخو سامح قد انضم إلى ثلاثة أعمام له في فرنسا قبل عقد كامل فاغتنى مثلما اغتنى أعمامه فلم ينس أسرته ولا عائلته وبالأخص أخاه الأصغر سامح الذي غمره بالهدوم والهدايا والبارفانات المستوردة فأخيراً بدل له كذا سيارة من أفضل الأنواع، آخر سيارة هي الشيروكي السوداء التي كانت تنتظرهم دون مطلع الشارع

جنب صفائح القمامة. أما جرجس ثروت فكان من أسرة غنية هو بدروه لكن لم يبد عليه قط: كانت أسرته أسرة ريفية تتبع قرية تابعة لمركز ساحل سليم التابع لأسيوط، أسرة ريفية غنية لديها نحو واحد خمسين فداناً لكن أفقها الذي في ضيق عرض حمامها (الذي بدل من بلدي إلى أفرنجي بالكاد بعد دخول الابن الأكبر جرجس كلية الطب) لم يؤهلها أن تدرك فيم تنفق أموالها أو كيف تسمو بمستواها، فنشأ جرجس إنساناً «شعبياً» هو وأخاه (عماد، من لمة أصحاب آسر كذلك وقد تتفوق علاقته في أحيان على علاقة أخيه بآسر)، يعرف طوب الأرض وينكت بالفاحش وينطق بلغة حواري القاهرة الخيالية كما يراها في الأفلام محاولاً إخفاء لهجته الريفية، وحين «يلبس» لا يعرف إلا الرخيص في نهاية المطاف، وحين يود الاعتناء بشعره لا يعرف إلا الجيل الشعبي الذي يباع في زجاجات ملونة ضخمة بأبخس الأثمان، وكان شاباً أسمر طويلاً سليم البنية يثبت شعره الحالك السواد بالجيل فيشده من جانب ويرخيه على الجانب الآخر كأنها «قُصة»، دوماً مبتسماً كأنه يحضر لمقلب. بالنسبة لبيتر لطفي فإنه من مرتادي أمريكا من قبل ١١ سبتمبر عن طريق نادي الواي، لذلك فما برح يتردد عليها من حين لآخر ويحضر سي ديهات السكس والويسكي الأمريكي المعتبر ويذاكر في كتب المعادلة — «Kaplan» — الأصلية، وكان رفيقاً حميماً لآسر له طوال ست سنين شيدت صداقتهما بدءاً على السكشن الواحد ثم على التغيير الذي ناب بيتر فصار نسخة من آسر في اللسان والهذر والسلوك، لكنها نسخة مقلدة، لذلك تتبع النسخة الأصلية كظلها.

ركب آسر بجوار سامح في السيارة وتجاور بيتر وجرجس في الخلف فما عتم سامح أن انطلق كالطلقة. شغَّل إليسا ورفع مستوى الصوت فارتجت السيارة ارتجاجاً وهي تعدو. بدا سامح منشرحاً، لبث فوه مبتسماً وهو ينعطف بالدركسيون يميناً تارة وشمالاً تارة في حذق ومهارة أتيا من تكرر الحوادث بسيارات فيات ولادا وشاهين قديمة، وبجانبه شُخص آسر مطرباً مطمئناً كأنه في وسط صلاة، فوه مفتر عن بسمة راضية ورأسه منكفئ يسيراً من فينة لأخرى عند المنعطفات. أما جرجس فابتدأ ينكت ويرفع ويحرك يده، وبيتر ينظر إليه مولياً قفاه للشباك. جالت السيارة في شارع يسري راغب الصاخب الصاحي في ذلك المساء، وعبرت الإشارة من

أمـام قهـوة قصـر الشـوق، ثـم اتجهـت بانعطـاف مباغـت نحـو النمـيس والجمهوريـة، مرقت في خـلال الجمهوريـة المتسـع والمحلات منـورة على الجانبين والناس يتمشون والأيدي في الأيدي ومنهم الطلبة يتسكعون بلا هدف وهم يلحسون الجيلاتي من حلواني الخزان، وانتهت إلى نهايته حيث تمثال أم البطل فمضت في طريق هادئة جهة شارع الكورنيش. مد آسر عنقه مواجهاً الشباك المغلق يتربص بأيٍ في كنتاكي لكن لم يوجد غير فتيات مجعدات الشعور بمؤخرات سمينات يلبسن النظارات. ثم شارع الكورنيش خطرت فيه السيارة على مهل تنقب عبر الواجهات الزجاجية الحسناء لصن شاين وكوك ويندو وباقي المطاعم والكافتريات. ياهووه! سكاشن، سكاشن لا حصر لها كأنهم الوحيدون العزاب! بنات مسيحيات بيضاوات يشعن جاذبية وفتنة، بنات مسلمات ببنطلونات محزقة صورة للأنوثـة والإغـراء، سـيدات ناضـجات شـهيات، كلهـن مـع رفيـق أو فـي مجموعـات بعيـدة المنـال، وعلـى طـوار الكـورنيش ذاتـه شـباب كالنمـل يتسامرون ويتفسحون منهم الواقف متكئ ومنهم الجالس فوق السور ومن هؤلاء الرجال وإناثهم يقطعون الطوار بلا تعجل ولعلهم فقط من لا غبار عليهم في هذا المجال. ثم عودة مقفرة عن طريق الهلالي الدنيا موحشة والنور زاد الوحشة والفراغ. وبعد أن خلصوا عند الجهة الخلفية للمحطة دار سامح يميناً فمن ثم لف نافذاً من المنفذ غرباً ليركن سيارته في بقعة شاغرة تحت الكوبري في مقتبل شارع الجيش.

انبعثـوا مـن الأبـواب الأربعـة فـي وقـت واحـد مجموعـة مـن الشـبان 'المهيصين' الباسمين على نحو تقريباً واحد كأنهم على اتفاق عقلي واحد تتردد فيما بين شفاهم الضاحكة وعيونهم الباسمة نكتة غامضة واحدة، ثم اتخذوا طريقهم على مهل نحو قهوة كابوس على زاويـة شارع المنفذ مع امتداد يسري راغب حيثما يغص الرصيف بالمارة في كلا الاتجاهين وتتبحثر طـاولات الباعـة، هـذا يبيـع المشـاط البلاسـتيك والخـردوات والمقصـات والسكاكين، وهذا يرص من دكانه بعض النظارات ويضع كفيه في جنبه يتلفت يميناً ويساراً في مسح لأي مشترٍ وارد. وكانـت قهـوة كـابوس ذات تـاريخ عتيـق ويقـال أنهـا مـن أولـى المقـاهي فـي أسـيوط: بنـاء قـديم مـن دور واحـد يشـغل مسـاحة هائلـة وينقسـم نحـو بهـو رئيسـي يطـالع شـارع المنفـذ

فرواق فرعي على شكل ممر يطل على امتداد يسري راغب وبينهما — بالناصية بالضبط — محلان، أحدهما لبيع شرائط الكاسيت وإصلاح الكاسيتات، والآخر لبيع الساعات وإصلاحها أيضاً، ويحكم الناصية كأنه خفير عمود كهرباء عجوز صدئ. وكانت تُتناقل آنئذ شائعات أن القهوة في مناقشة لهدمها وإنشاء برج في محلها لكن أحد المسئولين يطلب رشوة عظيمة ليأذن في ذلك. ولج الشبان المقهى من بابه الوحيد المقابل لشارع المنفذ المزدحم، وخلصوا إلى الرواق الفرعي فاختاروا منضدة في الوسط زايلها شاغلوها في اللحظة تحلقوها فوراً آسر وسامح من جانب، وبيتر وجرجس من الجانب المقابل. كان فيما يبدو البهو الرئيسي مخصصاً للرجال الكبار، والرواق الفرعي خاصاً بالشباب، وامتلأ الرواق على آخره بالشباب يزدحمون حول الترابيزات ويلعبون الدومينو والطاولة ويسحبون أنفاساً عميقة من الشيشة، والمكان كله كان موحياً بالقدم تشلغه أجواء مندثرة كأنه في قلب المدينة المتطورة قطعة منسية من زمن ماض، كله عدا التليفزيون الجولدي الضخم الذي احتل صدر الردهة يعرض أحدث الكليبات الفضائية كأنه رسول الزمان الحديث. وجاء صبي المقهى — عبارة عن شاب قصير بطاقية مخططة كأنه يجاري المكان — فطلب جرجس معسل تفاح وشاياً وطلب سامح معسلاً فقط وطلب آسر وبيتر شاياً فقط (كان آسر من مدمني الشاي بشكل يستعصي على التصديق، لدرجة أنه كان يحتسي في اليوم الواحد ما لا يقل عن أحد عشر كوباً)، ثم طلب الشباب كلهم دومينو. وارتفع الصوت من الردهة: 'أنا مش عارف اتغير كل ما اقول اتغير . . . .' فرددها آسر مدندناً:

— 'أنا «خو . . . . » و«معر . . . . » كل ما اقول «أتعر . . . . » . . . .'

فقهقه الشباب من حوله وجرجس يهز رأسه ويقول:

— 'ما أديك عارف نفسك أهوه، أمال محيرنا معاك ليه ؟'

فقال آسر بطريقة مقلدة وهو يغير في صوته:

— 'بس يا واد يا «معر . . . . » منك له.'

فاهتز جرجس مستضحكاً في استمتاع بخفة دم صاحبه وهو يقول: 'أنا الـ«معر . . . . » برضه ؟'، ثم رن موبايل سامح فأخرج من جيبه 'عدة' ضخمة تناسب مقامه من ماركة «سوني إريكسون»، لكنه رأى اسم المتصل

فضغط زراً كتم الرنين ولم يرد. واخشوشنت حنجرة آسر في استطراد وهو يقلد نكتة سمعها من قبل على أحد الرؤساء السابقين:

– 'أنا كنت ماشي وحدي في الصحرا، راح طلع عليّ شوية أعداء من اللي بـ«بيكاظ . . . . » العيال دول. قالوا لي: "يا «نكا . . . . يك»، يا نقتلك يا ريس". '

– 'وعملت إيه يا ريس ؟!'

– 'عملت إيه يعني ؟... قتلوني طبعاً. '

فقهقه الشباب ثانية. ثم أتى صبي المقهى بالدومينو والشيشة، وبعدها مضى ففاء بالشاي يحمله على صينية نحاس على كفة واحدة رصه على الترابيزة. ثم انصرف فاستطرد سامح بعقيرته الغليظة وهو يبتسم:

– 'حد فيكم راح شاف الظهورات اللي بيقولوا عليها دي ؟'

فقال بيتر بحماس:

– 'أنا رحت وشفت. إيه ده يا بني، الناس بالألوفات! لكن ما قدرتش أخش جوه لأنهم قفلوا الكنيسة بدري بدري بأوامر م الحكومة. '

فاستفهم منه آسر:

– 'شفت نور يعني ؟'

فأعلن بيتر في إنكار:

– 'آه!'

– 'متأكد ؟ أصل انا عارفك. '

حينها قاطع جرجس مستثيراً آسر:

– 'ما حدش يلوم على آسر يا جماعة، أصله كافر ما يؤمنش بالظهورات ولا القديسين. '

فابتسم آسر وقال بعقيرته المرتفعة المحاكية شخصاً خيالياً حين يهذر أو يمازح:

– 'الكافر دا يبقى...'

ولم يكمل، فقال سامح وهو يبرز له شاشة تليفونه الفسيحة ويضعها صوب عينيه:

– 'أنا ما كنتش باسأل علشان حد يقول لي شاف ولا لأ، أنا عندي الفيديو لاللي عايز يشوفه. '

ونقر بقضيب بلاستيكي صغير فوق الشاشة اللمس فبدأ الفيديو في العرض. شاف آسر مكاناً شبه معتم مأخوذاً بكاميرا مقربة مهزوزة، وصورة في الخلفية ينبعث منها نور مزرق لا يمكث أن يزيد. وكان آسر كبروتستانتي —وإن غير متدين — لا يؤمن بالشفاعة ولا معجزات القديسين ولا كراماتهم، لكنه عاصر بعدئذ الأرثوذكس وصادقهم وعاش حياتهم وزار كنائسهم فاختفت من عنده الثوابت الأولى، ولم يعد يشك أو يصدق في القديسين كليهما على السواء، صار إنساناً «لا طائفياً» لا يعتقد بشيء معين يتبع طائفة معينة لكنه يؤمن إيماناً عاماً بالمسيح والكتاب المقدس فحسب، بيد أنه أبقى على بروتستانتيته اسمياً لأنه — في كل الأحوال — لم يكن ليغشى كنائس أخرى على الإطلاق. لذلك تلفيه يقرأ (والعجيب أنه مفرط القراءة في الأمور الدينية رغم عدم تدينه) في كتب البابا شنودة والأب متى المسكين والقمص تادرس يعقوب إلى جانب جويس ماير وريك وارين وزكريا استاورو، لا يتشفع بالقديسين لكنه يحتفظ بصورهم في محفظته على الدوام، ويعترف بالمعجزات ووقوعها لكنه لا يعتمد عليها، ويعد بابا الأرثوذكس باباه أيضاً في نهاية المطاف لكنه لا يقر بكهنته، ليس مثل ريمون عادل على سبيل المثال البروتستانتي الخالص المشبع حتى النخاع بالحياة البروتستانتية، الذي لم يلج كنيسة أرثوذكسية مرة ولا يعرف في حياته إلا حفلات فادية بزى وليديا شديد وزياد شحادة و'حياة النعمة' و'هلليويا' و'نُمجّد اسمُكَ' .... إلخ، ولا يقرأ إلا كتب دار الثقافة وخلاص النفوس وكنيسة قصر الدوبارة، والمولع بشدة بالأمريكان ثم من بعدهم باللبنانيين والكوريين (ثم الصينيين في المستقبل القريب).

لذلك فقد تنهد آسر بعد أن رأى الفيديو بثغر باسم رافعاً حاجبيه الزججين كالإناث:

— 'شي الله يا عدرا!'

فكاد جرجس أن يشاكسه بكلمتين، لولا أن يوسف —الشاب الذي توسط لآسر في موضوع الكلب —قد ظهر فجأة يرافقه شاب آخر على أول الرواق على بعد خطوات. كان يوسف شاباً أسمر نحيلاً مجزوز الشعر يلبس ملابس كاجوال منها تيشيرت قصير جداً بالخلف ينحسر عن لباسه الداخلي كلما انحنى. بيد أن آسر وحده الذي تعرف يوسف. أما الشاب الآخر قد

تعرفه الجميع على الفور، فقد كان «بلال»، رفيق آسر اليومي في الفترة الصباحية، حين يوقظ كلاً منهما الآخر فمن ثم يهبطان سوياً يسيران بتؤدة نحو ناصية الشارع لكي ينتظرا — مع قلة من الشباب المواظبين على الحضور مبكراً وبعض الموظفات — أتوبيس المستشفى الأزرق الذي يجيء في تمام الثامنة والنصف. وكان بلال أساساً يكبرهم بعام على الأقل (على الأقل هذا ما يصرح به)، شاباً ربعة قمحاوياً رث المنظر دائماً كأنه في وسط حرب يحلق ذقنه بالكاد مرة أسبوعياً وفيما يبدو لديه حفرة غريبة تحت السرير يضيع فيها المشط أغلب السنة، ويلبس أبداً قمصاناً سادة محشوة في بنطلونات قماش جاهزة وحبذا الجبردين، ولسبب مجهول كان وجهه دائماً يبدو دهنياً مع أن شعره كان خشناً اخترقه المشيب قبل الأوان، وكان يظهر نفسه على الدوام «قرفاناً» من كل شيء من الدنيا والناس والطب والمستقبل والحياة ذاتها، يكشر تكشيرة بسيطة ويثني زاويتي فيه مما ينطق بهذه السجية، على أنه إن احتواه نقاش في مسائل معقدة — إدارية مثلاً (مثلما حدث منذ أسبوعين في النقاش حول تقسيمة نوبتجيات الأطفال) — يدهش الجميع ويضجره باهتمامه المفاجئ بأقل ذرة في الموضوع، فلا ينتهي حتى تتشاجر كل الخطط وتتشابك ويصير الحل أوعر مما يجب بدرجات، ثم لا يلتزم في الآخر ويوقع الكل في المشاكل. بيد أنه من ناحية أخرى كان يحسن التعامل مع الغير فلا يهمل تحية ولا يقفز متعدياً واجباً، و«يتكلم» عندما يُحادَث، ثم أنه قد خطب قبل أن يلتحق بالامتياز وينتظر الزواج في مارس التالي.

ابتسم يوسف وهو يقترب، ثم رفع يده للجميع محيياً (وحذا بلال حذوه وهو يبتسم ابتسامة يسيرة)، وبعدها مال على أذن آسر يهمس له بشيء. فاستمع له آسر وهو منتبه. ثم وضع يوسف شيئاً ما في يده ملفوفاً في ورقة بيضاء ثم بارح مستأذناً من الجميع وبعده بلال، وما أن تلاشيا حتى سأل جرجس الذي لم يكن يعرف يوسف بتاتاً وإن لمحه في كذا مناسبة:

— 'هو مين الأخ دا يا واد يا آسر؟'

فدس آسر الورقة الملفوفة في جيب بنطاله وهو يقول:

– ’يوسف ؟... دا عقبال عندك أكبر «خو . . . . » فيكي يا أسيوط. أساساً اللي انت شايفه ده كلية تجارة، لكن ليه عشرين سنة مش قادر يخلصها، يعرف طوب الأرض، ويتاجر في كل حاجة من الحشيش للسلاح للنسوان لو انت عاوز، لكن أهوه، بيخدم لما الواحد بيعوزه، وادي فايدة معرفة الأشكال اللي زي كده.‘

وكانت في الحقيقة مفاجأة لآسر تلك المعرفة الغريبة التي جمعت بين يوسف وبلال وهو صاحب الاثنين وليس بدارٍ، وسائل نفسه كثيراً بينما يتحدث عن يوسف عما لمهما سوياً، لكنه ما لبث أن تخلص من اهتمامه وهو يقول لنفسه في حين يتناول ذراع الشيشة التي طلبها جرجس ويشد منها نفساً قرقرت على أثره المياه في قاع النارجيلة: ’أهي كلها أشكال بتتلم على بعضها وخلاص‘.

وبدأوا يلعبون الدومينو فاختير آسر ضد جرجس كاستهلال، والمنتصر سيلاعب بيتر ومن بعدهما سينافس الفائز سامح. قلب آسر القطع ثم بسط راحتيه فوق الطاولة فبحثرها بمهارة تشي بباع طويل في اللعب، ثم التقط كلٌ قطعه بسبابته وجعلهن أمامه، فمن ثم قلبهن صوبه ومسكهن بين أنامله كي يتطلع إليهن، وبعد ذلك رتب آسر القطع المتبقية في صف واحد طويل إلى يمين الطاولة. وجد آسر أنه قد حصل على الدش، وهذه مصيبة كبيرة لكن كل مصيبة ولها حل، ثم الجورجي وباقي القطع عامة صغيرة، أما جرجس فكان لدنه السوسة والبلاطة. وخبط آسر الدش أول ما خبط مبادراً قبل أن يتفقا من سيستهل اللعب وهو يبتسم في ظفر. فاعترض جرجس وهو ينعته بالنصاب لكنه خضع في النهاية. ولعب جرجس قطعة بستة وأربعة، فلعب آسر الجورجي، فرمى الآخر بأربعة واثنين، فرده آسر باثنين وواحد . . . . واستمر اللعب وسط متابعة اللاعبين الإضافيين واحتساء الشاي وقرقرة الشيشة ونفث الدخان واكتنف اللعب الإثارة. أثبت آسر أنه داهية ذو عقل كالخرافة لا يستهان به فكان يعد القطع المرصوصة والمأخوذة ويحسب لغريمه خطواته وقطعه. وتبودلت الشتائم، وسحب جرجس وسحب آسر، ثم ألقى آسر الياك في نهاية المطاف فقضت الجولة الأولى لصالحه صفراً للآخر مقابل ستة عشر له. ثم ابتدأت الجولة الثانية (وكانا يحسبان إلى نهاية ٥٠)، فكسبها آسر

أيضاً لكن بفارق ضئيل، والجولة الثالثة انتصر فيها جرجس، لكن في الإجمال كان آسر هو الفائز. ثم لعب آسر – كفائز – ضد بيتر داعياً إياه بـ'حبيب قلبي' فغلبه أيضاً شر غلبة بينما بيتر يضحك كأنه في انبساط، وبعد ذلك تنازل عن دوره لجرجس فتنافس مقابل سامح فكان جرجس هو المنتصر، فقرت عينه وقال: 'حقنا ورجع لنا في النهاية'.

ثم فضوا جلستهم فنهضوا فقام سامح بدفع الحساب وآسر يمثل أنه يستوقفه، فمن ثم يلومه في رياء: 'طب ما كانش في داعي يعني'. فقال له سامح وهم على عتبة القهوة إلى الشارع مستديراً له برأسه للخلف: 'إنت هتعملهم عليّ يا بن الـ«عر . . . . »؟'، فطوح آسر برأسه للخلف وقهقه. ثم دلف إلى الشارع دونهم غير آخذ باله فخبطه شخص كان ماراً على عجل حذاءه من ناحية شارع المنفذ، فتناثرت منه كل محتويات كيسه الذي كان يحمله وسط المارة على الرصيف المائج بالحركة. التفت آسر نحو الشخص الذي خبطه في انزعاج فوجده الفتاة ذات العينين الساجيتين الساحرتين التي تسكن قصده.

بدت ملخومة ويركبها الحياء مما حدث (وكان الخطأ خطأها)، وهو مرتبك الجنان فلم يرتقب المفاجأة، لكنها ابتسمت ابتسامة لطيفة سريعة بما يعني الاعتذار فانكفأ هو من فوره يلتقط أغراضها التي تبددت بين الأقدام السادرة. سقط الدم لرأسه وهو مائل يتناول أقلام الروج والكحل – مع علبة مناديل ورقية كبيرة ومزيل عرق كرة دوارة ماركة «فا» ثم قلم جاف فرنساوي وكشكول سلك صغير – من الأرضية المبلطة المتسخة وسط الأقدام. ترى هل ميزته؟ هل خفي عليها أنه عين الفتى الذي لا ينفك عن شباكه في جسارة ووقاحة طول النهار من أمام شقتهن؟... وهل أحست به يراقبها هي بالذات منذ خطت قدمه المكان؟... ولم يستطع كبح نفسه من أن يسترق النظر إلى قدميها الصغيرتين النظيفتين من الصندل الأسود تحت الجيبة المزركشة الطويلة الهفافة هذه – الجانحة للأخضر – وهو يلم أشياءها. تماماً كقصص الحب التي يقرؤها: البطل يقابل البطلة دون حساب ولا ترتيب في مصادفة سارة لم تخطر على بال أيٍ منهما. ولكن ما عسى أن تكون نهاية اللقاء غير التفرق بلا رجعة كما يحدث في الدنيا الواقعية؟! ونفذ إلى أسفل رجليها من تحت الجيبة قبل أن ينتصب فراقته

نظافتهما وخلوهما من الشعر، ثم اعتدل فناولها أشياءها وهو يبتسم في لطف ويتطلع إلى حجابها المخضر الأنيق «المكسر» الذي وافق طقمها الكامل من بلوزة سوداء بكمين طويلين فوق الجيبة المزركشة الهفافة، وغطي حول وجهها المثلث الشكل الذي لم يخل من جاذبية. فشكرته على استحياء وهو تبتسم له ابتسامة أجلت صفين من الأسنان الصغيرة الجيدة:

— 'متشكرة خالص...'

فقال لها بلباقة:

— 'العفو يا افندم.'

ثم أغضت عينيها في تأدب فتعدته منطلقة نحو الإشارة وسط السيارات المنعطفة، وسرعان ما اختفت. لبث يتأثرها بعينيه، حتى رُدَّ على بيتر يضغط على ذراعه وهو يقول له بثغر باسم:

— 'إيه يا برنس، عجبتك البنية ولا إيه؟'

— 'يا راجل هو بعد امك في تاني برضه؟'

فانفجر الفتى في الضحك، ثم أقبل سامح يبتسم ويغمز بعينه الحولاء:

— 'شكلها كدا ليلة فل. يالا بينا من هنا عشان الواحد جاع وبعد شوية هيتلافى له واحد م الشارع ياكله'.

كانت الساعة وقتئذ حوالي العاشرة والربع، واختلف الشبان حول المطعم الذي سيتعشون به الليلة. لف بهم سامح شويا في شارع ثابت وشارع المحطة — من أمام سينما رينسانس — يرفعون صوت الكاسيت حيناً ويتضاحكون ويقهقهون حيناً، ثم اختلفوا إلى الجمهورية قليلاً كتتمة لجولة ما قبل العشاء، وبعد ذلك أخيراً مضوا إلى مطعم سلطانة في نهاية على مكارم ليتعشوا.

ورجع آسر إلى السكن بعد الواحدة صباحاً بدقائق فلم يجد الناس نياماً بعد. غسل وجهه واستبدل ملابسه فتبدى في بيجاما صيفية مخططة ناحلة تحت الإبطين ومهترئة عند العانة. ورقد على سريره المفروش بملاءة السكن السماوية الذائبة يريح رأسه المتعب. كان يفكر في الفتاة التي قابلها لكن ليس بنفس الطريقة التي ملكته حين قابلها، رُسمت له كذكرى طيبة

لموقف سعيد صادفه يتمنى أن يتكرر لكن ليس بحذافيره. وكان رفيقه في الغرفة روماني عبيد الله مستلقياً على الفراش المقابل – لصق الحائط الذي اخترقه الباب – يقرأ في الكتاب المقدس كعادته. كان روماني يكبرهم بستة أشهر في الدراسة وبكومة من الأعوام في السن: إنسان قصير القامة، أسمر الوجه، أصلع، تتراءى في عينيه العسليتين الوديعتين نظرة ملائكية تنسجم في دعة مع ابتسامته الإنسانية البسيطة المرسومة باستمرار على شفتيه العريضتين. إلا أن أسنانه كانت صفراء مبقعة منفرة، ولم يكن عظيم النظافة ولا يعني بتغيير ملابسه مراراً، فكان لديه تيشيرت بنفسجي واحد لم يعرف زملاؤه في الاستراحة غيره، كما لم يلاحَظ أنه بدل فرش سريره منذ قدمت الدفعة الجديدة عليه (وكان من أبناء الدور الثاني من الدفعة السابقة، فبدأ امتيازه متأخراً عن دفعته بستة أشهر، وسينهيه أيضاً بعدهم بستة شهور)، وكان الذي يلج الحمام بعده يعاني أشد مظاهر التقزز والاشمئزاز. بيد أنه كان محبوباً بصفة عامة لتدينه وطيبة قلبه. وكان بروتستانتياً مثل آسر، لكنه أرزن منه في ناحية الفروق بين العقائد، وكان محدداً موقفه من زمن، لكن هذا لم يمنعه من أن يعجب عظيم الإعجاب بكتابات الأب متى المسكين وبعظات أبونا مكاري يونان.

أعطى آسر خده وجانب وجهه الأيسر للوسادة في شرود وأنشأ يتطلع إلى زميله الساكن معه، إلى أن سأله في نبرة آلية:

– 'هو مش غلط تقرا الإنجيل وانت نايم كده؟'

فقطع روماني قراءته ونظر إليه مبتسماً بفمه وعينيه (كديدنه حين يبتسم) وقال:

– 'أنا اتعودت على كدا من وانا صغير. ما اعرفش أقرا غير وانا مفرود ع السرير زي كدا. وما اظنش إن ربنا هيعاقبني وانا كل قصدي إني أقرا كتابه واتعمق فيه وانا ما اعرفش أقرا غير وانا قاعد كدا.'

صمت آسر. ثم ما لبث أن تذكر شيئاً فقفز من فوق السرير واتجه نحو بنطاله المعلق ظهر الباب على مسمار فأخذ من جيبه الورقة الملفوفة التي أعطاها إياه يوسف وهو يسأل:

– 'هو ميشيل رجع ولا لأ؟'

كان ميشيل متغيباً منذ فترة عن السكن لا يعرف أحد مكانه، لكنه لحظ أن نور غرفته مضاء وهو قافل نحو غرفته. وأخبره روماني أنه لا يعلم، فبرح الغرفة وطرق على باب حجرة ميشيل جورج وهاني وانتظر، وكلها لحظة وانفرج الباب عن وجه ميشيل مستعلماً في وجوم. كان قد رجع قبل قليل بدوره، هذا ما جلا بوضوح بكونه في كامل ملابسه وفتح بعض أزرار القميص العلوية، وثاب لسريره في أقصى الحجرة الصغيرة وبدأ في خلع حذاءه في صمت. لم يتبادلا الكثير: سلمه الورقة الملفوفة فحسب وقال أنها 'من طرف يوسف'، وظهر أن الآخر مندهش أو ناسٍ، لكنه أخذ منه اللفافة في النهاية وهو يهز رأسه بمعنى أنه فهم. كاد آسر يسأله عن هاني لكنه سمع صوته صادراً من حجرة مينا موريس بالجوار، فتركه لحاله وأغلق الباب. ثم مضى إلى حجرة مينا موريس، حيث الصياح والهزر قد عبأ الدنيا حتى من خلف الباب المقفول، فوجدهم يلعبون بالكلب في احتفال ضخم، ومينا قام فركع على الأرض يشد قدمي الكلب الأماميتين عالياً راغباً منه أن يمشي والأخير يتهادى ويرتكز على قائمتيه الخلفيتين في صعوبة لكن لا يبدو أنه مضجر أو متألم. ونظر الجميع إليه على مدخل الحجرة محملقاً في المشهد بارتياع ورافعاً حاجبيه المزججين على آخرهما، متوقعينه أن يوبخهم أو أن يعترض على الأقل، فما عتموا أن ألفوه يهتف:

— 'بتعملوا إيه في الكلب يا «متنا . . . . ين»؟!'...

وفي تلك الليلة شرب آسر كوبين إضافيين من الشاي: واحداً مع الشباب السهرانين (مع الشكر لجورج باخوم الذي تبرع بالسكر والشاي لهذه السهرة)، وواحداً قبل أن ينام. لكن «قدري»، رقد في أحضان مينا موريس.

٣. روحية

عاش مارك أياماً مترعة بالتعاسة، فعلى ما يبدو إيمان لا تفكر فيه إطلاقاً، وهي بعيدة المنال وغريبة الحال لا يسبر لها غور. علاقة «مؤدبة» بين زميلين قد باتت صلتهما فجأة كأنما تراجعت آلاف الخطوات للوراء، فلم يعودا يقفان سوياً أو يتمشيان معاً كما كانا، وأمست تهرب من نظراته كأنها أحست وتطيل من الشرود والوجوم فتنفثئ في لحظات مباغتة في هزر ومزاح مع كل ذي هب ودب كأنما تتوق لحياتها الماضية وتستوحش فترتها الجديدة الخالية منذ بداية الامتياز وتبدد الناس بشكل بالغ عن بعضهم البعض وانقراض وقفات ما خارج الكافتريا ومسيراتها الحاشدة من هنا لهناك... عجيب أن يتم كل هذا في غضون شهر واحد ونيف من الأيام، ما بين ابتداء القصة ونهايتها أقل من واحد على عشرة من السنة الطويلة الممتدة إزاءهم، فعلى هذا إذن هي شخصية ملولة تزهق بسرعة وتروم الموج والحركة والاختلاف كل يوم عن سابقه، وهل كان بإمكانه أن يوفر لها ذاك إن تم المراد؟

وكانوا على العموم يقفون جميعاً بعد التدريب — أو في أثنائه — يتضاحكون، ويتهازلون، ويذكرون سيرة هذا أو ذاك، ويتناقشون جدياً أحياناً في أمور عملية مثل علاج بعض الحالات ومستقبلية مثل التكليف والتشتت الوارد إلى آخره، لكن كل هذا في جو عام سطحي ليس به جواب ولا شبع لقلبه الحيران المضطرب. وهو لم يقلع عن مراقبتها واختلاس النظر منها بمقلتيه القرنفليتين خلف عويناته، كل لحظة وفي كل وقت، بل أنها قد زارت أحلامه فضاجعها بقوة بهيمية عشرات المرات حتى خجل من نفسه وأنف من تذكر أولئك اللحظات وهو الإنسان المتدين. الغريب أنه بعد كل تلك الليالي الحارة المضطربة، حين يفعم نظره منها في بداية كل صباح، كان رجاؤه يخيب، فهي ليست تلك الفتاة المثيرة 'الوهم' التي تتراءى له في الرؤى والأحلام الساخنة، وكان على وعي تام بعيوبها كافة: من عدم اتزان محجريها، وبشرتها السمراء الخشنة، وامتلاء ردفيها عن المحبب، وشعرها المزيف المكوي على الدوام (مما تأدى إلى لمعانه الشاذ وتقصفه)، لكنه بعد كل ذلك كان لا يتمالك آخر اليوم من أن يرغبها لنفسه بمختلف

الوسائل، حتى يغادرها وقلبه كله شوق وحرارة وجسمه يضطرم بالشهوة!... وكم جاهد – العديد من المرات – لكي يكرر طلبه الأول منها بالانفراد لكنه فشل، فشل كلاعب محدود المقام خرجت منه حركة إلهامية ذات يوم ثم فقد أثرها فلم يعد يعرف كيف يكرر أداءها، فقرع نفسه كثيراً على هذا ووصف ذاته بالجبان الرعديد، وتنبأ لنفسه بأنه سيفقد كل أحلامه على ذات المنوال في المستقبل القريب والبعيد وسيعيش أبداً مجهول الصفة نكرةً مهما نجح شأنه في الدراسة أو في الدين، وشتم نفسه شتيمة نابية أتت في لحظة غيظ وثوران فما تلعثم أن ارتبك وخيل إليه أنه سيسقط على البلاط فتدارك جسمه في آخر لحظة وارتمى على مقعده أمام المكتب البني يفكر ويعذب نفسه حتى انتهى إلى حل أن يصيم ثلاثة أيام انقطاعياً إلى أول العصر عسى أن يكفر عن ذنبه وينسيه الله إيمان برمتها. وبهذا أصبح مارك قد صام مرتين لأجل إيمان: مرة في البداية من أجل أن يساعده الله في الحصول عليها، ثم هذه المرة لأجل أن ينسيها إياه. ولم يوفق في الحالتين.

إلى هذا فلم تخل حياته خارج هذا الموال من شئون أخرى بدورها ليست على قدر أقل من الأهمية...

في ذلك الصباح استيقظ على صوت ولوج امرأة عمه الحجرة. كانت امرأة عمه سيدة في منتصف الخمسينيات، لكنها امتازت ببنيان صحي وجسد محكم سليم لم تنل منه أمراض الشيخوخة بعد. وكان وجهها رقيقاً ذا بياض باهر وإن اكتنفته بعض التجاعيد لكنها لم تقض على ملامحه الأساسية التي تفصح بجلاء عن جمال قديم: البشرة التي ما زالت ناعمة حتى بعد أن تخطت الخمسين، والفم الصغير الشهي الذي انتظمت من حوله الآن تغضنات لطيفة، وعظام الوجه المنسابة التضاريس بيسر كأنها لرأس منحوت من المرمر نحته فنان بارع من فناني الإغريق، والحاجبين المنمنمين المتقوسين عالياً في إغراء فوق حدقتين خضراوين صافيتين تنعكس فوقهما صورتك كما ينعكس وجهك فوق مياه بئر عذبة نقية. كما احتفظ جسمها بأنوثته وخفته إلى درجة أنها كانت تقطع أسيوط كلها في أيام دائرة على كعبها دون أن تلمس تعباً أو كللاً، وذوقها بنضارته وأناقته

فعافت نفسها القواتم وأحبت الفواتح عامة وما يمت لآخر ضروب الموضة فلم تبخل على نفسها بشيء، وحتى شعرها بعد أن أدركه الشيب صبغته بلون أشقر ضارب للحمرة ناسبها أيما مناسبة وأضاف لبهاء مظهرها ولجمالها الفائق الذي لا ينكره أحد. وكانت شخصية إجتماعية معروفة لا يكاد يمر يوم دون أن تأتيها زيارة أو تقوم بزيارة، معنية بصفة خاصة في أمور «الولد والبنت» و«الرجل والمرأة» في المجتمع الأسيوطي، تتكلم كذات خبرة وتمحض الفتيات الحديثات الزواج والمقبلات عليه من النصح بنية خالصة فأحبتها الفتيات وكن يتمايلن عليها مطوقات رقبتها بأيديهن مطلقات عليها 'طنط روحية' عوضاً عن 'مدام روحية' وهو الاسم الذي اشتهرت به في الأوساط (لاسيما البروتستانتية)، وقد نجحت في كمٍّ من المرات في أن تربط هذا بتلك وذاك بهذه فعدت مرتبة زواجات ناجحة جداً أيضاً. لكن مقابل كل ذلك النجاح تدوول من خلفها أن هذه السيدة المليئة بالحياة بهذه الصورة إنما تعوض حرمانها المفجع من الولد ومن زوج 'بحق' يتشارك معها يومها الطويل، كما قيل مراراً أن أسلوبها في المعيشة، وحياة «الصالونات» التي تحياها، واجتماعياتها وخفة دمها، وصحبتها الكثيرة المتشعبة، وفرط خروجاتها بالتاييرات القصيرة بكامل زينتها في بعض مناسبات السنة لتمضي إلى كنيسة الإصلاح بيسري راغب أوكنيسة الإنجيلية الثانية بالنميس أو كنيسة الإخوة بالجيش، ثم تكريس حياتها للنصائح النسائية أو للمسائل الزوجية، كل ذلك ما هو سوى مفتعل ومعجون بالنفاق والتظاهر، هذا بالإضافة إلى أنه لا ينتمي — بأي صورة — إلى نمط الحياة في 'مصر المحروسة' أو 'مصر القبطية الأرثوذكسية' أو 'مصر المسلمة'، لكنها تحاول محاكاة نساء المجتمع الراقي في القاهرة — كما يظهرن في التلفاز — أو حوريات لبنان — كما يعرف عنهن ويرين على أغلفة مجلات نادين — أو السيدات البريطانيات، كما نراهن في الأفلام. واستهزأت بها كذا مرة نساء أبناء إخوة زوجها من العمارة المجاورة (خاصة من ذوات الأصول الأرثوذكسية) لاعناتها وواصفاتها بـ'اللي عاوزة تتشكم' و'اللي جايبة لنا الجُرس' و'الفطفاطة المجنونة' وشكون لأزواجهن كي يحكموها بالنيابة عن عمهم العاجز المريض. إلا أن الأزواج كانوا في هم ثقيل بصدد المصنع والمشاريع فلم يعبأوا بامرأة عم آبقة أو بجد خنفس أياً

كان الشأن. وركل أحد الجيران الشبان عجلة سيارة أحد أبناء أخ زوجها الـ«١٢٨» (ذلك صاحب محل 'Othello' – بمعنى عطيل – بشارع النميس) مفضياً لصاحبه في سخط: 'حلوة... لكن عاملة لي فيها نادين لبكي!'.

كانت روحية في ذلك الصباح تلبس فستاناً صيفياً خفيفاً موشىً بورود بنفسجية وزرقاء بهيجة، ودلفت إلى الغرفة الصغيرة في صمت حاملة صينية الإفطار عليها بضع ساندوتشات مربى وحلاوة طحينية وكوب من الشاي، فوضعتها بوجه ثابت خالٍ من التعبير فوق المكتب البني تحت الشباك، ومن ثم دارت على عقبيها راجعة أدراجها بنفس الثبات والهامة المرفوعة دون أن تنبس ببنت شفة، وأغلقت الباب دونها. حاول مارك أن يستوقفها بإشارة من ذراعه، أن ينطق لها بأي شيء، لكن ذراعه ما عتمت أن همدت بجانبه على الفراش وباء جهده بالفشل، فمسح بيده على شعره الثلجي الملخبط في هم وتحير عوضاً. ماذا يفعل مع هذه المرأة؟ مذ استقدم للعيش في هذا المنزل والمشاجرات بينهما لا تكف... كان آنها فتى صغيراً في ثانية طب يحمل حقيبته البنية في خزى ساقط الهامة، وأظهرت له من التعاطف والرعاية أمام الناس ما حمله على النفور منها سريعاً: بدأت تذكره بمأساته وبيتمه، وأحس بفارق معها وهي الست الحسناء الراقية المتأنقة المتعطرة طوال اليوم وهو الصبي السمين (أيام كان سميناً) الأمهق الذي يشبه الفرخة البيضة بياضة. وجعلت تكيل له من العطف... عطف... عطف... وتشتري له الألعاب كأنه طفل صغير، ولا تنفك تعيد على مسامعه ومسامع أي ضيف حكايته المفجعة وتتحسر عليه لدرجة أنه بغض رؤياها وانقبضت نفسه من أدنى حديث معها تمسحه فيه بعينيها الجميلتين المشفقتين. وكانت تطيل من التفرس فيه والتطلع إليه في كل وقت كأنها تتجهز أن ترسمه، وفي أحايين كانت تعلو شفتيها بسمة صغيرة في غضون شرودها فيه مقتها إذ لم يعرف معناها. ثم تكهرب الجو بينهما بدفعة واحدة كبيرة لما راحت تتدخل في حياته وتتعرف على زملائه المتصلين به والمارين به فتلتمس منهم أن يصاحبوه ويدمجوه بينهم لكي ما يسرَى عنه وينسى أحزانه، مما كان له أثر سيء جداً على علاقاته في الكلية وحث الناس على أن يهزأوا منه أمام عينيه ومن ورائه فانكمش وزاد انطواءً فوق

انطواءً وصار يتجنبهم ما أمكنه. وبعدها جاء موضوع أنها انبرت ترتب له حجرته في غيابه، وتنقل أشياء من مكان لمكان، وتلثم خده أثناء نومه، فشاط وهاج فيها ومن هنا يؤرَخ بدء معاركهما الرسمية. خمس سنين وهو يعاني يومياً تقريباً ولم يعثر على حل ولا راحة: ملأ صيتهما الشارع، وتفرج الناس والجيران وأبناء عمه عليهما في خناقاتهما (خاصة لما يهبط يشتمها من تحت البلكونة أمام كل الخلق في مناسبات غير قليلة) إلى أن اعتادوها، واعتصرته العصبية من بعد أن كان وديعاً حليماً يشاد به، وبات الجو المنزلي ملغماً ينتظر فقط أدنى إشارة فينفجر، وشغله الأمر فلم يخرجه منه سوى التألم لعاهته وثم الكتاب فثم الدين.

إنه يعي أنها ليست سيئة جداً إلى هذا الحد، فما يزال يذكر لها أنها هي التي طلبت الاعتناء به بعد يتمه وموت أمه أخيراً. ولم تأل في مصروفه فأمدته بمصروف جيب محترم كفى وزاد. كما عرف منها الموضة والشياكة فتفتح ذوقه وأصبح أنيقاً بدوره حسن الاختيار، ولم يخل الأمر أيضاً من إعجاب سري بجمالها الفائق وأنوثتها المتجددة بعد الخمسين فلم يكن بمقدروه أن يحول عنها حدقتي عينه إن انحسر عنق قميصها عن أديمها الناصع الأملس العجيب. لكنه من الداخل رغب عنها، ود ألا توجد وألا تكون قد وجدت من الأصل، ولئن ما أزعجه منها في الأساس هو العطف وهو مدمن على العطف، لكنه لم يستحب هذا اللون من التعاطف والرثاء الذي وجده منها... في الخارج رام العطف والإشفاق، أما في البيت فقد أراد الراحة والاستجمام والنسيان، وهذا ما لم تستطع أن توفره أو أن تستنبطه... فحضته على كراهيتها، وكانت تعامله بغرابة آخذةً دور غير دورها فشك في صدق مشاعرها تجاهه ونواياها: جعلت من نفسها حياله صورة مسببة للأذى والإزعاج وكفى، فلم يشعر من قبل أنها «إنسانة» لديها عواطف معينة أو فكر محدد أو طموح خاص خلف هذه العظام والتضاريس الحلوة والحاجبين المرتفعين الزججين. إنها تخرج، أو تجلس في الصالة تقرأ في كتاب لطيف مرتدية نظاراتها، أو تشاهد التليفزيون، أو ترنو إليه، لكنها أبداً لا تتحدث «معه»... علها تتحدث «عنه»، لكنها لا تتحدث عوض «معه»... من هي بالضبط ؟ ولماذا تبادله الشجار بتأهب دائم كأنها تمقته هو الآخر ثم تعود فتشرد فيه وتبتسم ؟! وكيف المجال لأرضية وسط معها

وهي التي تتصرف تصرفات عجيبة فلم تلفظه حتى الآن وتطالب برحيله برغم كل ما فعله ؟ وبعد كل شجار يلفيها قد نسيته ونسيت الشجار في غضون يوم وترتد إلى حياتها الإجتماعية الحافلة كأنه ليس موجوداً!

كان الليلة الماضية قد تشاجر معها أي مشاجرة بسبب أنها لمحت — فقط — لإسرافه المحدث مؤخراً، وابتياعه كميات غريبة من القمصان والبنطلونات وكريمات الشعر يضمخ بها فروة رأسه البيضاء والبارفانات والزيوت والكماليات وكتب طبية بالمجلدات اكتظ بها المكتب البني وشكى (مثل مجموعات أكسفورد وتشرشل بعناوينها المختلفة وكتب في الباطنة كـ«دايفيدسون» و«كومار» إلى ما شابه) منذ ابتدأ الامتياز، على الرغم من استجداد مرتب شهري معقول من المستشفى يتعدى المائتين جنيه فوق المصروف الأسبوعي (ستين جنيهاً بجانب حساب الطوارئ وابتياع الضروريات الشخصية التي لا يغطيها مصروف الجيب) الذي يتقاضاه منها، وأخبرته أنها تمر بضائقة مالية في الوقت الحالي بسبب تدهور صحة عمه (وزواج ابنة أختها في القاهرة) فعليه أن يحكم نفسه ويعتمد عليها قليلاً إلى حين تتعدل الظروف بعد شهرين أو ثلاثة. فانفعل وزعق بها متهمها بأنها تمتن عليه أنها ما برحت تنفق عليه، وتبغي إذلاله وتعذيبه لسبب أنه إنسان فقير خسر أبوه المرحوم نصيبه في المصنع الذي تنهل هي وزوجها من خيراته الآن، وأنه لهذا قد لعنهما الله بفقدانهما من الذرية بسبب أطماع زوجها وإخوته المنتقلين — لجهنم — وإغضائهم الطرف عن حق والده رحمه الله الذي عاش فقيراً ومات فقيراً وخلف لابنه الملعون الفقر والعوز و'الشحططة' من هنا وهناك بين من ظلموه وامرأته قبلاً. واستعبر باكياً وهو يدعو لها بالخراب وبذوق العذاب الذي جعلته يعانيه. وكان في كامل ملابسه فما مكث أن هرول للخارج هارباً واعدها بعدم رؤية وجهه مرة أخرى لكي تسعد وتفرح، وسك الباب خلفه بعنت فكادت ضلفته تنخلع من مكانها.

وقد أزمع مراراً وتكراراً في نوبات غضبه وهياجه من قبل أن ينفذ تهديده لكنه سرعان ما كان ينكسر عنه ببضع دقائق في وسط الهواء الطلق وزيارة سريعة للكنيسة — أي كنيسة — فيرتد لعقله ويعي أن مكانه الوحيد هو بيت عمه مهما جاب، على أنه وطن الجميع على ألا يثوب إلى شقة عمه

إلا بعد تأخير مفرط: كنوع من الخجل من ناحية، وكدليل أنه كان يفكر جدياً في الهروب والمغادرة من ناحية أخرى. إلا أن الأمر تكرر مرات وعُرفت طيته، وعُلِم أنه عائد عائد مهما تأخر وذهبت الظنون، فاعتادت روحية — امرأة عمه — أن تترك له الباب غير 'مشنكل' في كل ليلة من تلك الليالي، وكان يعود فيلفي النور مطفأً والشقة في سبات فيتسلل لحجرته في صمت وينام فيصحو فكأن شيئاً لم يكن... وهذا ما جرى البارحة... لكنه شعر أن روحية راحت تمل في الأواخر، فلئن بادلته الشجار بروح متوثبة جاهزة لكنها سئمت من الخناق والاتهامات الجارحة الرائحة والجائية التي ألفها لسانه كتحية الصباح، لذلك فإنها لم تتخط خناقة البارحة هذه المرة كما بان عليها وهي تقتحم الحجرة لتوقظه ثم توضع له إفطاره دون كلمة 'صباح الخير' التي لم تبخل عليه بها طوال السنين الماضية حتى في أحلك أوقات تباعدهما، وشعر أنها قد بدأت بحق «تكرهه» كما أعلنها هو من البداية، وتتمنى من قلبها ألا يوجد. فأليس عجيباً إذن أن يشعر الحين بغصة شديدة في تقبل الأمر في النهاية وهو الذي رامه من قبل أن يراود تفكيرها ؟

ونخزه التفكير في الموضوع كما ينخز الماشي جرح ممض في باطن قدمه، فارتفع برأسه وقام من السرير فتمطى وأنشأ يتشوف إلى حجرته. كانت حجرة صغيرة مربعة مكتظة بالعديد من الأغراض والأشياء المكومة هنا وهناك فكأنها مخزن، لكنه شبهها بالجحر: جحر فأر أبيض كما انطبق عليه الوصف. إلا أنها كانت آية في النظام، فهنا لكل شيء مكانه، والكتب كانت مرتبة بعناية فوق المكتب البني الخشبي الذي احتل أسفل النافذة المطلة على الغرب ناحية شارع عدلي يكن، وملابسه المتنوعة بألوانها المتباينة معلقة على الشماعات المرئية من جوف الدولاب المفتوح في أقصى الجنوب ملاصقاً للحائط، والدولاب منتظمة في قاعه بضعة صفوف من الكتيبات الصغيرة أغلبها ذات طابع ديني وبعضٌ يوحي بأنه من القصص والروايات المترجمة، والسرير يتوسط الحجرة بالتمام وإلي يساره كوميدينو بني قصير يعلوه كتاب أزرق منكفئ على صفحة مفتوحة دنو نصفه بعنوان 'الكتاب القادر على تغيير الأمم' وبعض الأدوية والعينات ملقاة في إهمال لكنها لم تتخذ صورة الفوضى مع ذلك، ومدخل حمامه الخاص الملحق بالحجرة إلى يمينه على الجهة الأخرى من السرير يبرق

نظيفاً بسيراميكه الأبيض الظاهر من بعد الممشاة اللوفية الموضوعة بعناية دون العتبة في دقة بالغة كأنه قاصد أن يلتقط لها صورة، وإلى الجدر استندت بعض الخردوات ومضربا كرة سلة وكرة في شنطة شفافة على شكل المضربين وعدد من الدمى القديمة والدببة البنية من اللائي أحضرتهن إليه امرأة عمه حين وصل ما فتئ يحتفظ بهن متكاسلاً عن التخلص منهم من ناحية وصاباً عليهن آيات سخطه وسخريته منها من أخرى، وحتى ما بدا مرمياً على الأرض من ساعات قديمة وعلب أقلام وألوان وكتب ضخمة في أكياس للحفاظ عليها كان مرمياً في انتظام مبدياً أشكالاً هندسية مدهشة كأن قاطن الحجرة مهندس فنان. وكان ما يزال بكامل هندامه منذ البارحة بعد أن رجع في نحو الواحدة والنصف صباحاً فلما يقو على تغيير ملابسه من التعب والإعياء في اللف والجولان، فقرر أن يأخذ دشاً ليواتيه بعض الانتعاش ويطرد عنه الفكر. وألقى نظرة إلى ساعة الحائط أعلى الجدار الوحيد الذي تبدى أنه الوحيد الشاغر (نسبياً، فلم يحتله سوى الباب) فرأى أنها التاسعة إلا دقائق.

كانت جزمته الشامواه العسلية ملقاة من ليلة أمس تحت أقدام السرير، وكان الجورب الذي يكسو قدمه متهدلاً ومنزاحاً فأزاله بشدة واحدة، ثم أتل نحو دولابه فالتقط غياراته الداخلية ومن ثم توجه إلى حمامه وهو يتنحنح ويمسح على شعره الأبيض الناعم للخلف. حمام صغير نظيف للغاية أبيض في كل شيء كان. وخلع عنه ملابسه بالكامل فتبدى عارياً تماماً أمام المرآة الضخمة المستطيلة فوق الحوض. كان في البدء يشمئز من جسده الأبرص القرنفلي، ومن شعر صدره الأبيض كأهداب الحشرات، ومن سمنته التي كانت، لكنه أصاب بعض الرضى في نفسه حينما فقد سمنته وصار رفيعاً طويلاً أنيقاً ذا صدر عريض وصوت خشن جذاب — صوت رجولي — وهامة مرتفعة وظهر مستقيم يحسده عليه الحاسدون. ولعل هذا الرضى المحدث قد يكون مرجعه لوناً من الفضول وعدم الألفة — فقد لبث ردحاً طويلاً (لشهور) يرمق نفسه الجديدة في اهتمام وحيرة بدون ذاك الضرب من الاشمئزاز الذي زامله طول عمره وهو ينظر إلى نفسه — لأنه طالما عد «البرص» — كما يدعوه لنفسه — والمهق عاهة من أشد العاهات في بني آدم. ثم جلا الرضى فاستبد به «عدم

الرضى»، فكان يرمق جسده الفاتح هذا في تضايق لأنه ليس ملوناً كمثل باقي الناس، ويتنهد في حسرة على «بهتانه» وزوره. وأخيراً ساده القبول العام بنصيبه في الدنيا من المهق وقلة الألوان، معولاً على روحه الدينية، وواضعاً أملاً فائقاً في «تعويض» رباني من لدن بارئه الذي خلقه على هذه الصورة. فأمسى ثابت القلب غير عابئ بتعليقات الناس بصدد لونه، والشمس التي تتعبه جعل لها نظارات يغمق لونها في الضوء، واندمج في الحياة بشكل أوسع واختلط في الناس فلم يصر منزوياً منكمشاً كما كان في السابق على الأقل، وعاونه تفوقه على ذلك، وها هو زامل وصادق وأحب مثل الناس وذاق 'مرارة الحب' كما لبث يسمع عنها دهوراً. على أن هذا «التسليم» والقبول بالنصيب كانت تتخلله فترات — وكديدن إيمانه العام — من وهن الإيمان وضعف الثقة، وخاصة حين يفعل أمراً منكراً يشعر أنه يغضب الله ويشكك في مدى صحة العلاقة الشخصية المتينة التي آلى على نفسه أن يبنيها معه منذ أن تدين أو منذ أن 'قبل المسيح'. وجعل يفحص جسده من خلال المرآة في نظرة امتلكها النقد والأسف، ويمشي بأنامله على حلمتيه الورديتين في مثل لون شفتيه وهو يتذكر وصف 'الفار الابيض' في تقزز وألم، ثم على شعر صدره الثلجي الخفيف، ويتأمل أشفار عينيه المتخاذلتين من حيث خرجت أهدابه القلقة المحرومة من اللون، ثم خطر له خاطر فرفع ذراعه اليسرى وراح يتحقق من شعر إبطه الأبيض بدوره كأنما أول مرة يراه، إلى أن أخيراً زفر في إذعان من منخريه ثم أخرج لسانه لنفسه في المرآة.

ووقف وسط البانيو تحت الدش وشملته الشلالات الساخنة فتوهج جسمه الناصع كما تتوهج الجمرة تحت النار، وأخذ يمسح على شعره الذي طال شيئاً عما ألف كما جرت عادته حين يفكر. كانت الأفكار تتصارع عليه بقوة من جميع النواحي: إيمان... روحية... النيابة... المستقبل... الله... أشياء أخرى تخطر على الحسبان، فنفض رأسه كأنما يرميها جميعاً بعيداً وعاد يركز في الماء الساخن المريح. ودعك جسمه بعنف باللوفة والصابون السائل المعطر (كما استقرت عادة آل المنزل) حتى كان قد نسي فعلاً. وخرج بعد دقائق بالفانلة والشورت الداخلي فنفحه تيار من الشباك المفتوح فخف إلى إغلاقه إذ أنه كان كثير الخشية من الأمراض، ثم أطفأ

المروحة وارتدى قميصاً أحمر مقلماً أخرجه من كيسه ثم لبس فوقه بنطلون جينز أزرق فاتحاً، وبعد ذلك ضمخ شعره بكريم أبيض، ثم تعطر من زجاجة ليمونية كان يضعها في رف الحوض وارتدى عويناته، فبدأ يرمق نفسه بفخر وكبرياء.

وفرج الباب يتسمت الجو فلم يبصر المرأة في الصالة الأنيقة مثل صاحبتها الضاربة للقرمزي والبيج، وكانت البلكونة إلي يساره مفتوحة على مصراعيها فكست المكان بضوء ظليل صباحي محبب. وكان باب حجرة عمه في أقصى اليمين ورأى أن الغرفة مظلمة من الداخل غارقة في السبات والجمود كحالها جل اليوم، وإلى جوارها كانت حجرة امرأة عمه (منذ بدءا ينامان منفصلين مذ ثلاثة أعوام) بابها موارب يودي إلى عتمة بدوره، فحث الخطى نحو باب الشقة الكائن في نهاية الصالة، وحانت منه التفاتة للبلكونة فلمح روحية مرتفقة حاجزها ترتكز على ساق واحدة مولية له ظهرها، فأسرع بالهرب قبل أن تتنبه إليه، ورد باب الشقة مكانه بحرص. وهبط السلم يلقي بسماعته وكشكوله من يد لأخرى في لعب وهو يتنفس الصعداء، وعلى السلم قابل أحد أعمامه يصعد في ضد جهته فتبادلا التحية في اقتضاب، ثم خرج مارك للشارع.

وكانت العمارة التي يقطن فيها مارك — عمارة الأعمام (أو الأجداد كما سميت فيما بعد من قِبَل الرعيل الأصغر) — تقع بعد المنتصف بقليل من شارع عدلي يكن المتوسط بين شارعين مهمين هما الجيش ويسري راغب. وكان الشارع ضيقاً ممتداً على طول من شارع المنفذ جنوباً وينتهي متصلاً بشارع الخازندار المتعامد عليه والواصل ما بين الجيش ويسري راغب شمالاً، يسير في استقامة دونما تعرجات جلية كحية تمشي على قدر الإمكان في خط مستقيم، وقد اشتهر بأنه طريق مختصر جيد لمن يروم السير في عكس اتجاه يسري راغب ثم النفاذ إلى أحد روافده، لهذا فلم تكن تغشاه إلا السيارات الملاكي والتاكسيات الصغيرة، مخترقته من مدخله في شارع المنفذ أو من ثقوبه المتباينة على الجانبين طوال مجراه، فإذا صودف وتقابلت سيارتان في منحنى أو تقاطع، استعصى المرور وحدثت أزمة.

وأعظم تلك الأزمات هي لما تسد الشارع مقطورة من مقطورات الأسمنت والجبس وتفرغ حمولتها أمام محل ومخزن الأسمنت والجبس (الشهير باسم مصنع البلاط) الواقع في أسفل عمارة الأعمام أو الأجداد. هذه المنشأة المتواضعة تحتل الدور الأرضي كله من عمارة الأعمام، بالإضافة إلى حوش غير ضيق ما بين العمارة والعمارة التالية عمارة الأبناء والأحفاد أو بالنسبة لمارك عمارة أبناء العمومة. ويبدو الحوش للرائي على شكل مساحة خاوية فسيحة مغبرة بالجير والجبس الأبيض وغارقة فيهما لها بوابة عجوز صدئة، تتصل بغرفة إدارة (تشتغل أيضاً حالياً كمعرض صغير للبلاط والسيراميك) مرتفعة عن الأرض مدخلها من الداخل لا ينجلي منها غير سقفها المطلي بالزيت الأبيض والذي تتوسطه مروحة مدمجة في نجفة من خلال شباك قبنوري قرمزي قاتم مرتفع يفتح إلى الشارع، أما المخزن الذي شمل الدور الأرضي كله من عمارة الأعمام فيتبدى بوضوح مزدحماً ومكدساً بشكائر الجبس والأسمنت. وتجرى المعاملات أساساً في الشارع بين أبناء العم المسئولين عن 'المصنع' والزبائن ما خلا إلا إذا كانت صفقة كبيرة تتم في غرفة الإدارة، ويقوم اثنان من العمال بشيل الشكائر إلى سيارات المشترين إن يتم الاتفاق، كما توجد خدمة التوصيل للمنازل أيضاً إن أراد الزبون الحديث: عن طريق عربة كارو يقودها عجوز أعرج يدعى عم «عطيتو»، ويطقم فيها بغلين، أحدهما شاذ.

اشتهر المكان باسم 'المصنع' منذ أن كان مصنعاً للمياه الغازية قبل دهر، ثم حوله أحد أعمام مارك بعد أن مسك زمامه وهو يقول في تقزز: 'كاكولة مين اللي مش جايبة همها دي' إلى مصنع بلاط. ويظهر أنه كان رجلاً مصاباً ببعد النظر، فقد وفق واشتغل مصنع البلاط وجرى به الرزق إلى حد أذهل الجميع. إلى حين صدر القرار الشهير بحظر إقامة المصانع داخل المدن، فنقل النشاط إلى موضع جديد في مدينة الصفا خارج أسيوط وإن تم الاحتفاظ بالمكان القديم أسفل العمارة كمخزن لتجارة الأسمنت والجبس ثم كمعرض بسيط أيضاً (المعرض الكبير في مدينة الصفا)، وكنوع من الوفاء أبى اللقب أن يفارق الجدر العتيقة العجوز التي ترعرع بين جنباتها، فاستمر المكان القديم ينادى بـ'المصنع' منذ ذلك الحين. ويعد هذا 'المصنع' المحل قلب الشارع في النشاط وفي الحركة

والضوضاء، وبغيره لكان الشارع ميتاً والعزلة سائدة والمرور أيسر، فبغض النظر عن الشاحنات العملاقة الرائحة والجائية فتشغل حيز الشارع النحيل كله (بشكل يثير التساؤل والمخيلات بحق عن كيفية ولوجها إياه، فمن ثم الجلاء عنه ؟)، فإن سيارات أبناء العم الذين اغتنوا من خير ’المصنع‘ وزادوا قد عاونت على ضيق الشارع البسيط أكثر وأكثر بتراصها أمام بعضها بعضاً هكذا كأنها تتنافس لصق الطوار أمام المحل المصنع. ولم تك تلك السيارات تستخدم عدا في المناسبات الخاصة، فيما خلا ذلك كان أبناء العمومة يؤثرون التمشية على الأقدام، أو استعمال سيارات أخرى مستعملة ماركة فيات ١٢٨ يركنونها في أي مكان غير قلقين عليها.

انبعث مارك من مدخل العمارة ليجد سيارة نصف نقل ترفع عليها شكائر الأسمنت ويتسلمها عامل تابع لجهة السيارة وقف من الخلف مشمراً بنطلونه المغبر بالأسمنت حافياً في ملابس مهترئة متسخة من أثر الغبار، وكان عاملا ’المصنع‘ — سامي وحمدان — يتناوبان على تسليم الشكائر للرجل فوق مؤخرة السيارة مع بضعة رجال آخرون يبدو أنهم تابعون لجهة النقل بدورهم، كل مغطياً رأسه بمؤخرة جلبابه قابضاً على طرف منها بأسنانه لئلا تسقط أو ’تزاوله‘ في عمله، لكنهما ظهرا أكثر خبرة فكانا أخف تغبراً، ولم يكن أحدهما يمشي حافياً قط وهو يحمل الشكائر، أو يتطوح أو يعرج مثل بعض العمال المساعدين. سامي كان شاباً في الثلاثينيات، ذا وجه صلب مربع وجسم قوي عريض وبشرة بيضاء وعينين خضراوين وشعر فاتح به شبه خارق من «ديفيد بيكهام» لاعب الكرة الإنجليزي بشكل يفوق التصديق، لدرجة أن مارك قد أسماه في نفسه ’بيكهام‘ وأنشأ يقولها لنفسه في سخرية (مقارناً بينه وبين شبيهه الشهير) كل يوم في كل صبح يبادره فيها وجهه الوسيم الغائر في الفاقة والشقاء. وكان سامي مسيحياً من أبنوب على قدر ما يعلم مارك. أما حمدان فإنسان طويل ممشوق القامة، نحيل الخصر، أسمر وذا سمرة صافية تشير لأصله العربي، وكانت أسنانه بارزة إلى حد ما وشعره أكرت غزيراً وإن كان يافوخه ضيقاً مضغوطاً عند الصدغ فكانت مقدمة شعره على شكل «سبعة» ’مفلفلة‘، وكان على ما هو واضح مسلماً من عرب القرى المحيطة إذ كان دائم الحديث عن ’فلان بن فلان‘ و’فلان «أب» علان‘ والنخيلة والبداري، إلخ، وكانت هوايته أن

يسرق العربة الكارو من عطيتو فيمضي بها متطوعاً لإيصال طلبات هنا وهناك بالبغلين، ولئن قفل غالباً في نكد.

ولم تكن العلاقة بين الطبيب الشاب والعمال على درجة كبيرة من «أي شيء»، ليس غطرسةً منه أو تعالياً لكن بدافع الحرج وعدم حدوث مناسبة للتعارف، فكان يغادر بيته كل صباح بدون أن يلقي على أحد تحية الصباح اللهم إلا أبناء عمه إن صادف وجاءت العين في العين، ويقفل دالفاً من خلال باب العمارة في صمت، لذلك فقد مضى في طريقه لا يلوي على شيء وانعطف في التفرع القائد لشارع الجيش لكي يلتقط تاكسياً.

كان الجو جميلاً ذلك الصباح، وقد أتاه الحمام الصباحي ببعض الحيوية وإن أهمل شرب الشاي وتناوُل الإفطار نقمة على روحية، فوقف عن كثب من الأسفلت يشير للتاكسيات الرائحة في اتجاه الجامعة منشرح النفس ببداية اليوم الجديد المريئة وبتواري كل همومه وقتياً إزاء هذه الشمس الساطعة الملاطفة وهذا الجو الجميل الذي داعب بشرته الناصعة أرق مداعبة بعد أن اغتسلت واستكنت ولبست أجمل لباس... إلى أن دهمه على حين غرة جنوح سيارة مفاجئ صوبه بالضبط وظهر أنها ستصدمه.

وما عتمت السيارة أن كُبحت فجأة بصرير مرتفع وأثارت الغبار من حول عجلاتها وهي تدور بحذق بيّن لتتوقف على بعد خطوات من أقدامه ويواجه شباك قائدها وجهه المخضوض. كانت سيارة أوبل سوداء غير معنٍ بنظافتها كثيراً — فقد كسا سطحها التراب — وكان سائقها شاباً مكتنزاً ذا وجه مستدير أسمر به ندوب من أثر حب شباب ماض وكان يثبت شعره القصير بالجيل، وكانسجام مع السيارة فقد حبك حول جسمه تيشيرت أسود (بودي) على صدره نقش الحرفان «XP» بحجم عريض. ولابد أن مرأى مارك كان مضحكاً وهو مرجوف ومتسمر مكانه من المفاجأة، منكمشاً كحيوانات التجارب، فقد ضحك الشاب قائد السيارة، ثم أومأ له بيده كي 'يلف' ويركب السيارة بجانبه من الجهة المقابلة. كان يدعى مصطفى عرابي، وهذا ظريف فهو ليس بمصطفى كامل ولا أحمد عرابي، وفوق هذا كله فقد دأب الشباب — لسبب ما — على مناداته بـ«كعبول». وكان أحد زملائه القدامى في السكشن إلى أن انفصل عنهم بعد ثالثة طب وقت أن عدلت

القوائم، لكنه لم ينقطع عنهم بسبب اجتماعيته وبسبب حبه للفتيات والاختلاط بكل الدفعة، فداوم على الزيارة وكان يسلم على الجميع ويتفاكه معهم فكان على معرفة وثيقة بمارك، لكنه لم يكن قد رآه قبل فترة فاستغرب هذا اللقاء المفاجئ وتوقفه المخصوص لكي يقله. وضغط كعبول دواسة البنزين بغتة ما أن جلس مارك فهدرت السيارة وانطلقت كمثل تنين خارجٍ للقتال، وهو يقول:

– 'تصدق إنك فيك شيء لله؟'

فتشبث مارك بحافة شباك السيارة وهو ينظر للطريق أمامه يقول غير منتبه لكلامه:

– 'أه...'

– 'أنا كنت لسه بافكر فيك ع الصبحية.'

ولدهشته وجده ينحرف مرة واحدة قبل أن يتم شارع الجيش لينفذ إلى يسري راغب في الجهة المعاكسة. فسأله دهشاً:

– 'إنت رايح فين؟!'

فرد عليه بتروٍ وهو يواصل دربه في يسري راغب المفضي آخره إلى الإشارة:

– 'إهدا بس، أنا كويس إن انا لقيتك، نروح نشرب لنا كبايتين عصير واحنا بنتكلم.'

كان قلبه متكهناً بشيء مقلق من اللحظة التي باغتته فيها السيارة وهو يقول لنفسه أنها مبادرة تبطن وراءها أمراً آخر، وصمت على مضض وهو يعلم أن لا ثمرة مرجوة من ممانعته. وانطلق مضيفه في يسري راغب فقطعه في دقائق على الرغم من الزحام، ثم تخطى الإشارة وسار عن كثب من الرصيف مفرملاً بالتدريج إلى أن توقف أمام عصير التركي أو دونه بخطوات. ثم فتح الباب جانبه وهو يقول له: 'كوكتيل اه؟'، وقبل أن يرد أجاب بالنيابة عنه وهو يبارح السيارة: 'كوكتيل'.

وغادر فدار حول جسم السيارة ثم اختفى داخل محل العصير، وإن لاح رأسه من الجانب يدنو من أحد الفتية العاملين ويحدثه. لم يكن زحامٌ في تلك الساعة، فبدا شكل أشهر محل عصير بالمدينة عجيباً وهو شبه خاو ساعة الصبحية يهيم فيه فتيانه متململين منتظرين وقت الذروة

البادئ من الظهيرة، وكان بالداخل عدد معدود من الزبائن، منهم رجل وامرأته، بضع فتيات محجبات يحتسين من أكواب زجاجية طويلة معبأة بعصير المانجو، ثم صبيان من مدرسة السلام القريبة –بزيهما الموحد المميز: البنطلون الكحلي والقميص اللبني والجاكت الفئراني ثم الكرافتة الحمراء المقلمة بالأزرق –يشفطان السوبيا في استمراء من كوبين بلاستيكيين وهما لا ينظران نحو بعضهما بعضاً، وبدوا هاربين أو متسللين من مدرستهما. وسريعاً فاء مصطفى –أو «كعبول» –فارتد إلى مقعده وأغلق الباب وهو يعلمه: 'ثواني وجاي'. وكلها هنيهة وظهر عند مدخل المحل فتى أسمر قصير في قميص أخضر فلمحهما بالسيارة فأقبل دائراً من جهة شباك السائق وهو يحمل صينية مستطيلة بحامل عليها كوبان زجاجيان من الماء وكوبان من الكوكتيل رشقت فيهما ملعقتان بلاستيكيتان، وعلق العامل الحامل في الزجاج المرفوع شيئاً قليلاً ثم رجع دائراً بنفس الطريقة.

فتسلم مصطفى كوبي العصير بحرص وناول أحدهما لزميله وهو يقول له:

– 'أوعى تقول لي ما باشربش في كبايات قزاز ولا حاجة زي كده ؟'

وابتدأ يلتقط شرائح التفاح المغروسة في حافة الكوب ويجرشها فيستلذ طعمها فانبرى مارك يأكل بدروه. لبث ينتظره أن يتكلم من نفسه وصدق ظنه، فما تلعثم بعد قليل أن بادره بسؤال ألقاه متمثلاً بعدم المبالاة:

– 'هو انت قلت لي ترتيبك طلع كام يا مارّوك ؟'

آه، كل شيء اتضح وبان، وكان يحدس منذ البداءة. كان من المعلوم بين أوساط الدفعة أن زميلهم هذا منتسب إلى الـ'ستاقّات'[١٠] بطريقة أو بأخرى: بعضٌ قال أنه يرجع بصلة قرابة إلى الدكتور كريم نور أستاذ التشريح، وبعضٌ آخر ذهب إلى أنه ابن خالة بعيد للعميد ذاته، أما الحقيقة التي بانت مؤخراً هي أن والده من أساتذة كلية العلوم وأمه تتصل بنسب إلى الدكتور سليمان عبد المجيد أستاذ النساء والتوليد بالقصر. مع

---

[١٠] Staff members: أي أعضاء هيئة التدريس.

هذا فإن مصطفى لم يتقدم في دراسته بالشكل المتوقع، وبرغم أنه — على تسكعه — لم يكن قليل المذاكرة أو ينقصه الاهتمام كثيراً بالدراسة والحضور فلم يقع من الترتيب إلا على منصب بعيد بعد المائة على أبناء دفعته، هو وزميل آخر «ستاف» يدعى أحمد زيدان ابن الدكتور زيدان راغب بقسم الأنف والأذن، والذي كان آية في الاستهتار والعبث، إلى الحد الذي أنزله لمرتبة الـ«١١١»: أي بعد مارك الكافر العامي مباشرة!

وحوى مارك الموضوع كله في وهلة، فرد عليه في نفس عدم الاكتراث وهو يأكل من الكوكتيل:

— 'الـ١١٠.'

فهمهم مستحسناً مذاق الكوكتيل وهو يستخرج حبة عنب من باطن الكوب وقال قاطعاً الموضوع:

— 'حلو كوكتيله الراجل ده، عاوزين نبقى نشرب لنا حاجة تاني بعد ما نخلص ؟'

فشكر مارك آبياً فقال له كعبول: 'ليه كده بس ؟'، ثم ثاب يسترجع الشأن الذي فتحه:

— 'آه، قلت لي ترتيبك ١١٠ ؟ طب وناوي على إيه يا وحش ؟'

فسأله ما يقصد فقال كعبول في استغراب:

— 'النيابة طبعاً!... ولا انت مش ناوي على نيابة ولا إيه ؟'

فتظاهر أنه غير عابئ بالنظر إليه وهو يمضي في استخراج قطيعات الفاكهة من الكوب بالملعقة الصغيرة وإن كان يتحرق لأن يعاين وجهه وهو يعلنه:

— 'الأنف والأذن. بافكر في الأنف والأذن.'

وبلغته رسالته فأحجم عن استكمال الكوب مؤقتاً، ثم قال له بجدية ودية:

— 'بص يا مارك: أنا باحب النصارى، باحبكم بجد، لكن «إنت عارف وانا عارف» إن انتو كده كده ما لكمش مكان عندنا. مين ليكم في المستشفى ؟ دكتورين ولا تلاتة ؟ كام دكتور لكم مثلاً في قسم الجراحة ؟ ده حتى الواد بتاعكم ده اللي اسمه عماد ما اتثبتش في التخدير إلا بقضية. واللي فيكم متثبت بيمشي جنب الحيط ومش هيساعدك.'

فتظاهر الأمهق بالتعجب:

– 'ومين قال لك يا أخي إني ناوي على تثبيت أساساً؟! إنت نسيت إن انا ترتيبي «١١٠»؟'

صمت كعبول لحظة، وهو ما مكث يرمقه بذات النظرة المغيظة كأنه ينقل إليه أن كلامه هذا لا يجوز عليه، ثم تململ في مجلسه مولياً نفسه ناحية الشباك (حيث أرقد الكوب الفارغ بحذر فوق الصينية)، وتناول كوب الماء فراح يعب منه، ثم أنهاه فرده لموضعه وصرح بهدوء:

– 'إنت عارف.'

وأحس مارك بغصة فأنشأ يشفط من السائل الأحمر المتبقي متحاشياً –هذه المرة بجدٍ– لقاء محيا زميله. واستردف كعبول وهو يتكئ بمرفقه على ظهر كرسيه ويستدير إليه كليةً:

– 'أحمد زيدان أبوه عاوز يثبته.'

– 'وانا مالي؟!'

– 'مالك إن انت اللي قبله على طول.'

فقال بعصبية:

– 'وانا إيه ذنبي؟ مش كان يشد حيله شوية؟!'

– 'ما هو هو دا اللي قدر عليه... وبعدين إنت مش موضوعك دا شد حيله ولا ما شدش.'

الصراحة التي تقتل صاحبها، وكان يمثل في خياله مشهد تحطيم جمجمة زميله على صخرة في الخلاء. إنه يخبره الحقيقة لا مراء، وتوحي نبرته بأنه يخاف عليه فعلاً، وهو رسول برسالة فحسب، حسبه أن يوصلها وقد فعل! الهم الباقي عليه، تركه في الحيرة والخوف وحده، وبعد أن وصلته الرسالة الحين حياله خياران، يؤديان إلى الجحيم ذاته. وفتح الشباك وتململ، وأنهى زميله:

– 'أظن ان اللي عاوز اقوله وصل.'

شغل نفسه في التهام الكوب ولما يرد، فرناه مصطفى كعبول لحظات حتى وجد أنه قد تخلق به متابعة ما تبقى له من الكوب هو الآخر. ومكثا في صمت. وفرغ زميله قبله وتريث حتى انتهى فمسك منه الكوب وفتح الباب ببطء وغادر ليناديي الفتى العامل. ومرت دقائق قاتلة على مارك فترجل

يشم الهواء خارج السيارة عسى أن يطرد عنه الفكر. كان مهاناً بشدة وأقسى ما يجابهه في حياته هو الهوان، وفكر كيف أنه استهل اليوم بطيبة نية وبغبطة ساذجة حتى لطمه الواقع على وجهه أشد لطمة. أين السعادة في هذه الدنيا؟ ومن كان يتصور أن يستحيل يوم طيب حزاً في النفس والقلب بهذه الصورة؟ وألم يكن ثمة وقت أفضل؟! وكانت مشاجرة البارحة مع امرأة عمه قد ضعضعته فلم يجد من نفسه بأساً ولا ميلاً لمتابعة التفكير أو لإعادة الخوض مع زميله الذي درأ عليه في مباغتة صفيقة تماماً كالحجر الذي يسقط على رأس الإنسان من آخر دور فيحطمه. وأتى أخيراً كعبول فطلب منه أن يركب فركب إلى جانبه ببطء كأن مخدراً حقن في أطرافه. وكانت الدنيا بطيئة، وتحركت السيارة على مهل هذه المرة.

وعدا به صاحب السيارة نحو الجامعة ومارك من داخله يتمنى ألا يصلا عوض. وفكر في التراجع عن الحضور في هذا اليوم. ولم يتبادلا كلمة حتى شارع الجامعة، لما بادر كعبول على تحرج:

— 'إوعى تكون زعلت يا بني... أنا بس بانقل لك الصورة علشان مصلحتك انت.'

فأومأ رأسه أي نعم وقال بصوت مخنوق:

— 'لا لا، ما فيش زعل ولا حاجة.'

ثم رجع مصطفى عرابي يردف مختلساً منه نظرة ما بين الفينة والأخرى:

— 'أنا والله باعزك يا مارك. دا انت زميلي يا بني! وانا ما اقربش ناحية زمايلي...'

ثم ألفى أنه لم يحسن صوغ المعنى فعاد يستدرك:

— 'قصدي ما حدش أسيبه يقرب على زمايلي. وانتو عارفين، ها؟'

هز مارك رأسه في صمت وأخذ يشوح بذراعه في الهواء من النافذة واجماً. واستمرا على الصمت حتى وصلا إلى البوابة الرئيسية للجامعة، حيث دلفت السيارة دون تعرض بسبب «البادج» الملصوق على زجاجها الأمامي (والذي عليه شعار الجامعة: درع على شكل لوحة قمتها إلى أعلى وقاعدتها إلى أسفل وبها قرص شمس إخناتون رمز العهد القديم يشع على اسم جامعة أسيوط مكتوباً بالخط الكوفي رمزاً للعهد العربي، وتمتد من

الشمس أشعة على هيئة أيدٍ تعطي الخير). ثم انطلقت في خلال شوارع الجامعة فأخذ قائدها الحماس بالانطلاق وبالوجه الحسن فابتسم وداعب زميله مهوناً من ثقل الأمر:

— ‘فرفش يا عم وبص ع البنات. أنا ليه ما شفتكش «مسكشن» قبل كده؟ ده كل النصارى في دفعتنا يا راجل مسكشنين، العيال جرجس وشنشن وباقي شلتهم ما تخشش الكافتريا غير لما تلاقيهم واقفين لك مع فلانة أو علانة... فرفش يا راجل ما تعمليش فيها عم الزعلان بس عشان ما تنكد لناش اليوم الله يخليك، أنا والله زعلك ده جاي في قلبي زي السكينة بالظبط. وقلت لهم! قلت لهم إنك غلبان والله ومش حمل تهديدات ولا كلام فارغ! لكن والله ما رضيوا يسمعوا لكلامي، وقالوا لي: ”روح إنت كلمه عشان إنت صاحبه وكنت زميل له في السكشن“. بس انا والله خايف عليك، خايف عليك يا ولدي والله انت مش قدهم دول شوية ولاد كلب اللي مش منهم يبلعوه. أنا والله العظيم لولا إني جبت لهم وسايط من هنا وهناك لولا ما دخلوني وسطهم وعلى كده داخل زورهم بالعافية، فما بالك إنت يا مسكين؟... ها، خلاص يا مارك مش ها تزعل مني؟ أصل انا والله يعز عليّ زعلك خالص، إنت مش عارف اللي في قلبي بس انا والله كويس وما ليش في الحركات القرعة دي اللي بيحشروني فيها. إوعى تكون زعلان يا بني... ها؟ خلاص؟...‘

بدا كعبول صادقاً بحق في اعتذاره، فتقبله مارك عن طيب خاطر حتى دون أن يرتجل تلك المناجاة الطويلة التي كان في الواقع يثرب فيها نفسه ويصالحها مع نفسه، وأخبره في اقتضاب أنه يتفهم موقفه ويعي مادته وعلى إبصار مسبق بكل ما قاله. ورأى زميله يبدي ارتياحاً هائلاً لذلك التصريح، فيبطئ من سرعته، ويعبئ من الهواء صدره وهو دالف من خلال بوابة القصر الداخلية حتى انتفخ صدره كبرميل.

وتباطأت السيارة وهي تدنو من مدخل مستشفى الأطفال فالتقط مارك كشكوله وسماعته وبالطوه من المقعد الخلفي بهدوء (وكان قد ركنهم بالخلف وهو في السيارة)، ثم توقفت السيارة تماماً فسأله كعبول في إيجابية وعلى ثغره بسمة واسعة وهو ينزله إزاء الفرجة في السور المؤدية إلى مستشفى الأطفال، منخفضاً برأسه كي يشوفه جيداً وهو يهبط:

– ’الناس هيكلموني عليك. ها؟ أقول لهم ”تمام“؟‘
إلا أن مارك مضى في طريقه ولم يرد.

٤. ريم

لم ينقطع ميشيل عن الظهورات يوماً. اكتظ شارع النميس في الأيام التالية بالزوار والحجاج من أقطاب مصر كافة، ومن الناس من كان يفرش وينام في الشارع هو وعائلته. وكان الصخب والاحتفال كله يتمان أساساً في الليل، من الساعة الثامنة مساءً على وجه التقريب وحتى الرابعة صباحاً، حيث يتعبأ الشارع على أتمه قدام الكنيسة ويبدأ الناس في الترتيل والصلاة بصوت عالٍ، منضويين فيما بينهم إلى مجموعات خفية ذائبة في بدن الزحام العارم، المتصل من حواجز المرور حيثما يقف الضباط والعساكر إلى آخر نقطة في حذاء سور الكنيسة. كانت أياماً ناضحة بالروحانية سعيدة للناس، بها تغيير أيضاً بالإضافة لما فيها من ظواهر خارقة وتضرعات حارة: تقابل الناس مع بعضهم بعضاً، لُمَّ أصحاب قدامى، زوت هموم، تبددت انشغالات، رجعت ذكريات طيبة وثابت قلوب عطشى، وتمخض الزحام عن مشاعر وليدة تحت السماء الراضية، تتسمت دربها الجديد في خشية وأمل... ولم يخل الأمر أيضاً من مشاغبات ودوشة: سارت جماعة بين المتجمهرين إلى أن أبرز واحد منهم كاميرا كبيرة بفلاش عند بطنه فأسطع نورها على قبة الكنيسة حيثما الناس يرنون، فتهلل الجمع وهاج فأكمل طريقه وهو يبتسم بين زملائه، وكان بعض الرجال يعبر بزوجته أو بناته في وسط الحشد وعلى سيماه أشد آيات الاكفهرار والتبرم يخبط في الناس يميناً ويساراً، وآخرون كانوا يأتون للمرور والمشاهدة فيتمألتون على الجموع ويقولون: 'بالراحة علينا يا «مؤمنين»!' وهم يعتكزون على بعضهم البعض في النفاذ من بين الناس لكيلا يتشتتون، وهلل بعض الشباب بطريقة غير لائقة ومنهم من أحضر طبلة وراح يرقص، وصرخ بعضٌ بشعارات ملأتها الضجة كـ'بيب بيب بيب نجعاوي' و'الجرجاوية أحسن ناس' .... إلخ، وأحضر بعضٌ تليفزيونات صغيرة محمولة من الكويت جعل يتفرج فيها على أفلام القناة الثانية المسائية وهو متحسر على عدم إمكانية وجود دش بنفس الطريقة، ومن الناس من كان بمنأى عن ذلك كله فيزور الجمع من حين لآخر ويسأل: 'هي ظهرت ولا لسه؟' فيرد عليه واحد وهو يلتفت له للوراء بأنها سطعت منذ دقائق، فيمشي بعيداً ويجوب في شوارع مثل

المساحة أو الجمهورية مع صاحبه أو صاحبته ثم يقفل كرة أخرى ويسأل نفس السؤال، وهلم جراً حتى الصباح الباكر، لكن لم تقم فتنة ولم تحدث مشاكل أو مشاجرات، والأمن كان حاضراً لكن لم يعبأ أحدهم بالنور ولا بالظهور. كان الضباط يحكمون المرور ويحفظون الأمن — للحق في صدق وليس نفاقاً — إنما قلما رفع أحد منهم ناظره للقبة، والعساكر (ومنهم كان مسيحيون) كانوا ينأون بأعينهم عن النظر لفوق، خشية من الضباط ومن الناس ومن أنفسهم على السواء.

ميشيل كان حريصاً على الحضور كل ليلة، كان معجباً بالنور الذي يظهر فوق القبة ويعم الشارع بقدر فاق أضعاف اهتمامه بالظهور «الكبير» الذي حدث في مطرانية كوم عباس قبل سنوات. ما سبب هذا الاهتمام المفاجئ؟ لم يعلم على وجه التحديد، ولكنه قدر أنه نتيجة بعده المطرد عن الدين فصدمته حين ألفى كل ما كان يستخف به حقيقة علنية لا مناص منها. كان ينظر إلى الفتيات الصغار في شجن ورقة حين يجدهن قد مسكن بأيدي بعضهن البعض ورحن يرتلن الترانيم في انسجام وفرح وإيمان مغمضات العيون يدرن كالساقية دون كلل، ويغار من الشبان المتدينين ذوي الملابس المتواضعة الذين يواظبون على حضور الظهور وينتبذون ركناً خاصاً فيأخذون في الإنشاد والترنم مصفقين مبتهلين في دنيا أخرى، حتى الفتيان والفتيات الذين جاءوا خصيصاً «لا لأجل الظهور» كان يحسدهم على احترامهم خطورة المكان وحفظهم للترانيم والأهازيج الدينية التي لم يكن يعرفها مطلقاً من قبل، وكان يسترق النظر من العائلات الكبيرة الغنية والناس كبار السن، وهم يرنمون ويصلون في توسل ويقين، في خزى وإحساس مر بالفشل والضياع، كالهارب من بيت أبيه لما يسترق النظر من شبابيك الأسر السعيدة الملمومة حول الموائد العمرانة. حضر ثلاثة ليالٍ متواصلات لم يروح فيهن للاستراحة، كان ينام أحياناً مع الحجاج المغتربين على الطوار المتسخ قبالة باب الكنيسة وأحياناً لم يكن ينام البتة، ولم يمض إلى الجامعة في تلك الأيام قط، وكان يستمد غذاءه من أكلات المطاعم الدانية (مثل كايرو بشارع المنفذ) على القد وفي مناسبات كانت بعض الأسر تعزمه على شيء مما جاءت به فيشاركهم الأكل بنفس ضعيفة. وأوهنته قلة التغذية والإهمال في النوم فاصفر لونه الأحمر

ودارت حول مقلتيه الهالات وحتى اليوم الرابع كان يعاني في الوقوف والإبقاء على وقوفه وسط الناس آن التجمهر الكبير لمعاينة الظهورات، وقلما تكلم، حتى مع أصحابه ريمون وجرجس ودانيال الذين أتوا للمشاهدة والمشاركة في الاحتفال لم يتبادل الكثير، فتركوه لحاله ونأوا عنه، وكان يستطلع القباب المنطبع عليها النور الرباني من فينة لأخرى في أخذان وانفصال، غير مصدق ما يرى وفي نفس الوقت مآمن. ولم يتشفع بالعذراء لأنه لم يعود التشفع من قبل في حياته، في أيام الثانوية العامة كانت أمه توضع له صور القديسين في المقلمة التي يأخذها معه، وتستبشر خيراً عندما تشتم رائحة بخور في أول الصباح، وهو غير مكترث لم يكلف خاطره بالنظر داخل المقلمة لمعرفة حتى صور من هي—فرأى الناس يستشفعون بالعذراء، وبركاتها يلتمسون، فلم يخطر له أن يحذو حذوهم لأنه كان مشغولاً بالكامل في تأمل هذا النور المبهر الجميل في حد ذاته، ولأنه لم يعود التشفع ولم يعرف علام يتشفع.

أما النور فقد أثار مخيلته وأسئلة كثيرة في داخله كالطفل الصغير لما أول مرة يشوف النار. رأى النور ذات ليلة يتجمع ككتلة متحركة بهية في داخل القبة الحاوية لجرس الكنيسة فسأل نفسه ما عسى أن يمثل هذا النور؟ هل يا ترى العذراء؟ وتساءل عن شكل العذراء في الواقع بعيداً عن المجد النوراني الذي تلفعت به، هل كانت أمنا العذراء إنسانة جميلة؟ وإذا كانت جميلة كما تصورها الصور فهل لأن قداستها تنضح على وجهها، أم لأنها صودفت وكانت جميلة ككثير من النساء اليهوديات؟ وهل الجمال صفة محببة وأن الله جميل يحب الجمال فعلاً؟ أكان للعذراء هالة حقيقية كالتي في الصور وحول رؤوس جميع القديسين؟ هل كان في الطوق معاينة تلك الهالة؟ (إنه يسمع أن بعض الرهبان المتقدمين في المراتب الروحية تنير أجسادهم في الليل كمصابيح كثيرة وأنهم لهذا يختبئون في قلاياتهم لا يودون أن يراهم أحد)، وهل العذراء والقديسون الآن «كأرواح» يحسون؟ وكيف يشعرون؟ وألا يزغلل عيونهم النور العظيم الذي يزورونا به؟ وكيف يتحادثون مع بعضهم البعض في حالتهم الروحية هذه؟ هل بتخاطب الأفكار مثلاً؟ أم هل ثمة وسيلة أخرى أم أن اللغة لدنهم انتهت وليس كلام فيما بعد في السموات؟ يا الله العظيم! كيف خلقت كل هذا؟ وكيف يكون

منظرك أنت إن أتيح لنا مرآك ؟ خلقتنا بالملايين هكذا وكل إنسان له صفته، فهل تراقبنا جميعاً ؟! هل تسمعنا جميعاً ؟ هل لك أشخاص معينين الآن في زماننا هذا تخاطبهم عياناً هكذا كما خاطبت موسى وإيليا ؟ آه يا الله، لماذا تريد أن تحيرنا ؟!... ودار برأسه في أجواء الشارع فنزل عليه سؤال أغرب: لماذا لم تظهر العذراء فوق الكنيسة الإنجيلية ؟ الكنيسة الإنجيلية الثانية قاب قوسين من نهاية سور كنيسة الملاك (على الضفة الأخرى) لكنها كانت مظلمة، هل لم تزرها العذراء لأنهم لا يقرون بالشفاعة، أم لأننا 'صح' وهم 'غلط'، أم أن هناك سبباً آخر لا ندريه وراء ذلك ؟ ثم ماذا عن الكاثوليك بالمناسبة ؟ إنه يسمع أن لديهم قديسين وأولياء مثلما عندنا بالضبط، فهل ما يجري على البروتستانت يجري على الكاثوليك، أم العكس، أم ماذا ؟!... ودار رأسه بالأفكار، فإذا هي هموم صلبة متينة لم يعمل لها حساباً، كيف السبيل إلى مجاوبة كل تلك الأسئلة ؟ هل ثمة شخص مختار لديه تلك الأجوبة ؟ هل من الرهبان ؟ هل من الباحثين ؟ هل لا يوجد ؟! لا طريق إزاءه إذن غير أن يبحث هو بنفسه! دهمته الفكرة، أجل، فلابد أن يفتش الكتب بنفسه، لابد أن يبحث وينقب، لا مهرب من العبء الجبار الذي وضع على عاتقه، مخلص الجنس الإنساني من الجهل والدمار. هو الباحث المختار ولا شك وهذه رسالة، من وقع عليه اختيار الرب للرد على جميع التساؤلات التي سألها بني جنسه من يوم أن خرج أبناء شيث للدنيا الخلاء المقفرة. إنها رسالة لانتشاله هو نفسه من هوة الفساد والضياع التي غطس فيها منذ وعيه كالذي حكم على نفسه بالسجن من قبل أن يشوف الدنيا لأنه خاف الانطلاق. نعم، كان مسجوناً وحرر، وكان مكبلاً بقيود الجهل والحمق فعُرِّف، وكان ضالاً فهدى، وكان أعمى والآن يبصر!

وتصرمت شمس اليوم الرابع فأدرك أنه بحاجة للأكل والاستحمام فحزم أمره على العودة للاستراحة، ترك الجموع المهتاجة التي بدأت تخف يوماً بعد يوم ومضى لشارع الجيش ليستقل سيارته التي نسيها مذ وفد. لقيها كما هي، وإن غطتها طبقة رقيقة من التراب، فأخذها وهو مدوخ نائم وبلغ نايلة خاتون في خلال ربع ساعة لأنه كان يقود على مهل. صعد في

الاستراحة للطابق الرابع فحمد حظه أن لا أحد كان موجوداً ما خلا حجرة آسر كانت منارة يصدر منها ما شابه المواء فلم يعبأ به، فخلع ملابسه الموسخة في حجرته فتبدت كرشه 'العنجهية' أخف وطأة وإن ما فتئت مملوءة محترمة. وسار حافياً نحو الحمام يدق في الخواء دقاً بكعبيه الثقيلين فداراه باب الحمام إلى حين. ثم خرج نظيفاً مبلول الشعر بعد دقائق فثاب لحجرته مطأطأ الهامة واضعاً فوقها البشكير. واستبدل لبسه فارتدى قميصاً سماوياً خفيفاً وبنطلوناً من الجينز، ومشط شعره بسرعة، فغادر على عجل يشعر بشيء من الراحة والطاقة والخفة.

وأخذ سيارته مرة أخرى راجعاً إلى نفس الجهة التي قفل منها، فإذا به لا يجد في نفسه نزوعاً إلى جو الحجاج مرة أخرى... كانت فترة الظهورات مرحلة انتقالية فحسب وقد مرت، كالرسالة التي وصلت، فأحس أنه إذا عاد مرة أخرى فيسشعر بالاختناق والسأم، وصمم على الابتعاد عن هناك ما أمكن... لذلك فقد نكص عن وجهته واستدار بالسيارة دالفاً في خلال شارع المكتبات. كان يشعر بالسلام برغم همومه، كالبحر الساجي حين يخفي داخله وحشاً كاسراً أو غواصة قاتلة، وأحب أن يقوم بمغامرة ليلية تنسيه وجود ذلك الهم من جذوره. مضى في شارع المكتبات إلى آخره لكن عوضاً عن استكمال الطريق نحو الجامعة يساراً انطلق يميناً في نزوة طارئة غير عالم الطائل منها. وقطع شارع الجامعة حتى بلغ أوله من ناحية الجمعية الاستهلاكية فاخترق التقاطع بدوسة بنزين واحدة يساراً سائراً في حذاء سور الجامعة الشرقي. ثم انحرف والجأ الشارع المفضي للبوابة الشرقية المعروفة باسم «بوابة البنك»، وكانت أكثر البوابات اعتدالاً في قوانينها وفي المساء كان يسمح بولوج السيارات عامة الحرم (على أن الارتياب كان شديداً ناحية أي شيء مقلق)، فصرح له رجل الأمن النحيف بالمرور إذ رأى سيارته الفارهة وكيانه «النظيف» الموحي بالعائلة والثراء من دون أن يعلن، ولعله حسبه أحد أصدقاء أبناء الـ«ستافّات» ذاهباً للزيارة، فاستكمل المضي في داخل الجامعة الخالية في ذلك الوقت (إلا من بعض اللقاءات الغرامية تحت جنح الظلام الساتر). لكنه ما لبث أن جنح يميناً — وقد عزم أمره — لكي يخرج من البوابة الخلفية القريبة من النفق الجديد والمفضية إلى الترعة.

وعبر نفق السلام وكلها خمس دقائق وكان في ميدان أم البطل في نهاية الجمهورية، لكنه مضى قدماً هادفاً إلى شارع الكورنيش. كان مستشفى الرمد إلى يمينه، ثم المحكمة إلى شماله، وبعدها عبر بإزاء المحافظة ومستشفى المبرة. وركضت السيارة في انسياب حتى بلغت طرف شارع الكورنيش الشمالي من ناحية منتهى النميس، حيث الدنيا كانت مضاءة والناس والسيارات في حوم وزحام، وسار في شارع الكورنيش لا يلوي على شيء غير معنٍ بشيء. أين يذهب؟ وهل هو كمثل يونان هارب من وجه الله، يهيم على وجهه في الأرض لا يجد فيها مأوى يضمه؟... ماذا جرى لروحه المرحة؟ بدت له لحظة خروجه من الحمام — بل ربما دخوله في الحقيقة — كلحظة فاصلة بين عالمين، لحظة ارتداد هائلة، واستغرق في ذكراه عن الليالي الثلاثة التي قضاها في الظهور، والأحاسيس العميقة الخلابة التي نشبت فيه، والناس المختلفين الذين رآهم، فلم يلقاها على ذات الصورة. نعم، كان كل شيء هناك كما هو لم ينقص، لكن «الإحساس» كان قد خبا... تماماً كالفيلم المعاد المكرر عندما تراه — مهما كان مذهلاً — لا تراودك نفس الأحاسيس التي ملكتك في مشاهدة أول مرة... وعبأه الشعور أنه «مرتد كبير» فزاد حزناً على حزنه الجواني الذي كان قد بدأ في الطفو من جديد فوق مياه فكره الساكنة. هل حقاً فقد إيمانه بتلك السرعة؟! وجاب في الشارع على غير هدى حتى احتوته نهاية شارع الهلالي من جهته الشرقية، فانكسر فيه، وساق لمسافة طويلة يهدئ من روعه وهو قانط، حتى بلغ آخر الشارع عند كوبري الهلالي فانعطف يميناً يتخلل الشوارع الخلفية المؤدية لتقسيم شونة النميس...

لم يدر ما الذي حداه أن يتخذ دربه في تلك الناحية، فقد كانت تلك الجهة تؤدي في النهاية إلى شقة ريم! وريم فتاة سكندرية تعيش في أسيوط منذ أعوام عديدة منذ أن كانت طالبة هندسة، واشتهرت بجرأتها الخيالية ومجون هزرها حتى صارت «علماً» من أعلام كليتها في غضون أيام منذ حلت. قيل أن والدتها راقصة، كما قيل في البدء أنها تحب تقبيل الفتيان بلا مقابل وتلعب كثيراً في عانتها، وسرعان ما حطت عليها عيون كبار أثرياء الجامعة (أصحاب الكافتريات والمحلات والأكشاك وخلافه) فكانوا يتجاذبونها فيما بينهم ويتنافسون عليها كضرب من التسلية، حتى خلص

الأمر بها في النهاية إلى افتتاح دار دعارة رسمية بأولوية لمن يدفع أكثر. ثم أتت ببضع فتيات أخريات فاتسعت دارها لكل من يحب وأمست ذات عمل مضمون يدر دخلاً مغرياً رغبها في المدينة وجعلها تستقر بها بعد أن طردت من الكلية. وقد انتقت لمكان سكنها، وعملها في آن واحد، شقة منزوية في عمارة جديدة من تلك العمارات التي يعرف فيها الساكن جاره بالكاد، في شارع فرعي صغير مجهول قريب ما بين تقسيم شونة النميس وتقسيم البترول، وكان أغلب المترددين عليها من طلبة الجامعة، لذلك فقد عنت بهم أي عناية وصاحبتهم وكانت تتصل تسأل عن أناس معينين لعلمها بأن «الزبون» لابد أن يجر زبوناً آخر وهلم جراً، فباتت ذات اجتماعيات ولها علاقات متشعبة آزرت على بقاء الكتمان وإبعاد العين. وكأنه صالون ثقافي فقد جرت من تحت أيديها صفقات ممتازة، وحلت خلافات، وتعارف أناس من كل صوب على بعضهم بعضاً (ومن هنا تعارف ميشيل مثلاً على أناس مثل يوسف)، لكن لم يمكن استجلاء حقيقة الإشاعة القائلة بأنها تورد بناتها لشخصيات خارجية مهمة، أو أنها فاتحة داراً أخرى خاصة في أطراف البلد لرجال الأعمال ودكاترة الجامعة.

كان ميشيل ما برح يزور ريم من حين لآخر في خلال سنة الامتياز، وآخر مرة كانت منذ أسبوعين. كان المكان بالنسبة له أليفاً محبباً يأخذ راحته فيه كما يأخذ الإنسان براحه في بيته. عرف شقتها منذ أول سنة لما دله عليها صديق مؤقت كان أيامها يدعى حسن فنجري كان قادماً من الإمارات، وأول فتاة ضاجعها عندها كان اسمها ملك اختفت الحين ولم تفصح ريم عن مكانها البتة: كانت فتاة بيضاء مليحة قصيرة كانت تبدو مكسوفة ذرة قبل الممارسة لكن سرعان ما تجمح مثل الفرس فوق ركبتيه. هذا الفحل الخارق الأخضر العينين الذي يشبه الغوريلا لم يكن يعلم كيف يتم الجنس قبل الجامعة بتاتاً، وعلى 'صياعته' التي اختال بها لم يشاهد أفلام السكس مثل جل زملائه في أيام الثانوية، كان من الصنف الغني الجوال المتسكع من ناحية – فلم يخطر الجنس على باله – ثم أنه كان واعياً يستذكر كل شيء في أوانه من ناحية أخرى. لكن نال منه الجنس استحساناً عند ريم فعشق هذه الغريزة وتفنن في أدائها، ولم يجرب الفياجرا قط وإن لجأ حيناً للترامادول، فأطرينه البنات عند ريم وزعن

تفاصيل قوته الجنسية فيما بينهن فما استدار العام وهل التالي حتى طلبت منه ريم صراحة أن يضاجعها. لم يضاجعها، وقال لها أنه يراها في سن أخت كبيرة بالنسبة إليه فلا يستطيع أن يضاجعها، ولعله لمس منها في البداية امتعاضاً لكنها لم تعتم أن عفت عن مبدأه وأعجبت به وبخفة دمه ومجونه في النكات والمزاح فأصاب منها منزلة مميزة ومالت إلى تردده على الشقة حتى وإن عدمت جنسه. وبكرور السنوات تكونت معزة خاصة لريم عنده لأنها كانت لا تعامله إلا بلطف واحترام، ولأنها لم تكن تفوت شهراً لا يختلف فيه إليها حتى تهاتفه خصيصاً للاطمئنان على حاله وحسب.

بيد أنه في هذه المرة أجفل بقوة واعتلج قلبه بين ضلوعه كالمجرم الرائح إلى قدره وهو يتسلل نحو مسكنها بالسيارة. ما الذي جعله يجنح ناحيتها؟ هل كان إنسان باطنه يفكر عوضاً عنه وهو في قمة انشغاله بمستقبله الروحي؟! لا مناص من أن الذي داخله شيطان قميء جداً لكي يتذكر هذه الشهوات الباطنية المريضة وسط قمة المجد الروحاني والفكري الذي انغمس فيه! وهو الذي كان يحسب نفسه سيئاً ومرتداً لأنه لم يحفظ مشاعره على حرارتها. ماذا عساه يقول لله الحين؟ بم يفسر جوانيه المفعمة بالانحطاط وقمامة الرغائب؟! ودار بالمقود يميناً وشمالاً، وهو منشغل بالتقريع والتحليل، حتى ألفى نفسه يوقف سيارته بهدوء تحت شرفتها.

كانت عمارة حديثة كبيرة ترتفع حتى الدور السادس على الأقل (وهذا إنجاز في تلك المنطقة)، واجهتها مرصعة بمعين منقوش بالأبيض على كل بلكونة وسط أرضية جيرية بلون الرصاص، وكان المدخل براحاً فسيحاً مفتوح المصراعين حتى لم يبن المصراعان، يقود إلى بضع درجات واطئة ترقي للدور الأول (أو الأرضي) حيث بسطة متسعة بالعرض مبلطة بالموزايكو بالحجم الكبير وتنقط عليها لمبة ساقطة من السقف المرئي إضاءة صفراء خافتة. خاف أن يغادر السيارة للحظة، لكن الرغبة ما عتمت أن استبدت به فجأة كأنها قاتل كان يتربص به من خلف ستارة فما أن جلا الجمع حتى وثب يحكم قبضته حول عنقه في صرامة. فترك السيارة على ارتياب كأن ثمة أحد يراقبه ثم دلف من خلال المدخل ورقي في الدرجات يكالب الأمل... وكان السلم – على حداثة البناء – ضيقاً درجة ما شبه معتم، تفغمه رائحة طبيخ قوية من الأدوار الفوقانية ويغشاه شعور إنساني

محبب كأن المرء في منزل عائلة، وتردد قبل أن يطرق باب شقة عسلياً متموجاً بموجات في الدور الثالث لكنه مد قبضته وطرق في النهاية. وانتظر لحظة حتى شد عن وجه ريم نفسها تستكشف الزائر بروح متشككة حريصة، فما أن عاينته حتى أطلقت ضلفة الباب بعيداً وهي تفتح ذراعيها الرابيتين وتهتف باحتفاء:

– 'ووه...!'

ثم شدته من يده للداخل وهي تحضنه وتغلق الباب فتطبع على شفتيه العاليتين قبلة طويلة مرحبة. كانت سمينة إلى حد ما لكنها ليست بالسمنة التي تعيب، محبوكة البطن بالشفط كما جرت عادتها وتحيط الرائي علماً بثدييها المكتنزين من خلال طاقة فستانها الأحمر اللامع المستديرة المشدودة لأسفل. ولما تكن تلبس السنتيانة. وكانت مبهرجة بالماكياج يكسو كل وجهها المستدير الممتلئ كثمرة طماطم، أما أغرب ما في سيماها أن عينيها كانتا ضيقتين مسحوبتين للأعلى على شكل خطين مكحلين كالصينيين. والعلم عند الله فلعل لها أب صيني بعد كل شيء! احتوته في حضنها فأنسته كل همومه وكل ما كان يفكر فيه، نسي لماذا جاء ونسي كيف أتى وكيف كانت أحواله قبل أن يصل هنا ولماذا هو هنا وماذا أمامه بعد أن يمشي من هنا ونسي كله، بات كل شيء هو الآن هنا، وهنا الآن. وكانا يقفان في صالون نظيف مكسو ببساط ثمين لونه لون الدم تسقط عليه من السقف المنخفض نجفة مضاءة بها العديد من البللورات والكريستالات أضفت على المكان جواً خيالياً كأجواء الأساطير الحالمة، واشتم عبيراً حامضياً لم يستطع أن يستجليه، ولاح المكان خالياً على الرغم من علمه بوجود غير فتاة في كل مرة تقوم على خدمة عميل في إحدى الغرف المغلقة بالطرقة الساكنة إلى اليسار. وقالت له وهي تمسح على شعر فوده في اهتمام بادٍ:

– 'ما لك يا عينيّ ؟'

فقال لها كالمخمور بنفس لاهث:

– 'عاوزك انتي يا ريم النهاردة... إنتي...'

فضحكت ضحكة قصيرة وهي تستوعب المفاجأة. ثم قالت وهي تفك ذراعها من حوله من جهة الطرقة وتطوح جسمها حوله من الجهة الأخرى

لتجاوره وتسير به بلطف ناحية إحدى الغرف، تعلو وتهبط على ظهره من الخلف في لمسات تقشعر البدن:

— 'وما له؟ هو عيب ولا حرام؟! طب دا انا كان نفسي من زمان بس قلت يمكن بيستكبرني. الله، هو احنا نطول يا سيدنا الدكتور؟!'

وساقته كالطفل الصغير في حضن أمه إلى الغرفة الثانية إلى اليسار، في طرقة غشيها الظلام بالكامل اللهم إلا النور المتسلل من نجفة الصالون. لم يسمع شيئاً من الغرف حوله البتة كأن أمواتاً بالداخل. وفتحت له الباب فلطمته لطمة جسور على ظهره الضخم من الخلف فانسكب للداخل كمن لا حول له ولا قوة. ثم دخلت فالتقاها منقضاً عليها من الخلف كذئب جائع. لكنها لم تمكث أن عدلت نفسها من بين ذراعيه بصعوبة فاندمج فيها في لحظات... وكل لا يكف عن التهام الآخر.

٥. رسائل شيطانية

تذكر هاني لاحقاً تلك الفترة (أواخر مارس - أوائل أبريل ٢٠٠٦) بارتياب وعجب. كانت فترة غريبة في حياته على أنها لاحقاً لن ترى بذات النحو، وكان يختبر فيها كما لو «إشارات» من جهة غامضة تود تحذيره، أو تكديره. هاني الإنسان المستقر السجية والهدف لم يعبأ بكل تلك، بل على النقيض أيضاً استغل كل تلك الأحداث المقلقة ليوسع بها جدران مخيلته وليعيش أياماً هانئة. وكان يتملى مروره المفاجئ بهذا العالم الفانتازي المظلم كأنه غلام يمر في بيت الرعب. ولكن من أين حقيقة بدأ كل ذلك؟ لابد أنه بدأ من اليوم الذي شاهد فيه المظاهرات.

كانوا آنها في حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف قبل الظهر بعد أن فرغ من حضور عيادة الرمد فمضى هاني نحو الكافتريا يتلكأ شويا قبيل المغادرة. كافتريات الجامعة كلها كانت متشابهة عدا إن بعضها حظيت بشعبية غامضة ليس مبعثها جودة الطعام أو النظافة أو شيء يمت للكافتريا نفسها لكن بموقعها وبالمترددين عليها، وعدت كافتريا طب أكثر الكافتريات شعبية في المنطقة وإن لم تكن أكثرها زحمة، تضم طلاباً وطالبات من طب وصيدلة وبيطري وتربية رياضية وحتى من العلوم، تليها كافتريا كلية الصيدلة التي اشتهرت خاصة بالمسيحيات الجميلات (مقابل كافتريا طب المعروفة عامة ببناتها المسلمات الحسناوات)، أما أشد الكافتريات ازدحاماً في الجامعة فتعتبر كافتريا كلية التجارة. وجلس على السور المواجه لمدخل الكافتريا كعادته وانبرى يتطلع إلى الجيل الجديد وصلعته تبرق تحت الشمس. كان إلى يمينه خمس فتيان تقريباً في الصف الرابع كلهم سمر البشرة يلبسون ملابس تقليدية من بنطلون قماش وقميص محشو به فقدر أنهم من أصول قروية غالباً، وكانوا يتبادلون حديثاً عادياً. أحدهم، وكان أقصرهم وأسمنهم مع أن أحدهم لم يكن سميناً بالمعنى — شاب مكشر يلبس عوينات بيضاوية وتضم جبهته علامة صلاة وإن كانت خفيفة إلا أن تجاعيدها وعمقها وشيا بتاريخها الطويل، أي منذ الطفولة في الغالب — جعل يروح ويجيء على الرصيف في أسلوب ملفت للنظر، إلى أن

استوقفه زملاؤه فمسكه أحدهم من أعلى ذراعه وهمس له بشيء في أذنه على أثره أحجم عما كان يفعله ووقف فيما بينهم ينظر لبعيد في صمت في حين استمر تبادل زملائه الحديث –وأحياناً الضحكات – غير عابئين بشيء. وإلى اليسار وقفت مجموعة أخرى من الشبان لكن ضحكهم كان صاخباً يضربون كفاً بكف ويرفعون عقائرهم في استمتاع، أما إزاء الكافتريا فكان العجب العجاب: بحر من الفتيات والفتيان يقفون سوياً في انفرادات أو 'جروبات' يدردشون ويضحكون غير شائلين أي هم، ومنهم من المسلمين ومن المسيحيين على حد سواء وكان بعضهم مختلطاً. كانوا من الرعيل الجديد، ومعظمهم من طلاب الصف الأول أو الثاني من صفت الحياة عنده على استكشاف العلاقة بين الجنسين واستجلاء طبيعة الطرف الآخر، فكان التنافس بينهم واضحاً على ارتداء أحدث الصيحات وقص الشعر وتصفيفه بما يناسب آخر التقليعات والتطبع بقواعد اللياقة واللباقة في التعامل كما يدأب على تعرفها والبحث عنها. الفتيان كانوا في بنطلونات جينز «used» كما جرت موضة ذلك الحين أو في سراويل واسعة «فانكي» وأحزية رياضية أو جزم حديثة نظيفة وفي تيشيرتات طبعت عليها أسماء ورموز غربية أو في قمصان حرة لا تحشى لها نفس الصفة، والفتيات كن إما مسيحيات يطلقن شعورهن بقصاتها المتنوعة شتى في تباه أو مسلمات يبرعن في لف الطرحات القصيرة المتلونة والمتباينة حول رؤوسهن وأعناقهن الرفيعة يقارعن المسيحيات فيما دون ذلك (عدا أن كشف الأذرع كان محرماً) في الأناقة والنظافة وارتداء البوديهات ووضع الماكياج والكماليات الجديدة الراقية. تلك الناحية بدت الناحية «السعيدة» من بين كل النواحي، فقد وجه إليها اهتمامه بالكامل، وأوقف عليها نظاراته المغبشة، فلم يأخذ باله من فضل الله وهبه القادم تجاهه مباشرة على مهل بعد أن لفظ من داخل الكافتريا.

وكان فضل الله شاباً يلبس العوينات بدوره لكنه قصير يرتدي الجينز مع القمصان العادية المحشوة فيه ويطقم نعليه في كوتشي رخيص أزرق من الكوتشيات التي لا يرتفع ثمنها عن الثلاثين جنيهاً، انفرد بضحكة صاخبة حين يطربه شيء ما كأنه إصبع ديناميت وانفجر. ثم أعقبه مينا موريس خارجاً على سيماه آي السرور والانبساط في طقم عسلي كاجوال

توافق بشكل رائع مع سحنته البنية. وقف ثلاثتهم يتبادلون الطرائف والأحاديث حول من خطب من زملائهم ومن فلت، وحول الفتيات بصفة عامة إذ قال مينا موريس: 'هيمووتوا ويتجوزوا!'، وعن 'لبس العيد' — عيد القيامة الوافد بعد أيام — حيث استحث الموضوع مينا موريس بالذات فانبرى يقترح ويبدي لنفسه الآراء فيما عسى أن ينتقيه هذا العيد من موضات، وأنشأ يلتمس وجهتي نظرهما... حتى وإنهم لفي ذلك لا بهم ولا عليهم إذا بصراخ مباغت ينبعث من الساحة عن قربهم:

'وامحمدااااه!... وامحمدااااه!'

وقبل أن يتدارك أي ما تواً حدث فوجئ الجميع بعشرات من الطلبة والطالبات يخرجون من الكافتريا بعد ثوان من ولوج زميل في دفعة هاني ومينا وفضل الله يدعى عبد الله — وزعيقه المستعر بالداخل — فينتظمون في صفوف مدروسة الإناث إلى اليمين والذكور إلى اليسار وهم يصرخون بنفس الطريقة: 'وامحمداه! وامحمداه!'، أما الخمس فتيان على يمين هاني فكانوا أول من انبرى للمشاركة يتقدمهم الشاب المكتنز نوعاً وهو يرفع قبضته ويكشر في ثوران ويصرخ صراخاً عالياً... دق قلب هاني بعنف وجف ريقه وارتعدت قدميه وهو جالس في مكانه لا يقوى حراكاً، أخذ يتطلع إلى الشخص الذي أشعل نار المظاهرة بصياحه فألفاه شاباً في مثل سنهم أو أصغر بعام لكن وجهه غير مألوف، أسمر بسمرة لا تنقصها الوجاهة والوسامة لولا أن احتلت جبهته «زبيبة» عملاقة بارزة لونها أسود وإن جلت جديدة، وكأنه أحس به فقد فوجئ بالشاب يدنو من ثلاثتهم في هدوء ويقين الآن بعد أن صارت المظاهرة على أهبة الاستعداد فيبتدرهم بنبرة متأنية منخفضة حكيمة:

— 'مش ها تشاركونا يا جماعة ؟'

صمت كلٌ وأغضى مينا فراح يرمق جهة بعيدة في آن رمقه فضل الله في نظرة متحدية لكنها صامتة.

— 'يا جماعة هذا واجبٌ عليكم، رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه قال: ﴿لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس

أجمعين ﴾... وقال الله تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأْتي الله بأَمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾... يا جماعة الناس دول بتهاجم أشرف الخلق، هل علمتوا إن في ١٧ صحيفة دانمركية و٣٩ جريدة أوربية نشرت الرسومات المسيئة لسيدنا النبي على الرغم من الاحتجاجات والمظاهرات اللي قام بها المسلمون في جميع أنحاء أوربا؟... أعداء الإسلام تربصوا بينا وبنبينا نتيجة الصمت ونزوعنا عن الجهاد ونصرة نبينا، ودا اختبار حطنا فيه الله سبحانه وتعالى ليرى فيه الجوهر الصحيح لكل مسلم.'

ووجدهم على نفس الحال من السلبية فأردف يقول:

– 'يا إخوانّا دا مش الولاء اللي المفروض ندين به للرسول الكريم، كفاية سلبية وكفاية خوف، آن الوقت إن صوتك يطلع ويعلو في سبيل نصرة دينك ورسولك.'

ولم يؤت تجاوباً فختم في هدوء:

– 'المظاهرة بتاعتنا سلمية يا جماعة ولكم القرار في النهاية... لكم القرار...'

وزايلهم في أسف بادٍ فانتقل لمجموعة الفتيان المرحين إلى يسارهم يحاججهم بنفس الطريقة، ولم ينجل هل كانوا مسلمين أم مسيحيين لكن رد فعلهم كان ذاته: لاذ كلٌ بالصمت ومنهم من أبعد ناظريه عنه. ثم طفق هاني يتشوف إلى زميلهم الثاني الذي حث الجموع من داخل الكافتريا. كان الشاب معروفاً بأدبه وأخلاقه: إنساناً طويل القامة رفيع البدن والشارب يلبس نظارات مذهبة وهو البساطة نفسها في زيه فيلبس عين الصنف من القمصان والبنطلونات «الكُسَر» المفصلة، ومؤخراً شخصت دبلة فضة في يده اليمنى فعُلم أنه خطب لكن لم يُعرف من، وكان اسمه عبد الله يوسف ومن الشهير أنه الخامس على الدفعة – أي أنه كان جد متفوق في دراسته – وأنه من مرتلي القرآن الكريم تباع شرائطه بنجاح من القاهرة للرياض للدار البيضاء. لم يكن هاني على معرفة وثيقة معه لكنه حادثه في غير مناسبة وكانا يحنيان الهامة في تحية مقتضبة إن تقابلا في ممر أو منعطف،

وصُوِّر لهاني أن هذا الشاب يتميز بالهدوء والوداعة والتسامح لأنه كان لا يألو في مخاطبة النصارى وتحيتهم (وإن بالتحية الإسلامية دوماً: 'السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته' فإذا بودر بـ'صباح الخير' أو 'إزيك يا عبد الله' أو أي شيء مخالف، رد بنفس الطريقة: 'وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته' كالآلة)، ولكم هاله ما بلغه بعد حين أن عبد الله قد انضم فجأة للإخوان المسلمين وبات في خلال شهور من قادة الشباب، بل أنه قد صار خطراً في نظر الأمن فأقنع عديداً من زملائه وصحبه والطلبة أصغر منه بالانضمام للجماعة، وانتشر أن براهينه الدينية في ذلك صلدة قوية لا تفند فلا ينفع معها 'حوار العقل للعقل' ولا 'قعدة رزينة' ولا 'إنت ليه عامل في نفسك كده يا عُبَد؟' ولا 'راجع نفسك حرام عليك أهلك ومستقبلك' (حيث أنه جلي للعيان أن تعيين عضو بجماعة الإخوان في الجامعة يعد ضرباً من المستحيل أو على الأقل مما ينطوي على مخاطرة بالغة و«جهاد» مستميت لصاحب الشأن حتى يبلغ مراده) ولا شيء من تلك الأساليب 'الفهلوية' التي ابتدعها بعض الناس وكبار المسئولين، وذاعت فضيحة أحد أساتذة قسم المسالك البولية — وكان استاذاً ملتحياً متديناً — عندما حاججه ذات مرة بروح فكهة ساخراً منه ومن أفكاره المناقضة للدين فقرعه عبد الله وهزمه شر هزيمة أمام جمع غير صغير على إثرها امتقع وجه الأستاذ وغدا يتجنبه يومياً إلى أن أخذ إجازة حتى انتهت مجموعة عبد الله من «روند» المسالك فرجع للقسم (المشكلة الحالية أنه أشيع أن عبد الله يرغب في أن يصير معيداً في قسم المسالك البولية). راح هاني الآن يشاهده وقد برز من مدخل الكافتريا مقطباً في ثقل واهتمام تلمع نظاراته تحت علامة صلاته الباهتة المرتفعة عند خط شعره الأسود الجاف المتسلل إليه البياض، وكانت حركاته بطيئة واثقة من بعدما أتم صرخاته المهولة بالداخل فخرج كلٌ للخارج إما للاشتراك في مظاهرته أو للمشاهدة. لم يشترك أي من الشباب والشابات «المودرن» المتحادثين معاً أمام الكافتريا في المظاهرة، وحتى موظفي الكافتريا الذين خرجوا بدورهم من محل عملهم كالمطرودين اتكأوا إلى جانب هاني ومينا وفضل الله إلى السور — ومنهم من قعد على السلم — يتابعون اطراد الأمور تحت الشمس، وقال واحد منهم وهو يغمز بعينه اليسرى ويمصمص في

ضروسه: 'يا عمي'... ثم انبجست لافتات كأنها خرجت من باطن الأرض حملتها الفتيات (المخمرات والمحجبات كلهن) خط عليها بالخط العريض: 'إلا رسول الله'، 'وأعدوا'، 'فداك أبي وأمي يا رسول الله'، 'الجهاد نصرة في سبيل الله'، و'يا دانمركيين ياأعداء الله... أنتم تجنون على أنفسكم والعياذ بالله'، و'لا إله إلا الله... الدانمركيين أعداء الله'، و'الإسلام عائد عائد' إلى آخره، وأعطى عبد الله الإذن فضجت عشرات الحناجر: 'إلا رسول الله!' فمن ثم حدثت جلبة أخذت الحشد كله بعدها تحرك المتظاهرون كوحدة واحدة متخذين طريقهم نحو الشارع الرئيسي بالجامعة ناحية كلية العلوم وهم يكبرون ويصرخون رافعين اللافتات مشوحين بها من آن لآخر ودأدأتهم ووقع أقدامهم يهزان الأرض هزاً...

ثم سار الشبان الثلاثة في أعقابهم راجعين للاستراحة فألفوهم يعرجون ناحية كلية الهندسة قبل نهاية الشارع، حيث ضمت إليهم كذا فرقة متأهبة باتفاق مسبق، وكان الأمن يحرس المظاهرة. لاحوا الآن بالألوف، عدد كالنمل من الشبان المتجهمين والشابات المحجبات والمخمرات والمنقبات يرفعن هن أساساً اللافتات الورقية والقماشية ويصرخ الجميع في لا هوادة: 'خيبر خيبر يا يهود، جيش محمد سوف يعود!'، وكانوا يتحركون في بطء كجيش زاحف. راح هاني يحدق فيهم باندهاش وفضول، لم تعنه المظاهرة في حد ذاتها لكنه فكر: ما الذي يجعل هؤلاء الناس يتجهمون ويصرخون في اتقاد بهذه الصورة؟ على عنايته بالثقافة إلا أنه لم يكن قد سمع خبراً عن موضوع رسومات الدانمرك ذلك من قبل. فكر في المسلمين الذين تربى معهم في حيه، وأم محمود الست المسلمة الطيبة التي يحبها حقاً من قلبه والتي لا تتحرج من أن تأتي لشقتهم بشعرها وتقول له دوماً: 'إنت زي محمود بالظبط'، وفكر في الهندوس، والبوذيين، واليهود وأولئك الناس الذين لم يقابلهم البتة عمره، كيف يفكر أولئك الناس؟ هل طباعهم مثل المسلمين، أم لكلٍ فلسفته ووجهات نظره؟ وكيف يا ترى ليكون شعوره لو ولد على دين آخر؟ كانت ضرباً من الفضول فحسب، وسرعان ما اطمأن قلبه باندماجه في وسط حومة المتظاهرين كالجالس فوق السحابة الغاضبة أو المتزلج فوق الموجة. ثم رآهم يتوقفون عند كلية التجارة فيفسحون طريقاً للمرور

خلفهم وينسكبون من خلال سور التجارة أمام قاعة النيل من أسفل، فيرقى عبد الله السلالم على عجل ويصافح أحد الشبان المنتظرين هناك، ثم يختفي بالداخل تاركاً للشاب الجديد – الذي كان يرسل لحية قصيرة ويقصر بنطاله – مهمة رعاية الشعب من بعده، فيصرخ الشاب الجديد في مكبر صوت أحمر مشنعاً ما فعله الرسام الدانمركي ودولته، وفرنسا وصحفها، والغرب وقادته الصليبيون الصهاينة، ومستنكراً تخاذل الرؤساء المسلمين والعرب في مواجهة الكفرة الفجرة، وأخيراً حين رأى أن النفوس قد تأججت بما يفي رفع يمناه بعلم الدانمرك عالياً لكن لم تكن ثمة ريح فسقط العلم مغشياً عليه، ثم دنا منه أحد المساعدين الملثمين بولاعة سجائر فأشعل النار في مؤخرة العلم والجمع يهلل: 'الله وأكبر!... الله وأكبر!' والأخ الخطيب يدوس العلم المحروق بنعليه في تقزز واستحقار.

ثم استكمل هاني ومينا وفضل الله طريقهم صوب الاستراحة ومينا يقول:

– 'إنتو لاحظتوا ان علم الدانمرك عليه صليب؟'

فامتعض فضل الله مما حدث لكنه شوح بعدها بذراعه وهو يطلب منهما أن يتناسيا الموضوع، أما مينا فقد ضحك وقال شيئاً عن عام ٢٠١٦.

ورجع هاني للاستراحة وعبأ تفكيره الأمر لساعات، لكنه تناساه في حومة مشاغله اليومية الأخرى من القراءة والمشاهدة وكتابة السيناريو.

إلى أن استجد شأن آخر مريب بعد ذلك بأيام.

كان ذلك في أحد أبو جورج، وأحد أبو جورج في أسيوط هو الأحد الخامس من الصوم الكبير من كل عام، يحتفي به أقباط المدينة في أسلوب مميز شبيه باحتفال المولد النبوي لدى المسلمين، فتغرق المتاجر واجهاتها بالحلويات الشرقية من فولية وحمصية وسمسمية وملبن وبسبوسة وكنافة .... إلخ، وتُتبادل الهدايا في غبطة وكرم وهي من المناسبات القليلة التي يتنازل فيها الأسيوطي عن بخله بنفس راضية، ويهني الناس بعضهم بعضاً وحتى من المسلمين تأتي التهاني وعلب الحلوى. وكان لدى هاني – وعلى غرار لعبة الرحلات الشهيرة – صديقاً خفياً

عن الجميع يرسل له في كل عيد هدية من الحلويات والكعك والبيتي فور بحسب مناسبة العيد، وفي أحد أبو جورج يواظب على بعث علبة بلاستيكية مترعة بالمكسرات والحلوى كهدية من صاحب بلد إلى ضيف غريب، ولم يكن هذا الصديق الخفي سوى مارك سعد.

كانت روحية هي من تعد العلبة، على تنافرهما لم تكن الأسباب مبتورة تماماً، فكان أن يطلب منها أن تجهز من حلويات البيت المشتراة أو المخبوزة فكانت تجيبه دونما نقاش، وبتواتر السنين عود هاني أن يمضي بنفسه لاستحضار علبة الحلويات بغير حياء أو تحرج، فيهبط له مارك ما أن يرن الجرس بأسفل العمارة بالترنج المنزلي أو بالشورت والتيشيرت ويجعلان في الحديث والجولان عن كثب من العمارة وكلاهما شيق للقاء الآخر. كانا صديقين حميمين قبل ذلك في أولى السنوات يوم أن كانا بسكشنين متلازمين لهما ذات الجدول، لكن الأيام فرقت بينهما فأحيط كلٌ بحياته فما فضل من الصداقة القديمة غير علبة الحلوى. على أية حال فإن هاني قد مر على مارك في ذلك اليوم بعد اتفاق مسبق فنزل له الأخير يبتسم في شورت سابغ طويل يصل لحد الركبة — تحته بان شعر رجله الأبيض الغزير — وتيشيرت قديم يرتديه في المنزل، وبيده كيس سميك به علبة الحلوى المقفولة. وتعانقا ولثم كل منهما خدي الآخر، ثم سحب هاني صاحبه القديم ناحية سيارة مغطاة حيال العمارة اتكأ إليها وأخذ يدردش معه. لم يجل مارك أحزانه وإن لم يأل أن يهجو روحية علناً وهو يرفع حاجبيه ويزم شفتيه لأنها — كما قال — كان بودها أن تتهرب من تحضير علبة الحلوى هذا العام. وشعر هاني بالحرج وهو يتسلم منه الكيس وقال أنه لم يكن داع. ثم استطرد مارك فقال دون أن يبعثه باعث:

— 'إنت عارف إيه حكاية أبو جورج ده ؟'

فأدلى هاني بأنه لا يعرف، فقال مارك ضاحكاً:

— 'كنيستك الأرثوذكسية عاملة تغطية تمام ع الموضوع ده!'

كانا يتناقران في السابق على شأن البروتستانت والأرثوذكس، وكان مارك بروتستانتياً متعصباً لا يهادن ولا يخادن، فابتسم هاني وعدها مناقرة جديدة لاسترجاع الأيام الخوالي فزام قائلاً:

— 'أممم...'

وشده مارك في جولة متأنية في الشارع وهو يضحك، ثم قص عليه قصة الأنبا جورج . . . . وحينما انتهى مارك سأله هاني بعجب:

– ’مين اللي قال لك كدا؟!‘

– ’أنـا متأكـد مـن الكـلام اللـي باقولـه لـك ده. مـش مصـدقني إقـرا ع النت‘.

وعندما عاد للاستراحة في ذلك المساء درأ على علبة الحلوى آسر وأعوانه من جورج باخوم ورامي سعيد وجورج ملقي وفضل الله وإبراهيم، فلم يخلوا له غير مربع صغير ٢سم x ٢سم من الحمصية.

واطرد سقوط الإشارات – أو الرسائل كما عَنَّ له أن يدعوها – كأنها تنصب عليه من شوال مخروم في السماء، فأمسى يصطدم باللحى الطويلة والمنقبات في كل عطفة، ويسمع خطابات غريبة في المساجد لم يكن يسمعها من قبل، وتغشى مسامعه وقائع عجيبة في التاريخ لم يكن يأبه بها أو يعرف عنها، وكلما صعد سلالم الاستراحة ألفى الإخوان تحته يشغلون القرآن من كمبيوتر فاروق سليمان بصوت مرتفع، فيردهم المسيحيون بالأعلى بالإنجيل عالياً من كاسيت ريمون عادل رغماً عنه، وانحصرت كل الجرائد في الدنيا على «الدستور» و«وطني» و«اللواء الإسلامي» و«الكتيبة الطيبية» و«الطريق» هي الجرائد الرسمية منذ الآن، واستعرت نار المظاهرات فصار في كل يوم مظاهرة على ما يبدو، وسمع يوماً عن فتاة خطفت في الأسكندرية (هذا قبل أحداث الفتنة الكبيرة التي حدثت لاحقاً)، وتكلم المسيحيون عن التمييز، ويذكر أنه ثاب لحجرته متأخراً في ذات أربعاء فخيل إليه أن عصام نفسه يجادل حول ’أمريكا‘ و’بن لادن‘ و’العراق‘ و’الإسلام‘ فلما أوضع أشياءه في الغرفة فراح لحجرة مينا موريس يستجلي لم يجد أثراً لما سمعه – أو ما حسب أنه سمعه – وألفى مينا ينكت وقدري في حجره كالعادة، واكتشف علامات صلاة تفتقت عنها الجباه فجأة، وأحصى مسلمي الاستراحة الذين تحادث معهم لفترة أسبوعين (باستثناء عصام) ذات ليلة بأنامله فظلت الأنامل منغلقة لم تنفرد، إلى أن نزل يأكل في المطعم في اليوم التالي (السبت ٨ أبريل) وكان مبكراً عن رفاقه في الشقة فعزم عليه حسن إسماعيل (ويقال له

’حسن ابو طاقية‘ لأنه دوماً بطاقية بيضاء لا ينفصل عنها): ’ما تتفضل تاكل معانا، ما انت برضه في النهاية من «إخوتنا الأقباط»‘.

كانت هذه الأحداث لهاني مدهشة حقاً. هاني على الرغم من تدينه لم تشغله تلك الأمور من قبل، فلم يفكر في الدين سابقاً كشيء «جماعي» بتلك الصورة، وعده شخصياً بين الإنسان وربه. وعضده هذا على الاختلاط بالواقع الحياتي المصري وتكوين حلمه الكبير بالعمل كمخرج «مصري» يخرج أفلاماً «عربية»، على الرغم من أن كل الأقباط تقريباً لا يرون العرب إلا على أنهم غزاة وأنهم هم أبناء الفراعنة المحتلون. من صغره وهو هكذا، فلم تجابهه وقائع عنصرية راسخة في ذاكرته: تربى بحي مختلط لم تحدث به فتن وكان الكل يسعى خلف رزقه وكفى، وقلنا عن جارتهم المسلمة، وعلى مدرسته الابتدائية والإعدادية كان الأول ومحطاً للأنظار ومثلاً على الرغم من أن عدد المسيحيين بتلك المدرسة كان بالكاد دون عدد أصابع اليدين، حتى زملاؤه من أحط طبقات المجتمع كانوا يحترمونه ويحمونه ويتشاجرون لأجله أحياناً، وكان خاله مشاركاً لرجل مسلم في محل ملابس وكان يحب هذا الرجل المسلم ويشتاق لمجالسته وزيارته وإلى الحين. ولم يحس هاني لما يتفرج على سعاد حسني وشادية وهند رستم أنه إزاء ’سيدات مسلمات قانتات‘، ولا على رشدي أباظه وحسن يوسف (على الرغم من استحالته شيخاً في شيخوخته) وفريد شوقي وسمير غانم أنهم ’رجال مسلمون‘ ويتخيلهم وهم يتوضأون ويغسلون سواعدهم أو وهم راكعون بالطريقة الإسلامية . . . . إلخ، كلٌ كان أمامه إنساناً عادياً من الناس الذين خلقهم الله بل أقرب الناس إليه، هؤلاء المسلمين، لأنهم يتحدثون لغته ويتجنسون بجنسيته ويعيشون في بلده، ورتب أن يعيش هنا ويعمل هنا ويتزوج وينجب هنا ويموت هنا، فلم تهج أحلامه لدرجة أن يفكر في رؤية «العالم» أو البلدان القصية: هنا يقبع كل العالم.

ربما كان هذا فيضاً من بساطته وطيبته، لكن نشأ عن ذلك أنه لم يعبأ ذرة بأمور ’الفتنة الطائفية‘ و’الأقلية الدينية‘ و’الاضطهاد‘ أو’المناظرات‘، وعندما كان يقول له أحد أنه من ’إخوتنا الأقباط‘ أو من ’أهل الذمة‘ أو ’ضيفاً على دار الإسلام‘ أو من ’من قال عنهم الله سبحانه وتعالى: ﴿لتجدن أشد الناس مودة للذين آمنوا . . . . ﴾‘ . . . . إلخ، كان

يرنو إليه كأنه يرنو إلى كائن فضائي... من هذا الشخص؟ حتى المسيحيون إذا تشكوا بشكل زائد أمامه من التمييز أوالاضطهاد، أو قصوا عن الحاكم بأمر الله، أو مسجد ابن طولون، أو سواهما، كانت تصدع رأسه ويتوق أن يغلق أذنيه. لذلك فيمكن تصور الحالة التي لقي هاني نفسه فيها دفعة واحدة دون تنبيه وكأنه سقط في حفرة خيالية محضة أودت به إلى عالم أسطوري غريب.

في مساء يوم المولد النبوي (الاثنين ١٠ أبريل) أيضاً حدث موقف مشابه، ولو أنه هنا عابر. خرج مع وسيم هلال. مثل أحد أبو جورج تماماً غزت كراتين الحلويات الشرقية مداخل المحلات والواجهات، الإضافة كانت في عرائس المولد الحمراء السكرية وبعض الزبيب والمكسرات غير المعجونة. دارا وجالا مثلما فعلا من قبل مرات ووسيم يتملى وضع يده في ذراعه لكنه يفلتها كل مرة بدعوى الحر. وأنشأ وسيم يتطرق للنزوة الجديدة التي غلبته وهي العمل كمندوب أدوية في أحد الشركات، أي شركة المهم أن يعد نفسه للأمر في الحال:

– 'ما هو اصل الواحد بيضيع نفسه في «الشاي» والبلاوي من كتر الفراغ يا هنوني...'

هكذا شرعها لذاته، يقطب ويكشر في اهتمام، وهما يعرجان يساراً إلى شارع المنفذ لدن ناصية قبع بها فكهاني قديم قدم المدينة نفسها في الذكريات. سلسلة المحلات هذه، بل العمارة العالية بكاملها التي توجتها كافتريا «دار الحكمة» الشهيرة، قيل أن مالكها الحقيقي هو دير المحرق: شوهد راهب ضخم بعوينات ضخمة كذا مرة يقف بين محل الفكهاني والمحل الذي يلاصقه يمسح لحيته براحته في تمعن، وسرى أن الدير يود رفع الإيجار أو تحويل المحلات القديمة المتآكلة إلى محلات حديثة تواكب العصر بكراءات تواكب العصر أيضاً، لكن جل ما حدث هو محل العطور ومستحضرات التجميل هذا لصق الفكهاني. أسيوط هي عبارة عن محلات جديدة تفتح كل حين وآخر، مطاعم، كافتريات، عيادات تحل محل أخرى، هذا ما يخيل إلى هاني أغلب الوقت، لم يحب أسيوط على الرغم من أنه لم يفكر في تحويل تدريبه عنها: مدينة صغيرة مكبوسة تسمع فيها

عن أسماء كبيرة، مثل 'عصام الشريف'، 'جلال زكي'، أيضاً 'السمالوطي'، 'العجار'، ربما مراكز خدمة عملاء كذلك لتوسطها الصعيد، الناس تسافر أمريكا بالمئات خاصة من المسيحيين: الأهالي يحادثون الأبناء الذين في أمريكا في محلات النت: يبدو الآباء الصلع كأنهم ليسوا من هذه الأرض، الأمهات يصبحن جميلات يزيدهن الشيب أناقة وتختفي التجاعيد ويتكلمن بلهجة راقية خلال المايك، زملاؤه الأسايطة على قدر عالٍ من الأناقة وحسن الزي يستعيبون عليه قمصانه المقبضة الذائبة وبنطلوناته التفصيل ذات الألوان الغريبة كالأخضر الفاتح، بلوفراته ذات الأزرار الأمامية الرخيصة في الشتاء، يقولون عنها: 'فلاحي'، يضحكون على نظاراته وعلى هيئته جميعاً، أنفه الكبير المضحك وحوله النمش كالذباب، شعره المنسحب انسحاباً غير كامل كالجيش الذي يترك له قواعد ماكرة في أرض العدو، الغريب أنها مكشوفة للجميع، لم يجرؤ على إعلان ميله للسينما إلا للمغتربين أمثاله لأنهم مقدور عليهم، سيارات حديثة بها شباب ماجنون مارقون لكن علاقات مع فتيات هكذا علناً مثل القاهرة والأسكندرية؟ لا، مستويات إجتماعية حقة غير مخدوع فيها لكن أين المصير؟ ليس مستقبل هنا مع أن الوجه العام حسن، أما الجامعة هنا فتسيطر على تفكير المغتربين كلية بالإضافة إلى الفتيات، ويرددون: 'آه من بنات أسيوط'، 'تشتهر أسيوط بصناعة السيقان'، 'الواحد لو اتجوز أسيوطية هيتجوزها عشان يزل البشر بيها بس!'، وأما الجامعة فهي خليط لا يمتزج من المتطور الذي سافر والآخر ذي الفكر الغريب فعلاً، أساتذة جامعة بلا نقود، لم يغص هاني كثيراً في الحياة الجامعية لكنه يتذكر أن الامتحانات كانت عسيرة، خاصة أنه لم يكن يذاكر إلا للنجاح، لكن تلوح الحياة سعيدة في عيون: حياة منغلقة، مفتوحة، بسيطة، ثرية، فيها اعتماد على النفس ورفاهية، وعندما ودع زملاؤه أسيوط طفرت من عيونهم دموع راحة شجية...

— 'وما له الشاي؟ هو الشاي وحش؟'

قالها هاني مشاكساً آن انعطف في شارع المنفذ على الطوار ووسيم خلفه بخطوة. أطلق وسيم كلمة 'الشاي' تورية عن 'الشيشة' مذ زمن، عجيب أن يستحقر التدخين ويخجل منه بذا الشكل العظيم على الاستمرار

فيه منذ الإعدادية، فثورانه البالغ إن هجاه أحد كأنه يهين عقيدته، ويوماً أفشى هاني بسر 'الشاي' لزميل آخر لهم أكبر سناً اسمه جورج فقلب وسيم الدنيا وخاصمهم أسبوعاً، حتى رجع من نفسه إذ استوحش الوحدة. تلمسا طريقهما على الطوار أمام مطبعة السلام، من أقدم المطابع والمكتبات بأسيوط، وسط كثبان البشر المهيجة تروح وتجيء كالحشرات المستثارة بوقع نعل، صار مقر الحزب الوطني إلى اليسار يجلس إلى سوره العشاق أو المتظاهرون أنهم عشاق، وهرول وسيم حتى اجتاز العقوبات نحو صاحبه فجاوره يقول:

— 'ما انت عارف يا خي اني عاوز أبطله، كام مرة حاولت وبارجع تاني ؟ ما فيش حاجة تقدر تمنعني عنه إلا الشغل. بص العيال الأسايطة ولاد الإيه عرفوا طريق شركات الأدوية من زمان واحنا نايمين، هاني رمزي بيشتغل في سيجما، وسمير حشمت في ألكان بياخد ٦٠٠ جنيه في الشهر، وبيتر سميح بيقولوا بيدور، حتى البنات عايزين يشتغلوا!'

وتراخى هاني أمام بائع قصص وجرائد عند الممر التجاري كان يبتاع من لدنه أحياناً. كان رجلاً أبيض قصيراً جامداً بعينين خضراوين كالأتراك، يخطف الخطوة من هنا لهنا ويمسك ذاك ويعلق تلك في لمح البصر كالعفريت، كان شريكاه التوأم يبيعان الجرائد وكتب الكبار في النهار، وهو المجلات وقصص الصغار والمراهقين والبالونات وما شابه في المساء. ردد هاني النظر فيما يعرضه على ترابيزته الخشبية العريضة بينما يستمع إلى رفيقه الذي يواصل:

— 'كان المفروض الواحد من زمان يدور ع الموضوع دا، الشغل حاجة تلهينا يا راجل وتمنع عن الواحد الشاي وبتاع ....'

بدأ يكرر فشغل عنه هاني بنبذة صغيرة بعنوان 'لماذا حرف الإنجيل'، كالعادة ما تزال الإشارات تنزل كالرسالة المجزأة، واشترى النبذة بجنيه فاستكمل طريقه وهو يقلبها. كانت تقول أن الملك قسطنطين زور الإنجيل مع الكهنة. وعاد يصغي إلى وسيم وهو يوضع النبذة جيبه:

— 'إنت سمعت ان بلامون ظريف عمل «C.V» ؟... أموت واعرف عمله فين، لازم الواحد يعمل «C.V» يخليه معاه جاهز في أي وقت.'

فضحك هاني وارتفع أنفه وهو يميل برأسه للخلف، وقال:

– ’مش عارف ليه يا وسيم كل ما تيجي تكلمني جد في موضوع اضحك!‘

فامتعض وسيم وقال:

– ’ليه؟ أراجوز؟!‘

واستمر هاني يضحك حتى لمح بلامون ظريف نفسه يسير حذاءهما على الجهة المقابلة من الشارع عند دار المعارف، فناداه وبالكاد سمعه، ثم عبرا إليه وهو واقف ينتظر إياهما يبتسم. كان بلامون شاباً ربعة مربع الوجه يلبس عوينات شبه مربعة كذلك، وكانت إحدى سنتيه الأماميتين العلويتين مكسورة أسفلها فساءت منظره وهو يبتسم أو يضحك، ولاقاهما باشاً كعادته ثم تجاوروا المسير نحو اتجاه مطعم كايرو ويسري راغب وهو يقول بصوته «الهوائي» الذي يتخلل نبرته الشهيق أو الزفير في كل كلمة:

– ’إيه أخباركم؟‘

فقال وسيم وشفتاه تتنافران من تحت شاربه:

– ’بخير يا بلاموني. تصدق ان احنا مكتوبين لبعض زي الطير؟‘

فضحك بلامون ضحكة قصيرة وقال محركاً يده في استهزاء نحو هاني طلعت الذي تطرف المسيرة:

– ’ما تشوفه ده. واشمعنى الطير يعني؟ إيه الكلام ده؟‘

كان أسلوب وسيم في المزاح والتفكه معلوماً عند كل الدفعة تقريباً، واعتيد على تشبيهاته الخيالية الجامحة وعباراته الشاعرية المضحكة التي يتفاكه بأن يتقرب بها لزملائه الصبيان، لنأخذ مينا موريس مثالاً مثلاً وقد داوم وسيم على إخباره أنهما ’روح واحد في جسدين‘.

– ’هيئ هيئ هيئ، [وهو يرتقق ذراعه] إحنا طيرين حبيبين، ما لناش غير بعض احنا الاتنين... إحنا الاتنين سوا، زي المية والهوا...‘

وجعل وسيم يضحك، فهز بلامون رأسه في عجب. وعبوراً من أمام كايرو، ثم عطفاً ناحية يسري راغب الشارع الأم فقال وسيم:

– ’باقول لك ايه يا بلاموني يا حبيبي؟‘

فرد بلامون:

– ’إسأل يا حبي.‘

– ’هو انت مش أسيوطي؟‘

– ’ودا إيه معناها دي ؟ أيوه.‘

– ’يبقى ليه ما عزمتناش قبل كدا ولا مرة عندك وعند السيد الوالد والست الوالدة في البيت ؟‘

وقهقه هاني متواهناً وقد وضع أنامل راحته فوق فمه، فريثه بلامون وقال:

– ’استنى استنى... [موجهاً حديثه لوسيم المرتفق ذراعه ما يزال] وهو انا لما اعزم واحد، أعزم وسيم برضه ؟‘

فانفلت منه وسيم وتمثل القتال في عينيه وضم قبضتيه في وسط الناس في الشارع كالجنون، ثم ما لبث أن ضحك وعاد يرتفق ذراع بلامون ويضمها إليه فزاحه بلامون لكن لم يمكنه أن ينحل منه. وهنا سأل وسيم بروحه النشوانة:

– ’بلامون يا حبي...‘

فزام بلامون:

– ’آه.‘

– ’برضه تعمل «C.V» من ورانا يا بلاموني وما تقول ليش ؟‘

فرمقه بلامون في اندهاش وسأل:

– ’مين قال لك ؟!... يخرب بيتك عرفت ازاي ؟!‘

فضحك وسيم بطريقته السمجة وقال:

– ’مش قلت لك ان احنا طيرين حبيبين، مالناس غير بعض . . . .‘

وابتدأ يعيد، ففصله بلامون عنه وأخذ يدلك ذراعه وسأل هاني:

– ’إنت مستحمله ازاي الشخص دا ؟‘

فقلب هاني كفيه وشفته السفلى بما يقول: الله أعلم. فتوقف وسيم عن الغناء والضحك وصاح فجأة في هاني وبسمته ما انفكت فوق شفتيه وشاربه:

– ’واه! حتى انت طلع لك صوت يا بتاع الاقصر يا كلب ؟!‘

فطفق هاني يتمايل في الشارع وهو مأخوذ بالضحك فارتطم بشاب يسير ضده لكنه تأسف له وعاود المسير. وانضم لرفيقيه فوجد وسيم يضحك عليه فلكزه في كتفه لائماً في غير جدية. ومضى وسيم في هذره ومعاكسته الفتيات في الشارع حتى اكتشف – بعد فوات الأوان – أنه قد

عاكس أخت زميلهم روماني صابر صديق بلامون الطالبة في الثانوية، مما جعل بلامون يمتعض في حرقة ووبخهما توبيخاً عسيراً. لكنهم واصلوا المسيرة في مجرى يسرى راغب عكس تيار السيارات حتى بلغوا نقطة إبراهيم باشا، هناك تفرع بهما بلامون في شارع فرعي ضيق – قد يؤدي إلى مسكن مارك سعد إن تم لآخره – لكن لم يتموا فيه خطوات حتى صعد بهما للدور الثاني من عمارة قديمة مشروخة يشغل دورها الأول كوافير حريمي احتلت لافتته أسفل الشباك بعرض مترين على الأقل.

كانت سلالم مستحيلة حتى أنهم صعدوا فيها صفاً صفاً بالكاد، وطرق بلامون باباً حديث الطلاء إلى اليمين في حين انبعث صوت شجار بالأعلى بين صبي وأمه. ثم طرق بلامون مرة أخرى وهو يقول: 'كلهم جوه، ها يفتح'. وبعد ثوانٍ فتح الباب أغرب إنسان وقعت عليه عين هاني طلعت. كان شاباً، هذا ما اتضح، لكنه أمردٌ بالكامل، كائنٌ قصير القامة بحيث بلغ طوله كتفي بلامون بصعوبة، وكان ذا محيا أبيض شاحب صغير الحجم يغطيه شعر ناعم طويل نوعاً كأنه باروكة، يلبس العوينات وإن بدت عيناه من خلفها براقة جلية صغيرة كأن ليس به عيب نظر. أما أعجب ما بوجهه فكانت شفته العلوية، التي استطالت بشكل غريب بحيث كأنها لتظلل فوق فيه وتحميه، وكانت بصدغه الأيسر ثلاث بثرات مزمنات من المرجح أنهما بقايا مرض جلدي غير معروف، والثلاث بثرات منتظمات فوق بعضهن البعض بحيث إذا وصلت بينهن حصلت على مثلث متساوي الأضلاع كأنه وشم مدروس، والخلقة كلها توحي بأنه من كوكب آخر. ابتسم الكائن ما أن تبين بلامون وقال بصوت – على غير المرتقب – رجولياً عادياً وإن ناعماً بحراوياً:

– 'أهلاً أهلاً بملك البازوكا.'

فصافحه بلامون وهو يقدم له ضيفيه فتنحى داعياً إياهما للدخول وهو يقول:

– 'يا ١٠٠ مرحب. تعالوا، إنتو خايفين ليه؟'

وتقدم وسيم ثم هاني تباعاً فحوتهما صالة صغيرة مدهونة حديثاً بدورها – وككل الشقة على ما جلا – يقع منها جهاز كمبيوتر وطابعة في أول ركن وبعسر تبقى ما يفي العبور لغرفة مفتوحة إلى الصالة كانت منارة

وصدر منها ضجيج وصوت. سبق بلامون الكل إلى الحجرة وهو يسأل عن 'الجماعة' فأخبره مالك الشقة أن كلهم بالداخل، ثم استدار للضيفين الحديثين فسألهما:

– 'تشربوا إيه ؟'

فأنكر هاني شاكراً، إلا أنه فوجئ به يضربه كفاً ضعيفاً وهو يفاكهه ويقول:

– 'يا راجل أنا كنت باهزر...'

استطرف هاني الكائن فتقرب إليه وسأله عن كنيته ومؤهله، فأشار الآخر لنفسه قائلاً في لهجة إجتماعية ودودة وشت ببروتستانتيته:

– 'أخوك نائل، صاحب محل الكمبيوتر والنت المتواضع ده، وبكالوريوس آداب.'

فسأله:

– 'بروتستنتي يا أخ نائل ؟'

خطا وسيم نحو الحجرة ورد نائل في أسلوب هجومي ظريف:

– 'آه. إيه يعني يا واد منك ليه، اللي ما يحبش البروتستانت يطلع بره.'

فضحك هاني ثم ما مكث أن سأله:

– 'وإيه معناها نائل دي يا أخ نائل ؟'

فخلاه نائل ومضى للغرفة قائلاً:

– 'مش عارف معناها إيه نائل دي يا أخ نائل. وبعدين إنت شكلك كده لمض وها تتعبنا معاك.'

ضمت الحجرة الصغيرة التي كانت في ذات مساحة الصالة بالتقريب (كانت تتصل بها البلكونة الوحيدة بالمكان) اثني عشر جهاز كمبيوتر جلس إلى كلٍ شاب أو طفل من المترددين على المكان. كان روماني صابر ووائل دميان وبيتر سميح هناك، أخذوا الثلاثة أجهزة الأخيرة وانبروا يقتلون بعضهم بعضاً – مع بعض الأطفال المشاركين معهم – من خلال لعبة «Medal of Honor» وهم يصيحون ويهتفون ويهللون ويسخرون من بعضهم بعضاً، أما بلامون فاستقبل بحفاوة ملك من ملوك اللعبة لم يقرعه إنسان حتى تاريخه، وكان يعلم الأشبال الجدد لا يبخل عليهم بمعلومة أو

نصيحة، لكن منظر روماني ووائل وبيتر سميح كان مستنفراً لمواهب وسيم هلال البارعة، فانقض عليهم يثقل ويشتت لعبهم فضربه بيتر سميح القوي في فخذه ضربة على أثرها تأوه وانثنى على نفسه وأنشأ يقفز على الساق الأخرى وهو ينفخ كالكانغرو المحموم، ثم إذا به يستقيم مرة واحدة كأن من به مس وانجاب فيلازم نائل يستحثه على أن يصمم له «C.V» بسرعة على أحسن ما يمكن. وسأله نائل عن تهجؤ اسمه بالانجليزية فقال أنه لا يعرف، ثم طلب خلاصات دوراته الخاصة فأدلى بأنه لا يعلم، وهواياته قال عنها أنها كرة القدم فحسب مع أنه في الحقيقة لا يحب كرة القدم، وحينما بلغ الأمر منتهاه أخيراً قرر نائل سرقة «C.V» بلامون ظريف خلسة مع تغيير بيانات طفيفة ووعدهما بإتمام المهمة لكن في وقت آخر. أما هاني فكان يفكر في تكلفة كتابة سناريوه على الكمبيوتر، ثم طباعته، بعد الانتهاء منه وقد أوشك، كان فكراً حازاً وقد عذبه من الداخل فتركه في بحر من المرارة إذ كانت التكلفة أمامه خيالية.

٦. القديس

I. حلم ميشيل حلماً عجيباً.

رأى أنه وأخته حينما كانا صغيرين، أنهما جالسان على طوار بشارع شعبي معتم لم يزره في حياته. ثمة عمود قديم منبعج يظلل على جزء يسير من الشارع بنور أصفر واهن، وكان عبور معدود يسدر على مهل من فينة لأخرى كأنه مشهد في مسرحية غامضة. نظر لأخته فوجدها في «شوالها» الزهري القديم الذي كانت ترتديه وهي طفلة، حافية شعثاء الشعر كما جرت عاداتها الرعناء في آن الطفولة. كانت أخته في صباها تغرم بالحف والهرولة فوق التراب واللعب ونط «الواحدة» مع أطفال الشارع. كانت نقية، وأثارت بركاناً في والدها فحبسها في البيت ومنعها من الخروج فكانت تبكي وتخمش الأبواب فلاقت آذاناً مصمتة. إلى أن انكسرت حدة العناد وذوت نار الإباق تدريجياً وخارت الرغبات كما يخور البحر الهائج لما يضرب حاجزاً من الصخر فتوطنت على الحال الجديدة بتسليم ومع الأيام تغيرت من الداخل. لقد توفت أخته بالنسبة إليه مذ خنعت، لم تعد خزانة اسراره لأنها صارت شديدة الولاء لوالدها وتباعدا كما يتباعد المسافران الملتقيان في عرض البحر كل إلى شط، وإن فضلت تحبه هذا واضح، ثم اختفت نهائياً بعد زيجتها بضابط في المباحث فلما يعد يسمع عنها... شاق لأخته ولعل هذا ما استحضرها لرؤياه، لكن لم يجرفه الحنين في الحلم فاكتفى بتملي صحبتها وملامسة جنبها العظمي الصغير وهو جالس لصقها على الطوار. ثم مد نظره لآخر الشارع فوجد بياع كانتلوب يقف في الركن البعيد المرئي من الشارع يغشاه نور ضعيف لكن بما يكفي أن يراه. وكان البائع رجلاً في أواسط الثلاثينيات يلبس جلباباً إفرنجياً لونه بيج ويضع فوق رأسه طاقية داكنة يقف من خلف عربته المتكوم عليها الكانتلوب كالهرم. كان يشعر بفرحة وهو يتطلع إلى البائع بوجهه الأبيض المسالم الشقي، لم يرم أن يحدثه أو أن يتقرب إليه، فقط يفي أن يمكث يتطلع إليه هكذا إلى الأزل كي تغطيه الفرحة. حتى وأنه لفي سعادته غير الموصوفة تلك، والتي لم يستطع أن يبررها، إذا بجمع من رجال سود يجيئون من الظلمة خلف البائع المسكين فيتشاجرون معه ويضربونه، ثم يقلبون عربة الكانتلوب

على الأرض فتخبط الأرض بصوت مسموع، فتتدحرج الثمار على عرض الشارع وتقف ثمرة دون قدميه المغلفتين بالصندل. اجتاحه الشجن وكاد يبكي وهو يقول لأخته غير قادر أن يمد يد العون:

– 'إزاي ربنا يسمح للناس السود دول إنهم يؤذوا البياع الغلبان ده؟ مش كده حرام برضه؟!'

صفت عينه اليسرى دمعة صغيرة أخذها خده فمسحها براحته بينما أخته تقول:

– 'المسيح أكيد ليه حكمة، وأكيد مش ها يسيب راجله الغلبان ده يتأذي، أكيد هيبعت له حد ينقذه.'

وبالفعل على كلمتها جاء «بوكس» شرطة، وتفرق المعتدون على سارينته، ثم توقف على بعد خطوات منه وأخته. وقام هو وأخته لكي يستجليا سيارة الشرطة.

أصبحت الآن الخلفية مختلفة: ساحة كبيرة ليلية غير مرصوفة كحوش كبير مأهول أو كخلاء معبد والجو العام محبب، وترجل من البوكس ضابط شاب في حوالي الثلاثين، متين وإن يقوم على قصر بسيط، ذو شارب كث، وكان شعر ذؤابته قد اختفى تاركاً خلفه مساحة مستوية ناصعة تخللتها بعض الشعيرات الناعمة، وكان شعره عسلياً وعيناه عسليتين، ووجهه باسماً. وتفرق عساكر من الخلف فركضوا بعيداً في انتظام بينما هتف ميشيل للضابط:

– 'أيوه، أنا عارفك!'

فرك الضابط كفيه المكتنزين الناعمين في بعضهما بعضاً حتى أصدرا صوتاً أنيساً، ثم ابتسم ونظر للضابط الآخر الجالس جنب السائق في مقدمة السيارة – وكان عجوزاً ضئيلاً أشيب الشعر بالكامل ذا بشرة داكنة من أثر الشمس وكان قابعاً في صمت – ثم استدار له الضابط وسأله بملاطفة:

– 'عارف مين يا حبيبي؟'

– 'عارفك إنت!'

– 'عارفني ازاي يعني؟'

ركبه التردد، هل يخبره علانية؟ ألن يسخر منه؟ لكنه استجمع قواه وقال له في يقين:

— ’أيوه... إنت مارجرجس!‘

ضحك الضابط حتى حسب أنه يسخر منه بالفعل، وعمه الخجل فأطرق، لكن الضابط ما لبث أن التفت للآخر الجالس في السيارة فقال له:

— ’عاجبك كده يا ابويا؟ أهو الواد عرفنا.‘

انتفض قلب ميشيل لدرجة أن انتفاضته هذه بلغت عقله الواعي فأبصر في نومه بأنه يحلم، وأدرك أنه نائم وأنه يرى مارجرجس عياناً قدامه فاندمج في الحلم بروح شجاعة متهللة متشبثة. وكاد لسانه يقف عن النطق لكن مارجرجس أخفض رأسه إلى طفله وكفيه معقودان فسأله وابتسامته الملائكية ما تعتم فوق فمه وشاربه الكث الشهير:

— ’طيب يا عم ميشيل، أنا مارجرجس. ها يا سيدي، تقدر تقول لي إنت زعلان من ربنا قوي كده ليه؟‘

قال متلعثماً:

— ’أنا— كان قصدي إنه— ليه ما ظهر ليش؟!‘

وأعاد صيغ شكواه فقال بجنان أثبت:

— ’أنا زعلان من ربنا إنه ما ظهر ليش.‘

ردد الضابط مارجرجس عينيه المباركتين بينه وبين أخته ثم قال:

— ’طب ها اقول لك حاجة يا ميشيل. [وهو يشير بإصبعه ناحية السماء الممتدة] تقدر تبص لي ع السما وتقول لي إنت شايف إيه؟‘

رفع ميشيل عينيه لبحر النجوم المتلألئ في السماء الباهرة، أجمل منظر سماء ليلية رآه في عمره، وسرعان ما بدأ المسيح نفسه في الظهور. كمثل صورة ’القارع على الباب‘ التي يراها بكثرة في الكنائس والتي يحمل منها نسخة في حافظته كنوع من البركة، بدا المسيح، يلبس وشاحاً قرمزياً أسفله جلباب فاتح، وقد استعصى على السماء كلها أن تحويه، وعلى ناظريه أن يشملا قامته الهائلة المتجلية من أقصى الشمال حتى أقصى الجنوب، من تلامس الأرض بالسماء إلى تلامس السماء بالأرض كأنها قبة كنيسة. فلوحت رقبته وكلت، وغمرته سعادة عظيمة حتى لقد دق قلبه بقوة وابتهاج كدقات أجراس الكنائس، وفي نيامه وعى أنه يرى المسيح ذاته

فما عسى أن يخبِّر الناس بعد؟! وهل ليصدقوه؟! وابتدأ المسيح المتجلي في الحركة رويداً رويداً على صفحة السماء لكنها كانت حركة بطيئة مقصوصة، كالأفلام الكرتونية البدائية بل وإذا حركت حركة بطيئة، فشوهت هذه الحركة المعيبة كمال الرؤيا وسأل ميشيل مارجرجس في حزن:

— 'هو ليه بيتحرك بشويش كده؟ هو ده مش المسيح اللي انا شايفه؟'

مال عليه مارجرجس وقال وهو يشير للسماء:

— 'لأ يا ميشيل، ده مش الرب يسوع، دي مجرد صورة طيفية من لما ظهر لإبراهيم من آلاف السنين.'

— 'طب وليه ما ظهرش لينا؟'

فقال مارجرجس:

— 'مش كل الناس بتشوفه يا ميشيل... مش كل الناس'.

بعدما أنهى الشهيد كلامه تلاشى كل ذلك العالم وتناثر في السماء كذرات تراب. استبدل جميعه، وعلى حين غفلة، بلوحة عملاقة في السماء لسلم يصل بين الأرض والسماء كسلم يعقوب. كان الصاعدون في الأول كثراً، يسبحون ويهللون بالدف والتصفيق، أسفلهم — وأسفل السلم — وقع الجحيم بناره وعذابه وكانت الأرواح تصرخ فيه معذبة مع الشياطين (كان قد سبق ورأى تلك الصورة)، أما الشيء الملفت للاهتمام فكان الساقطين من وهم على 'سلم المجد' كما عنَّ له أن يدعوه، يتساقط من الصاعدون تباعاً أما الذين يرقون درجة فكانوا يزدادون بياضاً وبهاءً ونوراً وكانت ملابسهم تتحول بالتدريج إلى اللون الأبيض الناصع، وأما الذين يسقطون من على السلم فيركبهم قبح رجيم وتغمق ملابسهم ويصيرون شبه الشياطين حتى ينتهوا إلى الجحيم الواقع أسفل السلم مع من سبقوهم، وكانت اللوحة تعلق عليهم بحروف لاتينية غريبة لكل رمزه الذي لا يمكن تفسيره. وتستمر المأساة لكن يقل الساقطون رويداً كلما صعد الصاعدون السلم المنحني الصاعد نحو السماء وسط السحاب، حتى لا تبلغ أعلى السلم إلا نسبة ضئيلة جداً ممن بدأوا الطريق مع الصاعدين وهم المختارون، حيث تستقبلهم أجناس الملائكة مرحبة من خلال باب صغير

مفتوح في السماء وسط السحب والنجوم، وحيث لا يعود بالإمكان التفرقة بين صاعد السلم الذي بلغ، وبين الملاك الموجود في استقباله.

وفي الحال ارتد ميشيل لسريره، ولحجرته، ولاستراحته في نايلة خاتون فألفى نفسه ينظر إلى الكرسي المكسو بالظلام. كانت حجرات قلبه ما تزال تنقبض بقوة، والدم داخل عروق رقبته ينبض بعنف حتى لقد سمع النبض بأم أذنيه. هذا ارتياع ليس سروراً! وجاهد في سبيل النوم مرة ثانية لكن جميعه كان قد تحطم تاركاً إياه في يقظة تامة. كانت الغرفة قد اعترتها الفوضى في الأيام الأخيرة، فتبادل مع هاني طلعت مكان النوم غير مرة، وبات يكوم ملابسه التي ارتداها خارج الدولاب فملأت الغرفة، واستعار من هاني كتباً عديدة لم يقرؤها وألقاها أيضاً هنا وهناك، وفرج الباب في وجه جميع الناس ليسروا عنه فقلبوا الغرفة رأساً على عقب، وتراكمت أكواب الشاي التي اجتاحتها الفطريات واستضافت الغرفة كذا كرسي زائد فسدت المساحة وتعثر التحرك، وحنق هاني طلعت وأبدى له حرى أن يفهم لكنه أغضى عينه عنه نهائياً ولما يتحادثا حديثاً جدياً منذ أيام. لمحه بين الكراسي السادة فاغراً فيه وطاوحاً كل رجل على حدة في جهة فحسده على صفاء باله. ولقي رأسه يرتفع من فوق الفراش (نام ميشيل ليلته على السرير الداني من باب الغرفة) كأن ثمة من استدعاه. الحين أقبل الفرح يمتزج مع الرعب ليصنعا مركباً جنياً. كان سعيداً برؤية الشهيد العظيم لكنه خائف من صورة الجحيم ومن منظر السقوط من السلم، مزهواً بالتجربة النادرة التي سيظل يحكي بها إنما يحدس شراً من ورائها! كانت زيارة ريم الأخيرة قد دمرته، فزاد نبضه منذها وأمسى قلبه خائفاً مخضوضاً باستمرار يتوقع سوءاً كالهارب المطارد، لذلك فحاول الاندماج في الناس ينسى وإن فقد روح الدعابة وهزره الفاحش قل شويا، ودهش لشعوره الفظيع بالذنب بينما هو الإنسان غير المتدين الذي لم يستجد عنده جديد، فما برحت مكنونات نفسه الخبيثة الرائحة كما هي، ولم يصب منه الدين ذاته حباً بعد بل نفوراً، لا يتصور نفسه في قداس إلا ويحس بضيق النفس، ولا يجد أدنى نزوع لقراءة الكتاب المقدس ولا الكتب الدينية، وجرب أن يصلي لكنه وقف إزاء صورة المسيح (التي علقها مقيم سابق جهة الشرق وألصقها إلى

الحائط بالبلاستر الطبي الأبيض) صامتاً مستغرباً كأنه تلميذ أبكم في فصل جديد... من كان يتخيل أن مأزقه المستقبلي سيكون في الدين ؟!... فوق هذا فإنه ارتاب في ضعف عقلي أصابه فقلبه على هذه الشاكلة المريضة المذعورة –وبسبب الدين! –وكأن 'بسيادته' كان من عمالقة البرية وسقط... ارتاب وأوهنه الشعور بالذنب، وحيرته لما يشعر بالذنب، وهل شعوره بالذنب ذو جذر دينى محض أم أنه نفسي أو يتخلله عامل نفسي، فأجهش في مقتبل هذه الليلة وشكا لله وقال له: 'إن كنت بجد... إن كان في أمل، إظهر ليّ بنفسك!' وتركه على هذه الصورة يتولى زمام جميع الأمر بالنيابة عنه. حتى أوتي حلماً أو رؤيا كما طلب وإن يشك الآن أنها من نتاج عقله غير الواعي، فابتهج بادئ ذي بدء بينما الخاتمة هولته! يالخالق الكون، كيف المصير إذن إن كان الصعود على السلم أنفسهم يتساقطون هكذا مثل حبات الأرز من وهم على درجاتهم الروحية العالية ؟! وهل كان ذلك تحذيراً... أو وعيداً له بعدم اشتهاء ما لا يستحق ؟! أيجدر به الحين أن يعود إلى سابق دربه ويتناسى ما تمثل له خطفاً في الخيال كبارقة إحتمال ؟... قام فاقتعد حافة الفراش يثأثئ أنفاسه ونبضه العنيف، اتكأ بكوع يسراه على ركبته اليسرى، وأمال رأسه على قبضته، فلاح ببدنه الهائل المنطوي، وبكرشه المبظوة، كصخرة جاسئة في الظلام. ثم ما مكثت أن استوت تلك القامة فدنا ارتفاعها من المروحة السادرة على أقصى درجة (رغماً من هاني طلعت الذي لا يحتمل المراوح) ومضى يتلمس خيطاً لإبريق الماء الذي يضعه هاني بدوام على ترابيزته لكي يرتوي منه وهو يكتب. وبالفعل وجده لكن لمسه خفيفاً قد لا يصل الماء فيه لربعه، وكان ساخناً، فجرعة في جرعة واحدة ثم عاد يرتمي على فراشه وقلبه يدق مرة أخرى.

II. ’هوبوس إنتيك ماي خين نيك ساجي: أووه إنتي إتشرو إكناي هاب. إبشويس نا جير ني سوتشني إنتي ني إثنوس إيفول: أووه إفناشوشف إن ني موكميك إنتي هان لاؤس الليلويا.‘[١١]

وكان أول أيام أسبوع الآلام التي يمضي فيها ميشيل للكنيسة هو أربعاء أيوب، تجاهل عن قصد أحد الزعف واثنين الـ’إمارة‘ وثلاثاء الـ’إشارة‘، الغريب أنه عود كل عام أن يمكث بالمنزل ولا يحضر البتة، لكن في هذا العام أحس أنه يتجاهل الحضور خصيصاً لأنه يعاند نفسه. أمه كانت قد ’شالت إيديها منه‘ — على حد تعبيرها — منذ زمن، فلم تعد تؤنبه، وأبوه — الخواجة جورج (الصائغ) — لم يعبأ يوماً بحياته «الكنسية» بل كان معجباً بشخصيته ورجولته وكان يصرح باستمرار مقرظاً فيه: ’العيال بتوعوت الكنايس دولا ورق، ما حدش فيهم يعرف يسد مكانه، ما فالحينش غير في ”ربنا يسامحك“ و”المسيح يرعاك“... تقولش الأنبا بولا يا شيخ!‘، هذا في الوقت الذي واظب فيه الخواجة جورج نفسه على غشيان الكنيسة يومياً إن أمكن، لكن للحق في غير رياء ولا نفاق، فلم يكن يذوب خشوعاً بالداخل ولا ينقط زيتاً، الجميع كان يعلم طيته حتى الأسقف. ما جعل ميشيل يحضر هذا العام على غير العادة، ويقطع عناده بالانقطاع عن المجيء، لم يكن شوقه لله أو حباً مباغتاً للدين — فما فتئ يستكره أي شيء يمت للأديان بصلة ويحسه أمراً صعباً مثيراً للصداع — لكنه كان أنه وجد في يوم الاثنين كتاباً عن طقوس أسبوع الآلام يلعب به أخوه (وكان أخوه يخلى في رعايته بينما يذهب الأب والأم للكنيسة) فقرأ فيه على حين غفلة عبارة هزته وجعل الأرض تميد تحت قدميه: ’صلاة التجنيز العام‘...

متى كان قد سمع العبارة لآخر مرة؟ قبل سنتين على الأقل. تذكر أنها صلاة تتلى على الجميع بعد نهاية قداس أحد الشعانين تحسباً لوفاة أي منهم، حيث أنه من الممنوع تلاوة صلاة التجنيز على أي ميت بالكنيسة في خلال تلك الفترة حتى أحد القيامة، ولطالما حذرته أمه — على عهد

---

[١١] ’لكيما تُبرر في أقوالك وتغلب إذا حوكمت. الرب يفرق مؤامرة الأمم ويرذل أفكار الشعوب: هلليلوياه.‘ (مزامير ٥٠ : ٤ و ٣٢ : ١٠).

التحذيرات – من أن من يفوت تلك الصلاة يفقد دنياه وآخرته، فلا صلاة على جثمانه ولا آخرة مرجوة لمن مثله. واضطرب ودارت به صالة الدور العلوي (حيثما عثر على الكتاب مع أخيه)، والبيت، والجنينة، فإذا به شيطان رجيم مطرود من حظيرة الكنيسة يقبع في ظلمات فكره الشريرة. أذهلته دقة التشبيه فجلس على مقعد وثير مشجر (انتقت أمه طرازه بنفسها لتشاكس به بعلها) يراجع نفسه. هل حقاً الدين بهذه الضرورة؟ أي هل لابد للإنسان أن يكون متديناً وإلا يموت؟ في بلاد الغرب كثير من الناس يعيشون على هواهم ولا يشوب سعدهم شيء. بل إن الدين – في حد ذاته – إذا دخل حياتهم ليفسدها. كيف تتعامل المسيحية – أو أي دين – مع العلاقات الجنسية قبل الزواج التي أصبحت عصب المجتمع هناك؟ إن أخذت الأمور من وجهة نظرهم فإن تلك العلاقات – حقاً – إذا تمت بشكل صحيح فهي أساس التفاهم الصحيح بين الرجل والمرأة! الناس بالخارج استطاعوا أن يخلقوا «قاعدة أخلاقية» بعيداً عن الغيبيات بصفة عامة، رعاية الحيوان، الحفاظ على البيئة، حقوق الإنسان، كلها مصطلحات علمانية غير مأخوذة بكاملها من الدين، ربما أوحت المسيحية للناس ببعض الأفكار لكن الباقي كله إنجاز إنساني بحت. وما رأي الله – العظيم الذي خلقنا – في تلك المفاهيم التي سادت العصر الحديث، ما مفهومه عن رعاية الحيوان مثلاً إذا كان الحيوان بلا روح؟ هل الإنسان الغربي كان ليفكر مثله مثلاً وهو واقع في نفس الأزمة، وهو الذي الدين عنده مجرد 'تراث'؟!... لقد قصر في حق الدين حقاً منذ وعت عيناه، لكنه ما قصد إهانة الله أو أن يغدو شريراً، بل على العكس، لقد لازم ناموساً أخلاقياً عاماً فلما يك يحتمل أن يؤذي إنساناً، وهو شهم بحق بشهادة الجميع، وكم من مشكلة وفق هو وحده في حلها وكم من أزمة منعها؟ وعلى غناه لم ينس الفقير فكان – في السر – يعطي للفقير وينقد الشحاذين الذين كان يراهم في الطرقات فيشفق عليهم حتى وإن كانوا نصابين، ولا يتذكر أنه يكره أحداً، وعلى بعده عن الكنيسة لكنه يحب الله ويفخر بدينه، لكنه – بصدق تام – لا يطيق أن يظل لحظة داخل قداس أو أن يسمع تسبحة أو شريط ترانيم. هل يكفي أن «يحب الله» من بعد ويكتفي بإيمانه العام بوجوده وخلقه إياه وسيطرته على الكون؟ وهل هو

إنسان سيء إلى هذه الدرجة ليذهب إلى الجحيم ؟! ثم إن الطريق الذي تبدى له لله طريق صعب جداً وغير ممكن إطلاقاً، سيستلزمه أن يعيش في قلاية باقي عمره وألا يعرف إلا 'كيريا ليسون كيريا ليسون'[12] والمطانيات «علّه» يخلص! ما مستقبل هؤلاء الناس الذي يذهبون إلى الكنيسة يومياً لكنهم يخطئون أيضاً؟ وتذكر آية ﴿الصديق يسقط في اليوم سبع مرات والرب يقيمه﴾ فشوح بيمناه وقال: 'آه' بصوت مسموع كأنه يخاطب شخصاً خيالياً. ثم تذكر منظر الجحيم، والسقوط من عل، فخيل إليه أنه قد صار أخف وطأة ورعباً الآن. ثم تساءل أيضاً: كيف يعيش الإنسان؟ هل لابد أن يغوص في الدين كي يروق باله، أم أن هناك حلاً وسطاً أو حلاً آخر غير معلوم لديه؟ وهكذا دار في الدائرة عينها مرة أخرى.

وتمالك نفسه فلم يمض يوم الثلاثاء، لكنه على صباح الأربعاء لم يستطع المقاومة، فقام واغتسل وانتظر حتى غادرت والدته بأخيه الصغير (حيث تحجج بأنه ربما يغادر لزيارة صديق يدعى زغلول يقطن في شارع ٣٠ مارس) ثم استقل سيارته حتى كنيسة ماريوحنا الحبيب – أكبر كنائس نجع حمادي – الدانية من منزلهم بسرعة قبل أن يغير رأيه. وكانت كنيسة ماريوحنا قد تحولت لكاتدرائية قبل سنوات لكن اللقب لم تتم ترقيته على الألسن التي واكبت على الإشارة إليها باللقب القديم، وتحتوي الكنيسة على مبنى كامل للخدمات يضم مركز حاسب آلي ومركز خدام وكلية إكليركية متواضعة ومكتبة صغيرة تفتح أيام المهرجانات، كما استقر في قاعه – المبنى – (بالإضافة لعيادة الكنيسة الخيرية) محلان تابعان للكنيسة: أحدهما سوبر ماركت مؤهل يبيع الأغذية المنزلية كافة إنتاج المصانع أو البيوت أو الأديرة، والآخر لبيع بعض الأغراض الدينية كـ«تونيات» الشمامسة والاكسسوارات المسيحية من صلبان وأيقونات .... إلخ ، أما المكتبة فكانت عند مدخل الكنيسة الخارجي وهي مكتبة متوسطة الحال. وعلَّ افتتاح كنيسة أخرى في المدينة – بعد عناء – (هي كنيسة القديسة العذراء مريم) قد يسر شيئاً من الزحام في الكنيسة الأم، ففي السابق كانت المناسبات الدينية تحمل هماً عظيماً لما فيها من زحام وتكتل وتشتت

[12] يا رب ارحم.

القادمين عن بعضهم البعض ثم قلة فرص العثور على أماكن شاغرة على الرغم من فتح قاعات جانبية فسيحة نوعاً ثم الحوش إذا لزم الأمر، فكانت الكنيسة في ذلك اليوم هادئة عما اعتيد لميشيل (الذي كان قد ولجها آخر مرة قبل افتتاح الكنيسة الأخرى)، بيد أن أماكنها الخالية كانت معدودة على الأصابع. وسار في الممر بين الكنب مغيباً التركيز حتى ناداه همس من أحد الأماكن فالتفت إليه فوجده طارق صبحي ضابط المباحث المنحدر أساساً من مركز منفلوط التابع لأسيوط، وزوج أخته في نفس الوقت. وكان طارق شاباً متوسط القامة منصوب الظهر والبطن ذا نظرات حادة قوية ووجه مسمر تشوبه حبوب ضئيلة منتثرة في وجنتيه من أيام اليفوع، ولم يكن صعب الشخصية ولا غير مفهوم، كان إنساناً اجتماعياً يحب الهزر والفكاهة وبه جانب من التدين أيضاً. لكن عيبه الخطر كان لسانه الذي يسقط الألفاظ النابية منه سهواً وهو يضحك أو يمزح بشكل يومئ إلى تدريب طويل تأصل فيه من أيام الأكاديمية. وكان يؤثر أن يكون وحده لكنه لم يستطع التهرب من دعوة زوج أخته، فتلمس الطريق بين الجلوس (الذين كانوا ساعتها وقوفاً) ليجاوره، ولحسن حظه كان طارق يعف عن التحدث داخل الكنائس فتركه لحاله ولتأمل البصخة[١٣].

وواصل الشماس الصغير في السن تلاوته للإنجيل باللغة القبطية باللحن الحزايني، ثم استهل غيره المزمور فالإنجيل باللغة العربية. ثم تولى صمت تدريجي الكنيسة فتلى أب كاهن بذقن حادة شيباء طويلة مقدمة الطرح[١٤] باللغة القبطية تتخلل كلماته أصوات الجلوس والتحرك وبكاء بعض الأطفال من أدوار الحريم بالأعلى. كان ميشيل قد ميز الكاهن ما أن رآه في بداية مجيئة. كان أبونا دانيال، الأب الذي اشتهر بخفة دمه وبساطته في المدينة، والذي تدوولت عليه نوادر شتى. يحكى منها مثلاً أن أحد الأطباء كانت لديه سيارة دائمة التعطل في كل خطوة فعزم عليه مرة

[١٣] كلمة 'بصخة' معناها فصح أو عبور، وهي صلاة خاصة للمسيحيين في أسبوع الآلام.

[١٤] الطرح معناه التفسير، وهو تفسير للإنجيل المقروء مع الحث على العمل بما جاء فيه.

أن يوصله، فرفع له الأب يده شاكراً وهو يقول: ’ماعلش، أصلي مستعجل‘، ويحكى أيضاً أنه مضى في يوم لخدمة قرية ما وكانت أكبر عائلة مسيحية فيها تعرف بعائلة ’الحمار‘، وكان أفرادها غليظي الدماغ، فصلى لهم الأب الكاهن وفي نهاية الصلاة قال دون قصد: ’وارفع يا رب شأن عبيدك الحمير، باركهم يا رب واحسن إلى . . . .‘ فأهلك الشوارب الضخمة ضحكاً. لكن رؤية الأب الكاهن — على الرغم من أنه كان يتردد على منزلهم في السنوات الماضية — قد ردت ميشيل إلى أيام أخرى، وذكريات أخرى، كأنه يراه بعين جديدة في الأيام العجيبة التي يعيشها. كان أول آباء اعترافه — هذا حق، فقد مارس الاعتراف لدى ثلاثة من الكهنة قبيل انقطاعه نهائياً عن غشيان الكنائس — انتقاه له والده لأنه ’سهل‘ كما عبر لسانه، وكان آنها في الإعدادية، لا يختلف بكثرة عما عليه الآن سوى في عدم معرفته شقة ريم بعد (ما زال ميشيل حتى اللحظة يتقزز من مشاهدة الأفلام الجنسية ويربأ بنفسه عنها)، سأله الأب: ’إيه أخبار حياتك الروحية يا بني؟‘ فضحك ولما يمكنه أن يكظم ضحكته، فقال له: ’الصلاة طيب؟‘ فرد ميشيل غارقاً في استضحاكه: ’ما فيش خالص‘، فصمت الأب الكاهن هنيهة وهو ينقر بمؤخرة صليبه العاجي على المكتب ثم سأله في تريث: ’طب في خطية معينة تاعباك ومش قادر تتغلب عليها؟‘ فرد ميشيل: ’بص يا ابونا... في كله‘. ولم يختلف إليه بعد ذلك سوى مرتين ثم سئم منه فـ«أبطله». وجرب أبونا ميصائيل في بهجورة لكن الرجل كان شيخاً طيب القلب وديعاً كالملاك ينظر إليك بعينيه الدامعتين من دنيا أخرى فنفر ميشيل منه وكان يسخر منه، ثم حملته والدته على الاعتراف لدى أبونا بولس أكبر كهنة نجع حمادي بيد أن ذلك الأب كان صارماً حاد الطبع مهيباً فأمره بكذا قانون وشدد عليه في ممارسة المطانيات[15] فأبق منه إباقاً ولم يرجع للاعتراف مرة أخرى.

وإن هي إلا لحظات حتى بدأ شماس أسمر سمين بصوت جهوري قوي قراءة الطرح، فقال:

---

[15] السجدات.

– ’فاجتمع الفريسيون وخاطب بعضهم بعضاً قائلين: ”ما الذي نصنعه؟ فإن هذا الرجل يصنع آيات كثيرة وعجائب كثيرة، وإن تركناه فسيؤمن به الكل فيأتي الرومانيون ويأخذون موضعنا!“. فقال أحدهم الذي هو قيافا رئيس كهنة اليهود: ”إنه يجب أن يموت رجل واحد عن الشعب دون الأمة كلها“. ومن تلك الساعة تشاوروا على يسوع مشورة رديئة ليقتلوه، فمضى يسوع إلى كورة في البرية وأقام هناك مع تلاميذه، وكان قد قرب عيد اليهود وكانوا يطلبونه لكي يقتلوه. بالحقيقة أكمل ما قاله عليهم إشعياء النبي: ”الويل للأمة المملوءة إثماً، الزرع الفاسد، الأبناء المخالفين، من أجل أن الثور عرف مذوده والحمار عرف قانيه، وإسرائيل لم يعرفني ولم يعلم أنني أنا خالقه. من أجل ذلك يخلدون هم وأبناؤهم في الجحيم، بيتهم إلى الأبد“.‘

مثل «لارا» في رواية دكتور زيفاجو فقد أحس ميشيل أن الكلام موجه له هو... هو بالذات. لكنه لم يحصل على سلام مثل لارا، بل على رعب... ’الأمة المملوءة إثماً‘... ’الزرع الفاسد‘!... ’الأبناء المخالفين‘... حقاً تلك الصفات لا تنطبق إلا عليه... عليه بالذات! ’يخلدون هم وأبناؤهم في الجحيم، بيتهم إلى الأبد‘، بالحقيقة إنه منذ الآن يعيش في الجحيم. ثم تذكر أن ليس ثمة حبكة تقص عن الإنسان التائب «بعد ضلال»، أو الإنسان الشرير المرعوب من مصيره، مثل قصته هو، وجعله ذلك يستبخث قيمة نفسه، فهو في النهاية ليس إلا مجرد عضو في حكاية... حكاية كبيرة جداً هو إليها جد ضئيل.

وانتهت الصلاة في السابعة والنصف صباحاً[١٦] فأدهشه قصرها. وخرج يتقدم طارق والأخير يدفعه بيسر بيده كأنه يقوده وسط الصفوف الخارجة، وقال له:

– ’شيرين هنا، استنى معايا.‘

---

[١٦] في بصخة الصباح من اليوم تتلى صلوات آخر ساعة من الليلة السابقة، فصلوات باكر فقط من اليوم، لذلك فكانت البصخة مدتها قصيرة.

ثم أخذه إلى ركن بين أفواج الرجال من اليمين، والسيدات القادمات من اليسار (نازلات من أعلى) بجانب لوحة – سبورة – سوداء سطرت عليها أسطر باهتة لجنازة قديمة. كان الجو جميلاً ومشرقاً، وانتظرا متطلعين إلى حشود النساء والفتيات النازلات من فوق – البارزات من فتحة السلم إلى اليمين – حتى بانت شيرين – أخت ميشيل – تحمل طفلها في لفة بيضاء موشاة بالزرقة، تجاور والدتها المسير مع سيدة أخرى وفتاة. وكانت الأم منهمكة في حديث مع السيدة الأخرى بينما الفتاة ترنو نحوهما وهما تتحادثان في اهتمام وهي تبتسم، كأنها تشاركهما الحديث بابتسامتها.

الجزء الثالث
مطاردة إيمان مختار

١. الفتنة

كان التقسيم «السياسي» لاستراحة نايلة خاتون مفهوماً بجلاء دون كلام بين الناس، غير معلن، فإن نوقش بصراحة أو لمح إليه وجد أفواهاً مفغورة دهشة مستنكرة ناكرة كأنها تقول: 'أستغفر الله العظيم! إزاي ممكن تفكر التفكير ده؟!'، وكان يقضي بأن يكون طابقان خاصين بالمسيحيين فقط. وقد حدث وكان الطابقان المشار إليهما هما آخر دورين في مبنى «أ»، المبنى الثاني إن توخينا الدقة (أو دقتنا نحن إن التزمنا الحذر). الشقة رقم «٧أ» كانت الشقة التي ضمت ميشيل جورج مع هاني طلعت في غرفة، ومينا موريس مع أيمن سليم في ثانية، فآسر عطاالله مع روماني عبيد الله في ثالثة. أما الشقة المقابلة — «٨أ» — فهي التي سكن فيها جورج باخوم مع رامي سعيد، وريمون عادل مع جورج ملقي (مدمن اللغات القديمة وكتب التراث الصفراء)، ففضل الله وهبة مع إبراهيم جاد. والشقة العليا («١٠أ»، إذ كانت المقابلة لها — «٩أ» — لا تفتأ غير مسكونة) شغلها الأسوانلية مع وسيم هلال، الذي نعتوه بـ'صليبهم الكبير الذي أجبروا على أن يحملوه'. وكان مينا موريس قد حاول أن يشارك عصام صلاح السكنى في البداية لكنه لم يجد ارتياحاً عاماً لقراره، سواءً من المسيحيين أو من المسئولين أو من الإخوان الذين سكنوا أسفله بالضبط، ففضل عصام الانسحاب وقطن في الغرفة الثانية من شقة «٦أ» مع مسلم معتدل آخر ذي ابتسامة جذابة هلالية اسمه ياسين إسماعيل، وبذلك كان دانياً من صاحبه يصعد إليه كلما يعن له. وفي أحد أيام شهر مايو صعد عصام كعادته يثب درجتين درجتين وثباً حتى انتهى إلى 'دور النصارى' الأول، فألفى شجاراً مهولاً قد قام بين مينا موريس ورامي سعيد في لحظة وصوله، وكان التوتر العام يسود وجورج باخوم بجسمانه الضخم قد سد الطريق أمام باب حجرته.

بدأت الحكاية ذات يوم أن استقبل رامي بلال (رفيق آسر الصباحي الأشعث المعتاد) والأخير يمد له يده بورقة قال أنها شكوى مقدمة ضد

موظفي الاستراحة بسبب أن كمية الوجبات التي يقدمونها إليهم مهينة لكيانه كإنسان، وكدكتور. كالعادة كان بلال أشد المتحمسين لأمر الشكوى وكان هو من جمع توقيعات بعض المسلمين من المتحمسين معه، وكالعادة انتفخ صدر رامي فوعده بجعل كل نصارى الاستراحة يوقعون عليها، وصافح كل منهما الآخر على عتبة الشقة، وكان ظهراً في ذلك الوقت. بيد أن رامي فوجئ بأن أحداً من رفاقه لم يقتنع بضرورة الشكوى، وقال له هاني (الذي ما برح يذكر — في ألم — نزوته بشكواه القديمة ضد شئون الأطباء) وكان جالساً إلى مكتبه يكتب: 'حرام عليك... ممكن الناس دي تتإذي بسبب شكوى زي كدا'، ومينا موريس قال له وهو متربع على سريره أثناء النهار: 'إنت ها تودينا في داهية ياك؟'، وجورج باخوم كاد يضربه، وآل القوصية ناب عنهم فضل الله برفعة عين لا تحتاج لتفسير وهو قاعد على حافة سرير إبراهيم، وآسر قال له: 'أنا مهما كبرت صغير، أنا مهما عليت مش فوق'، أما روماني عبيد فابتسم وقال له أن كمية الأكل تكفيه، والأسوانلية لم يحروا رداً خليقاً بالفهم. لذلك فقد امتعض رامي من بني دينه وقال عليهم: 'النصارى ها يفضلوا طول عمرهم جبناء'، لكنه لم ينزل عن مطاردتهم. وفي المطعم نفسه ذات يوم، وكان رامي جالساً إلى مائدة المسلمين اليمين بين فرج وياسين، رفع صوته بشأن الشكوى وقرع بني دينه الجالسين إلى المائدة الأخرى يمضغون لا يثنون على شيء، ثم نهض يحاول محاولة أخيرة مستحثاً إياهم لأن الشكوى على وشك أن تقدم، هكذا قال وهو يميل على ريمون عادل مستنداً براحته على ظهر كرسيه، لكنهم لم يستمعوا إليه. على أن شخصاً آخر كان قد استمع إليه، كان أحمد العامل الأصغر سناً بالاستراحة والمسئول عن رص الأطباق وتنظيفها.

واشتعلت الاستراحة.

الذي سرى أن 'النصارى' — بقيادة رامي سعيد — قد اشتكوا ضد الموظفين واتهموهم باختلاس الطعام وسرقة بعضه. وصار أي مسيحي ينزل ليتغدى يقابل بنظرات ضيقة ثابتة حين يوقع بالحضور للغداء أمام اسمه من الأستاذ فهد (وهو رجل مكتنز أسمر ذو وجه مربع ونظارات مربعة وشعر أسود به خصلة واحدة بيضاء في مقدمته)، وبخبطة مرجفة للطبق من أحمد، ثم بعيني الأستاذ هلال (الذي يشبه الفأر ببنيته الصغيرة ورفعه

وشاربه النحيل) الخبيثتين المستعلمتين ورأسه المهزوز وهو يلف له كيس وجبة العشاء كأنه يقول له: ’هاه؟... إيه الأخبار؟... تمام دلوقتي؟!... عاجبكم اللي انتو عملتوه دا؟... يا سلام يارب، خير تعمل شر تلقي!‘، حتى الأستاذ يونان — الموظف المسيحي الوحيد (رجل سمين بشعر أبيض ونظارات ’قعر كباية‘) — قد عافهم لأنهم تسببوا بمشاكل بينه وبين زملائه ولأنه من ضمن المشتكى ضدهم أيضاً، فصار يخبطهم وهو ماشٍ ومرة داس على قدم حربي — وهو شاب يزورهم من حين لآخر ومقيد اسمه بالاستراحة صورياً لكي يتسلم الأكل — على باب شقة المطعم وأكمل طريقه لا يثني على شيء. وذات يوم نزل ميشيل جورج فأخذه الأستاذ فهد جانباً في المطعم وجعل عاملاً يدعى صبري يزن له كيس الأرز أمامه وهو يقول في أنفة: ’شايف يا دكتور؟ آدي الكيس اهوه... كام وزنه شايف؟ — كام يا صبري؟ — ٢٠٠ جرام. بالمللي زي ما الطلبية واصلة لنا. عشان تقول للدكتور رامي اللي بيشكك في زمتنا! والله الواحد مش عارف عمل إيه عشان يستاهل السلوك دا من الدكتور زميلك ومنكم إنتو بالذات. دا الواحد هنا ما فيش فرق، والأستاذ يونان معانا وتمام التمام، روح ييجي الدكتور رامي روح يفصلها ما بينّا كدا؟! حرام والله العظيم!‘. وتسربت روح الشقاق من المطعم بقاع الاستراحة حتى قمتها على الناحيتين، فأضحت ثمة حساسية غريبة في التعامل بين المسيحيين والمسلمين، وأحست الشقق العلوية بالمبنى «أ» أنها قد أصبحت مكروهة، حتى الذين كتبوا الشكوى أنفسهم بقيادة بلال نسيوا أنهم هم الذين كتبوها، وجاروا الجو العام.

لهذا فقد تشاجر مينا مع رامي الذي أقعى على سريره بوجه محتقن منعزل، وأنشأ يصرخ فيه:

— ’ها تخلينا مكروهين هنا الله يحرقك!‘

فخف عصام ليطيب خاطره.

٢. المعلق

– ’خد معانا لقطة هنا يا مارك الله يخليك... هنا... تمام والزرع ورانا... يالا يا شنودة... ها ها ها، ها ابروز الصورة واحطها في عينيّ!‘

كان مارك يلبس حلة سوداء، وجزمة سوداء ملمعة جيداً بدون رباط، وقميصاً أبيض، وكرافتة مقلمة أحمر مع أسود، وبدا سعيداً جداً، وكان فخوراً بجسمه الطويل الرشيق الشبابي وبأناقته، حتى بشعره الأبيض زها، ولاح للأعين وسيماً بالفعل ببشرته الحمراء المشرقة وملابسه الغالية. كان في دير مارمينا المعلق، الموجود خارج أسيوط في الجبل الشرقي لقرية المعابدة مركز أبنوب، وكان اليوم يوافق حفلة تخرج الدفعة التالية لهم، وقد قام أعضاء أسرة البابا كيرلس للأطباء بدعوة عدد كبير من الطلبة ومن الخريجين السابقين على السواء، فلم يتقاعس مارك عن الحضور على الرغم من بروتستانتيته، خاصة وأن إيمان كانت قد أعلنت عن مجيئها، وأن عدداً من طلبة الدفعة الأصغر سناً قد شدد عليه. وحضر مئات، ودبت الحركة في الدير الواقع على شكل مغارة منحوتة في الصخر على ارتفاع ١٧٠ متراًً، وشوهدت الأجساد السادرة على الدرجات الصخرية الطويلة المنهكة من كثرتها كالنمل، وعوينت الأتوبيسات الضيقة التي لمتهم مركونة بعيداً بالأسفل كقطع الميكانو، وصعد المدعوون حتى البوفيه فركنوا لشرب الشاي والحديث والراحة: كان الفتيان يبدون في بدل سوداء وكحلية وأربطة عنق بعقد ضخمة بارزة (كما جرت الموضة)، والشابات في تاييرات مبهرجة منهن من استعصى على زملائها التعرف عليها خلف عوازل الماكياج الثقيل التي أخفت شخصيتها، كلٌ ظهر صغيراً جداً يحاول أن يبدو كبيراً جداً، وصارت زحمة عند البوفيه وعلت دوشة الأحاديث، فأهاب بهم خدام الأسرة أن يصعدوا لحضور القداس لكن قليلاً من أصغى. ثم أعلن بعد القداس أن الأنبا لوكاس – أسقف أبنوب والمسئول عن الأسر الجامعية للمغتربين في أسيوط – يروم اللقاء معهم، فرقوا إلى قاعة مجهزة في قلب الجبل كأنها مغارة على بابا حديثة وأخذوا نحو ربع ساعة حتى اجتمع أغلبهم وجلس على الكراسي الممتدة في صفوف بدءاً من ترابيزة مفروشة بمفرش قرمزي وضع عليها المايك كانت ترابيزة الأسقف. ثم أتى الأسقف

وكان رجلاً جليل المنظر تدنو قامته من المترين له وجه صلد ونظرة قوية فجلس وهو يقلب نظره في الموجودين بشكل حاد، إلا أنه عندما تحدث كانت لهجته ودية، وإن لم تفارقها القوة. وابتدأ الأنبا لوكاس بتحية الواردين وتهنئة الخريجين، ثم راح في عظة طويلة عن 'الموت الروحي' استغرقت ما تجاوز الساعة ونصف. وبعدما انتهى انهالت عليه أسئلة الحضور وكانت كلها خارج نطاق الموضوع. سأل كثيرٌ عن أمور الحب والزواج إلى آخرها وكانت ردود الأسقف طريفة بغير قصد فسرت الضحكات والهمسات، بيد أن ريمون عادل (الذي كان حاضراً بدوره بمناسبة تكريم بعض زملائه القدامي في المدينة الجامعية ودخل يستمع للأسقف على مضض) بعث إليه سؤالاً عقائدياً عن رأيه في 'الشفاعة'، فقرأه الأسقف على عجل ثم قال: 'واضح إن اللي باعت السؤال ده بروتستانتي... طبعاً إحنا بنحب إخوتنا البروتستانت، لكن ده مش موضوعنا النهاردة'، فقال ريمون هامساً لمن بجانبه: 'مش قلت لك ؟!'. ثم أخيراً حلوا عن القاعة فانطلقوا للخارج يمضغون الساندويتشات الخفيفة 'الصيامي' التي أعدها لهم الخدام (كان اليوم جمعة) على مهل متابعين الأحاديث التي قد قطعها الاجتماع بنفس الروح البشوش.

مارك ذهب للدور العلوي يتنفس وحيداً. كان وقتها ضعيفاً مكتئباً، ألقى نظرة من السور على الغيطان الخضراء أسفل الجبل فراعته دقة نظامها وقد تراصت في أشكال هندسية مدهشة متجاورة بديعة، وكانت الشمس مشرقة وقوية فلم تؤذه كأنها هذا اليوم تهادن بشرته الهزيلة، ثم وضع راحته في جيبه ومضى يستشكف باقي أنحاء الدير. رأى بعض الفتيان يركضون وراء بعضهم بعضاً وأحدهم يصرخ: 'خد لنا صورة عند الحصن يا بولا!'، ثم وقفوا عند أعلى الحصن الأثري وأخذ أحدهم صورة ثم تبادل مع واحد آخر ليحل محله والتقطت صورة ثانية. أخذت قدماه اتجاه الناحية المضادة للحصن، ووجد نفسه يمشي في رواق طويل مفتوح لا يسمع سوى صدى نعليه، وفي النهاية غطته رقعة كبيرة مشمسة كأنها بحيرة صناعية فرفع يده وظلل فوق عينيه الكليلتين في هذا الضوء فشاف عشرات الفلاحين في تلك الناحية من الدير، يجلسون في استجمام ويأكلون وبعضهم أخذ يملأ زجاجات المياه من كولدير كبير كان قابعاً بالناحية.

كانت ثمة فتاة قصيرة تعبئ جردلاً متوسط الحجم أبيض من إحدى حنفيات الكولدير. كانت فلاحة صغيرة السن — ربما على أعتاب السادسة عشر — تغطي شعرها بالكامل بحردة نسائية موزايكية يغلب عليها اللون الأصفر، وتلبس فستاناً ريفياً له نفس اللون، لكن عيناها كانتا عسليتين، ووجهها كان صغيراً دقيقاً، وأنفها صغيرٌ كحبة الزيتون، كانت آية في الجمال! ولاحظته الفتاة ينظر إليها فحولت عينيها في بادئ الأمر، ثم رددت النظر خطفاً فألفته لا يزال يرمقها في شده. كبر عندها أن 'أفندياً' بهذا المستوى يراها وتعجبه على هذا النحو، فصوبت عليه طرفها وهي تكب ما ملأته مذ قليل وتعيد ملئه. ياله من جمال!— قال مارك في نفسه. تعجب أن يجد في تلك البيئة حسناً بتلك الصورة، ودقق في محياها بشغف، وكان كلما يزيد إيجابية وحباً للدنيا التي أنتجت حسناً كذلك الحسن. ومع الوقت انجابت كل ضيقاته وتبخر الهم المدفون في صدره. كانت إيمان المتواجدة معه في نفس المكان هي سبب حزنه وازدحام فكره، كان يحبها ولا يعرف كيف يبادئها الحوار في الحب، كيف يطلب منها أن تفكر بما يفكر فيه وأن تعيش التجربة نفسها، وهل إيمان لتطيعه، وهي الفتاة التي لم تطوع من قبل ؟ وكان يختلف في فكره المفهوم عن الحب عن الواقع الذي يعيش فيه، ففي الواقع لا يمكن أبداً أن يصارحها بحبه، لكن أجلَّ ما يحتمل أن يحدث أن يتحدث القلب للقلب كما يقول الفنانون، أما في فكره فنفسه لن تشبع بأقل من التهامها حية! ورأى إيمان تمرح وتهيص مع الشبان فلم يغر منهم، لكنه ما جرؤ على الاقتراب منها وشعر أنه مملوء حكمة، وأن هذه الحكمة ستقتله. أجل، لم يك تعيساً بسبب أنه بعيد عن إيمان أو لأنه حب من طرف واحد، كان محزوناً لأن نفسه وتفكيره قد عزلاه عن إيمان، من ناحية ففكره قد هاج وصورها بصورة شهوانية غير واقعية، ومن ناحية فنفسه قد 'امتلأت حكمة' فتريثت ووزنت الأمور بعمق، علت به حقاً، لكنها قتلت الشعور بالحب نفسه إذ أنه شعور غير حكيم. الحين ينظر علناً إلى الحقيقة العارية، الجمال في أنقى صوره، بغير ماسكات ولا أصباغ ولا بدل مرتفعة الثمن أو عوينات براقة، الفتاة الريفية الطيبة جميلة ومن المحقق أنها تشعر أنها جميلة، وعندما علقت بها نظراته بادلته في لا فلسفة أو تمثيل، لأنها استجابت للطبيعة وعرفت أنه شاب وهي فتاة وأنها تعجبه

فلنر ما في ذلك الأمر... بالفعل لم يحس مارك بالدنيا جميلة بقدر ما شعر في تلك الدقائق القليلة التي وقف فيها يتأمل الفتاة. لم يشعر أن الله ضده، أو أنه إزاء ’شهوة محرمة‘، أو أنه يرتكب خطئاً من أي ناحية، لقد خلق الله الدنيا على تلك الصيغة، وهو قد تألم لأنه شذ عنها.

وبفضل الإيجابية التي اكتسبها من الفتاة، رجع وتكلم مع إيمان. كانت تقف في دور الكنيسة السفلية مع بعض الشبان والفتيات، وقدم هو فسلم على الجميع وفاكههم بنبرة رجولية خرجت من أعماق رئته، ثم طلب أن يتكلم مع إيمان على انفراد. وسألها في البداية عن حالها وأخبارها ثم أوغل مباشرة في شأن إعجابه بها وطبيعة مشاعره تجاهها. شرح بالتفصيل المقتضب – إن عن لنا القول – ولزمت هي الصمت عاقدة ذراعيها وضامة قبضتها أسفل فكها كأنها تسند رأسها المنحني في إصغاء. كانت المروج الخضراء والغيطان وراءه، وهب نسيم محمل برائحة الأرض فصفر في أذنه، وحينما انتهى شعر أنه ليس ملزماً بانتظار إجابة إيمان لأنه فعل ما عليه وكل ما سيحدث من الآن هو حق: القبول حق، والرفض حق، والاعتراض المهذب حق أيضاً. لكنه لبث برهة يستكشف ما وراء سكوتها. وإذا بها تبتسم رافعة حاجبيها في طريقة أنثوية مميزة فخفق قلبه وارتبك، وهتفت محاولة كتم أنفاسها وهو تلوح رأسها يساراً دون أن تنظر إليه فاغرة الفيه: ’كل ده!...‘. ثم أستردفت بصوت متأثر وهي تلعب بقلادة من الذهب الأبيض على شكل عجلة حنطور ترنو إليه في العينين: ’لازم كنت بتحضر تقول لي الكلام ده من شهور...‘؟، فأكد لها مطرقاً، فقالت: ’أنا بابي كان دايماً بيقول لي إني محظوظة. لكن عمري ما صدقته... دلوقتي بس ممكن أقول إني مصدقاه‘، ثم جفلت فتحركت صوب المجموعة التي كانت واقفة في وسطها وهي تهتف: ’فين الكاميرا؟ عاوزين نتصور!‘.

ولهذا قرت عين مارك وغشيته سعادة فائقة، والتقطت عديد من الصور له مع إيمان. كانت سعيدة هي الأخرى، وظهر ذلك عليها وهي تتحرك وتميل من هنا لهنا في أوضاع طريفة لأجل الصور، واكتفى منها كأنها أصبحت ملكه أخيراً فعن له أن يندمج في ’اللقاء‘ (تمييزاً له عن ’اليوم الروحي‘ الذي هو شيء آخر) مع الشبان الأصغر سناً الذين اهتموا به ودعوه مدققين. واختلط بشنودة عادل وريمون فتحي وكيرلس سمير (من الدفعات

الأصغر سناً) وريمون عادل فالتقطت لهم الكثير من الصور أيضاً، وبدا ملحوظاً أنه منتشٍ، ووقفوا أمام أصيص عريض منحوت في الحائط بامتداده كله زرعت فيه بعض الزهور والنباتات القصيرة ذات الأوراق الكبيرة فالتقطت صورة هائلة وكيرلس يهتف:

– 'خد معانا لقطة هنا يا مارك الله يخليك... هنا... تمام والزرع ورانا... يالا يا شنودة... ها ها... ها ابروز الصورة واحطها في عينيّ!'

ثم عادوا أدراجهم للقاعة حيث سيقدم «اسكتش» عن شفوي المسيحيين داخل الكلية، وحيث سيتم تكريم الخريجين في النهاية وسط تصفيق.

وفي يوم الخميس التالي، وفي كنيسة سانت تيريز الكاثوليكية بعلي مكارم، في المساء، علقت كل الصور التي التقطتها كاميرات الأسرة على الحيطان مرقمة. كان بدروماً موحشاً خانق التهوية ساطع الإنارة، وتقاطر الشبان والشابات بعد أن ذوت أطيافهم فكأنهم أناس آخرون، واستعرضوا الصور على الحيطان وقليل منهم ابتسم واستظرف عدة مناظر. كانوا مجهدين والتعب بادياً على وجوههم الدهنية اللامعة تحت اللمبات الجائرة، وداروا بغير نظام في عكس عقارب الساعة من جدار إلى جدار وهم يخطون النمر المرغوبة. وكان مارك حاضراً، الوحيد الذي لم يلمع وجهه، صفاء تام، وكان وحيداً في ذلك اليوم. أخذ يمر على الصور تباعاً وهو يكتب في «بلوك نوت» الأرقام التي يريدها، بالطبع كان لإيمان النصيب الأكبر، الصور التي التقطت له معها، وراح يقفز من لوحة صور لأخرى حتى انتهي فخرج من البدروم. وارتقي درجات خفيفة إلى أرض الكنيسة (الحوش) حيث قبع أعضاء الأسرة إلى ترابيزة طويلة في ضوء خافت أحدهم يأخذ رغباتهم ويعلم عليها بالاسم، ويحاسب: على الصورة «السنجل» جنيهاً وللصور الأخرى سبعين قرشاً. وكانت كنيسة رائعة بها نافورة خلابة وكثير من الزروع والأشجار المشذبة النظيفة ومكتبة صغيرة منزوية في ركن كأنها تستقي من الفضول، وجاء دوره فحاسب بما يفوق الثلاثين جنيهاً لكنه سعد لأنها أول مرة يفرط في حجز الصور بهذه الصورة. ثم خرج وحيداً يمرجح ذراعيه.

لم يلحظ إلا عندما أتته الصور وراجعها كذا مرة بعدها بأيام أن جل صوره مع إيمان تخللها أعضاء شلتها القديمة الذين ظن أنها قطعت عنهم: قطيع الصبيان الأبدي إياه، وبعض الفتيات من ضمنهن نسرين طلعت التي رافقتها في واقعة «الفيروز».

٣. الأمل

I. كانت حجرة هاني طلعت مع ميشيل جورج (الأولى في شقة «٧أ») تطل من بلكونتها إلى خلفية السكن، حيث شارع ضيق محاصر ببلكونات العمارات البارزة المتقابلة، وحيث يمكن البص إلى اليمين على مبنى سكني قديم متهدم يعد من الأعاجيب أن أحداً ما برح يسكن فيه للحين. لم يجنح هاني كثيراً للبص والطل، لكن ميشيل كان كثير الغشيان على البلكونة يدخن فيها سيجارة أو اثنتين، يزفر بعيداً ناحية المبنى الخائر حيث لمح بعض مرات فتاة أعجبته في الدور الأرضي لكن لها فتاها الذي يحدثها خلسة في عز الظهيرة أو جنان الليل من البلكونة والناس غافلون. حفظ ميشيل أيضاً تفاصيل ودقائق الحياة في الشارع الضيق الذي يقابله مباشرة. بلكونة شقة ما زالت حديثة يدهنها الطلاؤون ويرفعون صوت الكاسيت، عيال صغار يلعبون الكرة في الشارع وخلفية السكن منطقة أهداف، كالعادة صبي يراقب فتاة هي تتظاهر بالجهل، خناقات أم مع ابنتها، شقة أفراح دائمة وما بين يوم والآخر زينة ورقص وكاسيت وكازوزة، محام صارم ينطلق بعد رحيله الأبناء، شاب اشتري سيارة «شاهين» مستعملة ولبسه القلق في شأن زينتها، سيدة في سن أمه على درجة من الجمال تخرج لتنظف البلكونة وتقتطف الثوم من ربطته بالمسمار ولا تستحي منهم، عائلة أخرى لا تخرج نساؤها إلا منقبات. وكان ميشيل يعشق البلكونة ويحب التدخين فيها لكنه يحاذر أشد الحذر آن التحدث فيها أو عند إتيان أي حركة، لأن الإخوان كانوا تحته تماماً ولم يك يبغي مشاكل معهم. من ضمن الحوادث التي دفعته لذلك الحذر (أو الحرص على نحو أدق) أنه يوماً تجادل مع أيمن سليم وهما واقفان يطلان من البلكونة عن اليهود وإسرائيل. كانت آراء أيمن سليم إلى نحو ما راديكالية، بناءً على كرهه الشديد للعرب، وكان جاداً لا يعرف كيف يدالس أو يدس، فلفظ علناً بضع تقريظات في اليهود وفي دولتهم، بل بالغ في الأمر فأسهب في دعواه أن كل الاختراعات يهودية، وأن كل الملابس صناعة يهودية (مشيراً إلى التيشيرت الذي يرتديه ميشيل)، وأن كل الطعام الذي يلج أفواههم يهودي، وأن لا مفر أن الأسمنت الذي بنيت به الاستراحة يهودي هو الآخر لأن الاستراحة لم

تسقط حتى الآن! فحينها ضحك ميشيل وقال وهو يدخن: 'إنت أول إرهابي مسيحي أشوفه'، فاعترض أيمن وقال مقطباً: لماذا؟ ألم نعمل معها معاهدة سلام؟! فقال ميشيل باسماً متملياً الحديث: 'آه. لكن دا كان سلام من نوع: "صباح الخير يا جاري، إنت في حالك وانا في حالي"، مش صحوبية'، ثم صافحه، وبعدها مال على البلكونة ومسك حبال الغسيل المشدودة، ليجد الشيخ عبد المتين فرجاني يطل من البلكونة بالأسفل!

وكان صباحاً، والشرفة مفتوحة يقف داخلها ميشيل يدخن سيجارة كديدنه، وقد غاب هاني فقعد على كرسيه الذي توسط الغرفة إزاء الورق على المنضدة، وكان قدري — الكلب — يرتع من هنا لهناك فوق سرير هاني. لقد كبر الكلب شيئاً فصارت بإمكانه الحركة، وكانوا يتناوبون عليه لكن من فاز بالنصيب الأعظم مينا موريس، الذي أحب الكلب والكلب مال له فكأنه هو صاحبه وليس آسر. وكان كلهم قد خرج هذا الصباح فخلي الكلب عند هاني وميشيل إذ أنهما الوحيدان اللذان أعلنا بقاءهما، وكان هاني يراجع آخر أجزاء سيناريوه الذي أنهاه.

كانت قصة السيناريو (التي أخفاها عن الجميع، وبعد حب الاستطلاع العارم الذي أصاب الناس في البداية لكن مع الوقت لم يعبأ أحد بها) في الحقيقة تتناول شاباً اسمه أحمد فوزي يحب قراءة الكتب ويصبر نفسه بالمدينة المثالية غير الموجودة، فعزل داخل جدث من الكتب والمجلدات ونسي الدنيا والدنيا نسيته، إلى أن جد حادث أخرجه للدنيا والشوارع المزدحمة مرة أخرى بعد طول غياب: أن ماتت والدته التي كانت تتولى أمر تحصيل إيراد أرض والده المتوفي في القليوبية فألفى نفسه مجبراً على الخروج بنفسه للسعي خلف معيشته ومتابعة إرثه. ثم تتوالى الأحداث فيمضي لإحدى قرى القليوبية حيث عاش والده ومات وهو بعد صغير، ويتعرف على أهله الذين يريدون خداعه، ثم يحب فتاة، ويطارد، ويتعلم من الحياة الحقة، وفي النهاية ينتصر ويتزوج الفتاة ويجد مدينته الفاضلة التي كان يحلم بها في الأرض المترعة بالشقاء والشر. قصة تقليدية جداً لكنها من اللائي يصلحن للأفلام العربية، وكان هاني غارقاً حتى أذنيه في حقبة الثمانينيات فوجد ما كتبه يوازي أفلام تلك الحقبة.

كان يفكر في كيفية تقديم سيناريوه للكاتب الذي التقاه في مكتب عميد معهد السينما قبل شهور، مصطفى حامد. هل يخلق به أن يقدمه مخطوطاً بالقلم الجاف بخط اليد، أم عليه أن يختزله على آلة كاتبة أو كمبيوتر؟ فكر أنه من الناحية العملية فلا فارق بين الاثنين إن كان العمل جيداً، لكنه أدرك أن للطباعة جاذبيتها ورونقها، فكيف يتقدم نحو كاتب سيناريو كبير بورق فلوسكاب مثنى ومكسر ومنبعج في مواضع من أثر طبعة يده عليه وهي مبتلة بالعرق؟ ثم تذكر أنه قد أعطاه «بريده الإلكتروني»، أي ليس بريده الشخصي أو عنوان سكنه حتى يرسل إليه بالورق عن طريق البوستة، وبهذا فهو قد دله على الأسلوب الذي يتعين عليه أن يتبعه معه في المراسلة. لا يعرف هاني النت وليست لديه فكرة عن استخدام البريد الإلكتروني، بالفعل يستخدم كمبيوتر خاله وهو في الأقصر لكنه كمبيوتر بلا نت، ولم يرغب في الإثقال على والده أمين المعمل البسيط برغبته في شراء حاسب آلي وثمنه يفوق ألف جنيه على أقل تقدير، كما لم ينجذب بصفة كبيرة ناحية التكنولوجيا بصفة عامة، فلم يعط للموضوع شأناً كبيراً. لكنه الآن نادم على ذلك. بيد أنه راجع نفسه فوجد أنه حتى لو كان لديه كمبيوتر في الأقصر، فأمر كتابة ستمئة ورقة على «الوورد» أمر مجهد وواقعياً بعيد عن التنفيذ. كيف يتصرف إذن؟

ثم استطرد تفكيره في تمثيل مشهد لقائه بالكاتب الكبير بعد أن يقرأ السيناريو ويعجبه، سيذهب إليه في مكتبه وسيقول له الكاتب: 'يا بني أنا عشان أقول لك الحق ما كنتش ها اقرا السيناريو، لكن شعور داخلي قال لي اقراه، شوف فيه إيه... وإشي بيّ أضرب كفاً بكف!... إنت كنت فين يا بني؟... في الأقصر؟!... أقصر مين اللي انت مدفون فيها دي؟ إنت هاتفضل معانا هنا — باقول لك هتفضل معانا'، فيرتبك هو ويأخذ في تقشير أظافره ويقول: 'لكن أنا ورايا سنة تدريب في المستشفى يا أستاذ مصطفى... حرام سبع سنين يضيعوا مني!' لكن الكاتب سيقول له: 'بص يا هاني أنا عاوز أقول لك حاجة... أنه اللي حرام: يضيع منك سبع سنين، ولا يضيع منك عمرك كله؟ فكر انت بس وابقى رد عليّ بالراحة'، فيتمعن هاني ويفكر جيداً، ثم لا يلبث أن يرد على الكاتب مبتسماً: 'أنا قررت أفضل

معاكم هنا'، فيضربه الكاتب كفاً وهو يضحك ويقول: 'ها تفضل ولا «ها تقعد» [باللهجة الصعيدية] معانا؟ إنت مش صعيدي يا لا؟ ها ها ها'...

لكن لن تخلو من مصاعب أيضاً، هكذا تابع تفكيره. سيقابل أسماءً كبيرة، وممثلين ذوي شأن، وشخصيات عامة، ولن يعجبهم منظره بادئ ذي بدء لأنه غير جميل الشكل ولأن ملابسه ريفية مضحكة، لكنه سيتبدل —بالتدريج لئلا يسخرون منه —وسيصبح «شيك» بدرجة مناسبة له ولمهنته... ستستضيفه البرامج مثل برنامج وسط البلد وسيتكلم بصوته الغليظ البطيء فيستمع إليه الناس ويتهامسون: 'عصبي خالص على كده بيقولوا في الشغل!'، وقلما سيؤلف سيناريو مستقبلاً لأن أمله في الإخراج، وستثير أفلامه ضجة، سيأتي رجل مكتنز بنظارات ذات يوم وسيصرخ في التلفزيون في برنامج مثل «حالة حوار»: 'فيلم هاني طلعت الأخير تمثيل سيء للمجتمع المصري!'، وستحجز أفلامه الرقابة، ثم ستتساهل الرقابة، وتغدو أفلامه 'علامات' في تاريخ السينما المصرية، ومن يعلم؟ فلعله يصل للعالمية مثل يوسف شاهين... المسيحي أيضاً!

كل هذه الخواطر دارت في رأسه وهو جالس أمام الورق في منتصف الغرفة يتطلع بعينين شاردتين باسمتين في اتجاه ميشيل جورج. وما عتم الأخير أن لمح ابتسامته فقال له وهو يرمي عقب السيجارة على الأرض ويدوسه بشبشبه:

— 'مالك بتضحك ليه؟ إتجنيت؟'

فرد ولما تفارقه الابتسامة:

— 'لا، أصلي افتكرت حاجة تضحك.'

ثم استطرد وهو يتذكر شأن الاختزال:

— 'باقول لك إيه؟ هو كتابة الورقة على الكمبيوتر تكلف كدا في حدود كام؟'

— 'جنيه.'

فقال مدهوشاً ومروعاً:

— 'جنيه؟! ليه، مش كانت بخمسين قرش؟!'

— 'بخمسين قرش الطباعة بس. لكن ما فيش حد ها يقعد يكتب لك في ورقة كاملة عشان خمسين قرش.'

ثم استردف وهو ينظر لتل الورق المتراص على المكتب:

– 'وبعدين الورقة بتاعة الكمبيوتر مش زي الورقة بتاعتك دي، هو بيحدد الحجم والفونت اللي بيحاسب عليه غالباً. يعني ممكن تلاقي الورقة الفلوسكاب باتنين.'

ثم صمت وهو يقف عن كثب منه بجسمه الهائل وكرشه وساقيه المشعرتين من خلال شورت جد قصير بالنسبة له، ثم سأله:

– 'عشان اللي انت كاتبه ده؟'

هز هاني رأسه في إحباط.

– 'أنا ممكن أكلم لك واحد صاحبي عنده scanner يحطهم لك Pdf.'

هز هاني رأسه في استعلام، فقال ميشيل وهو يجلس على سريره ماسكاً الكلب (الذي زام في اعتراض وأخذ يعوم بأقدامه في الهواء كالغريق):

– 'ملفات زي الوورد كده لكن ما يتعدلش فيها. زي الصور. لكن ها يظهر فيها الكلام زي ما انت كاتبه كده بالظبط. اتأكد الأول إن خطك كويس وما فيش شخبطة ولا شيء... طيب، تمام. خطك كويس، ممكن أحطهم لك «Pdf» لو انت عاوز.'

كانت فرصة ذهبية لهاني، فقبل على الفور.

II. وكان بعد منتصف ليلٍ في يونيو (بعد مضي أسابيع)، وقد غشى بنك الدم بالمستشفى الجامعي ضوء معتدل أبيض لكنه – ربما بسبب السهر – بدا مشرباً بظلمة. قد لا تهدأ الحركة في بنك الدم سوى في تلك الآونة، مع ذلك كان الأطباء والفنيين في القسم بالداخل مكبين على دراسة العينات، وتحليلها، وتوافقها مع بعضها البعض، وتدوين كل ذلك في الدفاتر. كان لطلبة الامتياز (أو أطباء التدريب) نصيب وافر من العمل أيضاً، فعلى عاتقهم وقع عبء تحديد الفصائل في غرفة التبرع (وإن وجب عليهم استشارة النائب أو النائبة من خلال طاقة صغيرة مربعة كثيراً ما كانت الشرائح الزجاجية التي تحمل نتائج اختبار الفصائل ترتطم بحافتها

فتسقط محطمة)، وملء أكياس التبرع بالدم من المتبرعين، وتدوين بيانات المتبرع والمستفيد في الدفتر ورقم كيس الدم الخارج بالكامل من خلال رقم الخرطوم، ثم إعطاء المتبرع علبة من العصير وبضعة شرائط حديد حتى تساعد جسمه على تعويض ما فقد، وإن أغشي على متبرع أو هبط ضغط دمه كان عليهم أن يحملوه مجدداً إلى السرير، ورفع ساقيه ثم معاينته حتى يفيق. بعض الطلبة الآخرين يتم اختيارهم للعمل داخل القسم، حيث يساعدون النواب في التدوين أساساً. في تلك الليلة كان الهدوء سيداً إلا من طالب امتياز يلبس بدلة العمليات الزرقاء يجادل مع آخر داخل القسم في بالطو أبيض والغريب أن كل منهما يظن في الآخر عكس ما يبدو: فبدلة العمليات يلبسها أساساً النواب مع ذلك فالطبيب الذي يرتدي البالطو فحسب قد أدرك أن زميله ليس إلا طالب امتياز، وصاحب البدلة الزرقاء يتحادث مع زميله في لجاجة ظناً منه أنه هو النائب. وكان لابس البالطو شاباً طويلاً وسيماً أبيض البشرة يدعى محمود أحمد علي من الأوائل على الدفعة، ففطن إلى سوء الفهم الذي وقع فارتسمت على محياه ابتسامة وهو يكلم زميله مريثه، بينم الآخر أخذها على أنها استهزاء من «النائب»، فزاد في لجاجته واحمر وجهه وارتفع صوته:

— 'يا دكتور معلهش! أنا مش ها اقدر أرجع الإصابات تاني من غير ما يكون معايا كيس دم!'

— 'لكن ده يا دكتور شغل ممرضات. هو ما فيش ممرضات في الإصابات ولا إيه علشان يبعتوك إنت؟... بقول لك إيه؟ روح قول لهم: "أنا مش بتاع «ريكويستات»[١٧]"، خل ممرضة تيجي مكانك. أساساً مش ها ينفع تاخده من غير ورقة بيديدها لك النائب، هي ها تعرف شغلها كويس غيرك انت، الشغل ده مش ليك'.

وكانت مجموعة «٣» في ذلك الوقت هي من يتدرب أعضاؤها ببنك الدم (قسمي الطوارئ والتخدير عامة)، وببنك الدم في ذلك الحين كان يتدرب بلامون ظريف وروماني صابر وبيتر لطفي، ثم فتاة تدعى كريستين سمير ومحمود أحمد علي، أما جرجس ثروت (صديق آسر) فكان مقيماً

---

[١٧] Requests: أي طلبات.

ببنك الدم في ذينك الشهرين، لأنه كان من أفراد مجموعة «٢» التي وقعت خاصتها في ذاك الوقت، وقد كانت خاصته هي «الباثولوجيا الإكلينيكية»: أي بنك الدم عينه ولا شيء سواه، لذلك كان يندب حظه على الدوام ويقول: 'أنا خدت لي شهرين جيش زيادة'، لكنه تملى قعدته بعدئذ في القسم وصار يتغنى بها، لأنه غدا مرافقاً لنائبة حسناء تدعى 'شذى'، التي رآها آسر فقال عنها: 'شذى الوزة المزة'. وقد قسمت النوبتجيات صباحاً ومساءً، وبنوبتجية المساء ذلك اليوم افترض أن يحضر: روماني صابر، وبيتر لطفي، فكريستين، ومحمود، بيد أن بيتر لطفي تغيب عن الحضور وانتدب هاني طلعت ليحل مكانه.

ومكث هاني مع الفتاة في حجرة التبرع، بينما كان الآخرون في القسم بالداخل. لم يك يعرف الفتاة، وانتابه الخجل إذ أنه لا يعرف كيف يكلم الفتيات، وكانت على قدر من جمال بعينين خضراوين وشعر فاتح فحدس أنها يمكن أن تحرجه. لكن نظرة واحدة منها كانت تكفي لتقويض كل تلك الأوهام، فقد كانت عيناها — خلف نظاراتها البيضاوية — ميتتين تماماً، كالسمك. وتحدث معها فإذا لهجتها صعيدية قح لا تناسب الأنثى، وكانت تركب تقويماً، واستطرفها كحالة نادرة للبنت في مفهومه الضيق المعظم لكل شيء فأنشأ يتقرب إليها ويحاول أن يمد الحديث لكن هيهات... خمود تام لمشاعر الأنثى طراً. في النهاية سئم، وارتقب ساعات طويلة حتى مقتبل الصباح إلى أن تنتهي النوبتجية، وجلس جانبها على الكرسي وهي من حين لآخر تنتفض كمن أفاق من غيبوبة فتسأله سؤالاً على غرار: 'ما تعرفش إذا كان في قداس الساعة ٦ في كنيسة المطرانية بكره ولا لأ؟'، 'مين بيصلي عندكم مكان الأنبا أمونيوس؟'[١٨]، 'فين السكن بتاعكم؟ مش فوق العيادات برضه؟'، فيجيبها إن كان يعلم الجواب آملاً تحريك العنصر الإنساني داخلها، لكنها كانت تأخذ الإجابة وتصمت كالحيوان الذي يلتقط الطعام ثم يسكن. وفي تلك الساعات الطويلة جداً، أوتي أن يفكر في عديد من الأمور — قد لا يقطع تفكيره سوى أسئلتها

---

[١٨] الأنبا أمونيوس هو أسقف الأقصر المشلوح، وفي هذا الزمن لم يكن للأقصر أسقف.

المستيقظة أو متبرع طارئ في الليل أو أحد زملائه في الحجرة الملاصقة يتردد عليه ليدردش دقائق ثم يمشي — لاسيما أمر سيناريوه الذي لا يعلم إلى أي حال وصل.

كان ميشيل قد خدمه بالفعل فوضع السيناريو في صيغة ملف «Pdf»، وحمله في 'فلاشة' تابعة له، ثم كانت مشكلة كيفية إرسال الملف للكاتب عن طريق البريد الإلكتروني، بيد أن ميشيل تكفل بذلك أيضاً وساعده وعلمه — بطول بال يحسب له — كيف يستعمل الإنترنت في حدود احتياجاته، وكيف يقرأ الـ'إيميل'. لكن الأيام تمر والأستاذ لم يرسل له رداً حتى الآن. هل بلغه 'الجواب' حقاً يا ترى؟ أو، هل نسيه؟— لكنه جعل ميشيل يكتب له مقدمة طويلة تتناول تذكيراً بمقابلتهما، لا يمكن أن ينسى... أيمكن؟! ثم بدأ يرتاب في فاعلية «إرسال الخطابات» عن طريق شبكة الإنترنت، من يؤكد له أن 'الجواب' وصل؟ ربما عطلته إشارة هنا أو هناك لا يمكن الثقة في هذه الأشياء الحديثة أبداً، فكلها أعطال وتسير في مسيرات غامضة ولا يعلم إلا مخترعوها خفاياها... ثم من يؤكد له أن «الشبكة» لم ترسل الإيميل إلى عنوان خاطئ؟! آه، تكون مصيبة لو حدث، يأخذ أحدهم كده وعرقه ويكتب عليه اسمه وكفى! أو، هل من المعقول أن الأستاذ الكبير مصطفى حامد قد «طمع» في سيناريوه فأخذه لنفسه؟! لا لا لا، لا يمكن هذا أبداً، لقد قابل الرجل بنفسه، ثم أنه غير محتاج ولن ينظر إلى عمل إنسان بسيط على أعتاب الطموح مثله. لكن ما العمل؟ وكيف يصل لإجابة؟ لابد أن يمضي لمقابلته يتحقق من بلوغ الرسالة بنفسه. هل حقاً هذا ما يجب؟ نعم. لكن الله مدين له بالكشف عن موهبته، ربما هو يمسك بيده السيناريو مطبوعاً الآن ويفسح له طريقاً، ربما هو يمتحن صبره، ربما الأستاذ مصطفي سيهاتفه غداً (كان قد ترك في السيناريو رقم هاتفه الجوال)، أم ربما بعد غدٍ، عليه فقط أن يطمئن أن كل موهبة سينقشع عنها السجف يوماً وستعاين النور. وتذكر — على قدر معلوماته التي تزيد عن ضحالة قراءته — ستيفن كنج الذي كان مجرد مدرس في «ماين»، وتذكر ما قيل عن أينشتاين أنه كان كثير النسيان وفاشلاً في دراسته الأولية، وتذكر عباس محمود العقاد الذي لم يكمل تعليمه، ونجيب محفوظ الذي لم يكن يسمع به أحد، وعادل إمام وأنور وجدي

اللذين كانا محض «كومبارس»، كلهم تمكن من شق طريقه للنجاح، الله يمد يده ليساعد كل ذي موهبة، هذا واضح!

وبترت بوادر الفجر الظلمة فانبرى يطالعها من خلف الزجاج في إعجاب. ثم ازدحم بنك الدم تدريجياً فلما بلغت نهاية النوبتجية كان المكان يغص بالمتبرعين والأهالي والممرضات وكل ذي شأن. غادر مع روماني صابر —وكانا منهكين — يرتفقان سواعد بعضهما بعضاً في تناوب. كان روماني أسيوطياً لكنه شديد الكرم على عكس ما أشيع عن آل مدينته، شاباً قصيراً مستدير الوجه حلو المعشر قد فقد — كمثل مارك سعد — نصف وزنه العام الماضي وبات يؤنب على ذلك لأن سمته في السمنة كان جد طريف ومستحب، وسارا مشياً من الباب الخارجي للقصر حتى طرف شارع المكتبات في شارع الجامعة وهما يتمازحان ويتلاهيان، ثم تركه روماني على مطلع الشارع واستكمل مسيرته حتى يسري راغب. ودلف هاني في شارع المكتبات المستيقظ فشاف أبواب مكتباته ودكاكينه تتثاءب متأهبة للعمل. من مكتبة الشروق اعتادوا أن يبتاعوا كتب الطب على مر السنوات الست الماضية، وفي مكتبة الصحابة حصلوا على نسخ مصورة، وكانت بعض الكتب المستعملة أيضاً تباع بأكشاك صغيرة على الطوار. لكن وضح من البداية أنها منطقة جماعات إسلامية وطلاب أزهر، تجد لاسيما في أبراج الزراعيين بآخر الشارع مساكنهم، تجد شباباً صغاراً دون العشرين يطلقون لحاهم النابتة ويقصرون بناطيلهم، وفتيات بأعداد عسيرة الإحصاء قد اختفين خلف الأزياء الإسلامية المتنوعة التي لا يعرف أسماء بعضها، يتمركزون ويتناقشون في الشارع في أمور دينية، ويخرجون للصلاة بالمئات، وتشاهدهم من حين لآخر سائرين حاملين مراجعهم. لا يعرف هو كثيراً عن الإسلام، ليس كمثل آسر عطالله مثلاً الذي يدهشك بحفظه لسور كاملة من القرآن وأحاديث نبوية كحبات الرمل، ميشيل جورج أيضاً لديه خلفية لا بأس بها، لا يعلم — وفي الحقيقة لا يهتم — ماذا يحوي الإسلام غير الصلاة وصوم رمضان والحج. بالفعل هنالك بضع آيات لاصقة بذاكرته من أيام الدراسة لكنه يجد المسلمين يتناقشون في أشياء أكثر من تلك الآيات. استنبط عن غير قصد أن الدين الإسلامي واسع غير صغير، وأن

لدى المسلمين ’فقهاء‘ مثلما لدى المسيحيين ’آباء‘ ولاهوتيين، وفكر أن الموضوع كان يحتاج دراسة وتعمق من البداية وهذا لم يبهجه، لأنه كان قد بطن في نفسه أن يمثل المسلمين الذين يعيش بينهم في أفلامه وهو على ما جلا قد ألا في فهم تفكيرهم الديني وفلسفتهم.

ووصل إلى قرب مدخل نايلة خاتون حيث بدأ كشك بقالة نشاطه فعزم على إكمال الطريق نحو محل نت يقع في قاع أبراج الزراعيين اختلف عليه في الأيام الماضية لكشف بريده الإلكتروني. كان صاحب المحل رجلاً في أواسط العمر بشارب أشمط بسيطاً لا يعرف كثيراً عن النت والشبكات، يعطيه بطاقته الشخصية ما أن يدخل فيسجل اسمه ثم يرجعها له مع ابتسامة حرجة ويقول: ’ماعلهش يا دكتور، تنبيهات الحكومة والله‘، فيهز هاني رأسه ويبتسم بمعنى أنه تفهم ثم يدخل ليجلس إلى أي جهاز فارغ، ولا يمكث أكثر من ربع ساعة ثم يقوم فيقول لصاحب المحل مستحياً بدوره: ’معلهش، أصلي كنت مستني حاجة وما وصلتش...‘، وينقده خمسين قرشاً في كل مرة وعلى هذا اعتاد الرجل وتقبل الوضع. في هذا الصباح خشي هاني قبل أن يصل ألا يكون صاحب المحل قد فتح أبوابه بعد، وقد صدق حدسه فقد ألفى المحل مغلقاً، استكمل المسير على خط الرصيف وهو يسأل عن محلات نت أخرى قريبة، فقال له أحد عاملي محل عصير أن عديداً من محلات النت ها هنا، أقربها على بعد خطوات من محل العصير نفسه هناك داخل شارع فرعي، فمضى إلى هناك وبالفعل وجد محلاً أكثر حداثة له واجهة براقة وباب زجاجي يرتد لمكانه. دلف إلى المكان متسمتاً الهواء الجديد فلاقاه حيز ضيق مكدس بأجهزة الكمبيوتر إنما في نظام استغل كل شبر، وكان الضوء أزرق خافتاً فبدت لمبات ماوسات الليزر الحمراء، ولمبات الـ«CPU» الصفراء والحمراء المترددة، وحتى أضواء بعض سماعات الرأس الشفافة، كأنها أجرام سماوية تبرق في فلك مظلم عميق. وطلب جهازاً فسلم بطاقته كالمعتاد لشاب نحيل لكنه جلس هنا مبادراً. بعد لحظات تمكن من فتح بريده الإلكتروني ولروعه فقد وجد رسالة موقعة باسم الأستاذ مصطفى حامد! تتابعت دقات قلبه وارتعشت أصابعه فوق الفأرة التي لم يحسن استخدامها بعد، حتى أنه

عاني صعوبة في الضغط على الرسالة لفتحها وقراءة محتواها، فقرأ سطوراً مكتوبة بخط عريض كبير أزرق وهذا بالضبط نصها:

'بسم الله الرحمن الرحيم..
'العزيز هاني..
'لقد وصلتني رسالتك..
'سأقرأ السيناريو بإذن الله في أقرب وقت..
'على فكرة، كان من الممكن أن تبعث الملف في صورة وورد.. ضغط ملفات الوورد بالوينرار على فكرة بيكون هايل..
'شكراً على مجاملاتك الرقيقة التي في الحقيقة لا أستحق أغلبها..
'أرجو لك التوفيق..

'مصطفي حامد
'القاهرة'

كانت رسالة قصيرة، ومقتضبة، لكنها جعلت الشاب الأصلع النحيل يخلع سماعات رأسه وتدمع عيناه وهو يشهد في تأثر:

– 'مبارك الآتي باسم الرب!... مبارك الآتي باسم الرب!'

الصبيان، القليلون في محل النت ذلك النهار، جعلوا يرمقونه بتوجس.

٤. شطط إيمان مختار

كان مارك يتدرب في قسم الباطنة في تلك الفترة، لكنه إما بسبب ولعه بالجراحة أو مزاملته لزميل أكبر سناً يدعى بيتر أيوب (قد صار نائباً بقسم الجراحة العامة)، فإنه واكظ على التردد على قسم الجراحة. وكانت عملية في ذات ظهيرة بقسم جراحة «ج» بالدور الثاني (علوي) من مبنى القصر الرئيسي، وسجيت على السرير شابة شاحبة مبلولة الشعر قشع الرداء عن بطنها وأطر بالفوط الخضراء التي تماسكت بماسكات فوط منحنية لها نابان مخيفان كمنقار صقر، ودهنت منطقة العمل كلها — وما حولها — بالبيتادين المطهر عن طريق قطعة قطن ملفوفة بالشاش في ماسك طويل تغمس غمساً في صحن البيتادين كأنها كسرة خبز تغمس في الحساء، ووقف الجميع حول المريضة الساكنة: الطبيب الأساسي الذي سيقوم بالعملية إلى يمينها في لباسه الأخضر المعقم وقفازيه البيضاوين الطويلين وغطاء رأسه وكمامة فمه وأنفه التي شبثت إلى وجهه برباطين أحدهما عقد عند مؤخرة رأسه عابراً من أعلى أذنيه والثاني ممتداً من تحت ذقنه حتى قمة رأسه حيثما ربط على هيئة «فراشة»، فبان شكله مضحكاً كأن العقدة يد زنبلك تلفها ليعمل الطبيب والذي كان ساكناً وساكتاً عاقداً كفيه الصغيرتين أمام بطنه مما يشجع على إتيان وتثبيت تلك الصورة، فمساعده في نفس الملبس وإن كان أشد بياضاً منه يقف مقابلاً له على الجهة اليسرى، فمارك عند قدميها يضع كمامة وغطاء رأس أيضاً لكنه في بدلة عمليات خضراء نصف كم لم يجد غيرها بالمكان فاستهجن منظر نفسه لأن العمال كانوا يلبسون عين اللون، وكان يحاول أن ينأى عنها قدر المستطاع لأنه لم يك قد تعقم أو اغتسل، بجانبه الممرضة تلبس نفس رداء العمليات المعقم الأخضر وتضع كمامة وعلى الرغم من أنها محجبة إلا أنها أضافت غطاء الرأس كي تحازي الجميع، ثم طبيب التخدير الذي جلس على كرسي منخفض لدن رأسها وطفق يتابع من مكانه مؤشراتها الحيوية على شاشة متصلة صغيرة أعلاه، وهو يقرأ في كتاب. كان ثمة سرير عمليات آخر بالغرفة لكنه كان خالياً، وعاملٌ ينظف الأرضية من بعض المخلفات الطفيفة إنما بحذر مشدد مغلفاً يديه بقفازين سميكين في لون البرتقال،

وقد أنير أحد كشافات العمليات المتصلة بالسقف فصب نوره الأصفر الفظ على بطن الفتاة كأنه نار مشتعلة لا تحس بها بفعل حقنة الحبل الشوكي التي ضخها في ظهرها طبيب التخدير، والذي تلاقت عيناه مع عيني الجراح فأعطى له الإشارة بمعنى: «ابدأ». قال الجراح: 'توكلنا على الله'، ثم استهل شق بطن الفتاة.

كان الجراح الأساسي نائباً «سنيور» — أي نائباً كبيراً ومتقدماً في فترة نيابته — داكن البشرة، طويل الشعر ناعمه (مما لاح من أسفل الكمامة)، طويل القامة، لكنه أوتي ذراعين غريبتين في منتهى القصر إذا قورنتا بمجمل بدنه — بيد أنهما كانتا حسنتي التدريب ماهرتين مما وضح — وكان يدعى «علام عوض». لا يذكره مارك بالخير أبداً لأنه كان قد 'شد' معهم غير مرة في أثناء أخذ الحالات على أيام الدراسة[١٩]، ولما يكن يرضى أن يساعدهم البتة، كان يعامل كل من هم أدنى منه على أنهم مجموعة من الأوغاد الضؤلاء، لكنه — مارك — كان الحين معجباً بمهارته ويتابعه بشغف وهو يقص الغشاء البريتوني ويستخرج المصران الأعور بالزائدة في عناية ممرساً عينيه على الطريقة ومميزه من باقي الجراحين الذي حضر معهم عمليات زائدة دودية قبل ذلك. وكان الجراح في نفس الوقت يدرس نائبه الجديد «بيتر أيوب»، والذي وقع تحت رعايته، في لهجة هادئة رائقة ازدحمت فيها آيات الاستعلاء والتكبر، 'بص هنا يا «بيتر» [كان يجد صعوبة في لفظ الاسم]، شايف يا بني؟ — لأ يا «بيتر»! إنت خدت امتيازك فين يا بني؟! هات لي الـcrushing forceps... الكوخر طيب... حافظ انا باعمل إيه عند الـroot؟ — مش دلوقتي، بعدين يعني بعد ما نخلص — باقص، وبعدين باربط — إنت نايم يا له ولا إيه؟ أنا باربط الأول وبعدين باقص، إصحى! إوعى تنسى تعمل crushing قبل ما تربط وتقطع. الزايدة

---

[١٩] من ضمن الطرق المتبعة في التعليم في كليات الطب أن يقوم طالب — أو طالبان — بالكشف على مريض معين وكتابة كل المعلومات التي وجدها في الفحص وفي التاريخ المرضي في ورقة تسمى الـ«Sheet»، أو الصحيفة المرضية، ثم في الصباح تتم مناقشة كل ذلك علناً أمام المدرس والزملاء. وتسمى هذه الطريقة دارجياً بأخذ الحالات.

دي صغيرة وشكلها كده مزمنة. قل لي، إيه هي هواياتك يا «بيتر»؟ تعرف تغني يعني؟ [بيتر يبتسم] تعرف تقول: "أنا أنا أنا براد الشاي، إيدي كده، «طيـ. . . . ي» كد"—أه، بتضحي على إيه يا هناء؟ الكلام ده كلام رجالة واحنا ما عندناش نسوان تضحك على كلام شوية «خو . . . . ات» قلالات أدب... أيوه إحنا دكاترة آه، هو الدكتور بأدبه؟!... مين اللي قال كده؟... خلي اللي يسمع يسمع—سامع يا حاج «بيتر»؟ إحنا جراحين والجراح لسانه... لسانه الوسخ يعني. متهيأ لي إن رحت حتى كولومبيا هتلاقي الجراحين لسانهم وحش وينطقوا بالشتايم القبيحة زي ما عندنا هنا بالظبط... لأ سيبك، أنا كده كده ماشي م القسم بعد كام شهر ورايح على بلدنا، أفتح لي عيادة واكسب لي قرشين بدل «الفاقة» اللي انا فيها هنا. عارف كلمة "الفاقة" يا حاج «بيتر»—ولا هو انا بقولك «حاج» ليه، هو انت حجيت قبل كده؟... كلها اسمها أماكن حج والمقدس حاج واللي بيلف حوالين الكعبة حاج. المهم، سيبك كده انت ها تفضل حمار طالما حطوك معايا.'

ثم ظهر على الباب عضو من أعضاء هيئة التدريس وكان رجلاً سميناً قصيراً في بدلة عمليات زرقاء يضع غطاء الرأس ويسدل الكمامة إلى رقبته، جرى الرجل بعينيه على سريان الأمور فرفع له علام يده الملطخة بالدم وهتف:

— 'حضرة الباشا... اتفضل يا باشا.'

فهز الآخر رأسه ورفع يده ثم انصرف. غمغم النائب السنيور:

— 'مشاكل مشاكل، دايماً حاطّينّا في مشاكل.'

ثم استطرد مخاطباً مارك:

— 'قل لي يا كتكوت انت... هو انت قلت لي اسمك ايه؟'

— 'مارك...' أجاب مارك.

— 'يعني إيه مارك؟... سمعت عن المارك الألماني؟ طبعاً في دولار دلوقتي ولا اسمه ايه الجديد ده؟ آه يورو. راحت عليك خلاص يا «مستر» مارك. دلوقتي أوربا كلها متحدة —شوف يا خي! —واحنا العرب عايمين في المية والبترول لغاية ما غرقنا... طبعاً «مش إحنا» اللي عايمين في البترول، وياريتنا كنا غرقنا في البترول لغاية ما متنا حتى، البهايم بتوع الخليج بعد

ما علمناهم ونضفناهم بقوا يتريقوا علينا ويذلوا أهالينا دلوقتي. الله يرحمك يا عبد الناصر! كانوا أيامه بيرعوا غنم، دلوقتي بيركبوا «الرولز رويس» ولا مش عارف اسمها إيه... يا طيور النورس... تا تا تا... يا اللي مقابلني... هي إيه كمالتها؟ مش مهم . . . . خلاص خلاص يا ست هناء، إيه، فيروز معانا هنا؟!'

ثم خطر له خاطر كأنه استجد فسأل نائب التخدير الجالس في مكانه يقرأ عن اسمه، فقال: 'جورج'، ثم سأل «بيتر» عن اسمه، فقال: 'بيتر'، فمارك فقال: 'مارك'، فرجع برأسه للخلف وهتف:

— 'جورج، وبيتر، ومارك؟... دا انا على شوية واروح اتعمد!... ما تضحكش ياد يا كتكوت يا بتاع الامتياز الابيض انت... عامل زي النيجاتيف... إنت عارف إحنا بنسمى الامتياز إيه؟... بنقول عليهم: "White useless coated mass, that may be dangerous"[٢٠]... إنما قولوا لي، مش كلكم أرثوذكس اه؟... آه، بيتر إنجيلي ما انا عارفه. طب إزاي بتتعاملوا مع بعض؟ بتدبحوا بعض يعني؟... آيوه، كان زمان النصارى بيدبحوا بعض زي الفراخ—هو الزايدة دي ما لهاش نهاية ياك؟ طويلة ومزمنة ومتشبكة في كل حاجة. هاه — الـdiathermy يا «بيتر» — هاه، إنتو... ما قلتوا ليش... (كده ما فيش دم، ولا...؟)—آه صحيح، الدكتور يوسف كان عاوزني، تقف انت يا «بيتر»؟... مين علمك؟... ياراجل، امتياز مين وحركات مين، خد عندك ده مثلاً يفهم حاجة؟... لا لا لا، لا يا أخ بيتر—الله! مين اللي هناك دي؟!... دي بتشاور لك ياد يا «بيتر» ولا إيه؟... الله الله الله، دي قصدها على النيجاتيف!... الله يسهل لك يا «مارك»... مع السلامة والقلب داعي لك يا سيدي!... آدي النصارى يا «مقدس» [موجهاً حديثه لنائب التخدير الذي نسي اسمه]، عيشة والله. لكن بناتنا احلوّا أكتر من بناتكم الأيام الغبرة دي.'

بعد أن ربط الزائدة وقص، ثم خاط الغشاء البريتوني والعضلات والدهن تحت الجلد، ترك لـ«بيتر» امتياز خياطة الجلد وخرج من الغرفة.

---

[٢٠] كتلة بيضاء غير ذات أهمية محاطة، يمكن أن تكون خطرة.

بعدما خرج مارك وإيمان قال الأول وهما يدلفان في طرقة القسم:
– 'إيه ؟! في إيه ؟!'
كانت تجره من ساعده المكشوف وعلى وجهها ابتسامة، وقد أزال هو الكمامة عنه لكنه غفل عن الغطاء الذي ما فتئ يكسو شعره الثلجي، قالت بصوت مرح:
– 'حبيت اشوفك، إيه، جريمة ؟!'
فاستمرأ حسن نواياها وهو يردها:
– 'طيب طيب، كله كده كويس، لكن الناس يقولوا علينا إيه ؟'
– 'ينعل أبو الناس يا أخي.'
ثم فطن فجأة أنه في لباس العمليات فهتف فيها:
– 'إستني! أنا لسه ما غيرتش هدومي!'
ومن ثم قفل راجعاً فاستبدل ملابسه في دقائق.
ثم رد إليها مرة أخرى. أخذته خارج مبنى القصر وحيا خالد نشأت على هرولة وهو يلحق بها على السلالم، ثم توقفت في غرابة على مبعدة متر من آخر درجة كأنها نسيت إلى أين ذاهبة، وجعلت تمسح على شعرها الذي جعدته في تلك الآونة. مؤخراً قد اكتسبت إيمان سمنة فوق امتلائها الأصلي فنالت عدم استحسان في عيون الجميع، غدت شرهة في الأكل بشكل عجيب وقد لا تشخص في الكافتريا إلا وهي تمضغ وتقف مع شبان. لم يغب عن مارك التغيير المريب الذي جرى، فبعد أن انفصلت عن شلتها القديمة وخيّل أن شهوتها «الصبيانية» انفثأت، إذا بها ترجع لسابق العهد مع الشبان وقطيع الصبيان (الذي أطلق عليه بعضٌ اسم 'الفتيان المخلدون') والفتيات سيئات السمعة منهن من فاقتها أميالاً. لكنها مكثت تخص مارك بشيء مرطب لقلبه حداه ألا يشك فيها، وهو ليس الحب إنما الصداقة. نعم لم يرتاب ثانية في أنها تحبه، أو تعشقه عشق الأنثى للرجل، فلا يمكنه تصورها «تشتهي» خلقته الناقصة على أية حال من الأحوال، لكن اعترافه بالحب لها كان في آنه إنجازاً عظيماً وانتصاراً في حياته، ولا يطلب أكثر من الفوز بها في النهاية بغض النظر عن مشاعرها هي. وسارا جنباً إلى جنب موازيين للمبنى العام متخذين الطريق نحو سوبر ماركت الأقصى الذي يقبع ملاصقاً للصيدلية الوحيدة في المستشفى ثم لمركز الحرس. كانت في ذلك

الوقت على ما يبدو زيارة لمسئول مهم أصلع وضخم والحلل السوداء من حواليه تحميه، ولحظ مارك في غير ارتياح حركة مجنونة في محجري صاحبته هي حركة عينيها. للأسف الشديد أصبحت في الأوقات الأخيرة إيمان تتميز بنظرات قلقة هائجة ماجنة وبابتسامة شهوانية على ذات النحو، كأنها في حالة نشوة جنسية. لم ير فيها تلك النظرة من قبل حتى في أيام «التدهور العظيم» في عز شعبيتها من السنة الثانية حتى الخامسة. على أنه كذبها وتجاهلها متيمناً مباركة الله لعشقه الوحيد، وسألها:

— 'إنتي بتعملي إيه لغاية دلوقتي في المستشفى أساساً؟'

كانت تعدت الثالثة بعد الظهر، لكنها لم تجبه، إنما استطردت وهي تسأله بذات الابتسامة الخبيثة الماجنة في نبرات متسارعة:

— 'إيه أخبار الست المجنونة اللي انت ساكن معاها دي؟ اسمها إيه؟ روحية؟ دي ست مجنونة خالص. تصور تقعد تسألني ساعة عن اسمي وصفتي وانا باتصل بيك لغاية ما «قرفت»!؟ إزاي قادر تعيش معاها دي؟! [وضحكت] دي عاوزة تتساب ليّ أنا، أعلمها الأدب!'

ضيق عام أتاه وهو يسمعها تهين روحية، روحية امرأة عمه في النهاية، فقال لها بغير تأنيب:

— 'مش مجنونة هي ولا حاجة... متطفلة يمكن شوية، لكن مش وحشة، وفي أوقات بتكون كويسة صدقيني...'

وبدلاً من أن تناقشه أو تحجم وتعترض، إذا بها تنحرف بغتة لموضوع آخر وهي تجلس بسرعة على قضيب حديدي من القضبان المغروسة في رصيف السوبر ماركت على شكل حرف «n»، لتحديده ومنع السيارات من الركن عليه:

— 'سمعت عن خطوبة جاكي وإيليا؟... في سنة ساتة؟... يووه، إنت بطاطا خالص باين عليك، مش عارف حد خالص ومعزول كده متقوقع عامل زي الفار!'

كان يقف أمامها آبياً الجلوس، وبهت لونه وهو يسمع الكلمة منها لكنه أبقى على اتزانه وهدوئه فعاتبها في حكمة:

— 'غلط اللي انتي بتقوليه ده يا إيمان.'

لم تحر أي تصرف يومئ إلى أنها تسمعه، لوحت رقبتها في اتجاه الجراج ومبنى العيادات وصمتت. خرجت بضع فتيات من السوبر ماركت ثم إذ بها تسأله:

— 'إنت بتفكر في الهجرة يا مارك ؟'

اندهش للفكرة وللاستطراد، سألها:

— 'إشمعنى يعني ؟ !'

— 'يعني... إيه رأيك في الموضوع طيب ؟'

نبه إلى أنه يخلق به أن يجاورها، فدنا بلطف كأنه يتودد إلى طفل صغير واقتعد القضيب الأملس فقال:

— 'ربنا خلقنا هنا... يبقى أكيد له رسالة هدفه مننا إن احنا نوصلها له.'

فأومأت برأسها في سخرية:

— 'آه، حياة النعمة ورسالتك على الأرض، والحياة المنطلقة نحو الهدف والكلام الإنجيلي اياه.'

ثم تنهدت فقالت:

— 'طيب... يعني انت مش بتفكر في السفر، ولا السياحة، ولا شوف الأماكن الكتيرة اللي معمول منها العالم ده، ولا حاجة م الحاجات دي خالص ؟'

أحس بالحرج فقال:

— 'مش بالظبط كده يعني. لكن اللي ربنا يريده ها يكون.'

فقالت وهي تستدير تجاهه في لهجة تكبير:

— 'إنت عارف ان أحمد إكرام معاه الجنسية الأمريكية ؟ وإنه دلوقتي بيدور على أستراليا ؟'

لم يعن بالشأن كثيراً، وقال هازاً منكبيه:

— 'الله يسهل له !'

— 'مش نفسك تبقى زيه يعني ؟...'

سؤال غريب من إنسانة أغرب. تفرس في وجه إيمان فوجده عجيباً موزعاً بين التشجيع والنفور والإشفاق، كانت تجعد زاوية فيها اليسرى كأنها تحتقر النظر إليه، وترفع حاجبيها كأنها تقول: هيا! لقد دنوت من الإجابة

السليمة، هيا الفظها!، وترنو إليه بعينين ثابتتين شجيتين كأنها تنعيه، كل الدلائل والإشارات كانت تقول: ’قل نعم‘، بيد أنه تريث قليلاً، قبل أن يعتدل في مجلسه ويقول:

– ’إزاي نفسي أبقى زيه يعني؟ هو ربنا خلق الناس نسخة واحدة، ولا خلقهم أصناف وألوان يا إيمان؟ إحنا نيجي ٦ مليار إنسان مخلوق على صورة الله ومثاله، لكن كل واحد غير التاني: الناس شخصيات وأنواع يا إيمان، مش ممكن كلنا نبقى حاجة واحدة، وما فيش قاعدة واحدة ممكن نمشي عليها ونقول: "هو ده، المفروض كلنا نعمل كده" (ع الأقل في الأمور الأرضية) وإلا ما نبقاش بشر... نبقى أي حاجة تاني...‘

ثم سكت لحظة ثم سألها مستطرداً:

– ’وانتي ليه عاوزة تسافري يعني؟ أنا أول مرة أعرف إن ليكي ميول للسفر.‘

فغطت محياها براحتيها وهزت رأسها وهي تقول في نفاذ صبر:

– ’مش موضوع سفر! إنت مش فاهم حاجة!... مش فاهم حاجة!...‘.

بعد أقل من أسبوع بلغته وفاة الدكتور مختار جرس، والد إيمان.

٥. اليتيمة المحدثة

I. حدثت وفاة الدكتور مختار جرس بعد منتصف الليل في وحدة عناية الدكتورة مارجريت فهمي بشارع السادات، بعد حجز استمر يومين. وبغض الطرف عن أن طريقة وفاته ليس لها تأثير مباشر على سياق قصتنا، إلا أن لا مانع من أن نوردها، كضرب من الاستطلاع:

كانت صاحبة العناية – الدكتورة مارجريت – من النصارى القلائل الذين تحدوا العالم لكي يصلوا لمنصب جامعي 'مرموق' – كما يقول الصحافيون – في جامعة أسيوط، وهي سيدة خمسينية رشيقة، بيضاء الشعر مما زاد جمالها القديم وقاراً، سريعة الحركة قصيرة كالديك البري، لكنها اشتهرت بعصبيتها البالغة وفظاظة تعاملها وجفوتها، ثم بخلها الأسيوطي الرهيب وانعدام انتمائها للكيان القبطي العام. ويبدو أنها قد جاهدت جهاداً مراً حتى نالت حقها في التثبيت كأستاذة جامعة وفي حياتها الاجتماعية عامة، فخرجت من التجربة ليست أقوى، لكن أكثر صلابة وأقل مشاعراً وفي نفس الوقت أشد أمانة واستقامة، فلم تك تعرف الرحمة في لجان الشفوي، وتميزت بصوت حاد وبلهجة غاضبة وملامح متجهمة حلوة ترعب من أمامها حتى نمى أن رئيسة القسم ذاتها تخشاها، ولم تك تجامل النصارى في أي شيء، حتى في الحديث العادي، ويحكى أنها مرة قد «مسحت البلاط» بنائبة مسيحية صغيرة أمام الطلبة وكتبت ضدها شكوى لأنها تعثرت في ترتيب الحالات المقدمة أمامها، لكن علم أيضاً أنها لا تؤذي بغير سبب، ويقال أنها وقفت إلى جوار نائب مسيحي اتهم بمضاجعة ممرضة في قسم النساء والتوليد لثقتها في براءته وقفة كادت تفقد إثرها منصبها، وأنها منعت الوصاية والغش عن ابنتها ذاتها الطالبة في نفس كلية الطب، كما أنها تعطي الأجر لمن يعمل عندها بالساعة في لا تقاعس ولا تأخير، مع أن الأجر في حد ذاته قليل. ومقتها النصارى أكثر من المسلمين، بيد أن هذا لم يحل دون أن يتقاطروا كل عام عليها لكي تمتحنهم فيعمل الناجحون في عنايتها بالأجر – الذي تراوح بين جنيه وجنيه ونصف للساعة – حيث يقتصر عملهم على إعطاء الأدوية في المواعيد المحددة وتسجيل الدخول والخروج ومحاسبة الزبائن على الحقن

والطعام، وحيث كل العاملين من المسلمين الذين قالت أنها تثق بهم أكثر من المسيحيين. وفي تلك الليلة كتب على وائل دميان أن يكون النوبتجي عندها في العناية.

ووائل من أبناء أسيوط المعروفين لكن عابه أنه شاب شديد النحول، كثير الحياء ومتردد، مرتبك وضعيف يتحرك بتكسر، لدرجة أن قال عليه زملاؤه 'أفيون'، ولصق به اسم 'وائل أفيون' منذ الثانوية، وعرف بشعره الأكرت المطلق على موضة السبعينيات وملابسه الكاجوال وجزمه الشامواه، ثم ولعه المرضي بحلقات المصارعة التي يقدمها ممدوح فرج، يدمن «جون سينا» و«أندر تاكر» و«تربل إتش» ويقدس حركاتهم وموسيقى دخلاتهم كالأطفال الصغار، ويخزنها على هاتفه الجوال ويستمع إليها باستمرار ويبتسم، وكان يمت بصلة قرابة لمارك سعد لكن — لسبب أو لآخر أو بلا سبب — لم يوله أحدهما بالآخر. كان وائل نوبتجياً في الفترة الليلية آنها يقرأ في أحد ترجمات أحمد خالد الملخصة على سرير النوبتجي بالمكتب الصغير المخصص كإدارة، حين طرق شعبان — العامل — الباب في هدوء وقال أن أحد المرضى في مشكلة وأن آله يريدونه. فقام على مضض خاصة أنه كان قد تعود شكاوي المرافقين التي لا تنتهي وأسئلتهم المحرجة التي قد لا يستطيع أخصائي قلب أن يجيبهم عليها. وكان يعلم بوجود الدكتور مختار — أبا زميلتهم الشهيرة — في العناية، لكنه لم يحدس قط أن يكون الاستدعاء من ناحيته، فقد كانت زياراته دائماً هادئة ولم يك يسمع صوت زوجته حتى يتحسن رويداً ثم يغادر بنفسه. لكنه في هذه المرة وجد زوجته إلى يمين رأسه تسند له مخدة إضافية خلف ظهره، وكان المريض نفسه لاهثاً مختنقاً يضع قناع التنفس على فمه وأنفه دون جدوى. سرى فيه التوتر لكنه تمالك نفسه، وفحص النبض وهو يزيح جسم زوجته العظيم جانباً، فألفاه ضعيفاً متسارعاً، وكانت اليد نفسها في حالة تورم، فكشف الغطاء الأبيض عن الساقين ليجد الساقين متورمين حتى الفخذين أيضاً... ابتل جسمه وعرق، خاصة أنه كان قليل الخبرة بالممارسة في أولى فترات حياته العملية، وسأل:

— 'هو ليه بدري كده؟'

– ’ما لوش نص ساعة... كان شكله تعبان رحت قعدت أرفع له المخدات وعلقت له أكسجين.‘

لم يكن وائل متفوقاً في دراسته في الطب، لكنه فكر: ’هل أعطي له أتروبين؟ إن مريضاً كهذا لينقذه الأتروبين على ما أظن...‘ لكنه رجع عن ذلك بسرعة وقرر أن يهاتف الدكتور جوزيف رشدي – أخصائي القلب – والذي كان مكلفاً بالتردد على العناية وبالاستدعاء حين الحاجة مقابل أجر (وجدير بالذكر أنه عين الطبيب الذي أخبر إيمان مرة أن والدها مصاب بـ«موت قلبي» فضحكت عليه)، لم يفكر في استدعاء مارجريت نفسها ولو خطفاً، لأن قصة طرد زميل لهم آخر يدعى ميشيل (غير ميشيل جورج) لأنه تلفنها في ذات ظهيرة يستشيرها في جدول أدوية أحد الحالات، قد جعلت كلاً منهم يدرك مكانه ويضاعف حذره آن الاتصال بها إن وجب. ثم تذكر طرد زميل آخر بسبب خروجه للمرضى بسوستة بنطلون مفتوحة فما لبث أن خرج من الغرفة حتى ألقى نظرة سريعة على بنطاله، ثم تنهد في راحة مؤقتة إذ لم يتحقق خوفه.

وانتظر وائل كالهارب في حجرة المكتب متوجساً أي خطوة تقترب منه لئلا يحرج بالأسئلة التي ليس بطوقه أن يجيب عنها، ولئلا يطالب بإنقاذ نفس هو مدرك أنه لن ينقذها. كانت حجرة المكتب صغيرة، على شكل مربع منتظم، يلتصق سرير الطبيب النوبتجي بجدارها النافذ من خلاله الباب، أما المكتب الخشبي الكبير فيقع من الغرفة في ركنها الأيسر، المطل إلى الشارع من خلال شباك صغير مستطيل مسدود بسلك مشدود كأنه مجرد شق بين جدارين، يفضي من هدوء العناية التام إلى الدنيا السادرة بالخارج حيث الضجيج والسيارات. وكانت سماعة طبية رخيصة مكسورة الرقبة وملصوقة ببلاستر طبي أبيض معلقة إلى حامل محاليل قديم مركون جنب المكتب، على أن المكان – بأكمله – كان آية في النظافة والرونق، حسناً الطلاء والكساء موشاة حيطانه بنسخ مطبوعة ومبروزة من لوحات فنية عالمية مثل الموناليزا والعشاء الأخير، لكن كـ«بينما غنى المسن لعب الصغير على الفلوت»، وكـ«جامع الضرائب»، وكـ«المتجول في الضباب»، وكـ«Gross Clinic»، التي جعلتها في غرفة الإدارة نظراً لعلاقتها بالطب، مما يشف عن شغف قديم بالفن إن صحت

التوقعات. اتخذ الفتى وضعاً شبيهاً بالجلوس على الفراش اللدن، ضاماً قبضتيه جانبيه، منحني الهامة، ينصت لأدنى صوت في رعب مقيم. كان الصمت هو سمة العناية لكنه الآن كرهه، لأنه بات كالسطح الأبيض النظيف الذي يعكس بجلاء أقل اتساخ، ثم جعل يروح عن نفسه بالنظر إلى اللوحات، والأنتيكات، التي اترع بها المكان متجاهلاً سعال شعبان وخطى بعض نحو الحمام ثم فتح الصنبور وسريان المياه، الذين لم يسمع غيرهم. وفكر في حياة الرجل الموشكة على الانتهاء بالداخل، وفي الموت عامة والمستقبل الذي ينتظرنا، في سذاجة صادقة في بعض الأحيان تجعل الفهم أيسر والنظرة أعمق، إلى أن شعر بالاختناق لاسيما لما تذكر منظر الزوجة «الطبيعي» وهي واقفة بجوار زوجها يلفظ أنفاسه، فهي حتى لم تجر إليه ولم تصرخ ولم تولول! وتصارع بداخله إنسانان كل يود مساعدة الرجل بطريقته، واحد منهما يود أن يهرول إليه ويحقنه بأي حقنة ربما تنقذه مثل الأتروبين (لكن الأوامر التي صدرت إليه قاطعة بعدم التعديل أو الإضافة لأي من جداول العلاج الموضوعة للمرضى)، وآخر يريد أن يصلي لأجله! كان بروتستانتياً، يؤمن أشد ما يؤمن بفاعلية الصلاة والصلة المباشرة بين الإنسان والله، وقد غلبه التوجه الديني مؤخراً من بعدما ساعده الخدام في خلاص النفوس على الانقطاع عن العادة السرية، فأوقف الأغاني والأفلام الأجنبية «المعثرة»، وصدف عن دخول السينما، ومرن لسانه بالتدريج على عدم لفظ أي قول مسيء، كما حاول النأي بنفسه عن نتف من «أصدقاء السوء» ورفاقه والاندماج في الوسط البروتستانتي المتدين الذي شعر أنه يبنيه. لكنه الآن كان قصد خيارين مربكين جداً استحثا ارتباكه وتردده الأوليين، فكأنما كل ما بناه في الفترة الأخيرة من «تحسن» بشخصيته قد ذهب أدراج الرياح... وانتظر عسى أن يقدم الدكتور جوزيف فينقذه مع أنه كان متيقناً أنه يتأخر دوماً في الاستدعاء، ثم زاد الطين بلة والأمر حرارة أن جاءته زوجة الدكتور بنفسها وطرقت على بابه في أدب وقالت أن زوجها ما فتئ يعاني وأنه على ما يبدو يسعل أو شيء من هذا القبيل. هنا خرجت مخاوف من مكامنها وردت أخر إلى الجحور، تخوف من إمكانية ظهور أوديما مفاجئة بالرئة نتيجة الفشل

القلبي، بينما في نفس الوقت قرع خشيته من التصرف في إنقاذ الرجل. قام من مكانه بأعصاب جديدة وقال للسيدة في شجاعة:

– ’طيب. إسبقيني حضرتك جوه وانا جاي وراكي دلوقت.‘

وكانت الدكتورة مارجريت قد عودت أن تضع جميع العقاقير – مع الأطعمة المغلفة بمشمع أبيض لمن يرغب – في ثلاجة إيديال قديمة (لكن نظيفة) بالمطبخ، فاتخذ الطبيب الشاب طريقه إلى هناك متحامياً بعث ريبة شعبان الممدد على أريكة بالصالة تحت لوحة «بينما غنى المسن لعب الصغير على الفلوت»، حيث تبدى على اليمين رجل في منتهى السمنة يصفق في طرب لشاب ممشوق بجانبه يلعب على الفلوت، متمثلاً – وائل – أنه ذاهب لشرب المياه. وفتح الباب وكانت الأمبولات في رفوف الباب في حاويات مثقبة، فبحث عن الأتروبين إلى أن وجده، بجوار الأدرينالين الذي كان خياراً مشوقاً هو الآخر لكنه أغضى عنه خوفاً منه، ودس الأمبول في جيبه قبل أن يأتي بزجاجة مياه حقيقية من الداخل سكب منها في كوب زجاجي طويل على الرخامة ليقتل شك شعبان – الذي كان جاسوس العناية – من ناحية، وليروي ريقه الجاف من ناحية أخرى. ثم قفل إلى المكتب محافظاً على هدوئه فالتقط سرنجة من شنطة كتفه وقشرها بحرص بالغ، وبعدئذ حان وقت العمل فمضى نحو الحجرة التي حجز فيها الدكتور – مع مريض واحد شاب آخر ترقد أمه الفلاحة على البلاط عند رأسه – وحقن فخذه بالأمبول متغاضياً عن ذكر أي شيء عما يفعل لزوجه، مشتتاً إياها بالكلام في أمور تافهة. ثم التفت لوجه المريض فألفاه صامتاً تماماً.

كان المريض قد توفى قبل دقائق فلم يدرك – لاضطرابه – تلك الحقيقة قبل أن يحقنه بالأمبول. ولم تع زوجته – الصيدلانية – أن روحه قد انتقلت أيضاً لأنها كانت قد ألفت غيباته وحسبت أنه في شبه غيبوبة. والتقطت الزوجة هلعه وهو يحدق فيه من خلف عويناته البيضاوية، ثم وهو يقفز عليه يتحقق من نبض رقبته وينزع عنه قناع التنفس ليكشف تنفسه، فصرخت وأنشأت تعوي وتولول كما كان يريد وائل، وعلى أثر صوتها تجمهر الناس أشتاتاً من الحجرات المجاورة وجاء شعبان ووقف دون قدم السرير بشبشبه. ولم يجد الطبيب الصغير أياً مما يومئ لحياة في هذا

الجسد الطويل السمين الهامد، فأعلنها في حزن أنه قد توفى، وعزى أرملته التي لم تصغ إليه وأخذت تبكي مغطية عينيها في تحضر وتغمغم لنفسها غمغمات غير مفهومة، ثم ترك الحجرة على حال زرية (والمحقن الفارغ في يده مكشوفاً غافلاً عن التخلص منه)، إذ ظن أنه قتله!

لازمه هذا الظن في حجرة المكتب، وغشيه شعور قاتل بالذنب، وطفق يبكي كالأطفال. وأتى شعبان —وكان شاباً في أول الثلاثينيات أسمر البشرة بشارب منحدر على ناحيتيه كالسهم المشير لأعلى — فلقيه على هذه الحال فقال له مستضحكاً:

— 'أمال أول مرة تشوف حد بيموت ولا إيه يا دكتور؟ دا ما فيش شهر إلا ونطلع ميتين وتلاتة! المهم، حضرتك اتصلت بالدكتورة؟ أصل انت عارف لازم نبلغها لما حالة تموت.'

فاستجمع نفسه وقال له في صوت باك:

— 'حاضر يا شعبان... حاضر، ها اتصل بيها حاضر...'

وأكد عليه العامل مرة ثانية ثم خلاه لمصيبته. ثم تذكر أن الدكتورة تجرد الأمبولات في نهاية كل أسبوع مع شعبان فركبه — فوق الذنب — فجع فتاك. كيف يفعل في إخفاء آثار جريمته؟ المحقن وتخلص منه، لكن ماذا عن الأمبول الناقص؟! وعن شهادة زوجة الطبيب حين تراجعها الدكتورة؟! بهذه الصورة فإنه هالك لا محالة. وأجهشت نفسه مرة أخرى فشهق ونشج وخرت عيناه بالدمع، وخاطب ربه وتوسل إليه أن ينقذه. وكعادته في الأزمات فقد لجأ للاتصال بأحد أعضاء كنيسته يستشيره ويشد من أزره.

وقدم ريمون عادل مع جون نعمان (الذي يقال له جون نعسان لحركاته المتعثرة ومشيته المطوحة)، بصحبتهما شاب آخر في سنهما صيدلي يدعى مارك رفعت، بعد نحو ساعة. كان الدكتور جوزيف قد حضر أخيراً وشرع يتيقن بنفسه من الوفاة، وكانت الدكتورة مارجريت إلى وصول، وقد خيم النكد على المكان بأسره وتوجس النزلاء الآخرون شراً بحدوث الوفاة فزادوا في طلبات الأكل! وأغلق وائل بابه وجعل يقص عليهم الحكاية بالتفصيل، مرتعداً مرجوفاً وإن لم زمامه شيئاً بوجودهم

لمساعدته، فبدا على سيماهم القلق وداعب جون ذقنه بيد أن ريمون صرح مطمئناً وهو يغمز بعينه اليمنى:

– 'ما تعملش حاجة يا بابا... عمر ما الأتروبين يقتله، وحتى لو فرضنا إنك اتصرفت من دماغك وعملت له حاجة تإذيه، ربنا ها يحاسبك على حسب نيتك، مش على حسب اللي عملته.'

– 'لكن دا انا قتلت الراجل يا ريمون!'

– 'ما حصلش. عمره ما يكون حصل. وحتى لو، ما يهمكش برضه.'

ثم صمت كلٌ فكأن التوتر تضاعف بين أربعتهم، كان كلٌ يعلم – كطبيب – أن إعطاء الأتروبين لمريض الفشل القلبي يعتبر عامة خطأً، لكن يحدث عند وقت الأزمة أن تذوب المعلومات، أو يقوض الخوف والريب صلابتها، ثم من يعلم ما كانت حالة المتوفي بالضبط وتأثير تلك العقاقير الحساسة على جسمه؟ وسأل جون بعد فترة:

– 'هو حالته كانت إيه يعني؟'

– 'ما اعرفش. Heart failure[٢١] باين، مزمن عشان كذا مرة يتحجز.'

– 'همم... طيب، [مستطرداً مخاطباً رفيقهم الصيدلي] ما تقول لنا إنت طيب إيه ممكن يكون تأثير الأتروبين على عيان زي كده، مش انت صيدلي برضه؟'

كان مارك شاباً أزرق العينين، فاتح الشعر قصيره، يلبس عوينات أنيقة ويرتدي ملابس كاجوال نظيفة من ماركات شهيرة معروفة في مصر مثل «CLASSY» و«DIESEL» وغيرها، يغلب عليها اللون العسلي تلك الليلة، ومن البداية جلا أنه لم يكن جاداً، وهو دوماً لا يبدو جاداً بسبب ثغره المفتوح الباسم الهازئ دائماً كأنه بطل من أبطال الروايات الرومانسية المعاصرة على وشك ابتداء مغامرة نسائية، ولم يكن قد جاء في هذا الوقت من الليل إلا لأنه كان بصحبة ريمون وجون وهما راجعان كل منهما إلى مسكنه بعد مساء طويل في الإنجيلية الثانية، حينما وفدت مكالمة مارك لجون. قال بعد أن سئل:

---

[٢١] فشل قلبي.

– ’الأتروبين ضد الأستيل كولين... يعني ضد بطء القلب... يعني بيسرع—‘

– ’عارفين عارفين، المهم تأثيره على مريض الheart failure.‘

– ’ما اعرفش، إنتو الدكاترة!‘

وسكت كل منهم متمعناً في الأمر مرة أخرى فعاد ريمون يؤكد أنه مستحيل أن يقتل الأتروبين مريضاً بفشل القلب، وأصاب منه هذا القول تفاؤلاً ورغبة في الاستزادة من وائل فانبرى يستحلفه بحياة والده، ويجعله يؤكد له مرات ومرات، لكنه حين بدأ يسأله في صميم العلم (مع أن ريمون كان من المتفوقين في دفعته) ألفاه قد ’فصل‘ منه تماماً. ثم سمعت طرقات على الباب الخارجي للشقة فجفل وائل وارتبك الحضور معه إذ لم يكن من اللائق أن يحضروا وأن يلجوا حجرة المكتب في غيابها بهذه الصورة وفي هذا الوقت من الليل، فاختلج كيان مرتكب الجرم وصاح بهم في ذعر:

– ’أعمل ايه دلوقتي ؟! قولوا لي الله يخليكم!‘

وشحب لونه وطفرت الدموع إلى مقلتيه من جديد، وفي نفس الوقت أُنصت إلى صوت الدكتورة الحاد الغاضب بالخارج وهي تسأل شعبان عن ميعاد حضور الدكتور جوزيف وميعاد الوفاة، ثم تعبر في طريقها للحجرة التي توفى بها النزيل. وحينئذ تولى جون مقاليد الموقف فطمأن صاحبهم المنهار أنهم سيتصرفون، وأهاب به أن يلم شتات نفسه ويمسح دموعه الصبيانية البلهاء ثم يتبع الدكتورة إلى حجرة المتوفي لكيلا يثير ريبتها أو ثورانها وهذا أوعر. فذكر وائل – على شيء من الارتياح لوقوف مثل هؤلاء الأصحاب جنبه – أمر جرد الأمبولات فقال له جون أيضاً ألا يقلق، وأمر مارك بالتذحلب خارجاً وابتياع أمبول أتروبين من أي صيدلية، ثم الرجوع في حرص والرن على هاتفه الجوال قبل أن يصل للباب. ومع بعض التشجيع مسح وائل دموعه وجففهما جيداً، ثم فرد قامته وقام يتأثر الدكتورة إلى الحجرة، أما صحبه فتولوا تخطيط مداراة الجريمة. ومضى صاحبهم الصيدلي لانجاز مهمته والغريب أن ابتسامته الهازئة لم تزايله، وبعد خمس دقائق عاد كما اتفق فرن على جوال جون فخف الأخير ليفتح له في هدوء. ثم وضعوا الأمبول في مكانه بالثلاجة (كان جون يبات

كنوبتجي بالأجر أيضاً في العناية)، ثم تسللوا ليختبئوا في الحجرة آملين ألا ينزو بها قلبها إلى غشيانها.

وسُمع دوى خبط غير رحيم على باب الشقة بعد مدة، ثم فتح الباب وأغلق، ثم ارتفع لغط أحاديث كثيرة متضاربة في الحجرة بالداخل مع صوت سريان مياه ووقع أقدام خمن أنها قادمة من شخص بعيد في حجرة أخرى، ومكث الشبان الثلاثة في أماكنهم في قلق، أما مارك فجلس على كرسي أسود قديم وجعل يسخر من رفيقيه ويضحك فشوحا له بأيديهما ملتمسين منه الصمت والصبر، وبعد حين ارتد إليهم وائل على محياه بعض الراحة وإن كسته حمرة خفيفة، وتبع رجوعه صوت الدكتورة بالخارج تنبه على شعبان أن ينبه هو على الدكتور النوبتجي أن يحاسب أهل المتوفي على إقامته وعقاقيره وغذائه في لا تكاسل، ثم غادرت بخطاها السريعة وأغلق شعبان الباب خلفها. تقاطر ريمون وجون على صاحبهما يسألانه فقال أن الأمور 'مرتاحة' حالياً وسبب الموت غير واضح، ثم أن الدكتورة لم تعن كثيراً بأمر الوفاة في حد ذاتها بل شغلت بأمور إدارية، فاطمأنا إلى حين وأخبراه بدورهما أن الأمبول الناقص رجع لمكانه بنجاح، ثم نصحاه ألا يخبر مخلوقاً عما حدث حتى أباه أو أمه أو أخته، فهز وائل رأسه واعداً في أسى. ثم إذ على حين غير مرتقب أقبل الدكتور جوزيف الذي لم يكن قد غادر بعد، فارتد كل للخلف ووقف بعيداً عن الآخر. كان الدكتور جوزيف رجلاً أربعينياً لكنه ظهر أكبر من عمره بكثير، ربما بسبب شعره الأشيب ومشيته المنحنية، وعد من عمالقة أمراض القلب في أسيوط خارج الجامعة، بيد أنه كان مختالاً مغروراً، يتكلم أكثر مما يفعل ويتباهى بقراءته كماً عظيماً من الكتب في وقت قصير، فإن سئل معلومة بسيطة جمح وطال وأسهب مفاخراً بمعلوماته حتى يخرج سائله أشد جهلاً. على أنه من الداخل كان طيباً ودوداً على غير ما يطفو على السطح، وكان في الحقيقة كريماً —وإن متحفظاً— يحب الشباب الجدد ويتمنى فعلاً أن يحقق أحدهم ما حققه على عهده، لكن فشل في الاقتراب من معظمهم. ولم يك غنياً على شهرته الواسعة، ولعل ذلك بسبب أنه علا وسما فلم تعد تحول إليه إلا الحالات المستعصية التي يفشل الجميع في علاجها، وتزوج وأنجب متأخراً، ولم يشتر سيارة إلا منذ سنتين فقط، فكان يعمل لدى

الدكتورة مارجريت – مع أنه كان يكرهها – ليزيد من رزقه وفي آن واحد ليشغل وقته. دلف إلى الحجرة عاقداً كفيه خلف ظهره، منحنياً بهامته، فردد النظر في الوجوه الغضة الشابة باسماً، وقال لهم:

– 'إيه أخبار الشباب؟'

فردوه أنها على ما يرام. فتوغل أكثر في الحجرة وصمت لحظة ثم سألهم عن مناصبهم، فقالوا له أنهم جميعاً من طلبة الامتياز عدا مارك صيدلي. فصمت مرة أخرى صمته الغامض المبتسم، كأنه يحضر لشيء، وكان على وشك اللفظ فعلاً عندما قاطعه وائل فسأله عن «الفتاة»، فزم شفتيه في أسف وقال:

– 'مسكينة... vaso–vagal attack[22] لما شافت أبوها ميت... معذورة برضه، لكن ها تبقى كويسة لما ركبت لها محلول وعليه أمبولين فورتكورين.'

وصمت لحظة أخرى – وهو يتقدم نحو المكتب – كأنه يستعيد ما جهزه قبل أن يقاطع، ثم سأل الطبيب النوبتجي الذي كان جالساً على السرير عن دفتر العلاج، الذي تخط داخله مواعيد تناول العقاقير وضرب الحقن للمرضى المحجوزين، وحيث تعده الدكتورة مارجريت بنفسها فلا تسمح لأي من الأطباء المتناوبين على المكان معها أن يمدوا فيه خطاً. قال وائل أنه موجود بالجوار، وقام ففتح درجين إلى اليسار في المكتب فوجده في الدرج الثاني، وكان عبارة عن كشكول رخيص مجدول ومجهز كما تعده الدكتورة. قلب فيه الدكتور بضع صفحات إلى أن وقف أمام صفحة معينة، قرأها فاتسعت ابتسامته الغامضة. ثم سأل وائل مشيراً لموضع معين في الصفحة:

– 'إمتى آخر مرة إديت له ده؟'

حملق فيه الشاب، ثم أدار الكشكول تجاهه وقرأ المكتوب، ثم رد:

– 'زي ما هو مكتوب... الساعة ٢!'

لاح كأن ابتسامة الدكتور تتسع أكثر فأكثر:

– 'الساعة ٢، ها؟'

---

[22] المقصود هبوط مفاجئ في الدورة الدموية نتيجة الاضطرابات العصبية.

هز وائل رأسه. حينئذ بارح الدكتور الحجرة بهدوء رأسه تهتز في ظفر. كانت هنالك جرعة علاج ناقصة، نسيتها الدكتورة!

II. بعد تلك الحادثة المؤسفة، شغلت الدوائر البروتستانتية بمستقبل اليتيمة المحدثة. وكان الوسط البروتستانتي يمثل – (مع الوسط الإخواني مؤخراً) – أكثر الأوساط تماسكاً بالمدينة، على تفرقهم على طوائف متعددة وكنائس شتى، فبات منهم إنجيليين وإخوة وإصلاحيين وخمسينيين وغيرهم، غير أنهم لبثوا قدوة في التعاون والوحدة، ومنهم من كان يخدم في غير كنيسة منفصلة ويذهب ليعظ في الإنجيلية الثانية أو الرابعة (بمدرسة السلام) في نفس الوقت الذي يمضى فيه لخدمته في كنيسة الإخوة أو في جمعية خلاص النفوس أو في أحيان الكنيسة الخمسينية أو كنيسة الله. في مناسبات معدودة أيضاً كانت الجهود تتضافر بينهم وبين الأرثوذكس، لاسيما في الأيام الروحية واللقاءات والحفلات التي كانت تقيمها الأسر الجامعية الدينية لخدمة طلاب الجامعة، فيستعينون بالوعاظ الناجحين من كلتا الطائفتين (مع التحرز من الحديث في الأمور الطائفية) لأجل خاطر الصالح العام. وكان البروتستانت ينفرون من فكرة «الطوائف» بصفة عامة، ولطالما عدوا أنفسهم 'مسيحيين' فقط دون الحاجة إلى ربطهم بالفكر اللوثري أو باسم 'البروتستانت'، وبعضهم كان ينكر طائفته ما أن يجادل حولها، مصرحاً في تحفظ: 'أنا ما اعرفش يعني إيه بروتستانت، أنا إنسان مسيحي، هو ده اللي اعرفه'، فاحتضنوا الأرثوذكس فيما بينهم معتبرينهم «منهم»، ولئن قوبلت هذه النوايا في البدء بصد تام وعدائية شديدة من قبل الأرثوذكس (الذين يمثلون معظم مسيحي المدينة)، لكن الزمن كان عسياً بنحت تلك الحواجز، وبغسل المشاعر المحتقنة، ومع الوقت امتزج المسيحيون في المدينة رغماً عنهم. أما ما حض البروتستانت على التفكير في إيمان بالذات فكان السمعة القديمة التي لصقت بها، مع ما جد بعد موت والدها من عودة لحال النزق القديمة، ثم ما نمى عن مواعدتها لزميلها المسلم في الدفعة أحمد إكرام، الضخم ذي العوينات الصغيرة.

وأصاب القلق منهم مبلغاً كبيراً، وتحادثوا في ذلك ذات ليلة في ’الجمعية‘، فقال أحد الخدام الذي يدعى الأخ راشد أنها تحتاج إلى ’قبول المسيح‘ في حياتها والصلاة لأجلها، ووافقه بيتر أيوب –نائب الجراحة الـ«جونيور» – وقال أيضاً أنهم يجدر بهم أن يجتذبوها إلى الكنيسة – أي كنيسة – ويدعوها لحضور الاجتماعات في الجمعية. ثم فكر ريمون عادل قليلاً قبل أن يقترح إحاطتها بفتيات مسيحيات متدينات لملء الفراغ الذي تعيش فيه، وأدلى بثلاثاً ممن يصلحن للمهمة: ريموندا رمزي، وسوزي نشأت، فلورا شمشون محدثة الصم والبكم.

وفعلاً تمت إحاطة الثلاث فتيات بالخطة فوافقن على الفور، مضحيات برمي آرائهن الشخصية في شخصية «الضالة» بعيداً، وبراحتهن الشخصية في سبيل إنقاذها. وكانت ريموندا فتاة طويلة بها درجة من الضخامة، تحب الأكل شيئاً ما وكانت على عهد الدراسة تحضر ساندويتشاتها معها كطفلة في إبتدائي، لكنها أوتيت عقيرة غليظة متحجرة كعقيرة الشبان، وكان ذلك العيب يؤلمها حينما تتكلم ويحرجها، فتمرست على التكلم بهمس إلى أن نجحت أخيراً (قبل عامين فحسب) في إخفاء عاهتها الخطرة، أما سوزي فهي شخصية منطوية على ذاتها وإن كانت جميلة جداً، خاصة لما تكوي شعرها الخشن الفاتح وتلبس ملابس نظيفة هفافة في الصيف، ويقال أنها تبطن فوق ما تظهر، وأنها من الداخل كنزاً من العقيق اليماني لا يدري به أحد، ومؤخراً خطبت لشاب يصغرها بعام من النوع الذي «كان ضالاً فهدى»، وإن لم تك سبب هدايته، وأما عن محدثة الصم والبكم – الأخيرة – فعلى شخصيتها الرفيعة المستوى إلا أنها كانت حولاء (مع أن والدها طبيب عيون)، وكانت شابة فائقة الطول منحنية الظهر كوالدها، سمراء، والشيء الجميل الأوحد على ما يبدو في جسدها كان شفتيها المكتنزتين. وفي معظم الأحيان كانت الأخيرة – لورا – تنأى بنفسها عن مزاملة الأوليتين، وكان لها عالمها الخاص المسجع الهادئ، لكنها أجبرت نفسها على مرافقتهما لأجل البحث في كيفية «اصطياد» إيمان.

وكانت إيمان قد غدت «فضيحة» مسيحية في الوسط الجامعي – والطبي على نحو الخصوص – من جديد، بسبب مواعدتها لزميلها المسلم

علناً وبسبب عودة الأهواء القديمة والمجون المختبئ تحت الغبار. لقد ازدادت عنايتها بنفسها، وارتدت كل ما هو فاضح كأن موت والدها قد أطلقها من كل التقاليد المعروفة، وتلألأ لسانها بالشتائم الفاحشة علناً، ورجع إليها قطيع الصبيان الذي شتته نزوة الصلاح العابرة، وتبدت دائماً في بنطلون مقلم أمام الكافتريا أما المستشفى فقلما دهمتها. وكان أحمد إكرام يوافيها بعدما ينهي شغله في القصر (إذ كان جد مجد على هوايته في الفتيات) فيواقفها أمام سيارته جنب مدخل المدرجات، وتأخذ هي في الملاهاة والمزاح باليد والضحك الماجن بصوت عال فتلفت إليه الأنظار، ثم يقدمها لصديق أو اثنين من قبيل التباهي، ويجعلان في الحديث والضحك ساعة أو ساعتين، قبل أن ينطلق بها ليتغديا في أي مطعم بشارع الكورنيش. وكان بالحق هائل الحجم كالهضبة، يرفع الحديد، فكان مجتذباً للحسد ناضحاً بالجاذبية الرجولية. والحقيقة أنه على طيشه كان محترماً، فلم يخطر له أن يضاجعها مثلاً أو أن يستغلها أي استغلال، اللهم إلا في قبلة أو اثنتين إذا ضمن أن أحداً لن يشاهده، وكان من ناحية أخرى إنساناً مثقفاً لف وسافر في البلاد، بل كانت له ميول أدبية كذلك، فكان يعلم أنها مسيحية وأنه لا يجدر به أن يحذو معها هذا الحذو في بلد غير متحرر تماماً مثل مصر، ربما في أوربا مثلاً كان ليمارس الجنس مع فتاة من أي دين فلا يهمه، لكنه لم يستطع أن يحجم نفسه عن خوض تلك المغامرة كنوع من التسلية، خاصة وأنه متيقن كذلك مما في عقلها ويدرك أنها بدورها تلهو لا تروم غير اللهو والشعور بالخطر، وكان يعن له أحياناً أن يدرسها دراسات نفسية عن قرب وهو جالس بقربها يرقبها وهي تأكل بشراهة.

وتربصت الفتيات بإيمان ذات يوم حار أمام الكافتريا فلما جاءت تحلقنها كالمنضدة، وبدأن بهزر خفيف ابتسمت إثره، ثم رحن يزيّن لها موضوع اجتماع الشباب بجمعية خلاص النفوس، وكيف أن الدكتور مجدي سيعظ وأن عظاته شائقة فعلاً، وأن ثمة هدية في نهاية الاجتماع، وأن المكان دانٍ من بيتها (إذ كانت تقطن في يسري راغب)، ..... إلخ، فلم يتركنها إلا بعد أن اقتنعت وآمنت بحتمية حضور الاجتماع، ولم يزايلنها

لتجيء من نفسها، بل أكدن عليها أن ثلاثتهن سيمرن عليها بأنفسهن لمصاحبتها للاجتماع.

وكان. وفي تمام الموعد مررن عليها بأنفسهن ليأخذنها وسط لامبالاة الأم التي جلست ببدنها العظيم المكتسي بالأسود أمام التفاز تشاهد المسلسل لا تلقي بالاً لشيء. ثم تكررت الاجتماعات، وحاولت إيمان التهرب كذا مرة لكن هيهات، ومع تواتر الأيام وتردد الصدى داخل الأذنين المغلوقتين —وكما يتوطن الإنسان على شيء بتكراره— توطنت إيمان على اجتماعات خلاص النفوس وألفتها، كما ألفت الثلاث فتيات المتضاربات فأمست تراهن بشيء من الطرافة، وأصبحت تستمرئ صحبتهن وتشتاق إليهن، وهن بدورهن ملن إليها وتوطدت علاقتهن مع بعضهن البعض فوق ذلك. لكن إيمان لم تقلع عن مسلكها في الجامعة، ولم تبطل أحمد إكرام.

وحدث أنه قرب رحيل شهر يوليو أن دعونها لحضور جلسة خاصة للسيدات أقامتها كنيسة الإصلاح على غير العادة لمناقشة: 'كيفية اختيار الزوج للشابات المقبلات على زواج'. وذهبن معاً، وكانت محدثة الجلسة الرئيسية سيدة شابة جميلة قصيرة الشعر في الثلاثينيات لكن بدا أنها —على حكمتها— ضحلة المعلومات بشكل مستفز. واستمرت الجلسة نحو ساعتين ونصف أخذت فيها الآراء وتناقشت كل مع الأخرى في جو مرح عام يسوده الفرح والفخر بمناقشة أمور خاصة فيما بين النساء وبعضهن لا يعلم بها الرجال. واندمجت إيمان في الحديث فأدلت بأن الزوج المثالي هو من يحب امرأته بجد، لا يتزوجها لأجل الجنس أو لأجل المال أو لأنها 'بنت حلال' فحسب دون النظر لمشاعره هو تجاهها ومشاعرها هي نحوه، فإن أغلب الزيجات التي تتم حالياً هي زيجات —في رأيها— فاشلة وتعتبرها زناً! لأنها لم تقم عن حب أو رغبة في معايشة الآخر مدى العمر بأكمله، والله حينما قال: ﴿وعرف آدم حواء امرأته﴾ قصد أن «يعرف» كل منهما الآخر، وأن تعرف الآخر لا يعني أن تدرسه أو تفحصه لكيما تبحث فيه عما ترغبه لنفسك، فهذه أنانية، لأنك تبحث في النهاية عما يسرك أنت وترومه أنت، لكن أن «تعرف» رفيقك معناه أن تقترب منه وتعرف مزاياه ومساوئه لأنك تحبه وتريد أن تعاشره مدى حياتك، وكذا يفعل هو الآخر. فأدهشت جميع

الحاضرات ببأسها وشجاعة كلامها ومعرفتها، إلا أن منهن من استنكرت الصيغة أو التأويل. وقد أغضت عنها محدثة الجلسة إلى نهاية الوقت من باب أن كلامها ظهر «كبيراً» عليها وعلى الحاضرات، ومن باب آخر أنها ودت لو تستمع إلى آراء أخرى، لكن كان من نتاج هذه الجلسة أن تعرفت إيمان على عدد من السيدات والآنسات لم تك تعرفهن من قبل، مثل روحية.

وشغفت روحية بالفتاة الجامحة فكرياً ولما تكن تعرف أنها عين الفتاة التي أغلقت السماعة في أذنها غير مرة من قبل، وبدورها إيمان لم تعلم لكنها أخبرت من الفتيات بعد ذلك أنها امرأة عم زميلهم مارك سعد فأنشأت تضحك في سرها. ولم يصدق المثل القائل ’ما محبة إلا بعد عداوة‘ تماماً في حالتهما وإن اقتربت الفتاة من السيدة والسيدة من الفتاة، لأن إيمان كانت ترائيها ولم تحبها قط حتى بعد أن عرفتها، وفي الواقع لم تعبأ بها كثيراً لكنها أحبت فقط أن تدرس امرأة عم عاشقها وصديقها الطيب لكي ترس على حقيقة حاله. وكان أن دعتها روحية لزيارتها ذات مساء اثنين، فخشيت إيمان أن تصطدم بمارك خاصة أنها كانت قد ابتعدت عنه منذ وفاة والدها، فسألتها إن كان «شبان» بالمكان لدنها لأنها كثيرة الحياء، فضحكت روحية وقالت لها:

— ’ما تخافيش، ما فيش غير ابني وهو بيطلع كل ليلة وما بيرجعش إلا متأخر خالص.‘

أدهشها أن تدعو مارك بابنها، بيد أنها قبلت الزيارة يعتريها التساؤل والفضول. وذهبت إليها في الموعد متخللة ذات الزقاق الضيق الذي يقع فيه محل نائل سيرافيم للنت، حتى بلغت عمارة المصنع كما أخبرت وهي تفكر: هل كان يخلق بها أن تقرن زيارتها بهدية من نوع ما؟ وفي سكة صعودها للدور الثالث — كما أعلمت — قابلها رجل عجوز نحيل أشيب أبلج يلبس بدلة صيفية نصف كم بلون الشاي بالحليب، فوقفت عند البسطة حتى عبر ثم أكملت.

٦. حمَّى ميشيل جورج

تستمر أحلام ميشيل جورج كأنها في كدرها كـ«رسائل من جهنم» — رواية أدولف ثيستد الشهيرة — وفي مدلولها المستتر كإعلانات خاصة لشخصه عن المجد الإلهي. بات يحلم مراراً بأضغاث أحلام منها الطيب الذي يسمو لمنزلة الرؤى السمائية، ومنها النجس. حلم ذات ليلة أنه على أعتاب دخول «السماء» لكن ملاكاً حجزه خارجاً وجل يتكلم معه كلاماً كثيراً عن 'الاستحقاق' و'الأعمال' و'الإيمان'، كلاماً منظماً دقيقاً كأنه إزاء فيلسوف، أو كأن من حلم به فيلسوف (عل هذا الحلم يرجع إلى كتاب «انطلاق الروح» الذي كان قد تصفح بضعة أجزاء منه قبل أن يغشاه النعاس)، ومرة دفع إلى حفل جنسي جماعي، وفي ليلة ثالثة تناقش مع الأنبا موسى الأسود، وفي رابعة قتل هاني طلعت لسبب غريب راجع إلى حقيبة! وفي خامسة تبدى له راهب غريب بعينين ضيقتين لا يعرفه، وفي سادسة ضاجع ممرضة قد شافها مرة في قسم الباطنة مضاجعة عنيفة حتى لقد شعر أن السرير نفسه يهتز معه، واستيقظ غارقاً في المنى فاشمئز من نفسه.

بعض الأحلام — أو الرؤى — الأخرى لم تك على درجة مقبولة من التماسك فتهشمت مع الاستيقاظ، وبعضٌ اختلط فيه الطيب مع الشرير فجاء شيئاً مرعباً منفراً جداً بشكل يفوق الاحتمال، أو صار الشرير هو الطيب والعكس وهذا أنكى وأكثر رعباً، وقد حدث هذا خاصة أثناء الحمى. ولأن الحمى قد لعبت دوراً محورياً عند عديدٍ من أبطال القصص، فإنها قد أثرت على حياة ميشيل بدوره، وغيرت في ترتيب حياته، على الرغم من أن لم تكن لها علاقة لا بالهذيان ولا — في حد ذاتها — بالأحلام...

كان يوماً متوسط الحرارة قليل الرطوبة نادراً في أغسطس عندما تطور سعال ميشيل وركبته حمى شديدة (لقد أصابه السعال قبلها بيومين على الأقل لكنه أهمله). وأنكر عن كل زملائه واختبأ في غرفته طوال النهار، لكن على بداية الليل انكشف أمره، فالتم من حوله زملاء السكن. كان راقداً لا يقوى على رفع يده على سريره المواجه لمدخل الباب مباشرة،

والملاصق رأسه للدولاب المعدني ذي الضلفتين الذي يتشاطره مع هاني طلعت، وكانت لمبة الغرفة — النيون الطويلة — تقف في وضع موازٍ له في السقف (عن كثب أكثر من سرير هاني طلعت في الناحية الأخرى) فألقت بظل الدولاب — عن ميل — على رأسه فاختفى في الظل كأنه يتلفع به كغطاء يقيه من الحرارة والرعشة كما فعل جسمه بكوفرتة حمراء سميكة. وانبرى زملاؤه يتنافسون على فحصه ويتشاجرون على تشخيصه ناسيينه تماماً في الركن، بل إن أحدهم (وحينما سئل الجميع بعدئذ كل أنكر) قد لف مفتاح مروحة السقف فزاد السرعة من اثنين إلى خمسة! خيل لرامي سعيد أنه أول من فحصه، وقد كتب له الروشتة بالفعل آخذاً في التنبيه عليه ونصحه وشرح مواعيد العلاج له كأنه ليس إزاء طبيب مثله، وكان يفعل ذلك مقتعداً حافة الفراش عند وسط بدن «المريض» تقريباً، ماسكاً بيسراه الروشتة التي كتبها ويمناه تربت على ركبته اليمنى في ربتات متتابعة متناغمة مع الكلام الذي يخاطب به ميشيل الراقد الغائب، كأنه يؤلف أغنية، أو كأنما يعطي لنصائحه موسيقى تصويرية. لكنه سقط من عز مجده بعدئذ لما صرح مينا موريس أنه أول من كشف عليه. وامتعض رامي امتعاضاً عظيماً وقال لمينا في استحقار: 'إنت؟!'، ثم وجد أنه شيء لا يقف في طريقه في النهاية فتابع نصائحه لا يلوي على شيء. أما ريمون عادل فجاء بكل هدوء وطمأنينة وأزال الكوفرتة ثم حسر لبسه وأنشأ يسمع صدره بسماعته الـ«ليتمان» التي اشتراها مؤخراً، ثم غطاه كما كان وقال أنها حالة التهاب في الشعب الهوائية. فإذ برامي يعارض مؤكداً أنها حالة التهاب في الرئة. واشتعلت حومة المنافسة فإذا بالجميع يفحصونه تباعاً وكانوا فوق عشرة أشخاص. اتفق أغلبهم أن الحالة التهاب في الرئة فعلاً مع رامي، بينما وقف آخرون في صف ريمون وقالوا أنها مجرد «bronchitis» — التهاب في الشعب الهوائية — ورأى بعض أنها نوبة إنفلونزا شديدة أي أن المرض أساسه فيروسي ولا تداخله البكتريا. ووقف سامح سيف (الذي كان بائتاً مع آسر في تلك الليلة) من الخارج يبتسم متملياً صراع الدكاترة، في حين نفذ مينا بينهم وصرخ فيهم أن يخلوه وشأنه ولا يعذبوه. وعلى أن محور الشجار لم يحل، إلا أن رامي وريمون (مع استشارة بعضٍ من الآخرين) توافقا أن يوصفا له علاجاً مفيداً من المضادات الحيوية وخوافض الحرارة، يمكن أن

ينجع في كلتا الحالتين. ومزقت روشتة رامي الأولية فجلس فضل الله على مكتب هاني وجعل يسطر ما يملى عليه على ورق فلوسكاب من الذي استخدمه هاني في الكتابة سابقاً، كتب حقن فلوموكس ١ جم فايل، وأسبيجك فايل كل ١٢ ساعة (ثم عدلت بعد ذلك إلى مرة واحدة يومياً مع الاستعانة بخافض حرارة قوي آخر على هيئة أقراص مثل سوليد)، وطارداً للبلغم، وهنا رفع ميشيل يده بصعوبة معارضاً لكن رامي أنزل له يده بهدوء وغطاها آمراً إياه بالصمت لكي 'يشوفوا شغلهم'. وبالفعل هبط فضل الله بالترنج والشبشب ليشتري الدواء من الصيدلية المجاورة فرجع بعد دقائق، وهنا ظهرت أكبر مشكلة: من يضرب الحقن؟ كانت المفاجأة المحرجة أن أياً من السادة الأطباء الأفاضل لم يتدرب بعد على الحقن، خاصة الحقن الوريدي حيث أن حقن المسكن وخافض الحرارة مؤلمة جداً إن حقنت في العضل، وهنا تدخل إبراهيم جاد (الساكن مع فضل الله) فتشدق بإمكانيته ضرب الحقن في الوريد، لأنه زار مستشفى بلدهم في القوصية على أيام الكلية فعلمته الممرضات. لكن بعد أن تم ملء المحقن تعسر العثور على وريد بين جيد في ذراعي المريض المكتنزين المكسيين بالسمرة، وحاول إبراهيم مرة لكنه فشل، فمن ثم دفع مع جورج باخوم الجسد العظيم الساخن المرخي جانباً فنخز الإبرة في أعلى فخذه وحقن، فصرخ ميشيل ثم غاب في النوم.

بعد هذا الموقف توطدت صلة ميشيل مع أبناء القوصية لاسيما إبراهيم — الذي ضرب له الحقن — وفضل الله. وكان إبراهيم على نقيض فضل الله تماماً، فإن قصير مثله، لكنه منتفخ، مسطح الوجه، ذو عينين سوداوين براقتين وشارب رفيع منظم، يشبه الخنفس السعيد، وكان من ذوي المال مثل ميشيل، ويرجع أصل المال إلى عرق والده وجهاده طوال أكثر من عقدين كاملين حتى ثبت لنفس اسماً عالياً في مجال جراحة المسالك البولية في بلدته القوصية، فشب ابنه إبراهيم محباً للمظاهر، مسرفاً، والهاً بالأكل والأكلات، لكنه في نفس الوقت طيب، أمين، خدوم، يحب الناس وإن أخذ عليه أنه لا يراعي مشاعرهم — خاصة لو كانوا شبه فقراء من أمثال فضل الله وإبرام (صاحبهم الثالث الذي حول جل

امتيازه للقوصية) – في كثير من الأوقات. وكان ميشيل يختلف إلى حجرتهما (الأخيرة في شقة «٨أ») كذا مرة في اليوم، لاسيما بعد أن تحسن شويا، يدعك فخذيه في تقبض ويبتسم قائلاً: ’خرمت «طيـ. . . . ي» الله يخرب بيتك. أنا لا عمري بحب الحقن، ولا باخد الحقن... آي... «طيـ. . . . ي» حارقاني مش مخلياني عارف اقعد على كده!‘. فيقهقه فضل الله عالياً ويميل للوراء على الفراش رافعاً نعليه كأنه ميزان، بينما تترقرق ملامح إبراهيم في استمتاع وتتلألأ عيناه فيرد عليه: ’ولسه، فاضل لك «كذا» حقن يا بطل وابقى قابلني بعديها لو عرفت تقعد على كرسي تاني لبقية عمرك!‘، ثم يهتز صدره وجسمه كله بالضحكات. مال ميشيل للفتيين ووجد فيهما صحبة مليحة ليست سيئة، وبدوره كان إبراهيم مغرماً بالاجتماعيات يحب الكلام والحديث النظر مباشرة في العينين حينما يتكلم. وصار ميشيل يخرج معهما من آن لآخر يجوبان في شوارع أسيوط في سيارة إبراهيم الـ«سبرنزا»، ثم يتعشون سوياً في الاستراحة. ومن هذه الآونة ولدت عادة جديدة في السكن لم تكن موجودة من قبل بشكل واضح هي أن يتعشى أفراد الدور الرابع جميعاً معاً، ويعدون للأمر من الصباح بشراء زيت أو سمن أو مخللات وتكويم العيش الباقي من الغداء في غرفة آسر مع بعض ما يعطى لهم كعشاء من الليمون والطماطم والبيض (بعد ذلك تقدموا بطلب لتبديل البيض بمربى وحلاة طحينية – لم يكن أحد يأكلها – ما أن هل صيام الرسل)، واشتروا سلكاً حلزونياً جديداً لسخان قديم صدئ كان جورج باخوم قد وجده في بلكونة مطبخ شقته خلف قطع سرير قديم، وتكفل مينا موريس بلم النقود لأجل السمن أو الزيت وآسر بتجهيز السلطة وجورج باخوم بتسخين الطعام يعاونه أي بالعمل على آنية أخرى بها الفول المدمس أو البيض على بوتاجاز الاستراحة بشقة العمال بالأسفل، أما الوحيدان اللذان لم يعملا فكانا هاني طلعت ورامي سعيد، واقتصرت حفلة العشاء هذه على أبناء الطابق الرابع في الغالب، إلا أن في أحيان يكون الزوار عديدين: عصام وأبو علي وياسين وسامح سيف أو بيتر لطفي أو جرجس ثروت أو عماد أخوه، أو عمرو (وهو شاب أسمر ذو بنيان منصوب سليم كان يتردد على آسر ويتبادلان النكات الفاحش وأفلام السكس التي كان آسر يشاهدها – علناً – على مشغل

صغير يستعيره من سامح سيف)، أو أحد 'بلديات' رامي سعيد من DVD بلده ديروط – مثل شاب معين يعيش في القاهرة يعمل مصوراً اعتاد أن يزوره للبحث عن فتاة تصلح ليخطبها – أو أي أحد آخر... فكان يتطوع أحدهم ويستغفر الله وهو هابط – يتذحلب – لكي يسرق كيساً آخر من الفول من ثلاجة الاستراحة بالأسفل في غرفة التلفاز.

قلنا أن حمى ميشيل كانت لها علاقة بمصيره. لقد مدت بينه وأبناء القوصية الجسور، وقد أعلن إبراهيم ذات يوم أن بنيته العروج على دير المحرق – القريب من القوصية – قبل أن يرجع لبيته في نهاية الأسبوع، فعرض على ميشيل أن يرافقه هو وفضل الله. من هذه الفترة بدأ ميشيل يتردد على دير المحرق، في غير انتظام.

٧. رحيل مينا موريس

بجانب روماني عبيد الله الذي غادر بعد تمام سنته المتأخرة بستة أشهر، وجورج عبد الملاك (الذي يدعى أيضاً بـ'الفيل الأبيض') الذي حضر ليقطن –بعد شجار– في غرفة وحده في «٩أ»، فإن مينا موريس أيضاً رحل في آخر أغسطس ليكمل سنته في مستشفى أم المصريين بالقاهرة. كان قد ستر الخبر عن معارفه كافة فلم يعلم بنيته إلا هاني طلعت وعصام، ثم محمد إكرام ومحمد أبو دياب في القاهرة (وكانا من جماعة الإخوان) اللذان استرشد بهما بشكل ما في التحويل. والحقيقة أن باعث تحويله لم يكن تحصيل العلم في 'مستشفى نضيفة' كما قال، وقد أفضى لصاحبيه هاني وعصام فقط أنه في الواقع يحب فتاة في صيدلة وأنه يبطن الزواج بها في نهاية المطاف، لكن الأوان كان إجازة فكان يجد مشقة في مقابلتها في الجامعة الخواء دون إطلاق الشائعات، وكانت هي قد بدأت تلمس شعوره (فمن العسي بالذكر أنهما لم يتصارحا على الرغم من اللقاءات المتكررة، وكانا يؤثران مؤخراً الالتقاء وسط جماعة لتلافي حرج المواجهة) فبدأت 'تتأثر' وتهاتفه باطراد مقلق 'مش في أوانه'، ومن هنا بزغت فكرة ترك المدينة والبحث عن مجال آخر في القاهرة، من طرف تُختبَر المشاعر، ومن طرف آخر عله يجد مصدر رزق جيداً في غضون تلك الأشهر. وقد كان مشهد وداعه جد مؤثر: احتضن الجميع في شجى حتى رامي سعيد وحتى حربي الذي كان ساكناً معهم بالاسم فقط، وقفز تجاهه «قدري» كأن الكلب لمس من الزيطة واللمة أن شيئاً سيحدث لصاحبه وصديقه الذي وقف أمام جسم أزرق كبير، كان الحقيبة. ولكم أجهش مينا واهتز وهو يحضر ذلك المشهد، فقال مشيراً إليه:

– 'حاسس على كده!... أنا متأكد إنه حاسس!... بص! بص! بينط كإنه خايف يا عيني!... [وركع إليه] لأ ما تخافش يا قدري يا حبيبي!... لأ يا بابا!... هات لي حضن كده... كله ها يخلي باله منك هنا... مش ها تخلي بالك منه ياد يا آسر؟'

– 'في عين أبويا يا معلم مينا، ما تخافش.'

وأخذ مينا يتطلع إلي الكلب في شجن، ويملس على شعره الأصفر الذي استطال (لم يكن أحدهم يجرؤ على اصطحابه للخارج كي يخلصه من شعره، فحافظوا عليه نظيفاً على قدر الإمكان بالاستحمام المتكرر، والذي بدأ كملحمة في حد ذاته إلى أن استقرت العادة مع شيء من الرفق)، فقال بتهدج:

– 'مش ها تحلقوا له ؟ شعره طول... غلبان بأمانة... غلبان وطيب!'

وهنا طفق يبكي وأخذ رقبة قدري بين ذراعيه، والكلب أطل برأسه إلى خلفية صاحبه من وراء كتفه وأنشأ يزوم محملقاً بعينيه مستغرباً هذا التقليد البشري العجيب. ثم نهض مينا فوعده عصام بالاعتناء بالكلب إلى جانب آسر (الذي رحب ولم يمانع)، ثم احتضنا طويلاً وكل يربت بقوة على كتف الآخر، مما جعل وسيم يقول:

– 'إيه ديه ؟ أمال ايه امال ؟ شواذ! هيئ هيئ هيئ هيئ'.

ثم حمل عصام الحقيبة وتقدم بها لكي يشيعه إلى المحطة.

٨. تفكير هاني طلعت

كان مساءً جميلاً وقد جلس هاني مكانه يفكر. المكان كان مقهى يلجه الشاب لأول مرة، يفتح بباب على الشارع الرئيسي وبآخر على زقاق فرعي قبع لدن مدخله بائع بليلة ساخنة وفول نابت معروف وازدحم نفسه بباعة الأحزمة الرخيصة والجوارب والملابس الداخلية الذين سادت دوشتهم الممزوجة المكان على الرغم من صوت التلفاز المرتفع. وكان المقهى من الداخل نظيفاً أشماً سقفه يرتفع على عواميد متعددة قتلت الإحساس بالمساحة، وكان كأن كل شيء به مضلع منتظم، من الحيطان حتى الترابيزات والكراسي، فكان جوه غريباً على نفس الشاب وخيل إليه — لسبب ما — كأنه في مصنع خشب! وكان تلفاز يرتفع على حامل طويل بالركن يعرض لآخر مستجدات اضطرابات الصومال، أما هاني فشغل في عالم آخر.

كان يفكر في تأخر الرد عليه من قبل الكاتب الذي راسله. ترى هل قرأ السيناريو فعلاً؟... وإن كان قد قرأه، فلماذا لم يرد عليه؟... أخذه تفكيره — الذي تسنى له الانطلاق في جو جديد يغشاه لأول مرة — إلى مشاهد متخيلة لمصطفى حامد وهو يضحك ساخراً منه وهو يقرأ السيناريو ثم يحذفه. أو يكون قد طبعه على ورق فيلقي به في سلة المهملات. على أنه يجد السلة (الاسطوانية الكاكية) ضيقة فيقوم متغصباً ليعطيه لسكرتيرته كي تتخلص منه بمعرفتها. ثم خيل إليه أنه يشعر باستحقار الكاتب الكبير لعمله الساذج الهابط (لا، بل كلمة 'الهابط' لتستحق أن توصف بها الأعمال التي تستأهل العرض ثم يحط قدرها النقاد!) من مكانه هنا في أسيوط، كأنما صارت لديه قدرة روحانية لاستشفاف مشاعر الغير في مكان آخر إن فكروا فيه وفكر فيهم بما يكفي. 'أيوه، ما فيش شك إنه استعبطه!'، هكذا خاطب نفسه في يأس.

وجاء النادل بزجاجة الكولا الكبيرة (الصاروخ) فخبطها أمامه على الترابيزة الرخامية الموزايكو، مع كوب طويل فارغ، ثم غادر في صمت. بدأ حينئذ هاني يناقش موضوعاً أخطر، الموضوع الذي تجاهله وتحاماه وخافه منذ بدأت قضية «حياته» تنجلي: هل حقاً هو موهوب؟ رشف من زجاجة

الكولا وانحنى برأسه الأصلع كأنما يرتعش من برد، ثم عاد فزحف بمؤخرته على الكرسي الزلج محاولاً إبقاء رأسه مرتفعاً. في الحقيقة إنه كان يرى نفسه موهوباً. لكن، ألا يفعل هل السفهاء والتافهون في زماننا هذا، وفي كل زمان فعلوا؟... لا يدري ما هي الموهبة، لكنه يعلم أن السينما، والإخراج، والسيناريو إلى حد ضئيل لكنه موجود، موهبته ومبتغاه من هذه الحياة. إنه يشاهد على التليفزيون مسلسلات قد لا ترقى لمرتبة المشاهدة على الإطلاق، أفليست كتاباته أفضل من ذلك بكثير؟ كم مرة تخيل نفسه هو الذي يخرج هذا المسلسل — أو الفيلم — أو ذاك، فيصحح ما يشوف من أخطاء ويطبعه بطابعه المميز الخاص ذي «الرؤية»؟ فهو قادر على «النقد» (وإن لم يكن عن دراسة نظرية وافية) بالبديهة التي أصقلتها بعض المعلومات والقراءات. وحين يشاهد الأفلام يفشل أيما فشل في الشعور بشعور المشاهد العادي، فيناقش زوايا الكاميرا، والمؤثرات الصوتية والبصرية، والإضاءة، ويلفظ أشياءً مثل: 'دي حاجة اسمها «crane shot»' أو: 'زي عين الطائر — bird's eye shot — المشهد دا اتاخد'، أو يشير لوجه زميل وهو يشرح: 'اللي انتو شايفينه دا حاجة اسمها «إضاءة رمبرانت»، زي اللوحات بتاعة رسام زمان كان اسمه رمبرانت. المفروض — أيوه كده حول لي وشك — إن الضوء ينزل على جنب واحد وينوره، والجنب التاني في الضلمة'، أو يحكي عن المخرج الذي يترك الحبل على الغارب للممثل، والآخر الذي يكتب سيناريوهاته بنفسه، .... إلخ، فهو ليس إنساناً عادياً على الأقل.

ورشف — غاصباً نفسه — بضع رشفات أخرى وهو يبسط راحتيه على ركبتيه. كانت هنالك مجموعة من الشبان تلعب النرد أمامه مباشرة تحت التلفاز، وكانوا يقهقهون بصخب، وتسلل بياع مناديل صغير بجلباب متسخ من الباب المطل إلى الزقاق، ولما رآه ينظر إليه اقترب منه بقدميه الحافيتين اللتين كساهما الطين فكأنه سترهما من العري، مد الصبي علبة المناديل أمام وجهه المائل وسأله:

— 'مناديل؟'

هز رأسه أن لا. غير أن الصبي تشبث بعرضه فلم ينصرف إلا بعد أن نقده هاني نصف جنيه وأخذ علبة، ثم ارتد لصبية أخرى بشعر طويل

متسخ وفستان قصير كانت جالسة إلى الباب المفتوح على الزقاق بعلبة مناديل أخرى، فانصرفا معاً مهرولين والصبي يصرخ باسم شخص ما. وكانت مراسلة الأخبار ما تفتأ تتكلم لما عاد هاني لتفكيره. دار الفكر حول نفس النقطة: هل هو موهوب؟ قال لنفسه أنه ما يزال لا يعرف ما معنى الموهبة، هل هي عطية الله لشخص معين بحب فرع معين من فروع العمل أو الحياة؟، أم هي كد وعمل، أم هي طاقة مستقرة داخل كل فرد فينا قليلون من اكتشفوها؟، أم هي من عجينة الفرد أي أنها خاصة بكل إنسان غير الإنسان الآخر؟ وكيف يعرف أنه موهوب في المجال السينمائي مثلاً إن لم يمارسه؟ تذكر حينئذ زميلاً قديماً أكبر سناً كان يدعى جورج (هو الحين يقيم في الولايات المتحدة). كان جورج شاباً طويلاً، ذا شعر أسود ناعم كالموهير، فاتح البشرة، لديه أسنان طويلة بيضاء، وكان دائماً مكتئباً قانطاً من الدنيا والحياة ومصر والعالم والكون كله. لعله يشبه أيمن سليم الحين في تصريحاته المتطرفة المخيفة. كان يقول أن الدنيا مكان للعذاب والتعس، وأن السعادة لا يمكن أن توجد فيها نقية أبداً: أنظر مثلاً إلى العروس في ليلة الزفة (كما أعطى مثالاً ذات مرة) علك تظن أن لا سعادة تضاهي هذي السعادة... ولكنك مخطئ... فمن قال لك أن هذا العروس — أو تلك العروس — لا يعاني من مغص وهو يبتسم هكذا أمام كل الناس؟... ومن يعرف، لعله يخاف من أول تجربة جنسية؟... أو لعله في آخر لحظة يراجع نفسه في الإنسانة التي قدر أن يرتبط بها؟... أم ربما يعذبه ذهنه بالتفكير في شأن آخر نحن لا نعرفه؟ فحتى في الزفاف — وإن كان العروس نفسه مغتبطاً — تجد الخوف والقلق والتردد يشوبون السعادة المطلقة التي تخيل للحضور. وكانت لدى جورج نزعات أدبية فقد كان يحب التاريخ والشعر، وكان يخيل إليه أحياناً أنه سيغدو ذا باع في التأريخ — حيث سيكون مؤرخاً ممتازاً — ثم شاعراً حالماً أو شيئاً من هذا القبيل، وكون نظريات غريبة متناقضة حول الأدب والفن بصفة عامة. كان يقول أن الأدب ليس إلا تسلية نحن عظمناها: فلو بحثت في محيط دائرتك لوجدت عشرات من الناس لا يقرأون البتة ومع ذلك فهم من أسعد الخلق. أنظر إلى أهلك القدامى (على حد رأيه) كيف هم لم يقرأوا شيئاً واحداً في حياتهم وكانوا من أحكم وأنبل الناس! أما الفن فهو هراء، فما لنا نحن واللوحات

الزيتية المقيتة والمسرحيات الطويلة المملة التي لا تعطي لكن تضر؟ (كان يعد المسرح فناً خالصاً وليس أدباً) إن في الإنسان من الداخل ذكاءً وحكمة تلقائية يمكناه من أن يعيش حياته بدون أدب أو فن، ويا ليتهما لم يوجدا قط، الأدب والفن، لكي لا يعذبانا!... على أن جورج كان يأتي في لحظات ويقرظ الأدب في هوس ويقول أن الأدب أعظم شيء في الوجود، وأن حتى الكتب السماوية أدب، إلى آخر هذا الكلام، وأن بغير الأدب لأقدم المخلوق الإنساني على الانتحار جراء معيشته في درب الحيوانات! ثم ينخرط في عظات طويلة عسيرة عن أشياء مثل «الوجود»، و«العبث»، و«العصر الجديد» (الذي كان يحب أن يتبعه بترجمته الإنجليزية — New Age — في تباهٍ وهو يميل برأسه)، ويذكر أسماءً غريبة على أذن هاني مثل «رون شوبارد» (كلا بل «رون... هوبارد»، نعم نعم، هو «رون هوبارد»)، ثم ينفثئ في نوبات عظيمة من الإرهاق حتى أنهم كذا مرة كانوا يسمحون له بالراحة والنوم على سرير مينا موريس (في شقة أبراج الزراعيين). هذا قبل أن يوقظه وسيم بنتر الماء على وجهه!

تذكر جورج لأنه كان يائساً فهاجر للولايات المتحدة خالفاً وراءه كل أمنياته الجامحة وباتراً حبل دراسته فقط قبل تمام العام الأخير، وحينما نوقش في تلك المسألة قال: 'أنا اكتشفت إني كنت فاقد معنى الحياة لما جريت في طريق الأدب والفكر ودي حاجات كلها بتقتل الإنسان شوية بشوية لغاية ما يبص يلاقي حياته على وشك وأهم جايين يشيلوه للقبر... تقدر تقول لي ها استفاد إيه لما ابقى «أديب عظيم» لكن لسه ما حبتش؟... تقدر تشرح لي إيه معناها إني «أغوص في أعماق الفكر» وفي نفس الوقت ما طلعتش بره الحيطان اللي احنا عايشين فيها دي؟... أنا عاوز اشوف الدنيا، زي ما خلقها لنا ربنا، خارج حدود «الوطن العربي» و«الشرق الأوسط» و«العالم الإسلامي» خارج كل اللي عشت فيه من يوم ما اتولدت... ويوم ما ها الف العالم كله لغاية ما يبقى ليّ الغلاف الجوي سور ها اسيب الأرض واروح للقمر... أنا اخترت الحرية، ملعون أبو الطب وملعون أبو الأهل أو الطموح اللي يحبسوني!'. أما هو — هاني — فقد تمنى له حظاً سعيداً وودعه غير آمل أن يحذو حذوه، ومن داخله أسف عليه لأن جورج بتخليه عن

طموحه قد «انكسر» أمامه، فهاني يرى أن الإنسان مصنوع لغاية واحدة فقط، إن تخلى عنها عمره ما يجد السعادة.

ولكن، هل هذا نفس شعوره الآن؟ ألخم هاني... ومد نظره نحو الشارع العامر بالحركة فناجى مصر في شجن وهو يهمس: 'يا مصر دا انا عايز أخدمك وارفع اسمك، ما تساعديني طيب'. ثم شعر أن ما يفعله ساذج قليلاً، لأن مصر ليست إنساناً كي تسمعه، ثم لأن الدنيا زحام فلا يمكن أن تميز مصر صوته من بياعين المناديل والأحزمة وبائع الفول النابت. فتلفت حوله لئلا يكون مشاهداً، وبعدها زحف بمؤخرته مرة أخرى على الكرسي الذي لعنه وانبرى يجرع من الكولا بصعوبة.

وكانت القصة التي قادت هاني لهذا المكان إلى حد ما طويلة، لكن هذه تفاصيلها:

كانت رغبة وسيم هلال في العمل كمندوب لدى شركة أدوية قد استحالت استحواذاً وهوساً: أمسى يتحدث في الأمر طوال اليوم وكل الأيام بعدما قام بعمل «C.V» عند نائل سيرافيم مقتبساً فقرات بلامون ظريف كلها (حتى كاد ينسى ويخلي رقم تليفونه محله قبل أن يتدارك نائل الموقف، وفي النهاية لم يرضه الـ«C.V» كثيراً ورأى أنه قصير وأن خلفية الورقة البيضاء ظاهرة أكثر من اللازم)، وقدَّم في صيدلية بشارع ثابت انكشف أن آسر يعمل مسوقاً لمصنوعاتها البسيطة منذ شهر ويغطي على سره، فسلم ورقته لصاحبها الصيدلي وانتظر، لكن مر أسبوع قبل أن يعلم بالرفض، فحنق وماج وارتعدت أوصاله بالرغبة في العمل بأي شكل كان. حتى وصله أن شركة محلية (مكتب توزيع) تروم مندوبين نصف دوام بمرتب يبلغ ستمئة جنيه، وأنها قد حددت لقاءً للراغبين في شارع النميس في مساء سبت. وفي يوم الجمعة السابق ليوم الـ«interview» أرغم هاني طلعت على أن يدور معه في شوارع أسيوط كلها يبحث عن حلة جديدة تنفع للقاء العمل، وكانت لديه ثلاث بدلات بالفعل لكن أياً لم ينجح في إقناعه بعدم ضرورة شراء بدلة جديدة، فجالا بمقدار أميال في ذلك اليوم ووسيم غير منجذب ناحية حلة بعينها، وفي عديد من المرات دلف إلى المحل واستبدل ملابسه، وقاس، ثم في النهاية تركه وعلى محياه تكشيرة

عدم رضا. لكنه ابتاع واحدة أخيراً من محل «سيليني» لونها فئراني لأن اللون الفئراني كان ينقصه، وأتبعها بقميص رمادي فاتح من نفس المحل، ثم بكرافتة مقلمة بميل يشغلها اللونان: الأسود والرمادي الخافت، ورجع للاستراحة مبسوطاً مزهواً ذلك اليوم، وعرج على محل قرب السكن واشترى له ولصاحبه ساندويتشات كبدة مقلية. وجعل في الليل يقيس ويعيد ضبط ربطة الكرافتة وهو مستاء (مع أنه سعيد)، ولمع جزمته المشققة السطح (من عجب أنه لم يذكر جزمته في أثناء تحضير نفسه للقاء العمل)، وقد أضجر ذلك زميله في الحجرة سمير رمضان فتشاجر معه، فلم ينم إلا على أثر ذلك الشجار، مع أن أيهما لم يغف أكثر من ثلاث ساعات... وترقب زملاؤه في السكن ما سيحدث بشغف وتبادلوا التصورات الكوميدية: كيف يفعل وسيم في الـ«interview»؟ هل يزري بنفسه بلغته القروية الفاضحة؟ وكانت قد غدت عادة له مؤخراً أن يخلط ما بين «الصعيدي جداً» و«البحراوي جداً» في حديثه وهذا أسوأ، كأن ينطق القاف ألفاً ويعطش معها الجيم—وكيف يرد على أسئلة رجال شركات الأدوية المتحذلقة السفسطائية؟ وماذا عن رائحة فيه؟! . . . . إلخ. وانتظروه فارغين من الصبر إلى أن ثاب، بادياً عليه الإرهاق يحمل كيس ساندوتشات الكبدة، بيد أنه صعد لا يلوي على شيء معللاً أنه متعب. فتربصوا به في المساء لئلا يهرب على أنه نزل من ذاته بالترنج وكان واجماً، واجتمعوا به في حجرة مينا موريس الذي قادهم في الاستجواب الطريف. وكان مينا في الواقع يبطن نية أخرى، هي أن يستشير وسيم في تكلفة الزواج التقريبية في تلك الآونة لأن وسيم من المعتقين في هذه الأمور وقد زوج أخته ومن المعلوم أنه يجهز شقته في بني مزار، لكنه استهله بأسئلة متتابعة عن كيفية سير اللقاء، وماذا حدث بالضبط. سأله أن يحكي بالضبط ماذا حدث فقال وسيم في ضيق لكن في نفس الوقت ممثلاً الاستهانة:

— ’كانت واضحة م الأول... الشغلانة دي كانت معمولة لبت.‘

— ’طب احكي لنا بس —خلاص ياد يا فيل انت —هاه؟‘

— ’ولا حاجة... رحت زي ما قالوا لي لقيت لك الدفعة كلها هناك... بيتر سميح، وبلامون ظريف، وحتى الواد وائل أفيون كان هناك، وخد عندك سمير غطاس، رايح يقدم عشان عايز يتجوز، وجرجس إدوارد اللي

عاملي فيها عم ابو الطب كان رايح برضه. وقعدونا في صالة كبيرة في شقة دور أرضي جنب محل بتاع عصافير. ولقيت لك المكان كله بنات، وخلوا كل واحد يخش بدوره.

'المهم يا عمي، دخلت، لقيت مكتب واسع حلو وراجل قصير صدقني مش باين من مكانه كدا. [تنهد وسيم] قعد يسأل فيّ: "حضرتك ليه عاوز تشتغل مندوب أدوية يا دكتور وسيم؟". فقلت له: "أنا كان نفسي من زمان أشتغل مندوب. وبعدين أنا فاضي في السنة دي، وعايز أشغل وقتي..."، فقال لي: "طب ما في شغلانات تانية كتير ممكن تشغل فيها وقتك. خد نبطشيات مثلاً، في أي مستشفي"، فاتلخمت وقلت له: "حضرتك أنا كان نفسي أشتغل مندوب". راح سكت شوية وبعد كدا سألني: "طب يا دكتور وسيم، لو قلت لك: «عرَّف لي الدكتور وسيم»، تقول لي إيه؟"...'

– 'وقلت له إيه يا حزين؟'

– 'إستنى شوية الله يخليك دي كانت مقابلة زي الزفت. قلت له: "قصد حضرتك إيه يعني؟"، فقال لي إن قصده قال عايزني أعرف نفسي لو طلب مني دكتور أنا رحت له. فقلت له: "وسيم هلال، شركة «كذا» مع حضرتك يا افندم..."، وبعدين سكت!'

– 'وقال لك إيه بعد كده؟'

– 'ولا حاجة، وراني قلم جاف وقال لي: "إتفضل ده هدية مني يا دكتور وسيم". فما قبلتش. وبعدين قال لي شكراً وقال إنهم ها يردوا عليّ بعد كدا... لكن يا عمي دي شغلانة معمول حسابها من الأول. وبعدين سمعنا إن البت مريم شنودة متوصي عليها وهي اللي ها تاخدها.'

ثم ضحك مستطرداً:

– 'لكن بعيد عنك ما شفتش وائل دميان الأفيون، العبيط راح الـinterview بالبنطلون الجينز والكوتشي ومش حالق دقنه! هيئ هيئ هيئ... ولا سماحة الأهبل، فارق لي شعره زي الغول وشعره مليان قشرة عمال يسألني بعد ما طلعت: "قال لك إيه؟ قال لك إيه قل لي بسرعة غششني؟!" هيئ هيئ هيئ هيئ'.

وبعد أن سرُّح كلٌ لحجرته، قام مينا فأغلق الباب فاقتصرت حجرته عليه هو، ووسيم ثم هاني. ثم بدأ يتلمس دربه في الإطلاع على كل ما في جعبة وسيم حول أسعار الشقق وأثمان غرف النوم والعفش والمفروشات وخلافه، وكيف يتم التوافق بين أهل العروسين حول جميع ذلك، محاذراً أشد الحذر في إطلاق ريبته أو فضوله حول السبب الحقيقي لكل تلك الأسئلة المتتابعة، مدعياً أنه ما إلا يستفسر فقط لأجل 'بكره وبعده'. أما هاني فقام أغلب الوقت بدور المستمع فحسب، كان يعف بنفسه عن التكلم في مثل تلك المواضيع، وكان يرى أن عبارات مثل 'جهاز العروسين' أو 'غرفة النوم' في حد ذاتها عبارات مقيتة مقززة تشمل معانيَ جنسية واضحة يتداولها الناس فيما بينهم يومياً بدون خجل، وأن ذي الشئون برمتها تخص «عامة الشعب» دون غيرهم من المثقفين المتحضرين... بناة الأمم. وأين ذلك من قمة المجد الفني الذي يسعى إليه؟ هل كان يبخس نفسه قيمة حين يجالسهما؟ وكان هاني مهموماً ذلك المساء.

ولم تقف محاولات وسيم عند حد الفشل في مقابلة واحدة. كان رفيقه – المجبر – هاني طلعت يدرك أن أبخس شركة في مصر لن تقبل بوسيم هلال ممثلاً لها، وكان محيراً بجد في كيفية نقل الصورة له دون أن يجرح مشاعره. فكان يشاركه في مشاوير شراء الملابس، ويبدي رأيه في أفضل الشركات وأليق المرتبات، ويساعده في الاتصال بهذا أو ذاك كي يمهد له الطريق، كل هذا وهو مهموم من الداخل، فوق سبب تأخر رد الأستاذ مصطفى حامد الخاص به شخصياً، بسبب تحسره على خيبة أمل صديقه الطيب المرتقبة. والحقيقة أن ما فعله وسيم لكي «يعد» نفسه للمهنة ليستحق مكافأة على الأقل، فهو قد باعد بين فترات شرب الشيشة عسى أن يحسن من أنفاسه (أمر ضرسه التالف كان بعيداً عن الخاطر)، وحلق شاربه متحملاً السخرية التي أعقبت ذلك مع أن منظره في الواقع قد صار أفضل وأنظف، ودرب لغته إلى أن ابتلعتها الأذن، وصعدت اجتماعياته بفضل جده في البحث والسعي فاختلط في زملاء من دفعته لم تك له علاقة بهم في السابق، وحادث بعض الإناث، وقرأ بعض الكتب علَّ ذهنه يتفتق عن ردود سريعة ذكية لأسئلة المقابلات. على أننا نرجع في الآخر

ونقول: إن الإنسان مهما تهندم و'تسنفر' – كما تقول العامية – إلا أنه من الداخل يبقى كما هو، ومشكلة وسيم هلال أنه كان وسيم، وربما لو كان أحداً آخر وفعل ربع ما فعل فحسب لحصل على عمل من أول نهار!

ووقع في أحد الأيام من أوائل سبتمبر أن وسيم سمع أن عضواً كبيراً بإحدى الشركات مقيم بفندق أسيوتيل، وأنه يتلقى طلبات العمل في مقر إقامته المؤقت. وكانت تلك مشكلة، ذلك أن «C.V» وسيم لم تكن منه إلا نسختان، إحداهما سلمها لصيدلي شارع ثابت الذي يعمل عنده آسر، والثانية قدم بها في الشركة التي أجرت لهم لقاءً في شارع النميس. وثار وسيم ولبسه السخط وقال في حرقة أنه يائس من 'حركات' القدر غير الشريفة التي يفعلها معه. بدا تعيساً جداً كأن فقد عزيزاً، فأشفق عليه هاني رغماً عنه، ولفت انتباهه بنقطة لم يأخذ باله منها وهي أن نائل سيرافيم لابد لديه نسخة احتياطية على جهاز الكمبيوتر وأنه يمكن طباعتها مرة أخرى إن توجها إليه. وفي نفس المساء زايلا الاستراحة متوخيين قصد نائل سيرافيم في محله.

وصعدا للطابق الثاني حيث نائل موجود فوجدا صخباً وضوضاءً، وكان الباب مفتوحاً بحرية، وألفيا نائل يلعب من الصبية الصغار لعبة للحرب والقتال، وكان مشغولاً جداً فلم يرفع إلى أي منهما ناظريه لئلا 'يموت'. وسأله وسيم هل لدنه نسخة من الـ«C.V» في أحد الكمبيوترات، فأجاب وهو يلعب أن نعم، فتابع وسيم في غبطة هل بإمكانه أن يستخرجه له، إلا أن نائل لم يحر رداً حتى أغلق له وسيم الشاشة في غضب. فارتفعت ضوضاء موسيقية من السماعتين الصغيرتين الموضوعتين إلى يمين ويسار الشاشة بما يعنى أنه 'مات' على أن الكائن الصبياني الغريب لم يحنق أو يزعل، ابتسم فقام من مكانه وهو يبتدر وسيم:

– 'طب انت عارف إيه معناها «C.V» دي طيب؟'

فهز وسيم منكبيه بمعنى أنه لا يعرف.

– 'معناها: «curriculum vitae»... عارف يعني إيه « curriculum vitae» دي؟'

فأشار وسيم إلى أنه أيضاً لا يعرف، فقال نائل هازاً هو الآخر كتفيه ضاحكاً أنه بدوره لا يعلم. وبحث صاحب المكان عن الـ«C.V» إلا أنه صرح في النهاية أنه لم يجده على الجهاز الذي يعمل عليه (أو يلعب عليه)، ولا مفر أنه موجود على أحد الكمبيوترات الأخرى التي يلعب عليها العيال الآن. فاستنكر وسيم وطلب منه مقطباً أن يقيمهم إذن. على أن نائل أدلى بإعلان غريب أنه لا يستطيع أن يجعلهم 'يقطعوا اللعب'. فاشتعل وسيم غضباً وصرخ وتردد صدى صراخه في الشارع أنه يريد الـ«C.V» لأمر هام، وأن آخر موعد للتقديم هو الليلة. بيد أن أقصى ما فعله نائل أن سأله أن يسأل الصبية الصغار أن يوقفوا لعبتهم لدقائق ريثما يتأتي له أن يعمل 'sharing' على أجهزتهم، لأنه لم يعمل 'sharing' على الـ 'C Drive' من قبل. فانفجر فيه وسيم أنه لم يأته ليجادل عيالاً صغاراً، وأنه كان يحسبه عاقلاً فإذا هو مجذوب. حينها انفعل نائل فزوى حاجبيه وأطرق، في حين انطلق وسيم للخارج كالطلقة وهو يصرخ في صاحبه أن يتبعه. أما هاني الطيب، الموزع بين استهجانه لمنهج صاحب المحل من ناحية، وعوفه المشاجرات والمشاحنات و'الزعل' من ناحية أخرى، فميله الطريف لنائل الكائن العجيب من ناحية ثالثة، فاختلج نعلاه في المكان بين الداخل والخارج، ثم دنا على عجل من نائل فاعتذر إليه بالنيابة عن رفيقه، فتنهد نائل وطلب منه أن يتبع زميله ليرى ما به. ثم تنهد مرة أخرى متعجباً من مسلك وسيم، فاعتذر إليه هاني مرة أخرى.

وخرج هاني ليلقى زميله قد سبقه بأمتار ناحية يسري راغب. كان ثائراً كالبركان، وتسرب وجهه عن قطرات عرق غزيرة كأنها بخار ماء متكثف على سطح زير في يوم قائظ. في الواقع كانت لدى وسيم مشكلة في الانفعالات، فكان ريقه يجف وبشرته تضطرم ناراً وضربات قلبه تتسارع بشكل غريب ويركبه السهاد إن وجد أي شأن ليقلقه، وعلى أيام الامتحانات لم يك يغفو إلا بأقراص الفاليوم، وقد أدمنها وتوطن عليها جسده فزادت جرعاتها تدريجياً حتى مع أنه لا يتعاطاها إلا من السنة للسنة. وقد ارتاب في فترة أنه مصاب بمرض في الغدتين فوق الكلويتين يسمى «pheochromocytoma»، وهو مرض ناشئ عن ورم دقيق بالغدة فوق الكلوية ينتج عنه زيادة مفرطة في إفراز الأدرينالين والنور أدرينالين،

فلبسه توتر أكثر، وكأي طالب طب يتردي في دوامة الوهم المرضي (ومن هنا خرج مرض شهير يعرفه جميع طلبة الطب يدعى « medical student syndrome» يصاب فيه طلبة الطب بوسواس مرضي لكل شيء يدرسونه) فقد شعر أن صفات ذلك المرض بدأت تنبطق عليه تدريجياً بالضبط... بل إنها لم توصف إلا على حالته!... وقام بعمل رسم قلب في مستشفى القصر مع أن رسم القلب ليس هو أداة تشخيص ذلك الداء وكان يعلم ذلك، وعرضه على أحد أساتذة الباطنة فأعلنه أنه سليم من الناحية النظرية وأن ليس به شيء مريب، فعقد النية على عمل تحليل أدرينالين في البول كأداة تشخيص لمرض الـ«pheochromocytoma»، ومضى بالفعل إلى معمل البرج، ليرجع مكتئباً وساخطاً يومها، لأنه أعلم أن التحليل ثمنه يدنو من تسعمئة جنيه. ولم يلق الموضوع خلف ظهره حتى الحين، لكن أصحابه – لاسيما هاني ورأفت وشيرين – كانوا يهونون من أمره ويشككونه في صحة انطباق المرض عليه، ولعله ما كان ليستطيع العيش لولا أصحابه (الذين ينكر أغلبهم في الواقع صداقته من وراء ظهره، وبعضهم من الداخل – والخارج – يستحقره)، و'الشاي'، وحبه للفكاهة الماجنة الشاذة والإثقال على الغير اللذان يمثلان عنده حب الحياة.

وهدأ هاني صاحبه ببضع كلمات مستعيبة لسلوك نائل ومستهجنة إياه، ووضع يده على كاهله الذي وجده ساخناً ومبتلاً. ولم يملك وسيم أنفاسه إلا بعد شرب كوب من العصير في محل «عصير العربي» الذي يحبه بامتداد يسري راغب، مع أن الدم لم ينزل عن عروق وجهه الذي سيظل محمراً حتى نهاية الليلة، ثم أخبر رفيقه أنه مضطر لإحضار نسخة الـ«C.V» التي سلمها للصيدلية في شارع ثابت لكي يستطيع التقديم الليلة قبل فوات الأوان.

وكان شارع ثابت في أسيوط قد اشتهر (ونرجع ونقول على الأقل في وقت كتابة هذه السطور) منذ أمد طويل بشيئين اثنين لم يتسن للزمن أن يبدلهما بعد: عيادات الأطباء التي غص بها الشارع واستقطبت الناس من أقصى الصعيد حتى أقاصيه، ومحل «كشري الحمصاني» الذي كان علامة الشارع الوحيدة في الواقع في أذهان بعض. أما الصيدلية التي توخياها الشابان فكانت في منتصف الشارع تقريباً: موضع معتق في القدم ذو

واجهة منحلة فاتحة تقع لصق مقهى واقع بدوره في قاع فندق، وقد طلب وسيم من صاحبه أن ينتظره في مقهى الفندق ريثما يحضر الـ«C.V» الخاص به. ومن هنا نجد أن المكان الذي كان فيه هاني كان مقهى في شارع ثابت أسفل فندق.

وتأخر وسيم فامتعض صاحبه على الرغم من الهدوء الذي ناله في المقهي الصاخب. كان قد أنهى الكولا، وجلس في سأم تناوشه بعض الأفكار الشاذة الموسوسة من تلك الأفكار التي تناوش بعض المؤلفين في أوقات الكساد الفكري. إحدى تلك الأفكار دارت حول جملة كتبها في حوار السيناريو الذي أرسله، حينما تعترف «نهاد» — بطلة الفيلم الفلاحة — لأحمد فوزي — البطل — أنها تحبه بعد طول تردد بين عائلتها ومشاعرها، أيهن أخلق: أنا مش عارفة أقول لك إيه... بس اللي اكتشفته إن انا حقيقي باحبك!' أم 'اللي عرفته مرة واحدة إني باحبك!' أم 'الحب اللي ما كنتش باسمع بيه هو اللي جابني ليك هنا هوه!'، أم بحق السماء ما الفرق بين الجمل الثلاث؟! وهل فعلاً هناك نقد يمكن أن يوجه لعبارات الشخصيات مع بعضهم بعضاً؟!... هل هناك فارق بين العبارات التافهة القصيرة التي يتداولها الأبطال فيما بينهم بعضاً في بداية السيناريو مثلاً؟ هل يفرق 'صباح الخير' عن 'صباح الورد'؟ أم أن الأمر جميعه تافه حقير؟... ودارت مثل تلك الأفكار بدماغه وهو جالس مكانه يتململ، حتى أقبل وسيم يمسك بورقة ملفوفة داخل ورقة أخرى وضح أنها الـ«C.V».

٩. الإنسان الميت المتحلل

على الرغم من أن إيمان قد أبغضت روحية من داخلها كل البغض، إلا أن زياراتها لها لم تتوقف. وكانت تنتقي أوقاتاً تضمن أن يكون مارك غير موجود فيها، فقلما خاطبته منذ توفى والدها، وإن تلمحه يتلصص عليها في ألم وهي تقف مع هذا أو ذاك، فإنها كانت تغضي عنه في ضيق، وهي تقول في نفسها: 'وبعدين معاه ده؟ ليه ما يبقاش «عادي» كده ويسهل الأمور عليّ وعليه؟'، وكانت ترى أنه لو أصبح «عادياً» لربما رجعت المياه لمجاريها بينهما، مع تحوير بسيط في معنى العلاقة، أما أن يقوم بدور الصبي المجروح الولهان المستضعف، فهذه خنقة!

وقد وقع في زيارتها الأولى أن لم يتسن لها أن تكبح فضولها في أن تطلع على غرفة مارك وترى كيف يعيش. كانت آنئذ هنالك سيدتان أخريان في ضيافة روحية، إحداهما تدعى مدام سامية، وهي سيدة طويلة ممتلئة حمراء الوجه بشعر قصير مصبوغ، والأخرى نحيلة ممصوصة الجلد ينكمش وجهها كله حين تبتسم وكانت مطردة النسيان تدعى مدام جانيت، وكانت تعرفها من أيام الطفولة، فهي أم زميل مدرستها القديم مارك رفعت، الصيدلي حالياً. وكانت الضيفتان الأخريان تشاهدان التلفاز في الصالة، وتتضاحكن حول أحداث المسلسل (مع أن مدام جانيت كانت تستفسر بعدها من صاحبتها عن تأويل المشهد)، بينما روحية في المطبخ تحضر لهن مشروباً، لما استقرت رغبة إيمان أن ترى غرفة مارك بأية وسيلة كانت. فقامت متذرعة بمساعدة روحية في المطبخ، الذي كان بجانب باب الشقة، ومضت إليها تحاول أن تعينها، لكن روحية ضحكت، وأبت لأنها كانت ضيفة. ثم جعلت المضيفة تسألها عن آلها وعائلتها ودراستها، وحينما علمت أنها في ذات دفعة مارك اكتفت بالاندهاش، لافظة فقط:

— 'ياه... دا انتي في نفس سن مارك ابني!'

وكانت تحضر الليمونادة بطريقة أنيقة مقشرة كل ليمونة في البداية بمقشرة صغيرة كانت لدنها قبل أن تخلطهن في الخلاط، ثم كانت تعد بعض الثمار الصغيرة الأخرى لتقطع أرباعاً ثم ترشق في حواف الأكواب.

وراقبتها إيمان قبل أن تسألها أن تتجول قليلاً في الشقة، فقط لتطلع عليها. فرحبت روحية أيما ترحيب، لكنها استدركت:

– ’لكن حاسبي لتصحي حد.‘

لم تك إيمان تعلم أن هناك أحداً لإيقاظه، فأخذتها من قبيل الفكاهة أو النسيان. وكانت الصالة – بأنتريهها النظيف المائل للقرمزي والبيج وتجهيزها – تحتل جل مساحة الشقة، ولما يكن هنالك صالون، وكانت هناك ثلاث غرف فحسب، فركبت إيمان الحيرة في أي غرفة يقطن مارك؟ وفكرت أن ترجع وتستشير صاحبة الدار لكنها انثنت لئلا تثير شكها، وتقدمت فاختارت أقرب غرفة من موضعها، وهي الغرفة القريبة من باب الشقة. رأتها مظلمة من الزجاج العلوي للباب فتشجعت، وخطت بحرص من خلف مدام سامية التي انطوت على نفسها تقترب من شاشة التليفزيون، وكان الباب قديماً مطلياً بالأبيض، مصنوعاً على الطراز القديم من خشب رقيق للغاية، فمسكت بمقبضه في خفة وفتحت، فصر صريراً لطيفاً لم ينتبه إليه أحد... كانت العتمة هي الساكنة، بيد أنها استطاعت تبين سرير عريض يقع في وسط الغرفة مما وصله من حزمة الضوء التي تسللت من فرج الباب. ثم بساط صغير مفروش على الأرضية مزركش بطريقة فارسية، وأخيراً لا شيء آخر. فلم تتقدم خطوتين حتى ساءلت نفسها مرتابة: ترى هل هذه غرفة مارك فعلاً؟ حتى إنها ولفي تساؤلها، أتتها الإجابة في صورة حشرجة وتأوه أوقفا الدم في عروقها!

تذكرت كل هذا في سيارة الإسعاف. كانت تشعر بشعور معقد خليط من الضجر والمغامرة، والحرج والحزن. وكان مارك رفعت يجلس إلى جوارها يلتصق بها بشكل مستنفر، منفصلاً عن ابن جنسه – أحد أبناء عمومة مارك سعد – المطرق في تفكر آخر المقعد. أما على المقعد المواجه فقد جلس ممرضان، أحدهما أسمر سمين، والآخر طويل، حتى أنه – الأخير – في قعدته طال رأسه سقف السيارة فانحنى به، وكان الممرضان يتناولان حديثاً طريفاً، منه:

– ’حسن نصر الله ركبهم في أفكارهم!‘

– ’تعرف؟ الراجل دا راجل بجد.‘

– ’خل بتوعوت فلسطين «يتنا . . . . وا» طالما هما قايمين لك على بعض!‘

– ’هـا هـا هـا، الله يخـرب بيتـك يـا احمـد. بـس انـت شـفت الفلسطينيين؟! دول كانوا ها يكسروا معبر رفح!‘

– ’يكسروه؟! يا خي دا «أ . . . . ه»، يعني هي البلد ناقصة زحمة؟! أما احنا على كدا مش لاقيين ناكل، روح يضيفوا لنا آلاف مألفة؟!‘

– ’بس دول مسلمين يا احمد! يعني احنا المفروض نوقف جنبهم.‘

– ’وهو مين وقف معانا أيام حرب اكتوبر؟ كل بلد وفيها اللي يكفيها. وبعـدين – هـأو – طالمـا انـت عاجبينـك قـوي كـدا روح حـارب معـاهم يا سيدي.‘

فقهقه الممرض السمين، فتابع الطويل:

– ’ولا روح لهم رفح. رفح مستنياك يا حبيب قلبي.‘

واستمر الممرض السمين في القهقهة، ثم قال:

– ’إنت عارف ياد يا احمد؟ إحنا اللي خسرناه صح الرئيس السادات، كان راجل مسلم، من صلب مسلم.‘

ثم استطرد متنهداً وهو يرجع للوراء ويشير إلى نفسه:

– ’إحنـا الحمـد لله شـعب مسـلم، ورئيسـنا راجـل مسـلم – إحنـا مسـلمين ورئيسـنا راجـل مسـلم يـا احمـد – بـس الراجـل التـاني دا خسـرناه بجد، كان «رجل حرب»، يعني من غيره كان زمان اليهود الكفرة عمالين يرتعوا في سينا لغاية يومك دلوقتي! الزمن دا إحنا محتاجين لنا واحد زي كدا، واحد يكون مؤمن بدينه بينفذ تعاليم الإسلام بالحرف زي ما أنزلت، مش— الله، هو بيتهز علشان العربية ولا هو كدا م الأول ياد يا احمد؟... آه، هو كدا م الأول باين عليه. مش صح يا دكتورة؟‘

وضاقت إيمان بملامسة زميل المدرسة القديم لجسمها بهذه الطريقة فزحفت عنه وهي تنفخ. أما هو فارتسمت الابتسامة الساخرة على فيه كأنه استمتع أكثر بالوضع، ثم زحف بدوره يطاردها. وبلغوا الجامعة على أن الممرضين لم يوقفا حديثهما. ثم توقفت السيارة فنزل عامل من المقدمة وفتح الباب ثم انبرى يشد سرير المريض بينما الممرض السمين يقول له:

– ’ما كانش المفروض تقعد قدام.‘

وشُدَّ السرير فانفردت عجلاته بسيقانها فتولى العامل المقدمة، والممرض الطويل المؤخرة. وهبطت إيمان بمعاونة الأستاذ نظمي – ابن عم مارك سعد – الذي قال في قلق:

– 'نستنى طنط طيب؟ ها تعرف منين مكانّا؟'

غير أن إيمان طمأنته أن السيدات – الوافدات في تاكسي خلفهم – لابد سيسألن عن الاستقبال العام ومئات من يرشدونهن إليه. وكان الأستاذ نظمي من أصغر أبناء العمومة وهو بعينه صاحب محل «أوتيلو» بشارع النميس، فكانت خبرته قليلة واعتمد بشكل أساسي على 'الدكتورة' التي صودف وتواجدت وقت الحادثة فألقى عليها زمام الأمر. وساقتهما إيمان إلى الاستقبال العام – حيث سبقهم الممرضان والعامل – والرجل يتقدمها بخطوة في حياء والشاب يكاد يلتصق بها. وكان الاستقبال العام عبارة عن مبنى من دور واحد خارج مبنى العيادات بالقرب من البوابة، له باب خشبي أصفر كبير بمصراعين ويؤدي إلى ممرات وتقاطعات شتى. لكنها كانت تخبر الاتجاهات، فقادتهما والأستاذ نظمي يسأل:

– 'هنا؟... من هنا؟... طيب، متأكدة طيب؟... أماكن كئيبة ربنا يحمينا منها!'

أما مارك رفعت فقال في جدية يستغرب أن تخرج منه وهم دالفون:

– 'طول عمري كان نفسي أدخل طب. بس ابويا ما رضيش أبداً.'

وقع قوله من أذني إيمان موقعاً غريباً، فسألته:

– 'عشان الصيدلية؟'

أومأ أي نعم في صمت. وكانت حجرة الاستقبال العام عبارة عن بهو فسيح يشبه الشارع في ضوضائه وبنيته، يقبع كشك التذاكر في أوله، ثم يمتد صف طويل إلى اليسار من كبائن – أو أسرة – متصلة للكشف تفصل بينها عازلات ألومنيوم وتسترها ستائر في أحيان كثيرة تكون ساقطة أثر حلقاتها المنفلتة أو الضائعة. بيد أن إيمان تخطت بمرافقيها تلك الحجرة وعبرت بهما إلى حجرة تالية قالت – دون إيضاح – أن 'عمو بولس' مؤكد أنه جلب إليها. وكانت حجرة أخرى أضيق تراصت بها الأسرة بستائرها وغصت بالحركة في مختلف الاتجاهات، وكان طبيب قصير بشارب صغير مثل «تشارلي تشابلن» – أو «شكوكو» إن أردنا أن نكون وطنيين – يميل

على المريض يفحصه وآخر طويل ببدلة عمليات سماوية وبالطو بجانبه يقول له:

– ’Stroke[٢٣] يا دكتور فنجري ؟‘

فهتف الطبيب القصير وهو ينظر حوله:

– ’فين أهله ده ؟‘

فجرى الأستاذ نظمي نحوه فسأله الطبيب:

– ’إنت ابنه ؟... آه، طيب. كان عنده حاجة تانية قبل ما يجي له ده ؟‘

كان ابن الأخ الصغير – نسبياً – في قمة من الاضطراب والتلعثم، لكنه أفضى إليه بما معناه أنه لا يعلم يقيناً ولكنه كان عاجزاً لا يتكلم وأن زوجته أعلم. فصرخ الدكتور فنجري:

– ’وهي فين مراته دي ؟!‘

فأدلت إيمان في ثبات عاقدة ساعديها أنها في طريقها. فهمس للآخر بجانبه:

– ’هاتوا له روماني، هه ؟‘

فهز الآخر رأسه بمعنى ’حاضر‘، فانطلق الدكتور مبارحاً ولدن الباب التم حوله جمع من أطباء الامتياز، كان من ضمنهم مارك سعد.

وفي حين جعلت إيمان تشرح لرفيقها الصيدلي معنى ما اشتبه أنه عند المريض – الذي كان عم مارك – اقترب مارك عن حذر، حتى إذ رأى عمه ممداً فوق الفراش، وإيمان ومارك رفعت (الذي كان يعرفه سطحياً) بجواره، حملق فيهما معاً، ثم صاح:

– ’إيه اللي حصل بالظبط ؟!‘

والواقع أنه اشتبه أن وجودهما هنا مع عمه مصادفة، بل خيل إليه – طالما أن إيمان تزامله في الخاصة (التي كانت آنها أمراض القلب «coronary») – أن إيمان هنا عن عمل، على الرغم من أنه لم يرها وهي قادمة وأنها لم تك ترتدي بالطو. وألخمت إيمان بدورها ولم تدر ماذا

---

[٢٣] حادث دموي في المخ، المعروف عامياً باسم ’الجلطة‘.

تخبره، على أن مارك رفعت رد بهدوء فأخبره أنهما كانا في شقة عمه حين فجأة حدثت له نوبات صرعية وأخذ يئن، فطلبوا الإسعاف وجاءوا معه. ثم أخبره أن 'طنط روحية' في طريقها مع والدته وبعض زوجات أبناء عمه. شعر مارك (سعد) أن الأرض تحته غير موجودة، لم يصدقه وإن لم يكذب، هل هو في خيال ؟! وتفرس في وجه إيمان فألفاها تغضي عنه في سأم كما عودته في الآونة الأخيرة. هل هو غير موجود في العالم بهذه الطريقة ؟ أكانت إيمان تزوره في المنزل وهو خارجه ؟! وإلام كانت تهدف ؟... وما دور مارك رفعت اللعين في كل هذه القصة ؟ !... ثم ربت الأستاذ نظمي — الذي لم يأخذ منه مارك باله — على كاهله من الخلف فأجفل مارك وارتطم بممرضة. على أنه تأسف لها مشتتاً وهو يستدير لابن عمه الذي تجلى الأسى على سمته وقال:

— 'هو المرض القديم ما فيش غيره اللي جاب له كده... ما تشوفه يا مارك يا بني ما انت دكتور هنا اديك!'

فار مارك بالغضب فصرخ وهو يميل على عمه (في نفس الوقت أقبل طبيب طويل أجلح ببالطو أبيض):

— 'وما حدش قال لي ليه ؟!'

هنا ردت إيمان في هدوء كأنما لتبرد من ثورته:

— 'ما كنتش موجود.'

التفت إليها ونظر مباشرة في عينيه لكنها تحدته فأبقت نظرها صوبه غير آبهة. رأى عينيها — بعد أن اكتشف أنها كحلتهما فهي لم تعود الكحل بكثرة في «أيامه» — أجمل، وأشد قسوة، وأبهر. كأنه يستجليها لأول مرة — إيمان — في ردائها الجديد. غدت لديه الآن أجمل مائة مرة من إيمان الخامدة التي كانت في أيام الأطفال وأيامه. الحين يدرك أن لها شخصية منفردة قائمة بذاتها لما بعدت عنه. ولكن، هل ما تبرح تفكر به ؟ هل تتذكر أيام حبهما أم أن جميعه ضاع ؟ وتكلم مارك «الآخر» كأنما لينبهه إلى وجوده فقال وهو عاقد ساعديه مثل إيمان:

— 'معاك نمرة طنط أكلمها ؟'

هنا وصل نائب العصبية «د. روماني» — والذي كان الطبيب الطويل الأجلح — فحيا مارك لأنه كان يعرفه ثم ابتدأ يكشف على عمه بالمطرقة

والإبرة. وطفق يسأله عن حالته وهو يفحص فأخبره مارك أن عمه كان مصاباً بمرض التصلب اللحائي المنتشر (multiple scelerosis)، وأن ذلك المرض قد أثر على لسانه وعلى حركته فصار قليل الكلام والحركة منذ سنين. فكشف الدكتور روماني الغطاء عن ساقيه فهتف:

– 'برضه كده ؟!... شايف ؟... ده DVT[٢٤] كمان معاه! نستغرب ليه بقى إن حصل له stroke ؟!... أمال ما حدش سائل فيه الراجل ده ولا إيه ؟... إيه ده ؟!... هو عمك لزم ؟... متأسف خالص يا مارك. بس عشان اكون معاك صريح، الراجل ده مش ها يكمل معاكم كتير.'

نظرت إيمان للشيخ الغائب الأسمر الكهل في امتعاض، كأنها تتهمه هو بما آل إليه، ثم كأنها اختنقت بجو المستشفى دارت على عقبيها فخرجت بهدوء وهي ما تنفك عاقدة ساعديها، وتبعها مارك رفعت. أما مارك سعد فتعقبهما بعينيه في اهتمام.

وجاءت روحية أخيراً في تاكسي توقف أمام باب الاستقبال بالضبط فخرجت منهارة في البكاء. وخرجت ثلاث سيدات من الباب الآخر والباب المجاور للسائق فسندنها وأنشأن يهدئن من روعها. وكتقليد عادة يحدث عند البكاء على ميت أو محتضر فقد راحت الزوجة التي اعتقدت أنها صارت ثكلى تسترجع أيامها مع «الفقيد» بصوت مرتفع، متأبطة كتف سوزي (امرأة جون أحد ابناء أخي زوجها). قالت أنها عاشرت بولس منذ أن كانت في العشرين، وأنهما تحابا وتزوجا فانتقل بها من القاهرة إلى أسيوط وهي لم تبد أي اعتراض لأنه كان يكفيها، وأنهما لم ينجبا لكنهما استعاضا عن ذلك بحبهما لبعضهما بعضاً، وأنه كان طيباً و'عشري' و'أخلاق' عمره ما قال لها كلمة تجرحها، وأنه – المسكين – كان يحب الورد وكان على أيامه نشيطاً يجوب الشوارع ويشتري الطلبات فيأتيها كل يوم بعشرة كيلو 'شايلهم على إيده زي «ربنا يحرسه»'، إلى أن نكبه المرض الملعون فابتدأ يلخبط في الكلام، وضعفت حركته وكل بصره، حتى ذوى تماماً بعد أن كان مثل

---

[٢٤] Deep venous thrombosis: مرض يحدث فيه تجلط الدم في الأوعية العميقة غالباً بسبب قلة الحركة.

الورد الذي يحبه. وكانت روحية مغيبة تماماً في البكاء والنشج والقص، وكذلك كانت السيدات مغيبات مشتتات معها، حتى أنهن أوشكن أن يحدن بها عن سكة الاستقبال ويستكملن المسير نحو منطقة خواء في آخر مبنى العيادات، لولا أن السائق هتف لهن:

— 'هوه هوه! إنتي يا مدام!'

ثم 'زمر' لهن من سيارته فانتبهن فهتف لهن وهو يشير للاستقبال.

وواصلت روحية السرد فاعترفت — دون أن تأخذ بالها — أن عدم الخلفة كان عيبها هي، وأن الرجل كان يمكن أن يكرهها أو ينفر منها لكن على العكس، ثم استطردت تقول أن عائلتها في القاهرة كانت عائلة كبيرة بشبرا، وأنهم كانوا أثرياء، وكانت لها حياة بدورها وكان العشرات تحت رجليها، لكنه أحبت بولس، ثم انبرت تذكر أسماءً غريبة قبل أن تلج بها السيدات الاستقبال بعد أن أرشدتهن فلاحة برداء أسود.

وكانت إيمان خارجة في نفس اللحظة تمر أمام حجرة الاستقبال العام فلاقت السيدات. لكن لوحظ أنها لم تخاطب روحية بحرف، أشارت لهن بالمكان وقالت أن مارك — ابن أخيه — بالداخل، قبل أن تكمل طريقها للخارج مع مارك رفعت، الذي ربت على كتف والدته وهي ماضية كأنه يوصل لها رسالة ما. وأخذها ارتياح بالهواء بالخارج فصرحت في نفسها كم هي تكره الطب. وتساءلت وهي ترنو للمرافقين بالعشرات متناثرين على الأرض كم الدنيا غير رحيمة، فما ذنب «بولس» مثلاً بالداخل فيما يحدث له؟ وانبجس مارك رفعت فوقف جانبها وهي مستندة بظهرها إلى الجدار فقال لها وهو يضع يديه في جيبيه:

— 'وبعدين يعني؟ ها يموت؟'

أخذت تهتز وتتمايل كأنها تتمرجح، ثم قالت له رافعة حاجبيها:

— 'عاوز تعرف بصحيح؟'

قال أن نعم، فصرحت:

— 'يستاهل يموت.'

رمقها الشاب بنظرة دهشة، معها انحسر فكاه عن ابتسامته الشيقة للمتع، ثم قال رائقاً وهو يدنو منها:

– 'ليه بس القسوة دي؟'

– 'مش قسوة ولا حاجة.'

استمرت تتمرجح وتميل إلى الحائط وبعيداً عنه:

– 'ما كانش المفروض يفضل مع روحية دي.'

اتسعت ابتسامته أكثر فأكثر، مال برقبته وضحك:

– 'إنت بتكرهيها!... ؟'

– 'أيوه.'

– 'ليه بس؟ هي عملت لك إيه؟'

فكرت إيمان في أول لقاء لها بالعجوز العاجز. حين سمعت التأوه والحشرجة أشعلت الأنوار، فشافته على حقيقته: بقايا إنسان بغير كثير من الكلام. كان له وجه أسمر وجيه، مع شعر ناعم طال وخطه الشيب بشكل أصغر من سنه، أما عيناه فمطفأتان لا تريان. وجاءت روحية من خلفها آنئذ فهمست في شفقة: 'إنتي صحيتيه'، ثم توجهت نحوه فسقته بالملعقة من «شفشف» أخضر كبير تحت السرير وهي تحمل رأسه في حضنها كأنه طفل ترضعه. ساعتها فرقت إيمان، وذعرت، وارتجف قلبها فخلت الحجرة. قد أشفقت على الرجل العجوز، وأمضت باقي الليلة كلها تفكر فيه، وفي مستقبل آخر كان ليغدو له في ظرف آخر، وفي مكان آخر. لم تستطع أن تغالب الشعور أن روحية السبب بشكل ما، تخبئه في حجرة مظلمة ولا تلمح حتى إليه كأنه حيوان؟!... وتسقيه بالملعقة من شفشف؟!... أي شر قد فعلته بالرجل؟... رسمت إيمان في تلك الليلة (والليالي التالية لها) مستقبلاً آخر للرجل، مستقبلاً يكون معها، هي، إيمان، فهذا الرجل ما كان يحتاج إلا إليها هي، إيمان، وليس روحية شعار الموت والخنوع والفناء.

وكان مارك يراقب عمه، الذي همدت اختلاجاته الآن ورقد على سرير خاص إلى حين تحديد موقفه. كانت روحية جالسة على كرسي تشرب من كوب ماء أحضرته إليها أحد الممرضات، وبجانبها وقفت مدام سوزي – امرأة جون ابن عمه – فمدام جانيت أم مارك رفعت، أما مدام مارجريت – امرأة فهمي ابن عمه الآخر – فقد جلست على مكتب إيديال فارغ موضوع

لصق الحائط بجسدها الصغير الخفيف. وكان الأستاذ نظمي قد مضى ليبتاع لهن شيئاً يأكلنه. وعلى كآبة الموقف والمنظر إلا أن مارك لاحظ أن بعض الرجال — من المرافقين — بل حتى النساء، مكثوا يختلسون النظر من امرأة عمه، فحتى أوان النكبة، كانت روحية متألقة، فوق حسنها ببلوزة نصف كم بلون الخوخ تكشف عن ذراعين رابيين كلاهما أبيض مثل اللبن، وبجيبة محبوكة تنحسر وهي جالسة عن ساقين من المرمر. وكانت تتمخط في منديل ورقي حين جاءتها ممرضة تتجاذب معها أطراف الحديث إلا أن مارك انتهرها فغادرت. ثم بدأت مدام مارجريت تسأله عن الحالة فشرح لها باقتضاب، فقالت أم مارك رفعت وهي تنظر للباقيات في يقين:

— 'لا لا، ما تخافوش، ها يخف. كذا واحد يجي له بالظبط زي كده ويخف بعدين. جمال ابن عم مدام سهير — مراة الأستاذ لوقا — كان حصل له حاجة زي كده بالظبط وهو شباب. وافتكروها جلطة، وفي الآخر خف وما فيش حاجة.'

فسخرت منها مدام سوزي — وكانت سيدة ممتلئة عجزاء قصيرة تفرق شعراً بنياً غير طويل — وهي تقلب راحتيها وتنقبض بزاوية فمها في غير رجاء:

— 'إيه الكلام اللي بتقوليه ده يا اختي؟ ما فيهاش علاجات دي... ما تقول لهم حاجة يا دكتور!'

إلا أن مارك غادر...

وكان الاستقبال العام (للباطنة) يضم غير مجموعة من طلبة الامتياز: فهنالك المجموعة التي تتدرب شهر الطوارئ، حيث تخصص عشرة أيام لاستقبال الباطنة، وهنالك المجموعة التي تتدرب في قسم الباطنة، ثم هنالك المتدربون الذين خاصتهم وقعت في فرع مثل أمراض القلب (coronary)، فهم يتدربون أيضاً في الاستقبال العام. وكان من مجموعة الطوارئ وقتئذ خالد نشأت وسمير رمضان مع باقي الأسوانلية مثل رامي خيرالله والتوأم، فالتقط خالد نشأت مارك وهو خارج وجذبه داخل حجرة الاستقبال العام حيث عمت الضجة، فقال له بنبرة ملأتها الإثارة:

– 'أقعد ساكت، سمعت؟ عارف نائب الجراجة اللي اسمه علام؟... آه، آه، علام عوض، عرفت إيه اللي حصل له؟!... طب إرسى بس واسمع (دا الخبر مبهدل الدنيا بس دا واصلني دلوقتي طازة): أتاريه يا سيدي كان مسئول عن عيان كان محطوط له drain[٢٥]، ومرة وهو بيمر لك في القسم، راح شاف قال إن الdrain عايز يتشال... راح بسيادته شاده. هوب، هوب، راح العيان حصل له shock[٢٦]، راح مات!... شفت؟!... راح بعدين – استنى استنى إنت متصربع على إيه الحكاية لسه ما خلصتش – رح بعدين شافه عزت النائب الأكبر منه، راح صرخ فيه: "إنت إيه اللي عملته ده يا حمار؟! إنت موتّه!" راح لقيه عمال يضحك!... وقعد يضحك ويضحك، لغاية ما جات له mania[27]!... وأديه محجوز هنا في قسم النفسية... شفت؟! شفت آدي آخرتها!... استنى استنى بس انت رايح فين؟!... مارك... مارك...'

في الخارج كانت إيمان ما انحلت متكئة إلى الجدار، ومارك «الآخر» يتحدث معها واضعاً يديه في جيبي بنطاله. أرمضه المنظر، واستورت غيرته وغضبه. وأبصرته إيمان فانتصبت، ثم انطلقت راحلة، ومارك «الآخر» في إثرها. خب خلفها:

– 'إيمان!... إيمان! إستنى بس أنا آسف انا كلمتك كده جوه!... إستني––!'

لكنها أخذت تشوح له في جدية:

– 'إبعد عني! إبعد خالص!'

وكلما زاد في اعتذاره كانت تشعر أنها تستحقره أكثر وأكثر.

---

[٢٥] مصرف لإفرازات الجروح.

[٢٦] صدمة.

[27] لوثة الهوس: مرض نفسي يشتهر بالإفراط في الضحك والفكاهة.

الجزء الرابع
السعي إلى قلب شيماء
١. شيماء

كان آسر يمشي مرة في حي الزهراء عندما لمح فتاته المحببة تسير أمامه بعيداً بالقرب من مستشفى العقاد. كان قد حفظ مشيتها المتهادية، وميزها أيضاً من ذوقها الثابت من الأزياء وكانت تلبس جيبة طويلة مشجرة وطرحة بنفس اللون بينهما بلوزة أنيقة كاكية مفتوحة على بودي أبيض ماسك أبرز تقاطيع جسدها النحيل الرشيق. ولم يكن رآها منذ بداية العام الدراسي الجديد، فركبه جنون كأن جذوة لدغته في جنبه وطوى الأرض طياً وهو يقترب منها. لم يفكر ما سيقوله لها، ولم يحضر شيئاً معيناً في ذهنه، حسبه كان الدنو منها فقط والباقي على الله وعلى سليقته الفذة في اختراع الكلمات. وحثت البنت قدميها كأنما أحست به، لكنه أدركها قبالة محل سوبر ماركت فابتدرها بتحية مهذبة:

— 'مساء الخير...'

لم تجفل لكنها عجلت في المسير مرة واحدة كأسلوب من عودت المعاكسات، ولم ترده التحية. فتعقبها يكرر التحية في إمعان، وهنا وقفت كأنه تنتبه فردته بابتسامة جذابة وإن كانت محتشمة:

— 'مساء النور !'

تيقن قلبه ورقص، وعلم أنه قد أصاب لم يخب فيما حدسه، ولاحظ وجود رجل خمسيني أصلع يجلس على شلتة أمام السوبر ماركت في جلباب أبيض دونهما يراقبهما في ارتياب. فابتدأ يقول بكل أدب:

— 'أنا آسف يا آنسة إن كنت ضايقتك ولا حاجة.'

فقاطعته في ذوق وهي تسير في طريقها في خفة:

— 'لا... أبداً...'

ثم دارت برأسها صوبه دورة مؤقتة وهي تردف باسمة في حرج:

— 'هو في حاجة يعني ؟...'

كانت في الحقيقة تعرفه حق المعرفة، من قبل أن تصادفه في حادثة شارع المنفذ قبل شهور حتى، وتعي أنه من جيرانها والفتيات في استراحة

الأطباء المقابلة، أولئك الشبان المضحكين الذين لا ينفكون عن التلصص عليهن من الشبابيك والبلكونات الضيقة بالفانلات الحمالات كأنهم لم يشهدوا إناثاً من قبل وهم الذين يعرون الأبدان يومياً. وكن يستلذذن المراقبة واختلاس النظرات كديدن أي فتيات، فلم يسككن البلكونات في وجوههم، ولم يتعنتن في إظهار أنفسهن من كل فينة والأخرى متظاهرات بالاستذكار في البلكونة أو بالتشوف إلى المارة حين يجدن الاهتمام قد خبا قليلاً، ولم يخف عليهن أمر هذا الشاب الذي يقطن قصدهن يتصنت عليهن ويتابعهن في جراءة شديدة وجسارة بوجهه المستطيل المزوق وشعره القصير المقصوص «فيرزتشي» يلف في ذؤابته بأصابعه وهو يتأمل أياً منهن بابتسامة وقحة مضحكة، وكانت فاطمة — الفتاة ذات الخال منهن — تقول أنها تحبه وتعشق 'الحلزونات' التي صنعها في مقدمة رأسه، وكانت تظن أنه معجب بها هي لأنه يفحص بلكونتهما بالذات ما أن يطل، وإن خاب رجاؤها به كليةً فيما بعد لما فطنت إلى أنه مسيحي من الصليب الموشوم على ساعده والذي لم تلحظه إلا متأخراً، فقالت وهي تربط شعرها الملفوف بالبكر إزاء المرآة البيضاوية في تلك الليلة: 'يا بختك الاسود يا بت امها وابوها ما انتي طلعتي نحس، هو انا لما احب لي واحد وواحد يحبني، يطلع مسيحي!'. حسناً، يبدو أن فاطمة كانت مخطئة على ما يظهر فيما حسبته من بداية الأمر كله. وخلته يسير بجانبها كأنهما رفيقان ينتابها الفضول الشديد بما سيقوله يا ترى، وما سيفعله ليتقرب إليها: غدت الآن متأكدة تماماً أن صفحته انكشفت أمامها كما ينبغي وليس هنالك تعليل آخر، فهي مطمحه من البدء ولا شك، وهي التي ارتابت منذ حادثة المنفذ لكنها نفضت دماغها عن الأمر. لكنها تمثلت الجد وهي تسمعه يقول لها:

— 'ما قدرتش والله أشوفك ماشية من بعيد إلا وقلت لازم آجي اسلم.'

كان أسلوبه مضحكاً، ورغماً من رداء الجدية الذي انكست به إلا أنها ضحكت، ثم دارت فاها بكفها الدقيقة. ورآها قد 'لقطت' فخفق قلبه ومضى ثابتاً يقول وهو يطلع على الناس في الشارع هل ينظرون إليه أم لا:

— 'الله وأكبر عليكي. ما هو لسه الدنيا فيها ضحكة حلوة اهيه... طب انتي عارفاني بس في الأول ولا لأ؟ واخدة بالك؟'

فمنعت عن الضحك واكتفت بالابتسام فقالت له بنغمة يائسة:

– ’عاوز ايه يا دكتور بس ؟!‘
فقال:
– ’كل خير والله.‘
– ’إنت مش عارف إن غلط واحد دكتور زيك يعاكس البنات في الشارع كده ؟‘

آه، ما أشهى كلمة ’البنات‘ وهي خارجة من لسانها... عند هذه اللحظة فقط تحقق بما لا يشوبه الشك أنها من نوعية الفتيات اللاتي يحبهن. كان هناك صنف معين رغبه آسر من يومه حار في تعريفه، للتبسيط قال: ’البنت الحاسّة بأنوثتها‘، مع أن العبارة قد لا تغطي الأوجه كافة التي في خياله. فمثلاً هو يحب الفتاة «النظيفة» التي تعتني بإزالة الشعر وغسيل الأسنان بانتظام حتى ولو وضعت في سجن لا وجود للذكر فيه، ’البنت‘ الحقيقية لا تحتمل عدم النظافة أو شعرة واحدة في بدنها. وهو يحب أيضاً الفتاة المرحة التي تعرف كيف تمازح وتفاكه في إطار أنوثتها المعقول، لا يحب البنت التي تهزر كثيراً – أو تهذر كثيراً – ولا البنت الكئيبة التي تحمل هم الكون كله وتقرأ كثيراً في مقالات عقيمة. عاف الفتاة التي تخرج على سبيل المثال في المظاهرات، ومقت الفتاة التي تبكي بعد الامتحان، الفتاة الحقة لا تعبأ بفرط في الامتحانات ولا الدرجات وإن لزم أن تكون متفوقة! ووضع آسر معايير أخرى للأنثى الكاملة منها مثلاً أن تكون – أياً كان دينها – غير متدينة بالباطن لكن وجب أن تتظاهر بقدر من التدين، لأنه هام بكلمة ’ربنا‘ عندما تلفظها شفتا فتاة خاصة لو كانت جميلة: ’ربنا معاك‘... ’ربنا موجود‘... ’أنا قلت ليه كده يا ربي!‘... ’لما ربنا يريد بقى‘... عبارات كلها مغرية تلفظ من شفاه طرية شهية! وأرادها أن تكون نحيفة غير شرهة في الأكل وحبذا لو كانت ممصوصة بالكامل، فالفتاة النحيفة سهلة الهضم يحتويها المرء بين ذراعيه بيسر وفوق كل هذا تنجلي طبيعة جسدها على حقيقتها فليس من دهن يحجب تأثير الهرمونات الكامنة. غير هذا جميعه فإن البنت الحقيقية – «غير ’المضروبة‘» – يبزغ جوهرها مثل الشمس من خلال حركات معينة صعب إحصاؤها: لمسة أناملها في التقاط الأشياء، طريقتها في الأكل، أسلوب جلستها ومشيتها، ضحكتها، وأسنانها، ونبرتها في الحديث، ’شقاوتها‘، ومن خلال كلمات – فقط

كلمات – تظهر كل ما في داخلها حتى لو لم تكن تجلي باقي الأشياء، كلمات مثل: ’بابا‘، ’ماما‘، ’خالو‘ و’عمو‘ – حتى لو كانت كبيرة ومتزوجة ’بلكون‘، ’جزمتي‘، ’أنا وانت‘، ’ولاد‘، ’بنات‘... وأطربته الكلمة بشكل لا يصدق فأغمضت عينه مقرورة وقال في انبساط:

– ’طب ويعمل ايه الواحد لما بيحب البنات؟‘

رمقته بعينيها الساجيتين في أسلوب مثير:

– ’يروح يشرب م البحر.‘

– ’نروح نشرب سوا طيب؟‘

فخفضت رأسها وضحكت متعجبة. وتقدما تجاه نفق الزهراء، وكان مكاناً قذراً يمتلئ بالأوراق الملقاة، ويضج بنداءات الباعة وتوسلات الصبية الشحاذين يهرولون خلف العابرين هنا وهناك كظلالهم. وتقدمته فتأثرها فوقفت له واستدارت دهِشة:

– ’إنت جاي ورايا ولا إيه؟!‘

فهز منكبيه وقال باسماً:

– ’أنا لا جاي وراكي ولا حاجة، إنتي مش عارفة انا ساكن فين؟‘

ارتبكت بصدق وحركت يديها حركتين مترددتين، لكن لم تلبث أن عاودت طريقها في استسلام. كان المساء قد حل وهربت الشمس من قبل وهما يسيران، ولاح قاع النفق الضيق (الذي يقال له ’النفق الكبير‘ على ذلك تمييزاً له عن نفق آخر بالكاد ينفذ شخصاً واحداً على بعد قصير) مظلماً فارتسمت صورة في خياله عما يكون الحال إن كانت معه في نفس المكان لكن والوقت ليل والناس مغيبون في النوم والجو خلاء... كيف كان ليمسكها ويحتضنها برقة فيطبع على وجهها الهش عشرات القبل قبل أن يتركها تواصل طريقها... وحمت ناره فمشي في إثرها يشعر بالسعادة لأنه قابلها وكلمها، ودنا منه صبي متسول فضربه على ترقوته من دون أن يتكلم فانتتر الصبي بعيداً. كان المرور قلة في ذلك الوقت مقارنة بالصباح الباكر والظهيرة أوان العمل والدراسة، وعلى ما يذكر فإن النفق كان على حال جيدة يوم أن جاء لأسيوط، لكنه تكسر من الداخل يوماً بعد يوم وبات مليئاً بالحفر مكان البلاط المخلوع، وحتى الحاشية الصخرية التي كان الفتيان يتسللون عليها على جانب العابرين تحطمت وانتظمت عليها امرأة

شحاذة بعيّل تعوق المرور وتتوسل وتمد يدها طول النهار. وخرجا على طوار عمته طاولات الباعة يميناً وشمالاً، يبيعون الجوارب والملابس الداخلية والخردوات الصغيرة كالمشاط والقصافات والكتب القديمة وكل شيء، وسوّر بسور حديدي ممتد من الجهتين بطول بالغ طلي بالأخضر، ولم يكن هذا السور موجوداً في العام الماضي، فتبع الفتاة حتى تخلصا من الزحمة فتشكت قائلة:

— 'السور ده قفلها علينا خالص.'

تبسم آسر ورفع حاجبيه مصدقاً. باتا الآن حيال تقاطع شارع الجيش المفضي لشارع الجامعة، وتجاورا من جديد فنابها الحرج وشعرت بعدم الارتياح وهو يعبر بها من وسط السيارات في رباطة جأش مدهشة، وسارا سوياً الآن وقد أصبحا أكثر ألفة، فسألها:

— 'أنا ما عرفتش اسمك لغاية دلوقتي ؟'

فابتسمت في ترفع أنثى رافعة حاجبها الأيمن ولم تنظر نحوه وهي تقول:

— 'شيماء.'

— 'محسوبك آسر يا آنسة شيماء.'

وأسرعت شيئاً في خطوتها فحذا حذوها فسألته والابتسامة ما فتئت فوق شفتيها:

— 'وانت إيه اللي عاوزه من ورايا بقى يا أستاذ آسر ؟'

— 'عاوز أقول لك على سر خطير يا آنسة شيماء.'

فوقفت دون حافة الرصيف والتفتت له على وجهها أمارات الاستعلام، فأردفها:

— 'أنا باحبك يا آنسة شيماء.'

حدقت فيه بدهش، ثم ما تلعثمت أن عبرت للطوار المقابل عند الجمعية، فأعقبها فوجدها تهز رأسها وترفع حاجبيها في عجب. كان كلبان متسخان يجولان دنو قدميه يلتهمان بقايا الجزارة المرمية تحت الرصيف، وأطرق وغام وجهه في إتقان باعث للإعجاب مبالغاً في التظاهر بالحزن والألم بينما يتخذان طرف يسري راغب:

— 'إنت مش مصدقة شعوري...'

صمتت لحظة ثم لم تتمالك إلا أن تقهقه وهو تقول له:

– 'على طول كده ؟!'

فابتسم وراح يقول لها:

– 'من أول نظرة وحياتك.'

أضحكها كلامه لطرافته كأنها تشاهد فيلماً غرامياً بائخاً، وكان قد ابتدع هذه الطريقة على ارتجال ليشدها إليه لما اقترب منها بادئ ذي بدء. لكنها قالت له ولما تتخلص من الضحك:

– 'إنت مش عارف طيب انك مسيحي وانا مسلمة ؟'

كان هذا إيذاناً منها لانهاء المحادثة والمطاردة التي طالت في نظرها عن الحد، وقد استمتعت بالمغامرة واكتفت: يمكنها الحين أن ترجع للسكن لتبثهم التفاصيل فتجعلهن يمتن من الضحك و'يشعللن' من الغيرة والحسد، حتى خطيبها – عندما يصير لها خطيب – يمكنها أن تزهو أمامه بأن فتى مسيحياً قد داخ وهو يطاردها، «لكنها لم تلتفت إليه»!... على أنه لم يأخذ كلامها مأخذ الجد فرفع محياه عالياً يرمق بلكونة تطل بمؤخرتها عليهما وهو يقول:

– 'نعمل إيه يا آنسة شيماء ؟، الحب «قدر ومكتوب»'.

واستكملا المسيرة في يسري راغب وهي تحاول أن تتحاشاه على الأقل في عيون الناس، حتى إذ بلغا أمام جمعية خلاص النفوس، استوقفته – باسطة كفها – في طريقة نهائية:

– 'بص بقى خلاص، كفاية هنا.'

فامتعض لكنها بادرته:

– 'أنا بنت محترمة وبت ناس وما اسمحش أبداً إن واحد يغازلني بالشكل ده ويمشي معايا في الشارع. كفاياك بقى لغاية هنا.'

وأوشك أن ينطق لكنها سبقته أيضاً فأردفت في حزم كأنها تصحح موقفها في عينيّ نفسها:

– 'إوعى تكون فاكر إن الخطوتين اللي اتمشيتهم معاك والكلمتين اللي اتكلمتهم معاك كانوا عشان حاجة. لأ بقى حاسب. إنت كان شكلك كده واد طيب وكويس وانا قلت أشوف أخرته إيه. وبعدين بقى لاحظ وميز

إن انا من دين، وانت من دين: «يعني ما فيش حاجة ممكن تحصل أصلاً»!'

وزايلته على الفور على الطوار وتركته فسدرت وحدها للأمام لم يحدها شيء، وتلفت هو حوله فما وجد إلا بواباً سميناً فحسب يرنو إليه من تحت جفنين ثقيلين. فانطلق خلفها من جديد كله غضب وتصميم ولم يقو عنها فكاكاً، حتى لحق بها في حذر بعد أن قطعت مسافة من الشارع عند شارع سيتي عن كثب من نقطة إبراهيم باشا، همس لها وهو يعود فيجاورها المسير وسط المارة:

— 'ممكن اعرف أنا ضايقتك في إيه؟'

فنفخت وقالت وهي تمد الخطى:

— 'دي كلمة ممكن يقولها خطيب لخطيبته، راجل لمراته، ممكن أعرف أنا بقى إنت تطلع بالنسبة لي إيه عشان أسمع من سيادتك الكلام والعتاب ده كله؟! هو انا أعرفك يا أخي أساساً؟!، دا انت واحد بتعاكسني في الشارع!'

أبرمه أن يجد من خالها عجينة طرية يتضح أنها زلطة كبيرة، أكانت تتغفله اللئيمة من البداية؟ لكن لا يهم يا أبو الشباب، وحتى الصخر يمكن أن ينحت ويطوع، لكن بقليل من المجهود والصبر، ولتكن لئيمة لئيمة، فاللئم جزء من الشقاوة. وتلفت للمشاة من حوله وهو يخفت من صوته كأنه يخشى على سمعته:

— 'طب باقول لك إيه؟'

— 'نعم.'

(علا صوت اصطدام سيارتين من بعيد فلفت الانتباه شيئاً).

— 'ممكن نتقابل في فرصة تانية نتكلم بالراحة شوية؟'

ردت بقطع نافذة من بين مجموعة من السيدات السافرات المتسوقات يحملن أكياساً سكرية بآذان مجدولة:

— 'لأ.'

هرول خلفها:

— 'طب مش يمكن انتي غلطانة—'

هزت رأسها في نفاذ صبر ثم توقفت بغتة فقالت له في إشفاق وكأنها ستبكي:

— 'إنت عاوز ايه يا بني مني بس ؟!...'

ثم سرعان ما تابعت خببها ثانية فلم يستطع أن يلحق بها. لحظ الآن أنهما قد تعديا شارع كليوباترا وشارع سيتي وجميع تفرعات يسري راغب الموصلة لعلي مكارم، وأنهما الآن يقتربان من الإشارة، فأتاها من الخلف وسألها وهي لم تتوقف:

— 'هو انت مش مروحة ولا إيه ؟'

لم تحر رداً أو إيماءً، مضت في دربها بنفس السرعة. فعاد يهمس:

— 'مش مستحملاني خالص. اه ؟'

جل ما رآه أنها تهز رأسها المطوق تعجباً من الخلف وتقلب كفها اليسرى. فلم ينكص على عقبيه، إنما شد من أزره في محاولة أخيرة واقترب منها في عزم. شعر أن الشارع كله يتفرج عليه ساعتها، وقال لها في نبرة أشبه بالتوسل:

— 'طب مش ممكن نتفاهم بس ؟ إنتي فهمتيني غلط والله!'

كأنه خيال غير موجود. وأدرك أنه غير مقبول نهائياً الآن فاختتم بقوله:

— 'أنا مش هاسيبك برضه لأنك كده شكلك زعلانة مني.'

وانحل عنها أخيراً فتوقف وسط الرصيف ينشف عرق جبينه، ولمحها تبطئ وتستقيم في خطواتها ثم تنعطف بعد قصر الشوق فتزول من نظره. كان مجرباً في الفتيات، ولم تكن الأولى التي تفعلها، وسرعان ما تناساها كليةً وهو يقطع عرض الشارع للجهة الأخرى فيطلب من محل «تويتي» مكرونة بالسجق حجم صغير.

٢. الرؤيا

ثمة مهرجان. الشارع ظليل محبب يوحي بأجواء بريطانية نوعاً ما. وهو شارع غير متسع. أناس أغراب بشعر أصفر وأحمر يراهم لأول مرة. هل هي أمريكا ؟ ربما. مراهقون جمال المنظر يركبون خلف بعضهم بعضاً على دراجات قديمة. يلوح له بعضهم بقبعته ويبتسم. وهو معه صديقان لا يعرف منظرهما. يسيرون معاً، يحازون اليمين من الشارع الذي يتضح الآن أنه رمادي في أرضيته ومبانيه (معظمها إلى اليمين). يسيرون مسافة غير كبيرة. ثم تجلو فتحة سوداء في أحد الأبنية إلى اليمين. فتحة مدخل مستطيلة مدلهمة تعلوها لافتة ما عليها رسم غير بين. يلجون معاً. يحس بالإثارة والمتعة، يعرف أنه على أعتاب مغامرة. لكنه خائف. من عجب أن المكان بارد – يعلم أنه بارد دون تفسير – لكنه لا يشعر بالبرودة. ضوء أصفر يغشى مكان مظلم من لمبات. تحت لمبة تلوح عرافة.

هي العرافة كما لم يرها مرأى العين من قبل. تتشح بأردية مبهرجة غريبة لها طراز غجري. وهي امرأة بعد الشباب، على الأقل هكذا لاحظ أول ما دخل. يجلسون أمامها في نصف دائرة تنتهي به على اليسار. بطريقة ما يخبرها رفيقاه أنهما يريدان أن تعرف لهما المستقبل. يحس هو الآن بالخوف أكثر منهما. تقول للشاب الأول أنه سيغدو لصاً، وللثاني أنه سيصبح إرهابياً. تقف أمامه هو وهو ينظر فيها. يتهدج صوته وهو يرنو محياها الجميل:

– 'أنا باحبك إنتي بس كل حاجة عاوزة تبعدني عنك!...'

ترمقه دهشة. يدرك الآن أن ملابسها أغمق، علها خليط من الأسود مع قليل من البيج. يخفق قلبه. تقول له:

– 'عاوز تعرف إنت ها تكون إيه ؟'

يقول لها متجاهلاً السؤال (يعرف أنه يتجاهل السؤال لكن ما في طوقه شيء):

– 'إنتي بتحبيني طيب ؟ من يوم حادثة أخوكي وانا قلبي بيتقطع. كنت عاوزه يعيش، ده كان شايل دمي، دمي ما استخسرتهوش فيه، لكن إنتي قلتي لي إنه مات قلبي اتقطع. لما شفتك في الدير—'

تقاطعه:

– ’عاوز تعرف بكره ها تكون إيه ؟‘

لكن يواصل مناجاته:

– ’لما شفتك في الدير حبيتك. أنا عاوز اتجوزك. أنا ها اتجوزك تتجوزيني ؟ لكن ليه إنتي مش بتحبيني ؟ إنا عاوزك تكوني بتحبيني يا مريم... إنتي ليه كده بتكلميني كلام بعيد ؟ أنا كل ما اشوفك أفتكر رزيقي اخوكي. رزيقي مات، هو احنا برضه ها نموت ؟ أنا عاوزك انتي تنسي رزيقي عشان نعرف نعمل علاقة مع بعض. لكن انتي بت خنقة مش بتاعة علاقات. إنتي بتاعة ربنا وانا لأ.‘

بلورة موجودة قدامها. تقول وهي تهيم بأناملها حولها:

– ’بكره إنت ها تموت.‘

يبكي:

– ’أنا مش عاوز اموت!... [يخيل إليه الآن أن وجهها تحول إلى وجه ريم، لكن جميعه يمضي] أنا مش عاوز اروح النار ومش عارف احب ولا عاوز اترهبن!‘

يتذكر أبونا حزقيال، الذي يتجلى أمامه. يشوفه محلقاً بجلبابه الأسود في أفق أبيض.

– ’ما تزعلش مني يا ابونا...‘

يخفض رأسه ويجهش (لكن ما زال بإمكانه أن يرى أبونا حزقيال). يقول له الراهب الطائر:

– ’إنت بتتأخر وما بتجيش.‘

يقول له رافعاً عينيه:

– ’أنا شفتك في المنام يا ابونا قبل ما اشوفك. شفتك بتكلمني من قبل ما اشوفك. أبويا [ويجد من نفسه ميلاً للضحك] عاوز يجوزني يا ابونا، تصور ؟! إنت ملاك ولا إنسان يا ابونا ؟ مريم عندها فيروس «سي»، مش صح يا ابونا ؟‘

يتلفت الأب حواليه ثم يسأل في فضول:

– ’هي الساعة كام دلوقت ؟‘

يرى مريم — العرافة — الآن بدون لبس العرافات. تقول له في السماء البيضاء (التي يصير الجميع بها الآن):

— 'عارف يا ميشيل، الطيران دا حاجة ممتعة قوي.'

ثم تدلي وهو تدور جهة معينة:

— 'أنا رايحة أمريكا قبلك، ها اشتري لاب توب وغسالة للشقة بتاعتنا.'

تظل تتلوى وتتقلب في الهواء وهو ثابت مكانه. يحاول أن يطير مثلها لكن يشعر بأن جسده ثقيل. جسده ثقيل جداً لدرجة أنه سيسقط. يشعر أنه يسقط. في غضون ذلك تمتزج أمامه مخيلات غير متجانسة لأشخاص يكلمون بعضهم بعضاً، كرات كرة قدم، مشاهد تليفزيونية، كراتين ورق وأسلاك تليفون.

٣. الانهيار

تتبدل الدنيا في عيني هاني طلعت كأن غشاوة انزالت أو غشاوة حلت. ضربة فأس على أثرها يصير الكون كله لونه أحمر، شرخ في ورق الحائط يستبين منه ما بالوراء، أو تعويذة سحرية جعلته يغيب عن العالم الحقيقي ويتوه في الضلالات المؤذية. حتى الأشياء معه تغيرت. الهواء لم يعد هو الهواء، غدا مسمماً وباهظاً وجائراً، والشجر خانعاً قذراً، والناس غافلين أو متواطئين أو مجانين، والسبيل للحرية أي سبيل؟!، والله لم يعد هو الله، وهاني مجرد أصلع مجهول، وأهله مبتذلون، والأقصر، وأسيوط، والقاهرة، و . . . . ، ليسوا بشيء، وهم كل شيء.

ما يؤلمه ليس الفشل، إنما هوية الفشل. هل كانت تلك «زبيبة» حقاً في جبهة الأستاذ مصطفى حامد؟ هل أحسن استقباله الرجل؟ هل أخطأ هو مقدماً بتلك الإيميلات الشاذة التي أرسلها؟... هل قابل الرجل نفسه؟! هل انتحر أمام الأتوبيس بالفعل وهو الآن في النار؟!

الحق لله لقد أجاد مصطفى حامد استقباله في مكتبه الذي عثر عليه بعد كدٍ في معهد النقد. لم ينكر مقابلته إياه في السابق (على غير ما قد يرتقب من رجل كثير المشاغل مثله)، وأجلسه على أريكة وثيرة مكسوة بالجلد وطلب له شيئاً يشربه. شرح له هاني في تلعثم سبب حضوره، قال أنه أرسل إلى حضرته سيناريو على البريد الإلكتروني وانتظر شهوراً لكن حضرته لم يرد، فاعتزم أن يمدها سفرية إلى القاهرة حيث يقيم صديق مقرب إليه يتدرب حالياً في مستشفى أم المصريين. لاحظ نظرات الرجل المستاءة ولأول مرة خيل إليه أنه يرى «زبيبة» نامية في جبهة الرجل! ساءل نفسه: هل كانت هذه «الزبيبة» (كما لم يستطع أن يسميها غير ذلك) موجودة مكانها من قبل؟ هل كانت فيه لما قابله لأول مرة؟ وكيف لرجل «مبدع» مثل مصطفى حامد أن تكون له «زبيبة»؟!... وأخبره الرجل في اقتضاب أنه يتذكر إيميلاً من هذا النوع، وأنه قرأه على ما يبدو على عجل فوجده دون المستوى المقبول. وحدق فيه هاني من خلف عويناته، والتهبت أجفانه، ثم سأله: أحضرته متأكد أنه نفس الإيميل؟ قال الرجل أن نعم، ثم ذكر له فقرات من نفس هيكل السيناريو وقال أنه كان سيناريو

غير جيد وغير ناضج. ورطب النقد الأخير صدر هاني شويا فاستعلم منه في أية ناحية كان السيناريو غير ناضج، حيث أنه أول سيناريو له وبالطبع يحتاج إلى بعض التنقيح والتصويب؟ بيد أن الأستاذ مصطفى كان قاطعاً في معانيه صريحاً له في مباشرة فأدلى له بأنه كان سيناريو سيئاً للأسف وأن كاتبه – للأسف أيضاً – غير موهوب ويحسن به أن يبحث لنفسه عن مجال آخر. خبت أوتار الموهوم الفاشل لكنه عاد يحاول المحاججة بأن مطمحه في الأصل الإخراج ليس كتابة السيناريو، وأنه يمكن أن يتغاضى عن هذه النقطة، وأن كثيراً من المخرجين لم يكتبوا سيناريوهات أفلامهم قط، .... إلخ، غير أن الأستاذ مصطفى حامد كان قد ضجر فقال له في نفاذ صبر: 'يا بني إنت ما عندكش رؤية سينمائية أساساً. كل الكلام اللي كنت كاتبه ده كلام فاضي وبلاهات أطفال بيحضروا أفلام كتير. إنت كبَّرت نفسك قوي علشان أخرجت لك شوية مسرحيات في الكنيسة'.

لماذا 'الكنيسة'؟ أخذ هاني يسأل نفسه، هل علقت بأسماعه الكلمة منذ أن أدلى بها قبل شهور وشهور طويلة؟! تجاهل جميعه، وتذكر 'الكنيسة'؟! إنه حتى لم يتذكر اسمه حينما دلف إلى مكتبه حتى ذكره به. وأخذت الكلمة تتردد وتتردد من حوله كأنها تسبح في بحر بعيد عن الجاذبية. هل ما أبرمه هو سلسلة الإيميلات الغريبة المؤسفة التي تحامق وأرسلها له بعد تأخر رده؟ لقد قام هاني بأشذ ما يمكن أن يصدر عن شخصه حينما تأخر عليه الرد، تآكلته نيران الفضول واللهفة – والغضب في نفس الوقت – فسطر على الكمبيوتر كلاماً غريباً فعلاً أرسله للأستاذ مصطفى حامد عله ينتبه إليه. ومع التجاهل التام والقطيعة، وما عده استحقاراً، شطح في رسائله فبعث كلاماً باعثاً للحرج جداً. أول رسالة كتب فيها تأملاً عن الغِنىَ في المسلسلات العربية، حيث كل المسلسلات تقريباً تعرض لأناس أغنياء موسرين، يبدلون سياراتهم باستمرار، ويصيفون في شرم ومارينا .... إلخ، هذا في الوقت الذي تعيش فيه الأمة المصرية بأجمعها تقريباً في كون آخر تماماً. ولما لم يحر له رداً، كتب عن الاختلاط في المسلسلات العربية والدراما بصفة عامة، قال أن الدراما تمثل شخوصاً من الجنسين يعيشون قصص حب، وتحدث لهم مشكلات عاطفية، ويقبلون بعضهم بعضاً!، كل هذا ومصر بلد هادئ 'مكتوم' لا يحدث به

شيء إطلاقاً، ولا توجد به قبلات بين الجنسين، والناس لا يتناكحون قبل الزواج. وعندما أبدى له التجاهل التام، كتب أخيراً عن الحجاب والدين في الدراما، قال هاني بطريقة حامية أن المسلسلات العربية الحالية، والأفلام، لا تمثل المجتمع المصري لأن جل النساء في مصر محجبات بينما لا نجد محجبات في التليفزيون، فكيف يمكن لممثلة أن تخرج بشعرها في مسلسل إذا كان المفترض أنها تمثل مسلمة؟ لا توجد في مصر مسلمات غير محجبات –كما قال– وإلا يقتلن! ومن هنا بدأ شطحه المزعج الحين للذاكرة، فقد كتب بعد ذلك خطابه الأخير للأستاذ، مسهباً فيه –حسب رؤيته– عن ’الاكتئاب في الدراما العربية‘، وقد مد جسور الاكتئاب كافة إلى الأصولية الدينية والزي الديني الذي اغتال –حسب رأيه– الفن والحياة والأحداث: ’إزاي ممكن أخرج فيلم عن ناس مسلمين إلا إذا خليتهم طول النهار بيصلوا ويتوضوا وستاتهم يتحجبوا ويتخمروا ويتنقبوا؟... لاحظ يا أستاذ مصطفى إن انا باكلم مبدع مفكر، باكلمه كإنسان لإنسان، وكفنان لفنان، إوعى أرجوك حضرتك تفكر زيهم‘. ولم يصدر الأستاذ رداً أو حركة.

وقد اختفت الدنيا نهائياً إزاء نظره وانعدمت قبيل أن تتبدى في هذا الكادر المظلم، بعد خروجه من شارع جمال الدين الأفغاني. في هذه الفترة الفاصلة –والتي أخذت تقريباً يومين– أقدم هاني على الانتحار عن غير ترتيب، لكن الانتحار فشل. لقد آزره وسانده مينا موريس في فاجعته النفسية فكان يخرج معه يومياً قبيل عودته إلى أسيوط، وذات مرة وهما مقبلان على شارع عبد العزيز (إذ راح مينا ليبحث عن غطاء جديد لتليفونه المحمول ويبتاع سماعات أذن)، إذا بأتوبيس رحلات هائل له مقدمة مستوية صلبة كوجه ديكتاتور يباغتهما، فوقف هاني أمامه مغمضاً ونسي الدنيا، إلا أن صبياً قصيراً متيناً هجم عليه فأنقذه.

ثم تلت مرحة العدم مرحلة ظهور الدنيا مرة أخرى في لونها القاتم (أو مجازياً: الأحمر) الجديد، وهي المرحلة التي استهلها هاني يراجع نفسه ويؤنبها بمسحة من العقلانية والندم. على أن الندم والمراجعة سرعان ما انتهيا، وغابا في الأدغال المظلمة الخالية، خاصة وأنه كان يرتاب منذ فترة في شأن موهبته –كأمر ’صباح الخير‘ و’صباح النور‘ مثلاً الذي لم يجد له

إجابة — ومع الوقت لم يعد أمامه إلا التسليم بانعدام موهبته أو تلاشيها، ثم التطلع بيأس إلى الجحيم المتعس الذي ينتظره.

لقد فقد إيمانه كليةً تقريباً بالله، لم يشك في كونه موجوداً، لكن ارتاب في كونه حاضراً، انحصرت الدنيا كلها الآن في شيء واحد وحيد ينبغي الفرار منه مهما كان، فإن لم يكن الفرار فالموت أيسر. وعنَّ له أن يعتقد أن هذا الشيء — الذي يبغي الفرار منه — موجود في حياته من عهود سحيقة سابقة، وإلا، فكيف ظهر له أن يحتج على الدراما العربية بهذه الصورة، من قبل أن يرى «زبيبة» الأستاذ مصطفى حامد؟! فيما يبدو أن هنالك ذاكرة جماعية — كما يقرأ — تختزن في داخله ذكريات وخبرات مؤلمة، تمت لعصور قديمة عانى فيها أسلافه.

هذا ما اعتقده وهذا ما آمن به لاحقاً: الوجود الإنساني ذراه الريح، والتعدد الثقافي وهم وخدعة، والعناية الإلهية سراب وشعوذة وأسلوب عتيق للعبودية، والمعيشة المشتركة استعباد وخضوع، أو هي حلم مضحك، والناس الطيبون ما هم طيبين، وهم في نفس الوقت ضحايا للشيء، وخالقهم هو المسئول. أما الديمقراطية، والحب، والشجار، والطموح، والفشل، والجنس، والتأمل، والشجر، والمواصلات، والاختلاف، والتشابه، والحديث، والمشاعر، كل ذلك غير موجود في مصر!... المسلسلات العربية كلام ساذج، والكتب رمامة، والمفكرون أغبياء أعمياء، ورجال الدين المسيحي ضعفاء، والرب أضعفهم، والمستقبل مظلم، حتى بالخارج يوجد ١١ سبتمبر.

وقد حلي له أن يتأمل — وسط عظيم إدراكه الآن — شخصين بعينهما رأى أن تناقضهما — وتماثلهما — قد يعبر عن أقسى نكتة في الكون: ميشيل زميله، والشيخ عبد المتين فرجاني أسفله. لاحظ صعود دينيات ميشيل، وبدئه القراءة في الكتاب المقدس حيث عود نفسه قراءته وهو منطوٍ على حافة سرير هاني ماسكاً بشفته السفلى في انتباه، وقلة شتائمه النابية

رويداً، وصمته، وتفكيره، وصلاته بالأجبية[٢٨]، وهدوء نفسه، وحيرته، وعقده ذراعيه وهو واقف في البلكونة يتأمل. ويوماً استفزه فقال له:

– 'أنا في حاجة محيراني من زمان ونفسي أعرفها.'

سأله ميشيل ما هي، فقال مختبره:

– 'إزاي ها نعيش في السما؟'

هذا السؤال سأله من قبل لزميل بروتستانتي يدعى سامح عبد الله شكله ظريف برأس حليقة تماماً ولحية مشعرة وجسم ممتلئ يشبه الإبريق، وقال له سامح وكانا يتمشيان في طرقات المستشفى الجامعي: 'ها نعيش حياة تسبيح دائم وها نهلل لرب المجد!'، فأدلى إليه مرتاباً: 'مش ها نزهق؟ طب مش ها نكلم بعض طيب؟ ها اكلم سيدي وستي؟'، وإن لم يفهم سامح ما معنى 'سيدي وستي' – فهذه اللغة غير مفهومة في المجتمع الصعيدي الراقي – لكنه أجاب في نشاط: 'أنا لو قعدت لآخر الدنيا، مش راح أزهق...'. ربما كان سامح متديناً بحق (مع أن هذا لا يبدو)، لكن جلا لهاني أن حياة السماء لا تناسبه، أو لعلها تناسبه إن فقط تغيرت طبيعته، وقد عرف أننا في القيامة ستتغير طبيعتنا ونلبس جسداً جديداً، فارتاح فكره معولاً على هذا «الجسد الجديد»، على أنه رغب في استكشاف ما يدور بخلد ميشيل الذي كان 'ضالاً فهدى'. بيد أن ميشيل قام وقال مهموماً وهو يتجه نحو الشرفة (حيث ارتفع صوت غناء من العمارة المجاورة):

– 'هو احنا نطول بس نروح السما يا عم مايكـــهاني؟'

ثم وهو يشعل سيجارة:

– 'طب بس نروح بس وبعدين يحلها ألف حلال...'.

أما الشيخ عبد المتين فرجاني، فقد لفت انتباهه لحادثة وقعت مصادفة تعود أيضاً للشرفة. كان ذلك في أحد الليالي التي يغيب فيها ميشيل حيث يختلي في الدير، وقد سهد هاني لا لأجل الفكر، لكن لأنه كان قد غفا طويلاً في الظهر. فنهض والمكان مظلم وتوخى البلكونة ففتحها

---

[٢٨] كتاب الصلوات عند الطائفة الأرثوذكسية.

على آخرها، ثم وقف يتمرجح على حافتها بذراعيه... وكانت ليلة قمرية، وقد انتشرت الأشعة الفضية على الشارع بالأسفل: على السيارة الشاهين والسيارات الراكنة، وعلى القطط الضالة، وعلى زوايا العمارات التي تحدد الشارع الجانبي والحارة المسدودة التي صنعها، ثم عليه هو، هاني، وعلى بلكونته، وتسللت إلى غرفته وسريره، فكان الجو حالماً سحرياً. وكانت اليقظة تواكبه خاصة مع التيار المرطب الذي اختلط بالهواء، وقد خطر له - كتجربة فقط - أن يشعل سيجارة من علبة تركها ميشيل في دولابه المفتوح، فقصد العلبة الحمراء، والتقط منها - برهبة - لفافة بيضاء قصيرة، وبعدها ذهب للصالة يبحث عن عود كبريت حيث وجده إلى جوار السخان الكهربائي تجهيزاً للاستعمال في حفلة العشاء (كان البحث عن أعواد كبريت لإشعال فرن العمال بالدور الأرضي بالأسفل مشكلة)، فقفل إلى البلكونة مزهواً بالسيجارة التي لم يضعها في فمه... وقد لبث برهة يتطلع إلى النجوم الساهرة الزاهية في تلك الليلة الصافية حيث امتنعت لمبات الإضاءة في الشارع الخلفي عن العمل، ويتردد إزاء تجربة الدخان، حتى على حين غفلة يسمع حركة وزحفاً بالأسفل... واشرأب برأسه عن حذر فأبصر لحية طويلة تمتد من الحافة. كالعادة فقد كان يكره الملتحين، ويخشى منهم، ويعتبرهم إرهابيين كامنين يتربصون بفرصة سانحة لـ«الجهاد»، فانكمش إلى الداخل وملامحه منقبضة وقلبه يحدس شراً. لكن ما أدهشه حقاً هو أنه سمع - وهو خائف منكمش بالأعلى - دندنة تأتي من الشيخ الملتحي بالأسفل، بدت في الأول غير واضحة لكن مع الإعادة بانت وظهرت، وكان الشيخ يقول ملقياً:

'أروح وقد ختمت على فؤادي بحبك أن يحل به سواكا
'أحبك لا ببعضي بل بكلي وإن لم يبق حبك لي حراكا
'إذا اشتبكت دموع في خدود . . . .'

عجب هاني، أفهذا الشيخ يرنم لله ؟! ياله من أمر غريب! أخذ يتصنت عليه لكن الشيخ في النهاية صمت، ومكث على وضعه، ولحيته تبرق تحت نور القمر، وتحرك خصلاتها الناعمة نسمات الهواء. ولما لم يجد منه

هاني أملاً، رمى بعقب السيجارة المشتعل من مكانه في الظلمة، فسقط أمام الشيخ كأنه شهاب من جهنم. فأجفل الشيخ، ونظر لأعلى، لكنه لم يجد أحداً...

بعد ذلك ابتدأ هاني يشغل بأمر «الصوفية الإسلامية» وكيفية نهجها، هل حقاً يوجد «دراويش» و«أولياء» عند المسلمون مثلما لدى المسيحيين آباء وقديسون؟ طرأ نفس السؤال الذي بدا له من قبل وهو يشاهد المظاهرات: ترى كيف يفكر المسلمون؟ والسؤال الأكثر حيرة: كيف ينظرون إليهم؟ كانت صدمة «الشيخ المرنم» له أي صدمة، لكنها لم تجعله أكثر تسامحاً وحباً للآخرين، بل جعلته أشد غضباً ونقمة على خالق الكون، ثم أقسى تشاؤماً، وسوداوية، فحتى «الشيء» (الذي ينبغي الفرار منه) تحور ولما يصر هو الشيء بالسذاجة والوضوح الأولين، وامتزج مفهوم 'الضحايا' مع 'المتواطئين'، فأمسى المتواطئون ضحايا، لكنهم ضحايا متواطئون.

الجميع الآن من المساكين، لكنهم مساكين أفاقين أوغاد، ولا طريق للهرب، لأن المشكلة لم تعد بذلك الوضوح، كيف يتعامل مع اليهود والملحدين والهندوس بالخارج مثلاً؟، اليقين ما زال قائماً، والحقيقة الخالصة بالنسبة له هي هي: 'المسيح هو الله'، لكن الكون يتجه للنهاية ولونه أسود وأحمر، والناس مساكين...!

وقد رغب في التقرب للشيخ عبد المتين، وحلم بمصادقته، ليخفف أوزار يأسه وكراهيته، فغدا يجبره على مصافحته على باب المطعم بالأسفل، ويضحك في وجهه ويقول له هاتفاً أمام الناس: 'شيييييخ عبد المتين، إزيك يا باشا؟'! وكان الشيخ الشاب يرنوه متعجباً، باسماً لحظات، لكنه مستنكر ما حسبه استهزاءً، وقُضي الأمر ذات مرة بأن رفض أن يصافحه وتركه وذهب، وهو يحمل أكياس طعامه ويهز رأسه هزات قصيرة متتابعة، إذ بات يربأ عن التغدي في المطعم. أمثال عصام صلاح وغيره من المسلمين المتسامحين لم يكونوا هم علاجه، لقد رام أن يختلط بالأقصى تديناً أو تطرفاً كي يأمن جانبهم ويطمئن أن المستقبل قد يغدو بخير في مصر إن

مسكوا هم الزمام، وأنه يستطيع الآن أن ينسى همومه الثقيلة ويحب ويتزوج وينجب... هنا في مصر!

وقد بلغه – من عصام صلاح – أن الشيخ عبد المتين نفسه يتجهز لزواج، سيتزوج ابنة قائد كبير من قواد جماعة الإخوان المسلمين في أسيوط اسمها شيماء وتدرس في كلية الهندسة، وأن الشائعات تقول أنه سينقبها ما أن يتزوجا، مع أن الفتاة منفتحة واجتماعية وليست أبداً من هذا الطراز. لشد ما حسد عبد المتين بعد أن سمع الخبر، ولكم تمنى ساعتها لو لم يولد قط. وفي رجوعه أحد الأيام من المستشفى مع جورج عبد الملاك (كانا يتدربان في قسم الأطفال في تلك الفترة، وكانا منتدبين لأسبوع في معهد الأورام القريب من الاستراحة) شرد عن جورج الذي أخذ يحدثه في أمور فارغة بشدقيه الكبيرين مثل البطة بأن انبرى يتخيل نفسه عبد المتين، بلحيته وجلبابه القصير يمشي ها هنا في الشارع. سيحس مؤكداً بالانتماء، وسيرى هذا الطوار مسلماً، وذلك الكشك مسلماً، حتى القطة تلك سيراها على أنها مسلمة، وهو في مجتمع مسلم حيث أن مصر بلد الإسلام والمسلمين، وسيشعر أن الله قد أنعم عليه بنعمة الإسلام حيث أنه يعيش سعيداً في مجتمعه ومجتمع دينه. هل «هاني طلعت شنودة» له نفس «الوجود»؟ هاني طلعت غير موجود، هكذا اعتقد ورأى، ليس في مصر فحسب، بل على خريطة الدنيا.

٤. سيلفيا

I. كان الخواجة جورج، بعد أن فكر في مستقبل ابنه بما يكفي وهو جالس ذات أصيل ببهو فيلته يحتسي كوباً من القرفة بالسمسم، قد أزمع أن يزوجه. كان يخاف عليه بشدة من 'التحرق'، إذ كان رجلاً متديناً، والفتى كبر فأصبح مثل الثور والعلم عند الله فيم يمضي وقته في أسيوط، ثم أن الخواجة قديس حكيم —والذي سيجلو بعد لحظات دون شك أن كريمته «سيلفيا» هي زينة البنات في كل الجهات— غول تجارة الأدوات الكهربائية والبويات بنجع حمادي (والذي ينتمي لعائلة هائلة في المدينة هي عائلة الوالع)، هذا الخواجة من ناحية أخرى هو نفسه مالك العمارتين اللتين يحتل منهما دكاناه للصياغة قاعهما. وعلى أن الخواجة تمعن بعمق أكثر فألفى أن لا عائد مادي واضح سيعود عليه من تلك الزيجة، حتى بالنسبة للمحلين فهما من عهد عقود الإيجار القديمة ولا يدفع في الشهر أكثر من تسعة جنيهات، لكنه رأي أن مشروع الاقتران بطرف قوي من عائلة مثل الوالع سيفيد حتماً لن يضر، سيجعل اسمه «يلمع» أكثر على أضعف الإيمان. وقد قرر ونفذ وهو جالس هكذا فأعلن إلى زوجته أن تمضي لخطبة ابنة قديس حكيم الوالع في نفس المساء. غير أن زوجته كانت مترددة، فأملت عليه أن يذهب هو للحديث مع أبيها بادئ ذي بدء يجس نبضه، لكن الخواجة جورج ضحك وقال:

— 'أمال مش ها يرضى يناسبنا ياك؟'.

وهكذا غادرت ماري —زوجته— واتخذت طريقها نحو شارع الكنيسة في نجع حمادي في أحد الأيام الأوائل من شهر سبتمبر، واصطحبت معها ابنها الأصغر «ملاك». وكان الابن الأصغر ملاكاً بالفعل، وكان يعشق الكنائس بشكل غريب فصمم على أن يعرجا على كنيسة ماريوحنا وهما في طريقهما لزيارة الخطبة. وسبقها ركضاً إلى باب الكنيسة المطلي بالأسود وأمه تكاد تجري خلفه محرجة أمام المارة. وعندما ولجت ماري الكنيسة تعسر عليها أن تجد صغيرها رغم أن المكان لم يكن به زحام. وكانت مكتبة الكنيسة ما فتئت فاتحة تستعرض كتبها في أرفف مدرجة من خشب واجهاتها من زجاج وضوؤها النيون يضوي، وبائع القرابين ما يزال جالساً

أمام درجه الخشبي المغطى بستر هيكل قديم لونه أحمر يفعل ما عليه في بيع آخر خبزة في اليوم ثم بعض الصحف الدينية على رأسها مجلة الكرازة. ودخلت ماري تنقب عن الطفل وتسأل بائع القرابين الذي كان رجلاً أربعينياً ضعيفاً بعوينات كبيرة لكنه لم يعلمها بشيء ذي بال، فتعمقت في الداخل وألفت باب الكنيسة الداخلية مفتوحاً فتخطته، حيث لفها الضوء الخافت المنبعث من النجف. وكان بعض المصلين الخاشعين، الهامسين، ينتبذون الأركان المعتمة في لحظات خلوة، على أنها أبصرت جسم ولدها في آخر المكان لدن الهيكل وكان ساجداً أمام الستر العملاق لقدس الأقداس. فدنت منه بعد أن خلت حذاءها دون السلالم وأخذت تصلي جانبه وتدعو لولدها كافة، متعجبة وفي نفس الوقت منشرحة بهذه المقدمة المبروكة التي لم تُحسب في خطبة ابنها البكر. وبعدما فرغ ابنها الأصغر أخذته من يده وهي تتبسم في وجهه وتقول:

— 'تصدق انك واد بخيت باين عليك؟... صلي لاخوك يا ملاك يا حبيبي، صلي له عشان ربنا يساعده ويختار له الصالح'.

وكانت ماري — في قرارة نفسها — ممتعضة شيئاً من أمر الخطبة، لم تود أن تعلن زوجها لكن الفتاة موقع الاختيار لم تكن بالضبط ممن تملأ عيني امرأة متدينة مثل ماري. كانت تعرفها جيداً، فأمها في منزلة صاحبة لها، وإن يحسب لها أنها فتاة بارعة الجمال والأنوثة، رقيقة للغاية، ومهذبة تعرف تقابل الناس وباسمة طوال النهار، ولم يصعد عنها خبر خبيث منذ أن كانت في الجامعة، ودمثة، وأشياء أخرى كثيرة، لكنها — وهي تعلم يقيناً — ليست من الصنف المتدين أبداً. قد تمكث في الكنيسة ليلاً ونهاراً، وتخلط الدينيات بكلامها، 'بإذن ربنا'، 'صلي لي يا طنط'، 'باسم الصليب إيه ده!'، 'وحياة البابا كيرلس أنا «كذا»'، إلخ، لكن من عتقوا منذ الصغر في الدين مثل ماري، بيسر شديد «يكتشفونها»... لكن ماري عادت تدافع عنها في مخيلتها وهي تدنو وتدنو من منزل قديس الوالع (الذي أحياناً يشار إليه بـ'قديس حكيم' فقط نظراً لمجهوده الخاص في صنع اسم خاص له من دون مساعدة باقي عائلته)، فأطرت ذوقها وحسن تعاملها، وجاذبيتها، وحبها البين للأطفال، وجمالها ومن ينسى جمالها، فإنها بالطبع ترغب في تزويج بكرها من أنثى ولا كل الإناث، وميلها لها فهي لا

تكاد تلقاها مصادفة حتى تجعل في احتضانها ولثمها على الخدين، 'إزيك يا طنط؟'، 'إيه أخبار حضرتك يا طنط؟'، 'ليه مش بنشوفك؟ برضه كده؟'، ثم رقيها ودماثتها، حتى إذ وصلت أم ميشيل إلى العمارة (التي خصها قديس الوالع لنفسه) وصغيرها بيدها، هزت دماغها وتوكلت على الله متيمنة ولوجها الكنيسة قبل الشروع في مشروع الخطبة، وقالت من حدس قبلاً أن زوج ابنتها الضابط سينجلي أنه أفضل إنسان؟!

وكان المنزل يقع في شارع الكنيسة قرب منتهاه، عن كثب من مركز الشباب والرياضة، وقد أقيم على أنقاض البيت القديم الذي تزوج فيه قديس الوالع -رغماً عن عائلته- ونما فيه وحده حتى صار 'قديس حكيم'. إلى أن صفا الجو بينه والعائلة وصار يتقبل اسم 'الوالع' بفخر أيضاً مع 'حكيم' الذي بناه بنفسه. وتعجبت ماري في نفسها ككل مرة كيف يقبل إنسان مثل قديس حكيم أن يقطن في تلك الأنحاء؟ فتلك أماكن شعبية، مليئة بالأزقة المعتمة والبيوت الساقطة التي نسيها الزمن، ومؤخراً وقع بيت كامل وتشرد آله في شارع قريب، كما أن مثل هذه الأماكن -القريبة من الساحل والسوق وشارع السلاكين وخلافه- أماكن موبوءة بالبلطجية والرعاع والمتهجمين وكل ما هو خبيث، مرعب! وعلى الرغم من تدينها الصادق، لم يتسن لماري أبداً أن تنظر لآل هذه المناطق نظرة مختلفة، وأشفقت على 'الناس الكويسين' الذين يسكنون ها هنا. ثم رنت الجرس وأدنت فاها من الـ«speaker» فقالت أنها ماري زوجة جورج روستوف.

واستقبلتها «أم مايكل» -زوجة قديس الوالع- واختها سناء (وكانت غير متزوجة) باحتفاء، وأجلستاها على أريكة الأنتريه الجديد، قالت أم مايكل وهي تجلسها: 'شانيه تركي'. ولم تكن قد أفصحت عن أي شيء وهي تحدد الميعاد في التليفون، حسبها أن قالت أنها تروم أم مايكل في موضوع هام. ولم تقطع في الأمر من أول وهلة، بل تريثت فطفقت تحادث السيدتين في أمور منزلية، عن المعرض الصيني الجديد في الاستاد، وكيف أنها ذهبت لتبتاع بعض الملابس الداخلية لملاك فوجدت ذات الأسعار دون فارق، ثم عن تعبها في مسح الأرضيات ببيتها الفسيح، وأن جورج عرض مائة مرة أن يحضر 'تقي' -وهو رجل مشهور بالمدينة ينظف ويكنس ويمسح مقابل أجر- إلا أنها أبت، وأنها لا تحب أن تحضر خدماً للمنزل إذ

أنها تشعر أنها تستعبدهم، ثم عن أزمة اللحوم إذ أنها لا تضمن لحمة الثلاجات، .... إلخ، حتى إذ شح الحديث، وانكشف غطاء الاستماع والمتابعة وهز الرأس عن فضول سافر (ويبدو أن سناء — خالة العروس — لم تأت من آخر نجع حمادي من المستت دون سبب)، وضعت ماري كوب عصير الليمون (أو كما يدعونه هنا: 'السكر بليمون') على النضد الزجاجي، ثم سألت وهي تتحامى النظر:

— 'أمال فين عروستنا ؟'

كانت الكلمة كافية، فرجعت زوجة قديس الوالع للخلف — وكانت امرأة سمينة — فتنهدت وقالت لاحظة شقيقتها بلمحة:

— 'نايمة... أصلها كانت في الكنيسة م الصبح!'

— 'بتعمل إيه امال ؟'

— 'ولا حاجة يا خيتي، الخدمة ومرار الخدمة وادي اللي واخدينه لما البت مش عارفة تاكل لها لقمتين من الصبح للعشية.'

فأثنت أم ميشيل على الانشغال بالخدمة وقالت:

— 'أحسن للشباب، لما ينشغلوا في الخدمة أحسن ما يتشغلوا في حاجات تانية.'

ثم صمتت. وبعدها استجمعت تركيزها ووضعت يدها مبسوطة (كما تعلمتها مؤخراً من سيدات المدينة) على النضد الزجاجي وقالت:

— 'بصي يا ام مايكل، إحنا كده م الآخر، عاوزين سيلفيا لميشيل.'

فتظاهرت أم سيلفيا بالدهشة وهتفت وهي تتبادل النظر مع أختها:

— 'واه!... طب يا شيخة قولي كلام تاني!'

فلافتة النظر لعتاب قديم:

— 'دا بسلامته لا ادانا وش ولا قفا لما شافنا آخر مرة في أسبوع الآلام!'

فضحكت أم ميشيل قائلة:

— 'يعلم المسيح ده بيعزكم ويحبكم من زمان.'

فسألت خالة العروس — سناء — بعدوانية:

— 'أمال لا جا معاكي سيد العرسان، ولا حد من خالاته، عماته، أخته، ولا حد يعني ؟'

فحدجتها والدة العروس –زوجة قديس الوالع –بنظرة حارقة بينما ردت أم ميشيل في بساطة وهي تدور حولها تبحث عن ابنها ملاك (ثم لا تمكث تتجاهل أمره):

– 'إحنا جايين دلوقتي ناخد الأوكي منكم وبعدين يا ستي ليكم عليّ أزوط لكم الدنيا كلها هنا لما نسمع الرد الحلو إن شاء الله... آه يا ام مايكل، قلتي إيه؟'

فقالت زوجة قديس الوالع وهو تضع كفاً على كف:

– 'طب مش لما نشوف ابوها البت ونشوف ها يقول ايه؟'

إلا أن زوجة الخواجة جورج قالت في ثقة:

– 'إحنا نروح نسأل صاحبة الشأن الأول، وربنا يعمل اللي فيه الخير في ابوها. وابوها ده راجل حبيبنا مش هيرفض لنا طلب، إحنا عارفينه وابو ميشيل كل يوم معاه.'

وبعد تشاور خاطف مع أختها، نهضت أم مايكل وعلى وجهها المكتنز ابتسامة كبيرة، وأعادت كلام قرينتها بالضبط –كأنها جهاز تسجيل –عن أنها ستسأل صاحبة الشأن أولاً، وربنا يعمل اللي فيه الخير في أبوها، إذ أنه من أحبائهم وأبا ميشيل يعرفه وكل يوم معه! ثم خطت بترو على السيراميك الأملس متجهة نحو غرفة ابنتها.

وبعد دقائق عادت وعلى وجهها أمارات البشر. وهرول ملاك على السيراميك وزغردت النسوة، وكانت سيلفيا بعد استيقاظ فاخترقت الطرقة إلى الحوض تغتسل.

وكاد الخواجة جورج يقفز طرباً، وهاتفت زوجته ابنتها تبشرها، وأخرج هو جواله النقال الصغير (الذي يجد صعوبة في ضغط أزراره الضئيلة كل مرة) فأقربه من مقلتيه وطلب ابنه. ورد عليه ميشيل فملك نفسه وقال له بهدوء باسم:

– 'مبروك يا عريس، إحنا خطبنا لك خلاص.'

وإن جعل ميشيل يستفهم مرات، ويضحك وهو يستفهم، ويطلب إعادة تلاوة الخبر: 'إيه؟!... قلت إيه؟!... قل بس—يا خواجة!...'، لكن

أباه أغلق السكة ووجهه الضخم تحتله ابتسامة هائلة. وفي صباح اليوم التالي تقابل مع قديس حكيم وتعانقا.

II. سيلفيا لم تكن شيئاً بسيطاً أبداً. من ناحية كانت حسناءً للغاية كالخيال، ذات بشرة بيضاء ناصعة كأنها واجهة لأقمار عديدة، تحف بجفنيها السفليين بوادر جيوب من الغريب أنها مدت إلى الجمال والأنوثة، وكان شعرها أسود ناعماً جداً حتى أن أدنى معابثة من الهواء كانت تشتت خصلاته، أما أعجب ما فيها -وأشد- فكان جسدها الهرموني الفائق، الذي كان قوامه اللدن الطري يظهر بالأخص حين تمشي. وقد قيل وقيل أنها في مرتبة أجمل فتاة في نجع حمادي، والحق أنه لم تكن ثمة «قائمة» جلية لهذا الأمر، لكن يفي أن نستنتج كم كانت شهرتها، وكيف كان عبورها الطرقات الزلقة (في صباها، قبل أن يجدد اللواء عادل لبيب المدينة في فترة محافظته) الغاصة بـ'الأوباش' يشكل أزمة. وكانت تعاكس وتعاكس باستمرار، من الباعة، ومن عربجية الحنطور، ومن المارة، ومن مجهولين في الشارع، فتشمئز وتشعر باختناق وتبرم شديدين. كانت تعوف نجع حمادي، وتندب حظها أنها ولدت في الصعيد، وتكره سلوكيات الناس، لا الناس أنفسهم، وقرَّ بداخلها أن المكان ليس مكانها وليس مكان أي فتاة مسيحية من عائلة محترمة، وأن مستقرها رابض في موضع آخر، علّه القاهرة، لذلك لم تك تسير في شوارع المدينة الصغيرة إلا مرافقة بأحد أقاربها الشبان ممن في وضع الحارس الخاص، على ذلك المعاكسات والمضايقات لم تنته. وكان من أكثر الذين «تبرعوا» لحمايتها وهي رائحة أو آتية ابن عمتها يعقوب (هذا لأن أخاها مايكل كان مشغولاً باستمرار في لف الحشيش)، والذي وقع في حبها منذ أن كان في الحادية عشرة. وكان شاباً متيناً بشارب أنيق وملابس كلاسيكية محترمة له مشية إلى حد ما عسكرية، يزين معصمه الأيمن إنسيال ذهب والأيسر ساعة ذهبية أيضاً، هذا بخلاف السلسلة الذهبية السميكة التي تطوق عنقه. يعقوب كان يسير بجانبها مقطباً جاداً لا يكاد يحتمل أدنى همسة تصدر تجاهها، وغير مرة عاقب أشخاص معينين عقاباً ليس أبداً باليسير: مثل بائع فاكهة بعربة

ملطخة بالبوية ذي رأس أسمر ضخم وأسنان متباعدة كان يصرخ مرجفاً في يديه ما أن تسير حذاءه سيلفيا: ’نااار ماشية ع الأرض!... نااار والعة يا عتريس!‘ — وكان عتريس ابنه الذي يشتغل على عربة أخرى على بعد مترين وكان غلاماً سميناً يشبه أباه شيئاً لكنه سكيت — تركه يعقوب مرتين، وثلاثاً، حتى جاء له في يوم (وكان الباعة آنها يفرغون من عملهم متأهبين للبراح) حوالي الساعة الواحدة صباحاً، ومعه نفر من عمال محل والده للأدوات الكهربائية، وقال له متمهله: ’إستنى، إحنا عاوزينك‘ فتفاجأ البياع وقال له (ظناً أنهم قد جاءوا للشراء): ’طلبات الباشا ؟‘ فقال له يعقوب: ’تعال معانا واحنا ها نقول لك‘ فقال البائع: ’ما اقدرش أسيب العربية يا بيه‘ فقال له يعقوب: ’سيبها مع ولدك‘ وأخذه معه ومع العمال. ولوحظ بعدها أن البياع اختفى من الشارع (شارع بورسعيد) وأنه اختفى من المدينة.

وكان يعقوب — بالبديهة — قد تقدم لخطبة ابنة خاله مرات، ومرات، بيد أنها أبته أيضاً مرات، ومرات، قالت أنها لن تتزوج إلا من طبيب أو صيدلي.

ناحية أخرى من سيلفيا أنها على قدرما ولعت بالغنى، والعائلات الكبيرة الثرية، لكنها من الداخل كرهت المال. سببٌ أنها شعرت أنه «صنع» أناساً لم يستحقوا، وسببٌ آخر أنه كان لبعضٍ كمسكِّن، كمثل آلها الذين آثروا الرسوخ في الصعيد — لأن أعمالهم تدر دخلاً هناك — فضاعت حيواتهم في أماكن شافت أنها لا تستحق. سيلفيا كانت تحلم بالهجرة، وكانت تحلم بـ«الرقي الاجتماعي»، الذي خابت طبقة التجار والمزارعين في إتيانه لها.

ميشيل جورج كان بالنسبة لها الحل والدواء، فهي تعرفه منذ الصغر، وتدس — حقيقة لا رياءً — في باطنها مشاعر إعجاب عالية به، وهو طبيب، أي أنه من طائفة غير الطائفة التي سئمتها، من الطائفة المتعلمة المثقفة الراقية، ثم أن بعض الشائعات مؤخراً دارت حول خطاب معين يسعى أبوه لترجمته بواسطة الأستاذ ماهر العبد مدرس الإنجليزي...

ميشيل هو.

وفي الأيام التالية – بعد إعلان الموافقة رسمياً وتحصيل المباركة من أهل المدينة – دعيت من قبل آل عروسها كذا مرة لاستطلاع شبكتها في أيٍ من محلي الخواجة جورج. لم يحضر ميشيل بعد، وسألت عنه كل مرة فيضحك أبوه وتبتسم أمه ويضحك أبوها وتبتسم أمها، ويحرج أخوها، ويقولون لها: 'حالاً إتوحشتيه؟! ها ها ها'! وقضي أسبوع، ثم أسبوعان، ولما يحضر العروس بعد، ولما يهاتفها مرة (وكان لدن كلٍ رقم الهاتف المحمول للآخر من قبل). قالت أمه أنه مشغول في أسيوط وأنه سيعود قريباً جداً ليقضي معها باقي سنة التدريب كاملاً إذ سيحوله لمستشفى نجع حمادي العام. لكنها عادت بعد أيام لتنبئها أن مشروع التحويل فشل وأنه مضطر إلى الاستمرار في تدريبه بأسيوط. وحينما أفضت لها سيلفيا أنه لم يتصل بها مرةً ألفتها قد دهشت جداً، ثم تفكرت في صمت وسألتها محلفة بكل ما هو غالٍ أن تتريث إلى حين استجلاء ماهية الأمر.

وكان مساءً في الأسبوع قبل الأخير من سبتمبر (بعد أن كاد يمر على أمر الخطبة المزعومة ثلاثة أسابيع) احتجزت سيلفيا نفسها في غرفتها تقرر. كانت غرفتها بهيجة، مطلية بطلاء أبيض زهري ولها إضاءة قوية كأنها دائماً في نهار، وكانت تطل ببلكونة صغيرة من الطراز القديم – مسيجة بقضبان منبعجة للخارج – إلى ناصية شارع الكنيسة مع الشارع (الزقاق) الضيق الذي يقع فيه مدخل منزلهم. مشاعر الحنق تناوبتها تباعاً، وأصيبت بما يمثل الإهانة. كيف يأتي أن يخطبها – «هي» – شاب ولا يتصل بها حتى الآن؟ هل فقد «الولد» عقله؟! إن يعقوب ركبه اكتئاب وينام بالمهدئات حالياً، فما بال هذا «الميت»؟!... هل القصد من كل تلك «القصة» إهانة خفية لها ولعائلتها؟ لكن لماذا؟! أثمة مشكلات بين والدها ووالد ميشيل؟... ربما... لكن، قد تغدو في تلك الإهانة نهايتها! كلا كلا، لا يعقل أن يحدث هذا، على الأقل طنط ماري إنسانة جيدة ولن تشترك في «مؤامرات».

ودارت مثل تلك الأفكار – وأكثر – بمخيلتها وهي جالسة على السرير تستطلع رأس بيت ساقط أمامهم. وكانت تخشى من التطلع من البكلونة وهي بملابسها المنزلية – من شورت وتيشيرت – لأن الجميع ما يمكث أن يرميها بالمعاكسات وبأقبح الشتائم. وتشتت فكرها فلعنت

القضبان الكاشفة. ثم رجعت تمعن في موقفها فاستصغرته واستذلته. من المؤكد أن ميشيل لا يريدها، تلك هي الحقيقة بلا مراء، فلو كانت لديه أصغر ذرة من الاهتمام لهاتفها على أضعف الإيمان. واحد غيره كان زمانه الآن ساقط لدن قدميها، البضتين اللينتين! وجدفت بقدميها في الهواء تتشوف إليهما. وردت إليها ثقتها بنفسها، واستقر عزمها على رفض الزيجة قبل أن ترفض هي ويصاب والدها بتعس. وقبل أن ينتابها التردد، قامت وخرجت من غرفتها فأعلمت أمها — التي كانت جالسة تشاهد المسلسل العربي — بالأمر. أمها كانت تحدس، فهزت رأسها في صمت وقالت أنها ستخبر والدها ما أن يعود.

واستُدعي أخوها فخرجت سيلفيا في ذلك اليوم وزارت عدداً من الصديقات، ولم ترجع إلا متأخراً جداً، وقد انتعشت نفسها وتناست الموضوع برمته. خيل إليها الآن — كمثل أي فتاة واثقة من نفسها — أن ميشيل هو من لا يستأهلها، وأنه لو حفا إليها ثانية لتجاهلته «أيضاً». وكانت عيناها المؤطرتان بالكحل تبدوان كأنهما آلة تعذيب للرائي، وظلت بكامل ملابسها تنظر من البلكونة لا تعبأ بشيء. وكانت الحركة بالشارع قد نامت مومئة للمساكن أيضاً بالنعاس، وأحست الفتاة بضيق: أن الحجرة ضيقة، أو أن الشارع ضيق، أو أن المدينة قاتلة، ونامت بعد عسر. وفي الساعة الثانية والثلث صباحاً أدركها اتصال من الخطيب المشلوح. أوشكت أن لا ترد، لكنها لمت شعرها خلفها وغلظت في نبرتها وهي تجيبه:

— 'نعم ؟'

قهقه ميشيل في التليفون وقال:

— 'إنت شكلك كده زعلانة وشايلة مني قوي!'

— 'لا شايلة ولا حاجة، كل حاجة انتهت خلاص.'

وجعلا يتحادثان حتى انبلاج الصبح.

٥. الحرام

من طرائف القدر أن تزامن اليوم الذي اشتكى فيه بلال – رفيق آسر الصباحي – لآسر أن الشباب من لدنه يعاكسون الفتيات في الشقة قبالة السكن، مع أول مواعدة رسمية – تعتبر – بين آسر وشيماء. أتاه بلال في حالة زرية كعادته ذات ظهيرة فانتحى به جانباً يخبره أن أحد أصدقائه يكون خطيباً لإحداهن، وأنهن أفضين إليه – صديق بلال – في تبرم أنهن لا يجدن الراحة ولا هدوء السر بسبب مراقبة الشبان من الاستراحة – لاسيما من شباك غرفة معينة في الدور الرابع – لهن في كل حركة، ومعاكستهن من خلال الشباك نهاراً وليلاً. وكان هذا في الحقيقة حقاً لا زيف فيه، فقد واكظ الشبان – وآسر – على ممارسة مختلف أنواع المعاكسة من خلال شباك آسر، خاصة بعد ابتداء الدراسة وعودة الفتيات أدراجهن، وبعدما أحضر مشغل الـDVD الخاص به من المنزل مع سماعاته الـsub الضخمة لكي يطرب بسماع ما يروق له طوال اليوم. فكان آسر يخلع ملابسه أمامهن علناً وهو يغني: 'الدنيا حر، الدنيا حر، وعمو خليل ساقينا الخل'، وكانوا يتربصون بهن باستمرار حتى إن لاحت نظرة من أي منهن تجدهم يبتسمون لها في سماجة ويغمزون، فتنكمش إلى الداخل، وكان عصام مع جورج باخوم وسامح سيف يغلقون الشيش ويختبئون خلفه إن رأوهن بالبلكونة، ثم يدفعونه مرة واحدة ليخبط الحائط بقوة فيأخذون في الضحك، حتى هاني طلعت كان يروح عن نفسه بالبص عليهن والهمس بصوت ضاحك: 'يا بت... إنتي يا بت...'. وكانت أيضاً تصدر عنهم حركات صبيانية غريبة لا تناسب سنهم ولا مركزهم، كأن يرفعوا صوت الـsub بقوة ما أن يخرجن يتنسمن الهواء كأنهم يقولون لهن: 'أيوه، معاكم يعني'، وكان آسر أحياناً يحمل «قدري» بيديه ويجعله يصارع الهواء خارج الشباك وهو ينظر إليهن، إلى أن تشاجر معه عصام فأوقف ذلك، وكلما برزت إحداهن لكي تستذكر (وكن يتبادلن الاستذكار في البلكونة) كانوا يشغلون لها أغنية عبد الحليم حافظ: 'وحياة قلبي وأفراحه'، لدرجة أنهم كرروها في يوم واحد ثلاث عشرة مرة مع كل خرجة ودخلة! ومؤخراً قام سامح سيف بتصويرهن بموبايله دون أن يشعرن، لكن

يبدو أن الفتيات قد لاحظن هذا الارتباط المريب بين الموبايل الضخم وظهورهن كذا مرة، فشككن في الموضوع، وكن يتقبلن أي شيء عدا التصوير، ومن هنا غضبن وشكون.

وكان آسر على وشك السب واللعن واصفاً الفتيات بأنهن 'شر.... ط'، وأنهن يعرضن أجسادهن بالشورت و«البودي stomach» لهم طوال النهار، وأنهن يفتحن المصاريع على آخرها كي يتفرجوا عليهن وهن يضعن الماكياج، وأنهن....، وأنهن....، إلا أنه ملك نفسه. وقال بهدوء أن كل هذه الشكاوي لم تحدث، وأنهم لا يعاكسون 'بنات الناس'، وأن الشباك المقصود مؤكد ليس شباكه. فما كان من بلال — إزاء هذه الثقة التي لا تلين — إلا أن اعتذر ومضى ملمحاً إلى أن 'آسر مش يمكن يعمل كده برضه'.

ولبث آسر باقي النهار مكدراً يشتم الفتيات، وبلال، والاستراحة، و'الخو.... ات المعر.... ين' الذين جلبوا له المشاكل، ويعبس في وجوه الفتيات من شباكه كأن كرامته جرحت. إلى أن التقت عيناه بعيني شيماء مصادفة في المساء وهي تغلق باب بلكونتها الصغرى. اندهش أن تطيل النظر بهذه الصورة، ثم رآها بعد ذلك تعبر بحقيبتها الصغيرة تحت إبطها من الصالة بما يعلن أنها مغادرة. وبدفع الغيظ الذي سرى فيه، تشجع فنزل ليسبقها حتى ناصية الشارع.

لم يكن قابلها أو خاطبها ثانية بعد المغامرة الأخيرة، وكان ينأى عنها ببصره حين يبص أو يعاكس من الشباك، كأنه يعاكس الجميع إلا هي. على الرغم من ذلك فإن رغبته فيها لم تهمد، وكان — على حسب ما حرص — يتلصص على قدها الرشيق الجميل ومشيتها السائبة وأطرافها الصغيرة فيتحرق شوقاً لأن يقرمشها كلها قطعة واحدة، خاصة وأنه قد حادثها، أي عرفها، فدخلت شهوته من باب فسيح. ولم تكن شهوة آسر جنسية في الأساس، بل أنها لو عرضت نفسها عليه عارية ما ليعبأ بها، لكنه كان اجتماعياً من نوع غريب لدرجة أن اجتماعيته قتلت كل غريزة أخرى نافستها، أو صححتها بما يلائم مفهومها، ومن ليصدق أن هذا الذي يشاهد أفلام السكس يومياً، ويفاخر بعدد مرات 'الضرب' أمام كلٍ، في الحقيقة

يكره الجنس ويحتقره، ويؤثر محادثة ظريفة — حتى ولو مع شاب — على ليلة جنس صامتة؟ وفي الواقع لقد «مال» لشيماء لأنه وجدها ظريفة وأنثوية وجذابة، لعله لو كان إنساناً آخر لأمل فقط في صداقتها، لكن آسر لم يؤمن يوماً بصداقة بين ’ولد‘ و’بنت‘، اللهم إلا إذا كانت ذكراً بمعنى الكلمة، وكثيراً تساءل آسر عما إذا كان ثمة طريق آخر بين الذكر والأنثى: أفليس هنالك غير الجنس بمعنى الجنس، والصداقة البريئة؟! هل هناك درب آخر أساسه الالتقاء النفسي بين نفس الرجل ونفس المرأة فقط، وآخره القبلات ربما؟

كان آسر يفكر مثل الأطفال.

وانتظرها على مطلع الشارع وهو يركل زجاجة عصير فارغة، فإذ وفدت، تخطته متجاهلة ورفعت رأسها متوخية صوب على مكارم، فتبعها على حذر. وبعد مسافة إذ أمن الطريق سار أسرع من الطائر حتى لحق بها.

— ’إيه امال؟‘

بدأها بالاستعلام، فالتفتت له كأنها تتحقق أنه إلى جوارها، قبل أن تعود تنظر لطريقها وتسأله بهدوء:

— ’إنت لسه بتحبني؟‘

فكر آسر وتمعن، ثم قال:

— ’آه...— إنتي لسه فاكرة؟‘

رمقته بطرفيها المكحلين. فارتعش جسمه! وعاودت السؤال في هدوء:

— ’إنت لسه بتحبني يا آسر؟‘

في مناسبة أخرى كان قد تركها مستفزاً، لكنه وجد نفسه يجاريها في المفهوم الجديد، فأجاب:

— ’أيوه... أنا باحبك.‘

على أنه نطقها عابثاً إنما رعشة أخرى سرت في بدنه كله وأحس أن شعر قدميه (آسر لم يكن مشعراً إلا في قدميه) يقف! لم يك يتصور أنه سيقول مثل هذا الكلام. الحب؟! الحب شيء لم يلفظه لفتاة من قبل إلا هزراً ودعابة، أما هذه المرة فالأمر أفكأنه يختلف؟! من هذه الفتاة، ساحرة؟ كيف استطاعت أن تغدو واثقة منه إلى هذا الحد؟ لكنه كان

سعيداً يكاد يلمس السماء، أدرك أنها صديقته وحبيبته والمرأة التي فهمته فالتقطتها من لسانه دون أن يحدس أو يرتقب. وسار بجانبها آمناً مطمئناً كأنه في حمايتها، حتى قطعت على مكارم بالعرض نافذة في شارع سيتي، ثم سألته وهو تلحظه ببسمة، كأن تصريحه شيد بينهما شرعاً محللاً:

– ’إنت أكبر اخواتك ؟‘

أجاب أي نعم.

– ’باباك شغال ايه ؟‘

– ’في مزرعة بط في الفيوم.‘

استطرفت المهنة:

– ’بط ؟!... طب ومعاك اخوات تاني ؟‘

ابتسم:

– ’ما فيش غير العبد لله، وأخت تاني.‘

ضحكت:

– ’أيه ده! يعني مش داخل جيش ولا إيه ؟!‘

– ’وادخل جيش ازاي بس فال الله ولا فالك ؟‘

– ’يعني... أخ صغير كده ولا حاجة... ؟‘

– ’لا، ما تقلقيش من الناحية دي خالص، أنا ابويا بارَّبطه كل ليلة بعيد عن امي خالص.‘

قهقهت، فأردفها مستطرداً:

– ’باقول لك إيه، نيجيش ندخل البنات الجيش ؟‘

استمرت بالضحك:

– ’حرام عليك!— حرام عليك يا آسر دا احنا رقيقين خالص وما نستحملش!‘

– ’إنتو ؟! آه منكم انتو.‘

– ’إنت بتكرهنا ليه قوي كده ؟ ده حتى مش باين عليك.‘

– ’وباين عليّ إيه يعني ؟‘

– ’واحد بيحب البنات، أقولها لك صراحة!‘

وضحكت. أشنفت أذنيه كلمة ’البنات‘، وقال لها مواصلاً سلسلة الاتهامات الصبيانية:

– 'الله! إنتي اللي بتقولي كده بعد ما دوختيني السبع دوخات؟!'
ضحكت مرة أخرى وغطت فاها، ثم صرحت في عتاب غير جاد:
– 'كفاية بس بقى خلاص عشان ما ازعلش'.
وناشا معاً في شارع يسري راغب (الذي حوى جل مغامرتهما الأولى) وهما يتمازحان ويتضاحكان كمراهقين قافلين من المدرسة، حتى إذا أوغلا في امتداده عرجت إلى الجدية:
– 'تلاقيك بتقول لنفسك أنا إيه اللي خلاني أكلمك تاني بعد فضيحة المرة اللي فاتت؟'
وصمتت. كان آسر يتأمل ملبسها وقوامها. كانت ترتدي بودي أبيض بكمين طويلين أسودين تحته جيبة واسعة مشجرة (كما جلا أنه طراز محبب لديها) مثناة، وكانت تخطر وهي تمشي فتتحرك الجيبة يميناً ويساراً في طريقة مثيرة. وكان الزحام عند محل عصير التركي، فتلفتت لتطمئن أن أحداً من معارفها لا يشاهدها تسير بصحبته، كأنما تفطن لأول مرة لتلك النقطة، ثم تابعت:
– 'أنا كنت متغايظة منك المرة اللي فاتت... إنت جيت دخلت لي زي اللي بتتهجم عليَّ في الشارع—'
قاطعها:
– 'أنا ما كنتش باتهجم عليكي في الشارع.'
– 'عارفة. سيبني بس أكمل كلامي. قلت ده بيلعب وبيهزر، وإنه وش معاكسة مش وش جد. وفعلاً نسيت الموقف كله لما روحت البيت حتى إني ما جبتش سيرة للبنات... لكن عرفت بعدين إنك عمال تهاجمهم من شباكك ليل ونهار، لغاية ما البنات طقوا!'
وصمتت لحظة ثم أكملت:
– 'عرفت إنت ليه بتعمل كده. قلت لو أنا مش مهمة بالنسبة له ما كانش ها يفكر ينتقم بالص—'
قاطعها مرة أخرى ناكراً:
– 'أنا ما كنتش بانتقم ولا حاجة! مين قال لك كده؟!'
ريثته بضم أناملها، ثم أعادت مواصلة:

– ’قلت ما كانش ها يفكر ينتقم بالصورة دي. واحدة تانية كانت تكرهك أكتر واكتر... لكن أنا قلت إنه أكيد بيعمل كده علشان بيحبني... مش كده برضه ؟... إنت بتحبني... إنت اعترفت بنفسك من شوية.‘

لفظت الجملتين الأخيرتين في نبرة تعمها الشفقة، وهذا ما حير آسر، ترى ماذا تريد في نهاية هذا الكلام ؟ وطلب منها ألا تقطع حديثها، فاستمرت:

– ’طب لو كنت بتحبني صحيح، ع الأقل بلاش حركات العيال دي.‘

هل اتضح كل شيء ؟! هل لقد سقط تحت أقدامها سريعاً كالمغفل وهي لم تكن تريد إلا وعداً بـ«عدم التعرض» لهن مرة أخرى ؟! وقف بغتة وواجهها في غضب (لكن مكتوم)، أنامله تتحرق أن تعتصر ذراعها:

– ’أنا عاوز اعرف حاجة واحدة دلوقتي وبلاش لف ولا دوران: إنتي طلعتي معايا مخصوص، عشان مش عاوزاني «أعاكس صاحباتك» تاني ؟! إنت عبيطة ولا بتستهبلي ؟ فاكراني ممكن ها اصدق كلام فارغ زي كده ؟! باقول لك إيه، سلام.‘

لكنها مسكت بيده... سرعان ما أفلتتها ثانية ثم اعتدلت في موضعها تتأمل الرائح والجائي في حرج عظيم وقد احتقن وجهها، وهي تقول في خفوت:

– ’إنت عاجبك اللي عملته ده ؟!... أديك كنت ها تفضحنا مرة تانية!‘

وقف مكانه يحاول أن يثأثئ غضبه ومسح على جبهته وهو يقول:

– ’أنا كده، مش عاجبك روحي دوري لك على حد تاني تضحكي عليه.‘

كان من الداخل يشعر أنه فعلاً الآن يحبها كما اعترف قبل دقائق. في الواقع، هنا شعر أن ما بينهما أكبر مما خال، ثمة رابطة تربطهما كرابطة الدم، وهو لم يختبر ذلك من قبل مع أي من الفتيات اللائي واعدهن، ماذا تمثل شيماء له يا ترى جعله يأبى أن يفارقها حتى اللحظة على الرغم من الموقف المهين ؟... وتريثا بضعة دقائق حتى رحلت خشاتها وذعرها – وحميته هو – فتابعا الطريق يقاربان بين الخطوة والأخرى.

– ’أنا ما كنتش عاوزاك تفهم كده.‘

– ’أمال كنتي عاوزاني أفهم إيه ؟‘

فمجَّت عاقدة أناملها بالتتابع في أسف:

– 'إنت باين عليك متسرع وها تتعبني معاك.'

تذكر أنه أدلى بنفس هذه العبارة لمارك سعد الـ'Albino'[٢٩] من قبل. مارك سعد عاشق لأفعى ستصرعه في النهاية، فهل تشابه حالهما إلى هذه الصورة؟!

– 'بلاش الجملة دي، قولي بس اللي في نفسك عشان نسيب بعض يا بت الحلال.'

من الداخل أيضاً كان يرائي نفسه، ود في خياله أن يأخذها في تاكسي لمكان هادئ يتكلمان في هدوء، يغازلها من قمة رأسها لأخمص الأقدام، وتذكر ونبضه يضرب نزوته القديمة في أن يقبلها في النفق المظلم. وراح يرنو للتاكسيات المارقة ثم قالت شيماء وهما على وشك بلوغ نهاية الشارع حيث يتبدى شارع المحطة بعرضه، ثم السادات بطوله:

– 'أنا ما انكرش إن انا نفسي ميالة ليك – لأ لأ ما تستنى – أنا نفسي ملت ليك ويمكن ده السبب الوحيد اللي خلاني أرضى أقابلك النهارة، أو بمعنى أصح أرضى. لكن عاوزاك ما تضراش على كده لإني مش عارفة إذا كنت ها اطلع معاك تاني ولا لأ.'

وانتظرت لحظة، كأنها تعاتب نفسها على ما تواً صدر، ثم استطردت في رجاء:

– 'ممكن طيب نتعامل دلوقتي بس على إننا اصحاب، وبعدين نشوف آخرة الموضوع ده؟'

تمتم آسر رامشاً للأسفلت (وكانت ذرة تراب قد عاكست عينه اليسرى):

– 'إحنا اصحاب.'

– 'لأ، أنا باتكلم بجد، أنا مش ها اكمل معاك إلا لما توعدني إنك مش ها تلعب بيّ يمين ولا شمال وإنك مش ها تفضحني من عندك في الشباك ولا أي حاجة زي كده!'

التفت إليها آسر حانقاً، وكان يدعك عينه:

---

[٢٩] الأمهق.

– ’إنتي فاكراني إيه ؟!‘
فأدلت بنبرة شجية حائرة، كأنها ستجهش بالبكاء:
– ’والله يا بني ما انا فاكراك أي حاجة! أنا عاوزة اطمِّن بس!‘
فاستكمل طريقه وقطب (وكان «سنتر» امتداد يسري راغب بحزائهما):
– ’اطمني اطمني، ما تخافيش.‘
وإذ لمس لديها عدم الارتياح التفت لها أخيراً وضحك. شيماء أغضت البصر في حياء ثم ابتسمت بخفر وارتباك.
وسرعان ما أخذهما الحديث إلى أمور تافهة سحرية، فنشب الإعجاب بينهما تلقائياً كأنهما خلقا لبعضهما بعضاً (وهو في هذه الحالة أقوى من الحب)، وكأن ليس تتمة لقصتهما فيما بعد. وأكملا الطريق حتى نهاية الامتداد، ثم سارا شويا في شارع المحطة، فلم يفترقا إلا عند السينما، التي طلب منها آسر أن تصاحبه إليها في وقتٍ لكنها أنكرت وقالت أن هذا سابق لأوانه. فرجع آسر لا يصدق ما حدث، وقد تولاه دهش عظيم. كان اليوم – على غرابته – من أسعد أيام آسر عطالله، كان اليوم الذي شعر فيه آسر بالانتماء...

الجزء الخامس
سفر أسيوط

الإصحاح الأول: نهاية هاني طلعت

قام هاني طلعت بجولة جبارة في أكتوبر:

I. كان يوم الثاني من أكتوبر – لعام ٢٠٠٦ – يوماً مشهوداً، ففيه قد فازت مصر بكأس الأمم الأفريقية وهزمت ساحل العاج. خرج الشباب من الجنسين في الشوارع يرقصون ويهللون ويفرقعون الديناميت، وجابت السيارات أسيوط بطولها وعرضها ومنها برز شباب يلوحون بالعلم المصري ويصرخون في شبه جنون، وبعضٌ علق العلم المصري من بلكونته في زهو (بعضٌ أبدل عبارة 'الله أكبر' محل النسر في منتصف العلم)، واهتاجت المدينة، وخرج نائب مجلس الشعب بمظاهرة كبيرة من الشبان يزعقون في الشوارع خلفه: 'قال إيه، قال أوه، قال إيه عاوزين ياخدوه!'. في هذا الجو تزامل هاني مع ريمون عادل وكانا متوجهين قصد الكنيسة الإنجيلية الثانية في شارع النميس. وسارا بحذر على الرصيف متحاشيين قدر الإمكان الخوض في مهرجان السيارات أو البشر، حتى بلغا زاوية الكنيسة، فدلف به ريمون من شارع جانبي إلى الباب الخلفي للكنيسة. وقبل أن يدلف خلفه لحظ هاني في النميس فتاة سافرة بعجيزة ممتلئة، لكنه استغفر الله واستكمل الطريق.

لم يكن هاني قد زار الإنجيلية الثانية قبلاً، والحقيقة أنه ما قبل الدعوة إلا ضرباً من التجريب، وفكر وهو ماضٍ أنها تعد جريمة في فكر بعض الأساقفة. ثم انحرف فكره – مباشرة قبيل الدخول من خلال بوابتها الخلفية المفتوحة على المصراعين – إلى مفهوم «الفكر»، وكيف يختلف الناس مع بعضهم بعضاً، ثم سعي بعض مشاهير القبط إلى لقب «المفكر»، وجعل يتردد في ذهنه كالصدى سؤال أو اثنان عن ماهية الكلمة، وهل هي ضد الدين؟ وكيف تكون الحال «ضد الدين» في حياة بني آدم؟... ووضح من البداية أن اليوم يوم هام، فقد ألفى رجالاً أنيقين في

حلل سهرة سوداء، وإناثاً في فساتين سهرة (لكنها محتشمة)، يقفون في صفين متقابلين لدن المدخل. وما أن أقبل وريمون حتى صافحهما رجل ثلاثيني يتضوع منه عطر قوي، بقوة، ورحب بهما في الكنيسة قائلاً:

— 'شرفتونا يا جماعة.'

وكان الجو برمته غريباً عليه فحملق هاني فيما حوله في صمت. وقادهما الرجل إلى ساحة واسعة — هي حوش الكنيسة — معبأة بكراسي لا تحصى مصطفة شغل أغلبها أناس يستمعون ويشاهدون من خلال عرض ضخم بالبروجيكتور، بعد أن نفذت الأماكن داخل الكنيسة. وتطلع هاني فأبصر حجرات منارة من دور واحد علق عليها في ذهنه أنها ربما مكتبة ودورات مياه، ونفذ إلى كرسي خالٍ بجانب عجوز جميل بشعر أبيض ملتوٍ كالأجانب، لكن ريمون لم يصاحبه، قال أن ثمة أعمالاً — خدمة — تنتظره بالكنيسة. ورأى هاني عدداً من زملائه الذين كانوا معه في الدفعة: الجميع كان في زي السهرة، بدوا كأنهم آخرون. رأى لورا شمشون ونيفين دانيال وكانتا تجوبان من هنا لهناك، كذلك كان هناك جون نعمان ووائل دميان (الأول كخادم، والثاني جالس بموضع متقدم ليس بعيد عنه إلى اليمين)، وإيمان مختار، ومعها شاب لا يعرفه جالس بجوارها، وجرجس إدوارد جالساً بجوار شنودة لمعي، وقد استغرب حضورهما، فهما من الأرثوذكس المعروفين. وحوى الحوش بنظرات متتابعة فهاله اتساعه وزحامه، وكانت وفود مقبلة من بين فينة والأخرى من اليسار — حيث البوابة — فرادى وزرافات، كما وقفت بعض السيدات في المؤخرة يتبادلن الحديث. وإذ أطبق عليه الزحام انبرت تهاجمه بعض الأفكار التي شاعت عن الكنائس البروتستانتية، مثل مثلاً أنهم يجبرونك على التناول معهم، وأنهم يغلقون الأبواب حتى لا تهرب، وأنهم يرددون تراتيل ضد العقيدة الأرثوذكسية، .... إلخ، فما شغل نفسه إلا بمتابعة الواعظ، والمرنم، من خلال شاشة البروجيكتور.

الواعظ كان رجلاً في العقد السادس على الأقل، لا يعرفه، في حلة سهرة سوداء تماماً كالخدام هنا وهناك، وكان وجهه غير وسيم لكنه كما يقول الشبان: 'gentle'، جعل يروح ويجيء على «المنصة» — أو هكذا قربها لنفسه فهو لا يعرف ما إذا كان خورس للشمامسة في الكنائس

البروتستانتية أم لا! — وخلفه الصليب ضخماً وخشبياً، لا صور لا أيقونات. راح الواعظ يعظ بصوت جهوري رنان ضخمته المكبرات هنا وهناك حتى لابد أنه بلغ نهاية الشارع. تكلم عن كل شيء تقريباً، عن الشباب البعيدين عن الله، وعن تحول العبادة لطقوس، وعن «الدش» وغياب الوالدين، وعن النت، وعن فساد الدنيا تدريجياً:

— 'دلوقتي بقي في حاجة اسمها: «النموذج الأكثر إثارة»... من غير كسوف!... اللي احنا وصلنا له إننا أصبحنا بـ«نكرم» الغرائز لأقصى درجة حتى أصبح المرذول مقبول، والمفروض مرفوض... يا ترى لو جا النهاردة رب المجد... ؟ يا ترى لو اكتشفنا إن اليوم هو آخر يوم لنا على الأرض... ؟ إيه ها يكون منظرنا قدام العرش ؟!...

'مرة، من حوالي خمس سنين دلوقتي، كنت في سفرية لأميركا. نفس البرج اللي وقع — مبنى التجارة العالمي — كنت واقف تحته، شهر واحد قبل ما يقع... قعدت أبص له من تحت لفوق كده وانا باقول في نفسي: "إيه العظمة دي ؟... إيه الإنجاز البشري العظيم ده!" بصيت له وقلت مش ممكن بناء بهذه العظمة إنه يسقط، أبداً!...'

وصمت هنيهة، ثم استطرد:

— 'في ناس بتقول لي: "إنت ليه إنت بتعمل كده ؟... ليه إنت بتحبطنا ليه بتصرخ ؟!"' — ورج صوته الكنيسة والساحة (الحوش) والشارع (بعض السابلة توقفوا في طريقهم وجعلوا يتطلعون إلى الكنيسة) — 'سألوني كتير السؤال ده، قلت وها افضل أقول: لما ألاقي إنسان قدامي واقف جنب حفرة مش شايفها، لازم أنبهه... لازم أصرخ فيه: "إنت يا فلان! حاسب! في حفرة جنب رجلك حاسب!". طب ده لو واحد واقف جنب حفرة، فماذا عن إنسان واقف جنبه حفرة مليانة نار آكلة ؟! إزاي أسكت ؟! إزاي أسيبه ؟! لازم أصرخ بعلو صوتي: "إنت! إنت هناك! حاسب! في نار تحت رجليك إنت مش حاسس بيها! حاسب يا أخويا! حاسبي يا أختي! حاسب!..."'

ثم تحدث الواعظ أيضاً عن العلاقات بين الشبان والشابات، وتلى قصصاً، وحكى عن معجزات إلهية. وبعدها ظهر المرنم زياد شحادة — وكان

كلٌ يعرفه — فرنم ترنيمة طويلة وهو مغمض العينين، وردد الجميع من خلفه ومعه.

وكان هاني يحاول — في خلال كل ذلك — أن يلفت نظر وائل دميان لكيما يأتي ويجلس بجانبه، حتى نجح أخيراً، فانتبه الفتى طويل الشعر فخرج من مكانه بهدوء وجاء ليجاوره مبتسماً. تعثر في قدم رجل جلس أول الصف، لكنه أكمل وعلى وجهه نفس الابتسامة، وسأله هاني همساً:

— 'مين دا؟'

— 'قصدك مين؟'

— 'الراجل اللي بيوعظ دا؟'

— 'آه. ده الدكتور زكريا استاورو! إنت عارف إنه كان دكتور وساب الطب؟ دلوقتي هو واعظ وكارز مشهور جداً!'

— 'أسيوطي؟'

— 'لأ، من نجع حمادي.'

— 'آه... طب وعلى كدا «الوعاظ» عندكو، بياخدوا مرتب؟'

كان سؤاله بغرض بخس القدر، وأجاب وائل:

— 'ما اعرفش!'

— 'إزاي؟ مش انت بروتستانت؟'

— 'عارف... ما اظنش!'

وعلى حديثهما مال الدكتور زكريا على المرنم زياد شحادة — وكان مغمضاً عينيه ما يزال — فقال للجمهور:

— 'أنا باحب أسمع الأخ زياد... بصوا إزاي الإنسان ممكن يستغل وزنته علشان ربنا... لو كان الأخ زياد اتجه لمجال تاني غير خدمة رب المجد كان زمانه بقي إيه؟... فلوس، وشهرة، وحاجات تانية كتير... لكنه فضل إنه يسيب ده كله علشان "ما هو قدام"... اسمعوا ورنموا مع الأخ زياد.'

وأومأ للمرنم — الذي كان قد فتح عينيه — بالمتابعة، فتابع المرنم معيداً على نغمات جيتار حزينة:

'إني لرافع   عينيّ إلى السماء
ويداي ممدودتان   إليك يا رب العلا'

'اسمع صلاتي   واستجب دعائي'

ثم أشار وائل إلى إيمان مختار وهمس:

– 'شايفهم؟ ها يتخطبوا خلاص، في كلام كده.'

– 'هو مين دا أساساً؟'

– 'مارك رفعت، صيدلي صاحبنا.'

رفع هاني حاجبيه واختلس النظر. رأى إيمان مطرقة والشاب بجانبها متردد النظر بينها والبروجيكتور. وكان على علم – كالجميع – بقصتها مع مارك سعد – الـ«Albino» – فسأله بشجن إذ كان مارك صديقه:

– 'طب ومارك سعد؟'

– 'لا، خد الصابونة.'

ثم أدلى وائل بمعلومات أخرى خاصة بالارتباط والخطبة والزواج: قال أن لورا شمشون ستتزوج من مهندس بالأسكندرية، وريموندا ثمة أنباء عن خطبة دانية أيضاً لمهندس، ورانيا شوقي ستتزوج في منتصف الشهر لكنها لم تدع أحداً بعد. استمع هاني مردداً: 'هاه؟... يا سلام؟... معقولة؟' غير مرة، وشرد تفكيره مرة أخرى إلى التأمل المظلم، وصرح لنفسه أنه ربما لن يتزوج عوض.

وغادر الإنجيلية الثانية ذلك اليوم وحيداً، إذ تعسر البحث عن ريمون في الزحام ووائل تذرع بتوصيل أخته، وكانت هوجة الأمم الأفريقية لم تنم بعد، وألعاب نارية بالشوارع، ورقص وطبل وعالم آخر، وشاف طفلاً خبطته سيارة لكنه لم يأبه وعاد يقفز كالقرد صابغاً شعره بألوان العلم، ولمح فتيات جميلات يطللن من البلكونات، ورجل يصرخ في مكبر صوت من أمام محل ملابس. وأخذ يفكر وهو راجع في أن العالم منقسم إلى قسمين: ديني، وغير ديني، وأنه لا يتبع أياً من القسمين. وعاد للاستراحة بعد منتصف الليل.

II. ولم يغد هاني صموتاً أو منعزلاً في تلك الفترة جميعاً، بل على النقيض، وكأنه طموحه المنقضي كان يحول دونه والناس فصار الحين

يختلط بهم أكثر، وبدا من الخارج كأنه سعيد. ولم تحدث أية «أحداث» هامة في حياته، لمس وأعلن لذاته أن «أحداث الحياة» انتهت: ليس من طموح يسعى إليه، وليس من مشاعر، وليس من مشاجرات، أو مشاحنات، أو صداقات جديدة (اللهم إلا حوارات طويلة مظلمة مع أيمن سليم)، أو مشروع يومي يبغاه ويجهز له، حتى القراءة —بأنواعها، حتى كتب أبونا تادرس يعقوب ملطي التي كان شغوفاً بها —هزلت ونامت، والأفلام بات بالكاد يتردد عليها (في حجرة التلفاز بالأسفل). صداقته مع وسيم هلال علا شأنها، لأنه كان يسليه (بعد فشله هو الآخر في التحصل على عمل، أي عمل، في مجال الأدوية)، وأمسى يجالس أشخاصاً مثل ريمون عادل، أو جورج ملقي رفيقه في الغرفة —حجة اللغات القديمة والتراث —في الواقع، اختلط فعلياً بكل المسيحيين الذين يسكنون معه، واختلط أيضاً بعصام صلاح وياسين وأبو علي وغيرهم لأنهم هونوا — بشخصياتهم المناقضة لما تأسس في عقله —من شعوره بالمأساة.

ونمت لديه الآن آراء سياسية دينية شاملة للأرض أغلبها مهين للدين الآخر وكفى، على أنه كان يتوسع فيها مع أيمن سليم فيجد —أحياناً —أن الأمر ليس بهذه البساطة، ففي جل الأحيان كان يكتشف أنه ما إلا يتهم الله بفساد الكون! وكان يرتعب من الفكرة. ويوماً قال له أيمن أن حل الأقباط في الهجرة، ولفظها وجميعه إيمان ويقين وأمل. كان أيمن في السابق فتى طالحاً، في بداية الدراسة الجامعية، وكان فاشلاً في دراسته ونزل في أربع مواد في السنة الأولى، لكنه بهر الجميع في السنة التالية بإصلاحه لنفسه، وتدينه المستجد، لدرجة أن صور القديسين لم تغد تفارق جيب قميصه العلوي، ثم تفوقه القاطع في الدراسة فتبوأ المركز الأول على النصارى في سنتها. واستمر هذا التحسن إلى التخرج —مع بعض التنافس والصعود والهبوط —فكان له المركز الواحد والتسعون بعد المائة على الدفعة. أنباء أخرى مؤخراً تناولت باقي عائلته، قيل أن كل فرد منها له نفس التاريخ: والده كان رجلاً سليط اللسان الشتائم المنكرة لا تفارق لسانه، محباً للأذى والرياء، فإذ به في خلال شهر أو أقل من شهر ينقلب إلى شبه قديس، وأصبح كثير الاختلاف على الأديرة والمزارات ويأخذ زوجه وولده معه في رحلات طويلة، أمه أيضاً على رقتها لم تكن متدينة فتدينت،

وأخوه الطالب بتجارة سوهاج كان صورة طبق الأصل منه وانصلح حاله. كل هذا جذب الانتباه إلى سر استقامة هذه الأسرة، وأشيع أن قديساً شهيراً قد فعل معهم معجزة ضخمة يغطون عليها. وكان آسر هو من اجتلب الأخبار فكان يستضحك وهو يتحدث عنهم ويقول: 'أمال ايه حكاية الجماعة دولا امال؟!... ده الواحد خايف ليتعدي منه والله!'. وابتسم هزءاً ساعتها – هاني – وقال لأيمن:

– 'تفتكر؟'

فأكد أيمن:

– 'بره ها تعيش محترم، مش ها تلاقي حد يضطهدك أو يشتمك كل يوم في الجرايد، غير كدا العالم كله مسيحي بره، يعني ها تنسى مشكلة الدين وها تبتدي تبص لموضوعات تاني: تبص لحياتك، هواياتك، مستقبلك، علاقاتك الأسرية، مش هنا إنت بتعاني يومياً عشان بس «ما تصطدمش بحاجة تعكر الدم»!'

فأفضى له هاني في سوداوية تامة غير قابلة للحوار:

– 'بره مش ها تلاقي حاجة... ها يبقى معاك فلوس؟ ممكن، حريم؟ ماشي، لكن ها تعيش وحيد لغاية ما تموت.'

واستدار له كأنه يزيد الأمر يقيناً ويعطف على طفولة نظراته وأردف (بثقة طفولية هو الآخر إن كان لنا أن نكون حياديين):

– 'مش زي ما انت فاكر يا حبيبي... مش زي ما انت فاكر.'

فامتعض أيمن سليم وزعق به:

– 'إنت مريض نفسي!'

وغضب منه لأنه نعته بالمريض النفسي، وذهب.

في مرة تالية تناقشا في أمر الهجرة موضوعياً: كانت لدى أيمن معلومات مكدسة عن الموضوع، وشروط وقوانين كل دولة، وأخبره مثلاً أن أستراليا تشترط اجتياز امتحان الIELTS بscore معين لكي تعمل طبيباً هناك، وأن أمريكا ضرب من الخيال الآن، وأن كندا تستورد كثيرين من أصول إسلامية، ثم الفرنسية مشكلة، وأن فيزة بريطانيا تحلق بأجنحتها في السماء بعيداً عن عيون البشر. أوربا تغص بالمسلمين والعرب، ثم أنك لكي تتكلم الألمانية مثلاً... ؟ لا تعليق.

وكانت ليلة هواؤها طيب في أكتوبر ولم تك مباراة مهمة في تلك الليلة بعد نفاذ بطولة الأمم الأفريقية، فعن له أن يهبط لعله يجد فيلماً جيداً يسليه ويشتت وحشته. من ناحية أخرى كان حبه للسينما قد ابتدأ من جديد يطفو، بل في أحايين كان يبدو له أنه الآن «أكثر نضجاً»، وأن لقاءه الفاشل مع الأستاذ مصطفى حامد كان «تجربة» فحسب من رب العباد لاختباره! على أن صلته بالقاهرة كانت قد اجتثت نهائياً فلم يعد مجال لإعادة الكرة. وهبط ذلك اليوم بعد أن استحم ولبس «ترنج» جديد أخضر فكأنه نبتة جديدة خرجت تواً من الصوبة، وكان كل شيء حواليه إيجابياً: الهواء إيجابي، وزملاؤه المسيحيون إيجابيون، وزملاؤه المسلمون إيجابيون، ولم يسمع منذ فترة — منذ البركان الذي انفجر بعد حادثة بابا الفاتيكان إياها — عن أسباب للفتن أو أي شأن مقيت، وأخذ يحدث الله في سره وهو هابط — بتروٍ — فيطلب منه أن ينتشله من «الشر»، ويساعده، ولا يتركه للمنغصات والأفكار السلبية والتعس. وكانت الحجرة مغلقة لكنه فتحها فألفى بالداخل ثلاثة من الزملاء: فاروق سليمان (صاحب الكمبيوتر في شقة «٦أ»)، وشابين آخرين هما محمد عبد الموجود، وسلمان رشيد. كان فاروق وسيماً، ذا عينين ملونتين (اختلف فيهما) وبدن رياضي رشيق، ومحمد عبد الموجود كان عبارة عن شاب طويل أسمر، أما سلمان فكان أسمر قصيراً من الوادي الجديد. ومساهم فهزوا رؤوسهم إيجاباً، وانتقى كرسياً وسأل ما الفيلم فقال فاروق أنهم ينتظرون لحين انتهاء إعلانات قناة «The Movie Channel». على أن فاروق بعد لحظات غير القناة (بميكانيكية غريبة في تلفاز الاستراحة عن طريق تلامس سلكين مكشوفين) فكانت بداية فيلم على قناة «Dubai One». كان فيلماً لا يعرفه، وإن ميز به الممثلة الأمريكية جينفر جارنر، وكان يعرض لمشهد خيالي عن زلزال ما يضرب مدينة نيويورك. وفوجئ بالثلاثة الموجودين معه يهتفون ويهللون، وسلمان يهتف: 'الله!... الله!'، ثم سقط تمثال الحرية فوجدهم يكبرون وهم في غاية من الاهتياج، كأن ما يشاهدونه هو حقيقة على نشرة أخبار، وصرخ محمد عبد الموجود:

— 'إمتى ها نشوف اليوم ده؟!'

فرد عليه فاروق سليمان، بحكمة:
– ’ربنا مش ها يحاسب أمريكا على قد اللي بتعمله، هو ها يحاسبنا إحنا أكتر علشان ساكتين عليها‘.
وغادر هاني الحجرة.

III. ومني بعد أيام بمصادفة. كان ذلك وقد شارف أكتوبر على انتصافه، وكان الهم الشاغل للناس آنئذ هو أزمة حكومة حماس التي قطعت عنها الموارد، ومشكلة دارفور، ثم قلاقل الصومال. كانت أياماً سياسية عزيزة، وفي تلك الأجواء، شُغل مسيحيو أسيوط بنبأ طرد الدكتورة الشابة رانيا ملاك فايق (ابنة الجراح ملاك فايق) من قسم الأطفال بالجامعة حيث أشيع أنها تشاجرت مع الدكتورة صحراء وأن الأخيرة سبق وأن قالت لها: ’مش ها يبقى لك عيش في المكان ده‘. وكان مارك قد آب من النوبتجية في حوالي التاسعة مساءً، فرفض أن يحتجز بالاستراحة وخرج في تجوال هادئ. وكان اليوم أربعاء، والشوارع نوعاً ساجية على الامتلاء، وأخذ يسترق النظر من الفتيات وهو يشتت النظر في حرج. حتى باغته شبح يقطع عليه الطريق وكان ذلك في أحد شوارع شركة فريال! ألفاه رجلاً لحيماً بديناً ذا كتفين مكتنزين هائلين وبطن على السمنة مشدود ووجه مستدير باسم بعوينات أنيقة رفيعة، ومسحه الرجل الغريب بنظراته الباسمة وهتف له:
– ’هاني!‘
رجع هاني خطوة للخلف مرتبكاً، شعر أنه محرج وأنه إزاء شخص لا يعرفه، عله قابله ذات يوم ثم نسيه. وفحصه بنظرة صلدة، بيد أنه ما مكث أن ابتسم حتى لا يحرج المقتحم. وعاد الرجل يقول وقد ضربه انتشاء:
– ’إيه ده يا بني؟ إنت مش فاكرني ولا إيه؟!‘
– ’بصراحة، مش واخد بالي!‘
– ’جورج يا بني!... جورج حنا!‘
دار الاسم في ذهنه كما تدور الرحى، ثم ما لبث أن هتف محملقاً:
– ’جورج!... يخرب بيتك!‘

وقهقه جورج وقال:

— ’برضه كده يا هاني ما تفتكرنيش ؟‘

— ’العتب ع النظر يا جورج، ليّ فترة ما شفتكش... إيه أخبارك يا جورج ؟ والله ليك ألف وحشة!‘

واستكملا الطريق معاً وكان الطريق هادئاً.

— ’الواحد اتغير خالص لدرجة إن ما فيش حد بقي عارفه خالص.‘

— ’ما تقولش كدا يا جورج، إنت من يومك عارف إن انا نظري سالب خمسة في كل عين، دا كان زمان، فما بالك دلوقتي ؟ إنما — يخرب بيتك يا جورج! — إنت امتى جيت ؟ وليه— برضه ما تتصلش بولا واحد فينا!‘

— ’صدقني كنت ناوي اتصل، بيك انت بالذات، لكن أهوه، الأيام خدتني. الواحد اتغير عن زمان يا هاني، ودلوقتي بقى عنده بيت وعيال، وحاجات كتيرة تانية لغاية دلوقتي ما استوعبها.‘

— ’لكن— لكن— لكن والله ليك وحشة! إزاي بس— إمتى طيب وليه رجعت ؟!‘

— ’ما ليش اسبوعين. ركنت العيال عند امي في جرجا ما فيش غير مراتي معايا هنا. سايبها على كده مع واحدة قريبتنا تلففها شوية في البلد عشان انا ما ليش نفس.‘

— ’واه! جورج USA ما لوش نفس ؟! أمال مين يبقى له نفس فينا بعد كدا ؟!‘

تمتم جورج:

— ’صدقني كان زمان‘.

ثم أخذه هاني إلى كافتريا «هابي مون» بالجمهورية، فجلسا إلى ترابيزة رخام ضخمة بالدور العلوي، وجعل يستجلي صاحبه الجديد. لم يكد يصدق أن هذا اللحيم المترامي الأطراف هو جورج حنا، زميلهم القديم الشاب الممشوق الوسيم الذي كان قانطاً من العالم بأسره وحوى ذهنه مشكلات الكون كله، هل هو نفسه ؟! ترى ماذا فعل في أمريكا في السنوات الماضية ؟ هل أصاب نجاحاً، أم عاد بالخيبة ؟ وسأله (وكان صوت الكليب يغطي على صوته لكنه رفع من مستواه في عزم):

– 'إيه الأخبار يا جورج؟ واحشنا قوي يا عم! إحكي احكي، عملت إيه هناك؟'

لاحظ هاني أن زميله القديم صارت لديه الآن نبرة جديدة جادة، وكان يلفظ الكلمات في قوة، كأنه يخطب. وقال جورج بعد أن تلفت فيما حوله إذ لم يكن قد غشي مقهى منذ أن هبط من الطائرة:

– 'يعني، اتجوزت بدري، وخلفت، ودلوقتي أنا هناك حاجة كده زي «مدير» كبير في مطعم.'

– 'اتجوزت أمريكانية؟'

– 'لا، واحدة من هنا خطبتها لي أمي.'

ضحك هاني متعجباً:

– 'يااااه! يا سلام يا رب! مين كان يصدق إن جورج حنا بطوله وعرضه يرضى يتجوز جوازة «صالونات»؟! فاكر كلام زمان عن إنك لازم تحب، ولازم تنام مع اللي تحبها عشان تتأكد إنها مش باردة جنسياً، وكل الكلام الموسوس دا بتاع زمان؟!'

ابتسم جورج يسيراً:

– 'فاكر طبعاً. لكن إنت لو هناك مش ها تلاقي وقت «تشم» فيه. هناك يا بني الشغل شغل، وها تلاقي بنات مش مش ها تلاقي، لكن ها تلاقي. إنما مثلاً عشان تتجوز لي واحدة أمريكانية أولاً أهلك مش ها يرتاحوا، ثانياً، وانت مين قال لك دي أصلها إيه وفصلها إيه؟ مش ممكن تطلع لك واد في الآخر؟!'

وقهقه هاني. ثم قال:

– 'طب ما هو كان ممكن تتجوز لك واحدة مصرية مثلاً، واحدة يكون أبوها وأمها مصريين وعايشين هناك، أو واحدة تكون واخدة الجرين كارد وعايشة هناك؟'

فقال جورج:

– 'كل واحدة منهم شايفة نفسها وتقول لك: "أنا مواطنة أمريكية". أحسن حاجة تاخد لك واحدة من هنا لا شافت ولا بصت، أنا مراتي كانت قطة مغمضة يوم ما اخدتها.'

– 'ودلوقتي؟'

وأجاب جورج مردداً نظره في المكان وعلى شفتيه بسمة لا مبالية:

— 'دلوقتي... قطة مغمضة برضه. إنما ياد يا هاني، مش ده المكان اللي—'

— 'أيوه، أيوه، هو بعينه، هنا شعللنا وسيم لما فضحناه بموضوع «الشاي» بتاعه.'

فتأمل جورج قليلاً وقال:

— 'ياه. إيه أخباره الواد ده؟ عاوز اشوفه والله.'

وأتي النادل بكوبين من عصير الجوافة فأوضعهما على الرخام ثم غادر وهو ينحني. وأجاب هاني بعد مغادرته:

— 'كويس. كل العيال ها تعوز تشوفك، بس استنى لما اروح لهم.'

— 'صدقني أنا عاوز اشوفكم كلكم... لكن كويس صدقني اني لقيتك يا هنون، في حاجة كده كنت عاوزك تخدمني فيها.'

— 'عيني ليك.'

— 'تعيش. كنت عاوزك بس — مش انت بتتدرب دلوقتي في القصر؟

— كنت عاوزك بس تخدمني في حالات الجراحة والكتب، أنا اصلي جاي هنا عشان اخلص امتحانات السنة دي واسافر.'

غشي الاهتمام هاني فسأله:

— 'طب يا بني وانت إيه اللي جابرك على كدا؟'

كان يعلم مقت زميله القديم للطب من قبل الالتحاق بالكلية، وأنه أدلى بتحرره منه بعد الانصراف عنه للهجرة.

— 'ولا حاجة. صدقني أنا لو عليّ لا عاوز شهادات ولا غيره، لكن المشكلة في ولادي. لما يكبروا عاوزهم يقولوا إن أبوهم كان دكتور، وانا عن نفسي أنا خلاص، عمري ما ها اقدر أشتغل في المهنة، أنا رستقت نفسي على شغل المطاعم خلاص وبقي معايّ الحمد لله فلوس كويسة، مش محتاج يعني... إنما انت ليه ما فكرتش في الهجرة لغاية دلوقتي ياد يا هاني؟ ده انا كنت متوقع لك إنك تسافر بعدي بشهور. ولا لسه الأفكار المنيلة بتاعة السينما دي في دماغك؟'

غمغم هاني مطأطئاً رأسه:

— 'لا، خلاص. ما بقتش فيها فايدة.'

وحُلي له أن يقص عليه ما حدث مع الأستاذ مصطفى حامد، وقال أنه رفضه لأنه مسيحي. وأصغى جورج بانتباه ثم قال رابتاً على فخذه:

— ’ده كان شيء متوقع، لو كان اسمك محمد ولا محمود كان زمانه شاف أعمالك. إنما سيبك من العالم ده كله يا هنون واتكل على الله وروح إسعى في السفارة، مين عارف؟‘

فقال له هاني وكان قد فرغ من نصف كوب العصير:

— ’إزاي يا عم؟ دا في قوانين منيلة. وبعدين كذا واحد من دفعتنا — عارف العيال توتو وبلبل؟ — كذا واحد راح السفارة واترفضوا.‘

— ’رحت انت؟‘

— ’لأ!‘

— ’روح وجرب. أهم حاجة بس تاخد الفيزا، أي فيزا، وبعدين يحلها ألف حلال.‘

— ’طب وإيه أنا ها اخده من فيزة سياحة مثلاً؟ أنا بادور على الهجرة.‘

— ’كل الأمور تتحل هناك، صعب تتكلم على هجرة من هنا إلا باللوتري. إنت مش بتقدم فيه؟‘

— ’آه، اللوتري؟ كل سنة! لكن النتيجة بتاعته ظهرت في ٥ اللي فات ولا فزت ولا يحزنون.‘

فقلب جورج شفتيه وصرح:

— ’سيبك منه، خليك بس في السفارة. روح وخد أي فيزا، إن شا الله تعمل رقاصة في فرقة قومية (وعلى فكرة بتحصل)، إن شا الله تعمل قرد، خد بس الفيزا وهناك قل لهم أي حاجة.‘

صمت هاني ثم سأل باستعلام:

— ’أي حاجة ازاي يعني؟‘

— ’قل لهم أي حاجة يا أخي، قل لهم ضربوك، قل لهم — إحكي لهم أي موقف — قول إنك كنت ماشي في الشارع راح طلعوا عليك ضربوك وشتموك، قل لهم إن في ظابط لطشك قلمين، يا راجل ده في مسلمين بيعملوا كده دلوقتي!‘

فمال هاني برأسه وقال:

— ’يا سلام. طب وعلى كده ها يصدقوني؟‘

– 'مش مشكلتك يصدقوك أو لأ، ده في محامين هناك «متخصصين» في الأمور دية، في خلال شهور يكونوا جابوا لك الإقامة.'

– 'طب وهنا؟'

ضحك جورج وهو يلمس كوب العصير لأول مرة:

– 'لا هنا، أهلك—'

– '«يتنا.... وا»، ها؟'

ضحك جورج. ثم خفف من حدة الأمر بأن استطرد يبشره:

– 'أنا سمعت إن في قانون جديد ها يتحط ها يتحط ممكن يخليك تعمل لجوء من غير ما يسمعوا هنا. بس لسه الكلام ده مش sure[٣٠].'

واحتسيا العصير وهاني بين كل آن والآخر يكذب صاحبه في صحة ما نقله إليه. على أنه بدا مشغوفاً بشكل فائق بالموضوع، وعاد يستفسر منه في بعض الدقائق. جورج من ناحية أخرى لاح سعيداً، مزهواً، لأنه موضع السؤال والاستعلام هنا، وكان يجيب بأريحية وود. وقضيا الأمسية سوياً في المقهى حتى بارحاه وكانت الحادية عشرة ودقائق.

وشغل هاني بأمر الهجرة في الأيام التالية وناقشه جدياً مع ذاته. كان يشمئز منه في الماضي، لكنه اكتشف الآن أن لا جرم أن يبحث المرء عن مكان أفضل يقضي فيه أيامه، وينشئ به ذريته. وانشحنت مخيلته بالرؤى، وماجت مع التصورات. رأى نفسه – ببساطة دون تعقيد – بين ذراعي امرأة جميلة، ورأى هاني طلعت قاعداً في جلسة أصدقاء من الأجانب، حانة ربما أو مطعم من تلك المطاعم الأمريكية التي يشاهدها في الأفلام، يتمازحون ويقهقهون، ورأى نفسه في العمل، طبيباً محترماً في مستشفى نظيف يبرق، والممرضات يحمن حوله، والمرضى في أبهى لباس، وخيلت إليه لغته الجديدة، يرطن الإنجليزية بلسان أهلها، وهو يحمل حقيبة عمل أنيقة في السفر (بالطيران طبعاً)، وتمثل نفسه في الوضع الغربي مخلوقاً سعيداً الدنيا من حوله «cities» و«restaurants» و«cafés» و«motels» و«I'd rather--». وانتعش وانتفض كأنه على عتبة وحي مقدس، وقال ما

[٣٠] غير مؤكد.

السينما ملعون أبو السينما واللي جابوها! لكنه تراجع عن تصريحه ذاك بعد ساعات، إذ خيل إليه أنه قد يغدو مخرجاً أمريكياً!

IV. وفي الأيام التالية نابت هاني نزوة جد غريبة في تعلم اللغة القبطية. اتجه لجورج ملقي شريك ريمون في الحجرة، وأفضى إليه برغبته تلك فقال له جورج (وكان شاباً قصيراً بشعر فاتح ونظارات):

– 'في كتب كتير... أنا حلو في القبطي لكن اللي هاممني دلوقتي العبري، عايز أقرا العهد القديم والمزامير بلغتهم الأصلية.'

فسأله إذن أن يعلمه بعض العبرية. وجلس جورج على سرير ريمون – بجانب كاسيت الكشاف الأحمر الموضوع على الكوميدينو – وكله إثارة وابتدأ يخط له في ورقة فلوسكاب ذكرت هاني بأيام السيناريو:

– 'أنا مش حافظ أسماء الحروف، لكن عارف نطقهم إزاي. الحرف دا اللي شبه الـN بيتنطق «أ»، ودا اللي عامل زي زاوية قائمة على شرطة بيتنطق «ب» و«ف»، ....'.

بعد أن سطرت الورقة رافقها هاني حتى حجرته وطواها ثم وضعها في الكتاب المقدس. كان يشعر بسأم واختناق شديدين. ونهض غير مرة من الفراش لا يجد ما يفعله حتى يحين العشاء (وكان قد امتنع عن الخروج مع وسيم هلال تلك الأمسية). وكان السكن خواءً تقريباً، ودولاب ميشيل منفرجاً كعادته. بحث في محتوياته كما نمت عادته في الفترة الأخيرة فوجد نقوداً (ما يقارب الخمسمئة جنيه)، وصورة جميلة لفتاة، ثم ميداليات قديمة، وملابس، وعطر، ومزيل رائحة عرق، لكنه عثر أيضاً على شريط كبسولات. قرأ الاسم فابتلع واحدة.

وحين أذن ميعاد العشاء، وحفلة كل أمسية، وجد هاني نفسه مرتاح البال رائقه بشكل غريب. وشعر أنه دائخ قليلاً لكنها دوخة لذيذة محببة، وفي نفس الوقت متيقظ ويقظ، يكاد يحصي كل حركة لكل زميل من زملائه: فهذا آسر يمسح البلاط بشبشبه وهو يخلع قميصه، آثار حب شباب بالكتفين، وأديم غير مشعر، وشعر إبط طويل خفيف، وبالداخل جورج باخوم وجورج عبد الملاك، يسمع أصواتهما، وينبح «قدري» صوب الأخير

ولم يعتده بعد، ويخرج جورج باخوم ليقطع الطماطم في المطبخ، يتحرك كأنه يزيح الهواء أمامه زيحاً، وينبري ميشيل جورج بنفسه في تقليب الفول على السخان، بالشورت والفانلة الحمالات، ميشيل يظهر الآن دائماً سعيد، وهو مغتبط بحفلة الفول، أما ريمون وأيمن سليم فنزلا ليسخنا من طبيخ النهار، أيمن سليم بملابس الخروج، وفضل الله يهرول من هنا لهناك -بين الشقتين وبين الدور الرابع والخامس -يحضر الملح تارة والزيت من الأسوانلية -بجهاد -تارة، لكنه يتهرب من مد يده في الطوة أو السلطة يحسب أن لا أحد يلاحظه، ورامي سعيد أتى بضيفه الذي يود الزواج، شاب صعيدي 'متبحر' بشعر كابوريا وشقي عين ضيقين لكنه ودود ويأكلك في الكلام أكلاً، ثم شاب صغير آخر مع رامي بعوينات مربعة ومحيا باسم يدعى شيئاً هوايت، يقودهما رامي للمكوث بهم في حجرة آسر إلى حين يعد عبيده العشاء، يخطو رامي بجدية ونشاط وتفاحة آدم كأنه لقمة في زوره. وطفق هاني يراقب، ويضحك، ويفاكه هذا وذاك، وشاكس ميشيل حول أنه نزل من عليائه وتقبل أكل الاستراحة (بعد أن كان يوماً لا يمسه)، وذراه ميشيل بالملح وهو يبتسم.

وانتهى مفعول الكبسولة في اليوم التالي، فنقب دولاب زميله عن الشريط لكن ميشيل كان قد أزاله.

واكتشف هاني بعد أيام أنه لم يعد يؤمن بالله، كان ذلك اليوم يوافق الأحد، الثاني والعشرين من أكتوبر ٢٠٠٦.

V. وذات جمعة مشمسة، شديدة الحرارة والرطوبة، تشاجر مع آسر حول الإفطار حيث أن الأخير كان قد خرج وأحضر فطوراً لنفسه من مطعم محلي يدعى «تيتو» وأهمل أصحابه (وكانت العادة أن يدور آسر على صحبه كلهم قبيل الخروج صباح الجمعة ليدون طلبات كل واحد)، فاستبدل ملابسه مغيظاً، وخرج. وشرد في مسيره حتى أنه تجاوز مطعم تيتو ووصل إلى منفذ على مكارم. وكان يفكر بدايةً في شأن الإفطار لكنه ما عتم أن

استتفهه. راح يبحر بعقله في الأمر الذي يثقل قلبه وينغص عيشته. كان اعترافه لنفسه أنه لم يعد يؤمن بالله ما زال يؤلمه، لكنه في نفس الوقت ألماً مريحاً كالأثر بعد حقنة مؤثرة، عَدَّ شخصه الآن «شريفاً»، نعم، فهو لم يعد ينافق الله أو يرائيه، وقرر أن اعترافه بأنه لم يعد يؤمن به أكبر لدنه سبحانه من التزلف والتملق في الصلوات ليلاً ونهاراً! لكنه تفكر أنه قد يخاف من الرمي في الجحيم آخر الأمر، لكن... كيف يخطر له الجحيم إن لا يؤمن بواجده؟ لذلك يحسن بنا ألا نفكر في الجحيم مرة ثانية، وعزم هاني أن لا يذكر الجحيم كرة أخرى. وعلل لنفسه سبب اختفاء إيمانه بوسائل شتى، لكن أيهن لم تنجح. قال أن السبب ربما الأستاذ مصطفى حامد وما فعله به، بيد أنه عاد يستنكر ويشكك في الصحة، ذلك أنه أعمل ذهنه فألفى أنه إن كان ذا موهبة بحق، فأن يسعى لها ويلا ينكص بعد أول هزيمة. أما الأزمة القبطية فلها حلالها بارئ الدنيا والناس والقبط. وأما ما بدر له مؤخراً بصدد موجز تاريخ حياته وأسلوب سيرها — حياته — فلهذا كعوب كثيرة لأخيل: أولها أن حياته مثل حياة أي مصري، ومثل حياة أي امرئ في نطاق الدنيا الثالثة، ثانياً أنه طبيب، أي أنه أفضل من الآخرين بخطوات، ويذكر تلك النقطة، ثالثاً أن الدنيا أحياناً، تلك الدنيا التي يصرخ في أوقات أنها خالية، يشعر في أخرى بأنها مليئة جداً: مليئة بالشخصيات المتضاربة، بالطيب، بالنجس، بالخبيث، بالطاهر، بالمومس، بالفاسد الجيد، بالفاسد الحقير، بالمتواطئ، بالمتطرف، بالمنشق، بذي الفكر الغريب، بالشاذ جنسياً، ومليئة الدنيا بأغراض بدت له ذا الحين في سيره مثيرة: مثل المباني، والمقرات الدفاعية، والمطاعم، والمطارات، ودور الكتب، والسفارات (مبانٍ إيجابية جداً!)، وقصور الثقافة، و'الورش الأدبية' التي يسمع عنها، ثم المسارح ومعارض الفنون والأوبرا. أكل هذا مصيره الفناء؟! لا يمكن! سيوجد حل، مؤكد سيوجد حل لهذا الدرأ من «الظلام». فلماذا فقد إيمانه بالله يا ترى؟ ثم تساءل هاني عن المستقبل وهو يقطع على مكارم، كيف المستقبل؟ لما المستقبل؟ هل سيحدث أمر حديث؟ لا يظن. مثلت حياته أمامه منتهية، وشعر بشعور بطل بعد نهاية تمثيليته على الشاشة. وفكر في شكله فاستحقره وانتقده، وانتقد صلعته، وانتقد أنفه، وانتقد عويناته، وجسمه المزيف الضعيف، وملابسه الحقيرة،

وقال أنه لا شيء، وأنه يخلق به أن يموت الحين بشرف. ومد نظره إلى السماء الصافية الحارة، وسأل رب العباد أن يقتله ويريحه. لكن لم تحر استجابة، فشكر في صمت أن لديه فرصة أخرى!

وهكذا راحت الأفكار المضطربة، غير المرتبة، تنهكه، حتى بلغ مطلع ثابت – شارع ثابت – حيثما جلس على الناصية رجل عاجز بجلباب أبيض يبيع جرائد وكتباً. كان في طريقه لمطعم «كايرو» لكنه – أيضاً – نسيه وتخطاه، وكان على وشك الدوارن لأجله من سكة مدرسة السلام وشارعها الذي يقال أن اسمه ٢٣ يوليو، على أنه توقف يستطلع عناوين الجرائد والكتب. كانت الجرائد تتحدث عن انفجارات في العراق، توقعات صدى تعديل المادة ٧٦ من الدستور، لكن لفت انتباهه كتاب – مجلد – ضخم لونه أخضر بعنوان «مذكرات مهاجر مصري في لندن». انحنى ومسك الكتاب وكان الغبار يلتصق بكيسه، وأخرج الكتاب وكان خفيفاً على الرغم من حجمه، وقرأ منه صفحات ثم ابتاعه، وكان بخمسة عشر جنيهاً.

وقد قرأ هاني الكتاب بشغف بالغ فأنهاه في أيام ثلاثة. كان كاتب الكتاب صحافياً مهاجراً اسمه حسين قدري (لم يكن هاني قد سمع الاسم قبلاً)، والكتاب سجل لمغامرة طويلة في مجال الأمن، مغامرة لم يشهدها هاني في حياته وشعر أن حياته كأنها لم تكن إن كان شخص مثل كاتب الكتاب قد عاش مغامرة مثل هذه بحذافيرها. وأشعله الكتاب طموحاً وأحلاماً على غير ما فعلت مقابلة جورج حنا التي نقلت إليه رغبة عملية في الارتقاء حرفها لرؤى كاذبة. هنا الرؤى الكاذبة حقيقة والنساء حقيقيات والمصري مصري ولا «شيء» يضطهده وقال لنفسه أن ثمة مكانه وثمة مغامراته. وأعاد قراءة فصول من الكتاب وتحسنت معنوياته وود لو يقابل كاتب الكتاب فيصافحه ويقبِّله ويشكره من قلبه، فهو قد أنقذه!

VI. واستقر في هاني أن كل تلك «الرسائل» – مع حملة الرسائل الشرسة التي أطلقت عليه قبل شهور بصدد «الشيء» – هي إشارات له وتعزيزات تؤهبه للهجرة. كل الدنيا تومئ للهجرة الآن، هكذا فكر، إذن أليس عليه أن يستجيب؟ وقال أن «القوى العليا في الكون» (فلم يرد أن يقول الله) كانت تحفه بالرعاية من سابق البدء وهو لم يأخذ باله: مهدت له

الظروف حتى يتم له «التحول» للنمط الغربي وأكيد أنه سيهاجر بوسيلة أو بأخرى، فهو قد قنط من بلده، وانفصلت رؤيته عن أهله وناسه، وبردت مشاعره وخمدت، وأخيراً فقد الارتباط بالله: هاني المواطن الغربي بالتأكيد. وانتظر هاني أن يسافر ويترك البلد، واشترى كتاباً في اللغة ثم هجره، وقرأ في الإنترنت على موقع السفارة الأمريكية، والسفارة الكندية، والسفارة الأسترالية، والسفارة السويدية، وجعل الرجل صاحب المحل في أسفل أبراج الزراعيين ينسخ له صفحات ما لبثت أن ضاعت (ارتاب أن صنف الورق الذي افترش ترابيزة الأكل عند آسر ذات ليلة حضر فيها عماد ثروت أخو جرجس ثروت، ليشبه نفس صنف الورق الذي ضاع)، وسأل عن نتائج اللوتري الأمريكي وقال له ميشيل أنها تأتي للمسيحيين بالأكثر وأنها فرغت منذ أغسطس إلا من خطابات شاذة قد تصل لمختارين إن حدث نقص. وقامت مشادة بينه وبين وسيم هلال الذي أهان الهجرة وأهان الطموح (مرة أخرى!) وقال على الإنسان أن يرضى بالمكتوب وأن المكتوب لنا مصر، وكره وسيم وأهانه.

وعاد مينا موريس أدراجه من القاهرة، قال أنه لم يحتمل. وتحدث هاني مع مينا موريس كثيراً عن الهجرة فوجد أن الأخير غير مبالٍ، وأنه كل همه غدا قانون التكليف الجديد وسقف المرتبات. واجتمع مينا موريس مع وسيم وهاني —وعمرو الذي يجلس لدن آسر —وناقش الزواج مرة أخرى، وحسب التكاليف، واستشارهم في التقدم لفتاة إن كانت الظروف 'يعني' ليست بالهائلة، وقال عمرو أن ظروف الجميع الآن سيئة، وأن زميلهم عثمان خطب قاهراً الظروف والذي لديه 'ظروف' مثل عمر عبد المجيد يتشكى، وقال وسيم أن زيجة أخته كلفت عروسها ما لا يقل عن مائة ألف. وتذبذت الدنيا مرة أخرى بين خالية ومليئة، وشعر هاني أن قلبه ثقيل، وأن ضربات قلبه ثقيلة. وثقل نومه أيضاً وحلم بأحلام جنسية، وكان يصحو مبتلاً أربعة مرات في الأسبوع، وذات مرة وجد نفسه يبكي بلا سبب ويذرف الدمع!، وراجع آخر مرة بكى فيها فخذلته الذاكرة.

مرض «أبو علي» في نوفمبر، ولازم سريره، وقد عزم مينا موريس أن يمضي لزيارته. على اختلاطه بساكنيه لم يكن مينا قد كسر مغاليق المبنى «ب» من قبل، ولم يك يعرف في أي شقة يسكن محمد فريد (أبو علي)، فسأل ياسين فأخبره الأخير أن أبو علي يقطن بشقة رقم «٨»، وأن غرفته هي الغرفة الثانية، تتميز بأن الكوميدينو الخاص بها يوجد لصق الحائط الذي يفصل بابها عن باب الغرفة رقم «١». فذهب مارك في أحد الأصائل التي تميزت بالسكون وذلك بعد أن خلع الشورت الذي يتبدى دوماً به وارتدى ترنج رياضي له حبل يخترق الياقة، هبط للدور الأرضي وسار في الممر الطويل المؤدي للمطعم (حجرة التلفاز قبله) ثم صعد الدرجات المؤدية لمناطق المبنى «أ» يشعر كما يقول نجيب محفوظ: 'أنه مقبل على استجلاء جديد'. على التطابق لم يسعه التخلص من الإحساس بأن الدرجات الجديدة أكثر ضيقاً، وأوعر تسلقاً، وأمعضته ظلمتها. الدور الثاني مثلاً رآه معتماً للغاية، وكان بابا الشقتين منغلقين كأنهما يستران خصوماً عن وجه بعضهم بعضاً. وحين بلغ الدور الثالث، شهد لمة. فأذهلته كمية اللحى وعلامات الصلاة التي قابلته، وزاد ذهولاً لما وصل للدور الرابع حيث الموضع المراد، فألفى جماعة أخرى — أقل — من نفس الصنف. وعلى حين يستعد للخوض داخل الشقة اليسرى — حيثما رمقته أعين في فضول وبعضٌ في دهشة كأنها تستغرب مجيئه وبعضٌ في إثارة كأنها تقول: ها قد أتانا فصل جديد من الحياة يجدد الهواء — جرت (أو لعلنا نقول: مرقت) في ذهنه زمرة من الأفكار الطائفية: فكر أنه كان يعرف جل هؤلاء الناس منذ أن كانوا طلبةً جدداً في السنة الأولى، وعلى ما تومض به ذاكرته، فإن أغلبهم لم يكن ملتحياً أو متزمتاً. أسيوط غيرتهم، هكذا قرر في حسم وهو يتجه للشقة على اهتزاز، في أسيوط اختلطوا بالجماعات، كونوا جماعات، توالدت بينهم وسرت الأفكار الدينية، وجدوا أمثلة اعتبروها قدوة، عثروا على الانتماء الذي ينقص حياة ابن آدم، وتماثلوا في نمط واحد فتقاربوا وترابطوا وأحسوا بالراحة. وكادت تغشى شفتيه بسمة — قتلها بسرعة بعد أن اجتاز مدخل الشقة شبه مطرق — آن تذكر «الاسكتش» الذي كاد يقدمه

في حفلة العام الدراسي الماضي لأسرة الأقصر: عن شاب التحق بالجامعة في أول سنة ثم سافر بعدها للخارج، ليرجع بعد مضي أعوام فيصدم بزملائه كافة قد تحولوا لملتحين ومنقبات. أمين الأسرة عارض بشدة وألغى الاسكتش، وقال له: 'مش ناقصين مشاكل'، كان يخشى أن يساء فهمه أو ينقل خارجاً. لكن مينا ما رام قط ما خطر للأمين، ولم يفكر في الإهانة، فهو يحب من المسلمين كثيرين، بل ويرتبط مع بعضهم بروابط لم يآخها مع من بني دينه: عصام مثلاً يصدق أنه أدنى له من هاني طلعت، على الرغم من أن هاني ليعد من أصدقاء طفولته، وثمة خواطر قد يأتمن عليها عصام ولا يأمن جانب هاني.

وقال: 'السلام عليكم' —وكان قد اتقنها في القاهرة (فبدونها لا ترد التحية) —فارتفعت الأفواه بالرد: 'وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته' في حماسة، وسأل باقتضاب عن غرفة محمد فريد لكن صوت عصام ارتفع من الداخل يدعوه للدخول.

كانت غرفة فسيحة أخت غرفة ريمون عادل، فارتبكت رؤيته حال ولوجها وأحس أنه ما يدخل إلا غرفة ريمون لكن في بعد آخر، وكانت إضاءتها أشد بيد أن الشباك كان مغلوقاً. أبو علي استوى على سريرٍ تحت الشباك، غشيته بطانية رخيصة خفيفة لم تنحسر إلا عن رأسه وجانب من رقبته وكتفه اليمنى، وجلس عند قدميه شاب جامد قوي يميل إلى سمرة لا يعرفه مينا موريس. أما محمد توفيق وعصام فقعدا على السرير المقابل. كانت هنالك أيضاً بعض الاختلافات —أو الأغراض —المهمة التي سرعان ما تلفت نظر مسيحي يدلف إلى حجرة مسلمة، فهنالك كان المصحف، كبيراً وأخضر وله بشرة جلدية، موضوعاً بعناية على ركن الترابيزة الخشبية — الملاصقة للحائط الفاصل بين الحجرتين «١» و«٢» —القريب من سرير أبو علي، وسجادة الصلاة مطوية وناعسة على ظهر الكرسي نفسه، ولم تك ثمة أية صور إلى الجدر، اللهم إلا بورتريه صغير عتيق لفتاة شقراء صغيرة في موضع منزوي بين الدولاب الذي استقر آخر المكان وعامود الركن، أدركها الجالس حينما جلس، بجانب عصام. وسأل مينا المريض عن صحته وقال عصام مخاطباً الشاب الجامد المسمر الجالس على آخر سرير محمد:

— 'دا الدكتور مينا موريس يا احمد: زميلنا هنا في السكن.'

فابتسم الشاب —وكان ذا وجه باسم —وأومأ برأسه وقال:

— 'أهلاً يا كبير.'

كان على ما يبدو يستخدم الكلمة. وجلا عن طريق صوته وسحنته حين يتحدث أنه أكبر سناً منهم بكثير. وابتسم مينا بدوره للشاب وأومأ برأسه في ردٍ للتعارف، ثم عاد يساهي الراقد:

— 'ده انا سمعت إنك مت. صحيح الكلام ده يا ابو علي ؟'

أجاب أبو علي مبتسماً وهو يتحرك تحت بطانيته:

— 'تقدر تقول كدا.'

فضحك أحمد وقال للزائر:

— 'صدقني ع اللي وراه لنا إحنا كنا ها نموت معاه.'

كاد مينا يستفهم عما حدث، لكنه تراجع قبلاً وسأل أحمد:

— 'هو حضرتك . . ؟'

— 'أخوه.'

هز مينا رأسه وكان ما يزال يشعر بالغرابة لوجوده في بيئة إسلامية. ثم سأل ما الذي حدث بالضبط فأجابه أبو علي وهو يخرج الكلام في بعض فقراته خافتاً:

— 'دا كانت واقعة منيلة. قعدت لي يومين أسهل، وبعدين سخنت وهبط جسمي خالص وقعدت أشر لك في الدم يا معلم.'

فمشيراً لمحمد توفيق وهو يتابع:

— 'الواد دا شاف كل حاجة—'

— 'شاف كله كله يا ابو علي ؟!'

قهقهت الجماعة، وأجاب أبو علي:

— 'مش كله يعني، ما انا برضه كنت مغطيه.'

— 'مغطيه، ولا مغطيها ؟'

قهقهوا مرة أخرى، على أن المريض واصل السرد:

— 'وقعت لك وشالوني، والواد دا كان هنا راح قاس لي ضغطي لقيه ٩٠ على ٥٠! وكنت ها اموت لك يا ابو موريس...'

فأكمل محمد توفيق وكان ذا وجه أحمر ممتلئ وسيم:

– 'رحنا اتصلنا لك بواحد نايب زميلنا في الباطنة اسمه محمد عبد الستار. جا هنا وركب له محاليل، ووصف له علاج، والحمد لله أهي اتسترت.'

– 'بتاخد ايه يا ابو علي ؟'

– 'وصف لي quinolones وكلورامفينيكول حقن.'

– 'تقيلة يا ابويا!'

– 'تقيلة صح.'

– 'لكن المهم خفيت يعني ؟ ولا ان ما كانش أروح أشرحه لك الواد ده يا ابو علي!'

– 'لا خفيت الحمد لله، ولو إن في مغص ابتدا يطلع لي تاني من النهاردة.'

– 'إنت غالي عندنا يا ابو علي!'

– 'الله يخليك يا حبيبي.'

ثم تساءل أخو أبو علي وهو يردد النظر بين الزائر المسيحي وعصام ثم محمد توفيق:

– 'لكن... الدكتور مينا... يبقى زميلكم من زمان ؟...'

وضح أن السؤال بالأحرى هو: ما الذي ربط . . ؟ أو: ما الذي لم الشامي على المغربي ؟ فأجاب أبو علي نيابة عنهم:

– 'أبو موريس يبقى الأنتين بتاع عصام، عمالين نقول لهم ما ينفعش المسيحي ع النصراني—'

ضحكوا، فصوب:

– 'ما ينفعش النصراني ع المسلم ولا ما ينفعش محمد على يعقوب، مش راضيين يتبعوا الكلام!'

فانبسطت أسارير أحمد، وقال مخاطباً مينا موريس وهو يحني ظهره ويبتدئ في السرد (الذي رغبه أن يكون طويلاً):

– 'أنا شغال في المسطحات المائية في طهطا، في واحد مهندس معانا اسمه لوقا، تخين خالص زي الفيل، مش متجوز، كل ما نقول له: "ما تتجوز يا لوقا" يقول لنا: "طب وهي فين اللي تستحمل البدن دا كله

يا ابوي!"... تخين خالص زي الفيل... لوقا بسطاوروس اسمه... من سوهاج أساساً ؟'

أدلى مينا باختصار أنه لا يعرفه. كان قد اختبر مثل تلك المواقف منذ صغره: أن يقابل شخصاً يجعل في سرد كل المسيحيين الذين يعرفهم، ويستفسر منه إن كان يعلمهم أم لا، وكأنه يظن أن المسيحيين في مصر مائتي نسمة. وكانت مثل تلك المواقف تبرمه، لكنه تغاضى عن الأمر لأجل الصحبة الطيبة ولأجل أنه لمس المتحدث رجلاً اجتماعياً ودوداً وهو يعشق الاجتماعيات، ويعشق ذلك النوع من الأشخاص. ولقي الرجل أن الحديث شاخ قبل الأوان ولم تعد له بقية، فصمت وبقيت ابتسامته وهو يرتد للخلف بظهره وينظر أخاه. وكانت الحاجة لموضوع جديد فتكفل مينا بالأمر وسأل محمد توفيق:

– 'أمال انت ليه ما حولتش زي العيال للقاهرة ياد يا محمد ؟'

كان محمد توفيق من جماعة الإخوان المسلمين، صديقاً منذ السنين الأولى في الجامعية لمحمد إكرام ومحمد أبو دياب اللذين ساعدا مينا في أمر تحويله لمستشفى أم المصريين. وأجاب محمد توفيق وهو يثني رجله تحت فخذه ويثني في أصابعه كلون من التسلية:

– 'نروح فين آخر الدنيا يا ابوي ؟... إنت قابلتهم هناك ؟'

– 'إلا قابلتهم. ده احنا حضرنا فيلم في السينما مع بعض هناك.'

– 'فيلم ايه ؟'

– 'عمارة يعقوبيان.'

فصرح عصام متحمساً ومبتسماً:

– 'حلو دا...'

بيد أن مينا مط شفتيه وأعلن:

– 'يعني. أحلى حتة فيه بتاعة الشذوذ، الباقي بيوريلك إيه اللي حاصل في البلد.'

فسأل أحمد:

– 'إيه يعني، بتحكي عن إيه قصته يعني ؟ أصلي سمعت عنه كتير الفيلم دا.'

أجاب مينا مكبراً:

– ’بتحكي عن كل حاجة: الفساد اللي في البلد، الوساخة، الشذوذ، الرشاوي، —‘

كاد يقول: ’الإخوان‘ لكنه انثنى، وأكمل:

– ’كل حاجة، عن الأغنيا اللي واكلين البلد، و—الفساد الديني يعني—، والعلاقات بين الرجالة والستات، كل حاجة ها تلاقيها في الفيلم.‘

رفع أحمد حاجبيه في اهتمام:

– ’يا سلام!‘

ثم سأل:

– ’الفيلم دا معروض هنا على كدا؟‘

– ’موجود، في سينما رينسانس.‘

كان رجلاً طيباً، يشغف بأقل شيء، وأثار الفيلم اهتمامه وفضوله — ولسانه — بالكامل فطفق في الدقائق التالية لا يتحدث في سواه، أو يخلطه بحديثه من حين لآخر: ’لما نبقى نشوف إيه حكاية عمارة يعقوبيان دي!‘، ’عمارة يعقوبيان يا عمارة يعقوبيان‘ (وهو يتنهد)، ’ناخدك ياد يا محمد تشوف عمارة يعقوبيان، يمكن تخف لما تشوف الشذوذ. ها ها ها‘، حتى عندما دخل الشيخ عبد المتين فرجاني، وصافح الموجودين واحداً واحداً ورائحة المسك تشع منه (شد على يد مينا موريس بالأكثر وابتسم له) ثم جلس أمام بطن المريض، ابتدره بأسلوب طفولي:

– ’ما تيجي تشوف معانا فيلم عمارة يعقوبيان دا يا شيخ، دا بيقولوا عليه فيلم بركة خالص.‘

ساعتها ندم مينا على ذكر السيرة من الأصل، وأخفى نظره عن ناظري الشيخ عبد المتين الضيقين. ووضع الشيخ راحتيه على فخذيه وقال بصوت لاهث يوحي بالامبالاة:

– ’عمارة مين وقصر مين يا شيخ، بلاش كلام فارغ.‘

– ’دا متاخد من رواية على فكرة.‘

استطرد بها عصام، وقال أن فرج (الذي يدلل بـ’فرخ‘) لديه نسخة من الرواية، ثم أضاف:

– ’قال لي قال إن الرواية غير الفيلم.‘

أحب مينا أن ينهي الموضع لكن الشيخ عبد المتين سبقه فصرح في أسف:

— 'كل واحد دلوقتي لما يحب لك يشتهر يطلع لك رواية يتناول فيها السياسة والدين. وكأن الهدم بقي هو العادة في الأيام دي.'

قال عصام وهو يعتدل في مكانه من طول الجلسة، وقد طوى قدميه تحته وتربع، وأخذ وسادة السرير ووضعها في حجره:

— 'دا نقد يا شيخ عبد المتين، ما هواش هدم.'

— 'هو عرض مناظر جنسية، والإساءة للدين، ما يبقاش هدم؟'

— 'إمتى أساء للدين؟'

— 'لما يجيب المتدينين بالصورة اللي في الرواية — أو الفيلم — دي، يبقى إيه؟ وبعدين يمكن ما حدش فيكم قرا الرواية نفسها، أنا قريتها. أولاً أدبياً، ما تساوي ٣ مليم، علاقة الكاتب باللغة العربية يمكن زي علاقتي أنا بسواقة الطيارات. وتلاقيه عمال يستخدم لك تعبيرات واحدة في كل موقف: "وخفق قلبه"، "وخفق قلبه"، إيه حكاية خفق قلبه دي؟ وبعدين مراة الراجل المستشيخ دي [ضحك محمد توفيق]، تستقبل جوزها قال بقميص النوم اللي مش عارف إيه وتقول له كلام زي: "مبروك يا حبيبي... ألف مبروك"، تقولش كانت بتقرا معانا الرواية وكانت عارفاه طالع لها وبتبارك له عارفاه عاوز يسمع إيه؟— ويلاقيها مستنياه، مش يعني في الحمام، مش يعني في المطبخ، مش يعني في أوضة جوه، لأ مستنياه بقميص النوم، إيه ده؟ ده إيه المشاهد المترتبة المثالية دي؟!... وبعدين تلاقي بسيادته ربط بطريقة خبيثة جداً بين الإخوان المسلمين وبين الجماعة اللي بيتدربوا ع التفجيرات في طرة دول. طب يا سيدي خليك في حالك، حد شاف جماعة الإخوان بتتدرب على تفجيرات أو لها علاقة بأي حد م الجماعة دول؟ إهانات، إهانات، إهانات، وحتى الشيخ اللي جابه الراجل المستشيخ فيما يبدو كان شيخ فاسد هو التاني، وماله؟ ما هي بايظة كلها، وده تلميح مستفز جداً على إن الإسلام فيه فساد!... وفي آخر الرواية ينتصر حب الزاني مع الزانية!'

لم يكن قد قرأ الرواية أو حضر الفيلم بعد، لكن عصام ضحك طويلاً، وكذا ضحك أبو علي خلف المتكلم وأخوه، ومحمد توفيق كان قد سبقهم فاكتفى بالابتسام، أما مينا فتبسم في حرج. وقال عصام بعد فاصل:

– 'ما حدش كان يعرف إن لك ميول روائية يا شيخ عبد المتين!'

– 'أنا لو عليّ، نفسي أألف ألف رواية ع اللي بيحصل في البلد ده. لكن لما أحكي، أحكي صح. لو حد فيكم له في القراية زي الواد يوسف رياض أو الواد فرج، نجيب محفوظ مثلاً على رغم إنه شطح، لكن كتب للإسلام، على أحمد باكثير كتب للإسلام، مصطفى محمود كتب وكتب لأجل الإسلام، ودول كلهم ناس أدباء يعني، اهتموا برفعة دينهم ورفع رايته. لكن ها نقول إيه، لازم تكون في حملات – مش حملة – حملات تنويرية قوية لإصلاح «فكر المجتمع» قبل ما نحاول نصلحه إقتصادياً أو «فلوسياً». الهم اللي شاغل الناس كلهم دلوقتي هو الأسعار، والضرايب، ولقمة العيش، ومش عارف إيه، لكن هل فكر أحد فيهم عن الدين–– قصدي في الدين؟ هل فكر حد فيهم في الناس اللي بتتدبح يومياً في فلسطين والعراق وأفغانستان؟ لا بل بالعكس، بقي في العلمانية عيب!... الدنيا بتاخد الإنسان من ربه، وعلشان كده الإسلام وضعها شريعة شاملة، علشان اللي احنا شايفينه ده.'

– 'آه، الشيخ عبد المتين فرجاني!'

قالها عصام باسماً وهو يبالغ برفع ذراعيه. ثم لمح صديقه المسيحي الصامت بجانبه فانتابته نزوة قوية في أن يدفعه للموضوع:

– 'طب وإيه رأيك في الناس اللي على زمة أديان تانية وعايشين وسطينا يا شيخ عبد المتين؟'

في الوقت عينه رمق عبد المتين الزائر المسيحي بنظرة حادة – كأنه هو من فتح الموضوع – وترامق مينا وصاحبه الأول في استنكار والثاني غامزاً يهدئ من روعه. وأجاب الشيخ عبد المتين في بسالة:

– 'ما لهم؟ ما هم عايشين في خير وأمان والحمد لله.'

وهتف أبو علي من مخبأه في إعياء:

– 'بلاش تدخل الروس في بعض ياد يا عصام إنت مصيبة!'

ضحك عصام، وتضاعف إحراج الزائر النصراني وود في نفسه المغادرة، بيد أنه تريث لأنه من غير الخليق أن يغادر في مثل هذا الوقت وإلا لعاش الموقف في النفوس ولم ينزل. وفهم عبد المتين أن الأمر جميعه ليس غير مزاح قاسٍ من عصام لصديقه، فركب الموج وقال وقد عدها فرصة:

— 'وما لهم صحيح، ما هي البلد بلدهم زي ما هي بلدنا؟'

وأحجم مينا عن الإجابة فسأله باسمه 'يا دكتور مينا' أن يجيبه بمصداقية. وراجع مينا نفسه قبل أن يدلي في شيء من التردد:

— 'العملية كويسة والحمد لله.'

— 'يعني ما فيش حاجة مضايقاكم مننا مثلاً ممكن نتعرف عليها ونبطلها إن كانت مضايقاكم— لاحظ إن احنا بنتكلم في جو ودي عام لا في حد سامعنا ولا حد بيتصنت علينا؟'

أوشك الصمت أن يهبط فيجثم فوقهم، عدا أن مينا ما عتم أن بدده بسرعة في بساطة:

— 'يعني يا شيخ عبد المتين، إن ما كانش، ممكن تبطلوا تقروا قرآن بصوت عالي الساعة ٣ الفجر.'

قهقه عصام وأعاد تربعه مغتبطاً بهذه المحادثة الطريفة. وسأل الشيخ عبد المتين في اهتمام وهو يقطب (جزئياً نظراً لتشتته من ضحكات عصام):

— 'قرآن إيه الساعة ٣ الفجر ده؟'

— 'ولا حاجة. بدون زعل، اللي ساكن معايا في الأوضة نومه خفيف، وانتو ساكنين تحتنا، والليلة اللي فاتت صحيت م النوم لقيته صاحي طول الليل، قال لي إن في واحد عمال يقرا قرآن صحاه من نومه الساعة ٣، فقعد لغاية الصبح مش عارف ينام تاني.'

وسأل محمد توفيق:

— 'فين؟ في الشقة بتاعتنا حصل الكلام دا؟'

(وكان محمد توفيق يقطن أيضاً في شقة «٥أ»).

وأومأ له عبد المتين أن يصمت، فاستكمل هو استفساره حول الشكوى المذكورة وقد ارتدى ثوب المسئول الجاد نظراً لمكانته الدينية في الدور:

– ’قل لي... كان الكلام ده الساعة كام بالظبط ؟‘

– ’مش عارف بالظبط. لكن حسب كلامه كان الساعة ٣.‘

(صخب صوت غناء من الشارع الخلفي).

– ’٣ بالظبط يعني، ولا ٣ وربع، ٣ إلا ؟‘

– ’ما حضرتش! وتفرق إيه يعني ؟!‘

– ’لأ تفرق، لما تتهمنا بحاجة ولا واحد فينا حس بيها ولا عاينها واحنا اللي عايشين في نفس الشقة، يبقى تفرق يا أخ مينا... وبعدين هو مين اللي ساكن معاك في الغرفة ؟ مش هاني طلعت فيما يبدو ؟‘

– ’لأ مش هاني طلعت... ليه يعني، واشمعنى هاني ؟‘

حول الشيخ رأسه وهو يقول:

– ’لا، ما فيش... بس احنا برضه لينا شكاوي يا دكتور مينا، وسكتنا كتير ومش راضيين نتكلم، لكن عشان انت اتكلمت –وانا باحترمك علشان اتكلمت، الوقت ده لازم كل واحد يعبر عن رأيه بصراحة –يبقى إذن إحنا برضه لينا حق إن احنا نشتكي.‘

دهش مينا:

– ’إنتو عندكو شكاوي مننا إحنا ؟!... طب إحكي يا شيخ عبد المتين!‘

– ’بإذن الله نقول... إنتو عندكو شاب كده اسمه آسر عطاالله ؟‘

– ’ما له آسر ؟ معانا آه.‘

– ’طيب. الشاب ده يا دكتور مينا عاوز منك وعد إنك تبلغه بنفسك إنه يحترم نفسه، ويتحلى بحسن الخلق، ويبطل اللي بيعمله ده.‘

ذهب تفكير مينا إلى اسطوانات السكس التي يوزعها آسر على الاستراحة بأجمعها. وشعر بالفعل بالخزى فهز رأسه بإيجاب وقال أنه سيبلغه وأن الرسالة بلغته. وأكد عليه الشيخ عبد المتين فوعده أن يعتمد عليه. ثم محضوضاً بجريان الدم لرأسه، وغيظه، وعزمه على تقليب الموضوع أيضاً، وتوطنه على البيئة، استطرد مقلباً النظر في الموجودين كافة قبل الشيخ:

– ’ده بالنسبة لشكواكم. أنا عندي شكوى تانية جد عن كده يا مولانا.‘

قال الشيخ:

– 'اتفضل!'
– 'إنتو – جماعة الإخوان عامة – بتوزعوا منشورات ضدنا.'
هتف عبد المتين:
– 'برضه؟! برضه الكلام اللي من غير أدلة؟!'
فرده الزعيق:
– 'لأ لأ لأ، الدليل موجود المرة دي!'
أنزل عصم رجليه وتوسط بينهما مودداً وعاتب نفسه على إشعال الفتيلة من الأول، وصاح أبو علي لكن ضاع صوته، وقال أخوه شيئاً عن 'كلنا واحد وما فيش داعي للمشاكل يا جماعة'، لكن مينا عاد يطمئن الجميع معلناً في تماسك:
– 'في إيه؟! إحنا بنتكلم بس.'
وأشار عبد المتين بذراعه أن يخلوه ليتكلم. ولم ينطق مينا إلا عندما تلاشت آثار كل ما حوله:
– 'إنت بتقول إن انا ما عنديش دليل... لكن أنا عندي دليل الغريبة إنه موجود مع كل سكان الاستراحة...'
– 'هاته لنا طيب ما دام كده!'
فأجاب وقد اربد وجهه وبدا على أهبة شجار:
– 'المذكرات بتاعة العضم اللي كنتوا بتبيعوها لنا السنة اللي فاتت، فاكرها؟ قلب كده في أول كام صفحة فيها وشوف إنتو كاتبين إيه. أنا نفسي لسه فاكر كام فقرة م الفقرات «النوارنية» اللي حاطينها: "نريد الحكومة المسلمة التي تقود هذا الشعب إلى «المسجد»"، "ونريد بعد ذلك أن تعود راية الإسلام خافقة عالية على تلك البقاع التي سعدت بالإسلام حيناً ودوى فيها صوت المؤذن بالتكبير والتهليل، ثم أراد لها «نكد الطالع» أن ينحسر عنها ضياؤه فتعود إلى «الكفر» بعد الإسلام"، وبعدين كتبتوا أمثلة للبلاد اللي انتو في خيالكو عاوزين «تغزوها» من جديد، خد عندك (وكلها دول مسيحية): "الأندلس" – اللي هي أسبانيا – "جنوب إيطاليا"، ....'
شده عصام وأمره:
– 'كفاية كده بقى.'

لكن مينا أكمل كأنه غارق في نوبة لا يستطيع منها حلاً، وانتقل من حديثه ذاك إلى شأن الإهانة التي وجهها مرشد الإخوان سابقاً للمسيحيين بصدد دفع الجزية، وشتم بوفرة حتى طالت شتائمه –دون قصد– الكيان الإسلامي جميعاً. حديثه جرح كل الحاضرين، حتى أبو علي المريض امتعض في داخله أن يتكلم زميله بهذه الصورة، وقال في نفسه: أيكون داخل المسيحي كل ذلك الكبت؟ عصام نفسه حز في قلبه أن يلفي لصديقه ميولاً –أو نظرات– سياسية دينية تنبجس أمامه بتلك الطريقة. إنه لم يدفعه للاصطدام بالشيخ المتزمت إلا لمشاكسة السالف، ولعلمه بأن مينا لا تدور بذهنه أية أفكار يمكن أن تؤدي إلى 'فتنة'. أيتذكر مقدمات الإخوان وتصريحاتهم بتلك الذاكرة؟ عجباً! وعبثاً جاهد عصام أن يرد صاحبه لكن مينا كأنه كان مربوقاً في قيد وانطلق. وصرخ الشيخ عبد المتين بدوره وأحمد يشد ذراعه:

– '٦٠٪ من اقتصاد مصر ومش شبعانين! كلكو بتوع دهب وأغنيا دا انتو على شوية تاكلونا! ويقولوا لك إضطهاد! يا راجل أما التبشير شغال عيني عينك ولا حد عارف يلمهم! ورئاسة الجمهورية كلها تبعهم والحكومة تحت رجليهم! عمرك سمعت عن مسيحي دخل معتقل؟! إحنا بس اللي ندخل معتقلات! إحنا بس اللي نتهان وننضرب في مراكز الشرطة وهما باشوات! عمار يا مصر وعمار يا إسلام!'

وتصاعد الشغب فقام محمد توفيق وأغلق باب الغرفة، وكان ذلك أكثر الأفعال حكمة وقتئذ، فسرعان ما تزاحم الناس من الخارج وجعلوا يطرقون على الباب في قوة يرومون الدخول لتهدئة الوضع. ولم ينجح في الدخول سوى عثمان (شريك أبو علي في الحجرة، وكان شاباً أسمر بأنف أفطس من أسوان عرف برجولته وإن كان مدخناً شرهاً) بعد أن صرخ باسمه ففتح له محمد توفيق. وبعد دقائق انفرج الباب فلفظ عصام ومينا، الأول يحوط الثاني بذراعيه كأنه غريق يغطيه بلحاف، وبسرعة كان قد اخترق به الأجسام الملمومة ونفذ به إلى الخارج. وهبطا السلالم على سرعة أولاً ثم بهدوء وعصام يقول مقرعاً نفسه ومتأسفاً:

– 'أنا السبب والله العظيم، أنا اللي فتحتها!'

فرد عليه مينا متجهماً:

– ’يا راجل لا، هو اللي عنيف في كلامه أساساً.‘

فمستردفاً لكي لا يحمِّل الآخر العبء كله وحده أمام صاحبه:

– ’وانا كمان فقدت أعصابي عليه. لكن أعمل ايه! ما هو اللي استفزني!... إوعى تكون زعلت م الكلام اللي قلته ده ياد يا عصام، والله ما كان قصدي، أنا كنت باغيظه بس.‘

– ’إنت مهبل باين عليك. يا بني هو انا مش عارفك كويس ولا إيه ؟‘

وكان يستشير نفسه أن يتبعها بعبارة ’أنا عرفتها إنك عزت تغيظه‘، غير أنه وزنها فوجد أنها قد تحمِّل المعنى عتاباً مستتراً، أو طولاً لا لزوم له، فاستبدلها بـ:

– ’إنت من يومك أعصابك فالتة.‘

فصدق الآخر على كلامه قائلاً:

– ’آه والله، ومش عارف أعصابي دي ها توديني على فين. ها تخسرني كل اصحابي دي ولا ايه ؟‘

فحضنه عصام بقوة بذراعه الأيسر وضحك كي يسري عنه:

– ’ياد انت عبيط ؟!‘

وأنشأ يهون من عليه حتى وصلا لقاع الاستراحة حيث المطعم، فرافقه حتى سلالم المبنى «أ»، وطلب منه مينا الصعود معه لكنه اعتذر حيث يود أن يرجع أدراجه ويبرد الأمور ’هناك‘. وصعد مينا موريس السلالم وحده وهو يقول لنفسه: ’ليه كده يا رب بس ؟ هو انا شكلي ها اتجن زي هاني طلعت ولا ايه ؟ !... تت... طب هاني مجنون، روح اعمل انا زيه ؟!... تت... الله يحرقك يا هاني لخبطت لي دماغي يا شيخ!‘.

— '. . . . وفي أمراض دلوقتي ناشئة م الطبيعة. جراثيم وميكروبات وmicroparticles[31] كانت كامنة في الغابات من آلاف السنين طلعت تهاجم أجسام مش واخدة عليها. عامةً الطبيعة الأم — Mother Earth بيقولوا عليها — بتحاول بكل الطرق إنها تاخدنا في بطنها: بالأعاصير، بالزلازل، بالفياضانات، بكل الطرق بتحاول تردنا لترابها تاني . . . . إيه الحل طيب؟ في بعض الأحيان الأمور دي ممكن تؤدي لاكتئاب— الحياة بصورة عامة حاجة very tough[32]! صعبة جداً وكئيبة— الحياة مش حلوة ولا حاجة، ولو ع الإنسان لأنهى بعض الناس حياته بإيده بعد يومين أو تلاتة من ميلاده. في حاجات معينة بتخلي الحياة more digestable... أكثر قابلية للهضم: الحب: حب ربنا طبعاً في الأول، وإنك تعرف إنك لما تعمل خير ها تكسب عليه ثواب يتحسب لك، ... حبك لمراتك وأولادك، وحبك لعملك . . .'

وكاد الدكتور عبد الودود يكمل، لكنه أمعن في الأمر فوجد أن الأمور الأخرى غير الحب إما غير مهمة، أو غير حقيقية، فعاد يتكلم عن تشخيص أورام الغدة الدرقية.

وقد اكتظت الحجرة الصغيرة بجانب العيادات بالطلاب والمريدين — وبعض الطلبة الزائرين الأجانب — والنواب الجدد بالإضافة لبعض دارسي الدبلوما أو الماجستير: بعضٌ كان له نصيب في الكراسي المعدودة التي يتحملها المكان والتي بادرت بحجزها غالباً الفتيات، وبعضٌ وقف من الخلف أو إلى الحائط يستمع في غير تذمر، وهو في تمام تركيزه، يدون من حين لآخر ما يعن له. عُدَّ الدكتور عبد الودود حسن أسطورة الجراحة في أسيوط بدون منافس، ارتحل كثيراً في الأرض، وتعلم في شبابه من هنا ومن هناك، وعندما عاد كان من ضمن الذين أسسوا قسم الجراحة في أسيوط بأيديهم، وما فتئت حتى الحين ثمة عمليات لا يقوم بها أحد سواه،

---

[31] حبيبات دقيقة.

[32] المقصود عسرة جداً وثقيلة.

حتى من الآخرين «الكبار» الذين بزغت نجومهم لاحقاً في سماء المدينة مع مضي السنين وتطور الزمن. ولقد حظي الدكتور عبد الودود بمكانة أخرى تضاهي مكانته العلمية إنما في الشائعات والأقاويل التي خرجت عنه وعن حياتيه الخاصة والمهنية، ومع أن جزءاً منها فعلاً صحيح (فالرجل لغز، فهو طويل العمر تعدى الثمانين وربما كل الذين كانوا يعرفونه في الشباب ماتوا)، على أن أغلبها محض شائعات. فقد سرت بين الطلبة مراراً مثلاً شائعات عن أصوله التي ادعتها لنفسها كل مدينة من كل عام للآخر: فأحياناً هو من طما، وأحياناً من مغاغة، وربما أيضاً من كفر الشيخ والقاهرة (شبرا بالذات من تحليل الطلبة الأريبين الحاذقين للهجته)، وعن يفاعته حيث أنه —وكما تقول روايتنا المصرية الشهيرة عن كل وأي مكافح— كان يذاكر على لمبة الجاز في الظلماء وحينما كان ينفذ الجاز كان يخرج ليذاكر تحت عمود النور (والسؤال هنا: هل كانت ثمة أعمدة نور بالقرى في الثلاثينيات والأربعينيات؟)، وعن زوجته الأجنبية التي اختلف هل هي فرنسية، أم ألمانية، أم بريطانية، أم إسرئيلية؟!، وعن أنه ينزلها عند باب كنيسة الملاك في كل مناسبة دينية مع ابنتها التي ذاع أنها على دين والدتها أيضاً، وشقراء، وعن ذلك الجراح الشهير في قصر العيني بالقاهرة (حيثما درس) الذي طرده من حجرة العمليات وهو نائب وقال له: 'إنت عمرك ما ها تكون جراح أبداً!'، فرجع الدكتور عبد الودود من «الخارج» وأقام «مؤتمراً» (ما!) ومسك المايكروفون وقال بهدوء: 'في إنسان هنا هو عارف نفسه لو سمح ممكن يحترم نفسه ومركزه ويطلع بره بهدوء'، فعرف الدكتور الشرير نفسه وخرج بهدوء، وعن العمليات التي أجراها لجون كينيدي، وعن استدعاءاته في إيطاليا لينقذهم ويقوم بعملية «كذا» للأخ المريض فلان الفلاني حيث أنهم جميعاً فاشلون، .... إلخ، كل ذلك مما تداول بين طلبة الطب بصدد أستاذهم الشيخ. وكان بالفعل مثيراً للتأمل والبحث: عجوز قوي مهيب يربو على الثمانين، أجلح، وما تبقى من شعره أبيض مجعد، ذو بشرة ملوحة حمراء، وبدن متماسك صغير هيكلي الطبع، يلبس جزماً كبيرة ملمعة جيداً، ويتكلم بسرعة شديدة، وآناً يهذر

بالفاحش كديدن جل الجراحين. أشيع أيضاً أن سر شبابه الدائم وصحته هو أنه «vegan»[٣٣] ، وأنه يمارس اليوجا.

وبعدما انتهى الدكتور عبد الودود من محاضرته، خرج فتبعته أمماً. ثم دخل محاضر آخر سمين بخدين منتفخين وبطن مستديرة كحبة البطاطس، جعل يتكلم كثيراً عن الأجانب (بالعربية، وملمحاً للطلبة الزائرين، وذلك عقب مجيء ساعٍ من العميد للاطمئنان عليهم)، وكيف أن مصر هي الدولة الوحيدة في العالَم التي تجعل أولويتها للأجنبي ليس لابن البلد، وأن كل الدول المحترمة في العالم يكون لمواطنها الأولوية، وأعطى مثالاً فقال: 'حتى ليبيا! حتى في ليبيا تلاقي على أقسام الشرطة متعلقة اليافطة: "أنصر أخاك الليبي ظالماً أو مظلوماً"!'... وخرج بعدئذ مارك سعد مع جورج حنا وقال الأخير باهتمام:

– 'كلامه كله صح! لكن يا خسارة ان الراجل ده مش عايش بره.'

فقال مارك عن غير اهتمام بالغ:

– 'صعب شوية يحطوا في ليبيا يافطة زي كده برضه. متهيأ لي إنه هو بيبالغ شوية.'

– 'أنا مش قصدي ع الأخ التاني ده! أنا على الدكتور عبد الودود.'

– 'الدكتور عبد الودود ؟'

– 'الراجل ده عقلية باين عليه، وده أكيد عشان لف وشاف. شفت قال إيه عن الأرض ؟ دلوقتي بره اكتشفوا فعلاً إن كل حاجة لها روح: الشجر له روح، والصخر له روح، والنهر له روح، والأرض كلها لها روح كبيرة بيتحيط بينا وبنتصل بيها من حين لآخر.'

استضحك مارك:

– 'ياسلام ؟ يعني الأرض لها روح ؟!'

– 'أيوه. ما حستش في لحظة إن في مكان معين بيناديك وانت بتعدي فيه كل مرة ؟ يمكن هنا في الخرابة اللي انت عايش فيها دي مش باينة حاجة زي كده، لكن، لو خدت بالك كويس ها تلاقي فعلاً إن الأرض الأم بتخاطبنا من حين لآخر، وان احنا بنسمع لها ونكلمها واحنا مش

---

[٣٣] نباتي.

حاسين. بداية من مدينة الطفولة اللي انت بتتزرع فيها ولما ترجع لها تحس بحاجات مش ممكن تحس بيها في أي مكان تاني: بتتذكر طفولتك، وأحداث حياتك زمان، حتى لو متهيأ لك إن انت نسيت حاجات كتير تلاقي نفسك تفتكرها تاني، الغابة— يمكن انت ما شفتش غابات لكن الغابة بتخاطبك بطريقة، والمدينة بتخاطبك بطريقة، الكهف بيخاطبك بطريقة تاني، والبيت المسكون (قصدي اللي ساكنينه ناس يعني) يكلمك بأسلوب تاني حسب مشاعره ناحية اللي موجودين جواه: هل هو سعيد، هل هو مريض، هل، هل، كل حاجة بتكلمك وانت ما عليك إلا إنك تسمع، وتركز قواك كويس... الشيء الأغرب من كده إنهم وجدوا كمان إن كل جزء من جسمك له كيان (صعب نقول روح) وبيتكلم: القلب له صوت، والمعدة لها صوت، والبنكرياس بيتكلم – صعب عليك تتخيل حاجة زي كده – ولما بيغضب عليك بيهدك هد. ده مش كلام نظري ولا خيالي على فكرة، ده كلام مؤكد وموثق وفي ناس أفنت حياتها في الدراسة والبحث عشان يوصلوا للإنسان حقائق زي ديه، هناك— أنا لما رحت هناك، عرفت ليه الناس دولا طلعوا القمر واحنا متنا، هناك كل حاجة ماشية بالعلم، ما فيش حاجة بالبطيخ.'

صفر مارك مستملحاً المحادثة التي خرجت في نطاقه عن المألوف:

– 'واو... طب وعلى كده يا دكتور جورج [لم يكن يعرفه جيداً قبل مغادرته للولايات، بالإضافة لكبر سنه، لذلك يحادثه بشيء من الرسمية والاحترام] الكلام بتاع الأرض ده مكتوب في الكتاب المقدس؟'

لم يستغرب الآخر الميل الديني لدى مرافقه، فطوال مدته في الولايات اختبر كيفية الشعور الديني عند الناس هناك، فأوضح على قدر معلوماته:

– 'طبعاً. إنت مش قريت قصة قايين وهابيل؟'

– 'أمم.'

– 'كان في حاجة عن الدم كده. الدم بتاع هابيل صرخ للرب من الأرض، مش كان في حاجة مكتوبة زي كده برضه؟'

أجاب مارك بطريقة كتابية: ﴿صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض﴾.

– 'أهو، هو ده. منين يصرخ الدم إن ما كانش له صوت ؟ وإيه حكاية "من الأرض" دي ؟ لازم إذن في أسرار كتيرة ما أعلنتش لينا أيامها، لكن مع الوقت، قدرنا ندرك بعضها. في حاجة دلوقتي بره بيسموها " the bridge to total freedom": الجسر للحرية الكاملة، ده مجموعة من التمارين بيقولوا إنك لو وصلت فيها للآخر، روحك ها تتحرر وتبقى حر وتملك إمكانيات ما كانتش عندك من قبل كده... حاجة ولا الخيال العلمي.'

وصمت لحظة، قبل أن يكمل مستطرداً في أسف:

– 'كان زمان بس، كان زمان الواحد مهتم قوي بالمواضيع دي. وفضل اهتمامي على حاله بعد ما سافرت، لكن، فين الكلام ده مع الشغل هناك ؟ أغرب حاجة هناك إن هناك بلاد العلم والمعرفة، لكن عشان تفضى تتأمل ولا تتفلسف ها يتخرب بيتك. وأغلى حاجة هناك السكن— إنت رايح بينا على فين ؟'

مارك بشيء من الوجوم:

– 'القسم، مش حضرتك عاوز تشوف حالات ؟'

– 'آه. صدق نسيت ؟ ما علش تاعبينك معانا يا دكتور، آسفين خالص يا دكتور مارك.'

كان جورج بدوره يخاطب مرشده برسمية واحترام.

وصعدا للدور الثالث من مبنى المستشفى الرئيسي عن طريق الكوبري الواصل بين قسم العظام ومركز المناظير، ثم هبطا للدور الثاني حيث أقسام الجراحة العامة. كان بيتر أيوب –وحيث أنه لم يكن نوبتجياً آنذاك – قد أوصى زميلاً مسيحياً آخر معه اسمه فادي حشمت أن يرعاهما وأن يطوف معهما على بعض الحالات الهامة. وجال معهما النائب فادي – وكان شاباً داكن البشرة بذقن مشعرة وشعر أسود حالك خشن وعوينات يعرج قليلاً وهو يمشي – على حالات في القسم النسائي الذي كان مسئولاً عنه: ورم بالطحال، وفتق بالسرة، وكتلة بالثدي، ثم التهاب مزمن بالمرارة. على أدائه المهمة التي أوصيَّ بها لكنه كان جد متعجل، وكان يريهما الحالة بسرعة ثم ما يلبث أن يغطيها (وكان قد اشترط عليهما أن يرتديا البالطو الأبيض بادئ ذي بدء)، وهو يحتسي من سيجارة ويتحدث من آن للآخر في موبايله. وكانت حالة أخيرة بسرير متقدم كان أرجأها للنهاية: سيدة قمحاوية

شابة مصابة بسرطان الثدي، عراها أمامهما ثم فاجأه اتصال فتركهما وأخذ يتحدث قرابة خمس دقائق. ثم قفل ناحية السرير وهو يراجع مدة الاتصال على الموبايل. وظهرت ممرضة في ذلك الحين لدن الباب فضربت على نحرها وهتفت:

— 'يا خرابي! بتصور يا دكتور فادي ؟!'

وانهارت المريضة في البكاء.

قادا نفسيهما من المستشفى ومارك محرج لا يدري كيف يستطيع من مرافقه انحلالاً. كان هاني طلعت هو من هاتفه وسأله بلطف أن يتولى أمر زميلهم العائد من أمريكا، وهو الآن ينبغي أن ينفك عنه بسبب المقابلة الهامة بالكافتيريا والتي ينتظرها بقلب واجف منذ البارحة. ووجب قلبه أكثر وأكثر كلما دنوا من سكة كافتيريا طب فكأن مارك بنفسه مقدم على امتحان. شهران، شهران كاملان حدث فيهما العجب العجاب، وكأن حكايتهما (أو الآن يرتاب في أنها حكاية «هما» من الأصل) جزء من مسلسل ساذج للمراهقين. إنه يستصغر نفسه بسبب ما فعل، مع أنه لم يملك إراداته حينما قام بجميعه. مارك المتفوق، مارك مركز الإعجاب، مارك الإنجيلي المتدين، مارك الطويل الأنيق الثقيل في الميزان، جميعه ذريٌّ إزاء إعصار فقدان إيمان. بالضبط كأنه طفل وفقد أمه، بل أنه لم يشعر بهذا آن فقد أمه الحقيقية. وأحس أنه فقدها وأنه لم يفقدها، للحين ذاك الشعور يلازمه بتواتر وهو يقطع الطريق نحو اللقاء الحاسم، ملأته ثقة غريبة أنه على رغم الانفصال، لكن إيمان له، وهو لها، وهي تدرك ذلك وتتجاهل. وبناءً على ذلك حلل جميع تصرفاتها واعتقد أنه يخبر كل ذرة فيها: فهي حين تواقف الشبان ما تفعل إلا إغاظته، وحين تضحك تريد أن تلفت إليه النظر وتقول لنفسها في رياء: مارك ليس لي وأنا لست له، فأنا حرة، وأنا أضحك بدونه!، ولما انتظمت في الحضور تود أن تزيد ثقتها في نفسها وتدرب نفسها على الاختلاط بوجوده رويداً رويداً، وأن تجعل «مارك الآخر» ينتظرها باطراد بعد انتهاء الروند (بعد أن انفكت عن أحمد إكرام) فذلك لأنها تائهة من غيره، وتريد أن تنساه وستجرب كثيرين قبل أن تعود أدراجها إليه طواعية، وترفع حاجبيها، وتتكلم بجدية مع صديقات أو

أصدقاء، وتبدو مشغولة في عوالم أخرى ولديها مواضيع أخرى لا يدريها، فجميعه – بجلاء صارخ – ليس سوى تمثيل محض!... لذلك عكف هو على إغاظتها أيضاً وابتدأ يمارس أفعال المراهقين. تعرف على نسرين وصار يقف معها يومياً تقريباً، ومينا وبيشوي ودميان باتا رفقاء يمازحهم كلما يلقاهم (ممثلاً الإعجاب بهم فهو يمقتهم ويستحقرهم)، والفتيات الأخريات في الدفعة – خاصة البروتستانتيات – يتربص بفرصة تكون إيمان مارة فيقتنص أياً منهن ويقهقه معها! وكان يلقي دائماً تحية الصباح على الفتيات الأخريات المرافقات لإيمان (تمخضت عن ذلك مشكلة عابرة أن أشاعت فتاة منهن اسمها كريستين دانيال أنه يحبها وأخذت تسخر منه) إن عبروا حذاءه، .... إلخ. لكنه زهق في النهاية، وسئم، وذابت علاقته مع كل أولئك «الآخرين» بالتدريج حتى انتهت، فلم تبق غير إيمان... إيمان وحدها.

وعزم أن يصالحها. كان قد وعى أن لها علاقة شبه أكيدة الآن مع مارك رفعت، وأن كلاماً انتشر أنهما على أهبة خطبة، لكن ثقته العمياء قد أعمته عن مغزى ذلك، ثم أنه قال لنفسه: ولنفرض أن هذا صحيح، فإنه بسبب بعدي عن إيمان! وكانت أيضاً ثقته في «الشفقة» التي ستسكبها عليه العناية الإلهية تفوق الوصف. وحادث ريموندا رمزي في ذا الشأن قبل أيام. على التفتح الذي ساد المجتمع الذي تربى فيه، إلا أن علاقة «الحب» بين الشاب والفتاة كانت أمراً محظور التكلم فيه وغير مهذب، فتبكي الفتاة إن بلغها أن فلاناً قال أنه يحبها لأنه أهانها وسوأ شرفها، ويدور الشاب والشابة حول الأمر بحذر شديد وحرص، فإذا تواجها في مرة أو اكتنفتهما الشائعات يضربان الكفوف ويستغربان ويقولان في نبرة كأنها صادقة: 'إزاي بس؟! ده احنا خوات وبس!'، لهذا فقد حلت كلمة 'يقف معها' محل 'يحبها'، و'البت بتاعته' أو 'الواد بتاعها' محل 'حبيبته' أو 'حبيبها'، وكلها كلمات كان يوصف بها الناس 'الصايعين' فقط. حادث ريموندا وقال أنه وإيمان كانا صديقين، وأنه أهانها مرة فزعلت ثم اكتشف أنها ما فعلت إلا خدمته وخدمة عمه. كانت الفتاة تفهمه يقيناً، وقد ابتسمت بوجنتيها الممتلئتين وطمأنته أنها ستتوسط بينه وإيمان وستصالحهما. وانتظر بشغف وقلق أياماً حتى قطع الطريق تقريباً على ريموندا البارحة (ريموندا ارتدت منزعجة

ومندهشة)، وسألها بجسارة إن كانت قد أوصلت لإيمان ما أوصاها به. قالت الفتاة أنها لم تفعل بعد. فترجاها أن تفعل يومها متحججاً بأن ضميره يؤنبه وأن هذا الأمر هو الحائل الوحيد بينه وبين الله في صلاته. ولأجل أن الصلاة قد ذكرت أسرعت ريموندا بولوج الكافتريا، ثم خرجت بعد دقائق مخبرة إياه أن إيمان قالت أنها فاضية غداً بعد المرور في القسم (قسم جراحة «أ») ويمكنه أن يحدثها وقتئذ[٣٤]. وكانت تقضم من كرواسون مولتو وهي تكلمه.

ولم يجد حلاً بعد لضيفه الثقيل الوطء الذي طفق يسير بجانبه ويقول بأسلوبه الجاد العملي السياسي (إن جاز الوصف)، وكانا آنئذ يسيران بإزاء بوستة صيدلة:

— 'أنا فاكرك من أيام ما كنت بادرس هنا معاكم. كنت واد شاطر من يومك، يا ترى طلعت الكام؟'

— 'ال١١٠.'

— 'ال١١٠؟... أمم... وليك نيابة على كده ؟'

— 'ربنا يسهل.'

— 'مش في آخر شهر باين بتتقدم النيابات؟'

— 'آه. بس اللي في الأول بيرتبوها مع نفسهم.'

— 'طبيعي. وطبعاً ما فيش حد منكم ليه مكان معاهم.'

ضحك مارك على عجل.

— 'طب وعلى كده فكرت ها تقدم إيه؟'

— 'يعني. أنا باحب الأنف والأذن، لكن صدقني حضرتك مش عارف، ممكن أغير رأيي في الآخر.'

— 'حسب إيه يعني؟'

— 'حسب الأماكن الفاضية وحسب يمكن أنا ألاقي نفسي في حاجة تانية تقضى.'

---

[٣٤] لم يكن معها في مجموعة المرور ذلك الصباح، وكان آنذاك يتدرب بالعيادات، التي تجاهلها أيضاً لأجل خاطر إرشاد الضيف الأمريكي.

– ’عاوز تطلع بره خليك في الـcardiology[35]، هناك بيحتاجوه كتير.‘
أجاب العرض على تشتت وقد لاح مدخل الكافتريا:
– ’هم؟ آه، بس، يعني الواحد مش راغب قوي في الباطنات— باقول لحضرتك إيه يا دكتور جورج، أنا ورايا موضوع مهم جداً دلوقتي في الكافتريا جوه، ممكن حضرتك تستناني بس ٥ دقايق؟‘
– ’لا إنت براحتك، أنا كنت رايح هندسة أسلم على شوية معارف من زمان وبعد كده ها اروح. متشكرين خالص يا دكتور مارك، ربنا يوفقك، ولو طلعت بره وعزت أي حاجة إنت معاك الإيميل بتاعي ورقم التليفون اتصل بس.‘
وصافحه بحرارة وهو يشكره في حماسة: ’متشكرين خالص يا دكتور، سعدت بالتعامل معاك يا دكتور، ماعلهش ضيعنا وقت حضرتك يا دكتور‘ كله وهو مبهور به تماماً كأنه نسي أنه كان على ذات الدرب يوماً ما، بل أنه قد ارتد إليه ثانية، ثم تحرك جورج حنا بعيداً بخطاه الهادئة الجادة، ووجهه الأبيض الممتلئ مشرق تحت الشمس في تكشيرة خفيفة، وأولاه مارك ظهره وانطلق نحو الكافتريا.

[35] أمراض القلب.

الإصحاح الرابع: الإيمان

يحلو لميشيل جورج دائماً أن يفكر وهو يقود سيارته، وأن يقود سيارته وهو يفكر. يجتاز الشوارع المضاءة والمعتمة، والطرقات الزلقة، والأحياء الشعبية، والمناطق الراقية، من أمام المطاعم، والكنائس، والمقاهي المدخنة، ومحلات العصير المصهللة، والأحذية المزغللة، والملابس الممطوطة على ماريكانات، والباعة الجائلين، والسينما الصيفي، وسينما رينسانس، ومحطة القطار، ومحطة الأتوبيس، ويشاهد الناس: الشبان والشابات المودرن، والموظفين الكادحين، والطبقة المتوسطة، والفقراء جداً، والمتزوجين، والباحثين، والمحرومين، والجادين جداً، كله كأنه يشاهد بانوراما خاصة لحياته هو الحافلة المليئة التي مر فيها على جميع هؤلاء. في أوقات عديدة لا يكاد يصدق أنه حقاً تغير عما كان مثلاً قبل أقل من عام. وآناً يسخر أن الدين هو الذي غيره في حين أن سواه مثل هاني طلعت يتهم الدين بمفاجعه كافة. أحيان أخرى يتساءل: هل تغير حقاً؟، وألا يكون تغييره هذا ربما رياءً أو نزوة؟ لكن الوقت يثبته يقيناً يوماً بعد يوم أنه بالفعل تغير، وأن النور الذي شاهده ليالي ظهور العذراء كان هو نور حياته. لقد منع تماماً عن التدخين منذ فترة قريبة، وصدف عن استخدام الأقراص المخدرة والأفيون وخلافه، ورقي في التأمل الديني وفي القراءات والتدريبات الروحانية ومع أنه يعثر لكن كل فترة أفضل من سابقتها. لعل الفضل يرجع أيضاً إلى أبونا حزقيال، هذه حقيقة لا شك فيها، فبدونه لتخبط بين الإنكار واليأس بدون ثمر. يا لذلك الرجل القديس ذو العينين الضيقتين واللحية المتآكلة القصيرة الذي يجلس لدن طابونة القربان! عندما زاره أول مرة مع إبراهيم وفضل الله سأله طويلاً عن عائلته وآله، واتضح أنه كان يعرف خاله — نشأت — والأعجب من ذلك أنه علم من أسابيع فحسب أن أبونا حزقيال هو عينه «أدهم» الذي جر خاله سابقاً للحبس في قضية الفسيخ! وسمعة أبونا حزقيال بالدير في صعود لاسيما بين الشباب. يقال أنه قد مكث مدة عامين في بدايات رهبانيته لم يكلم أحداً تقريباً ممرساً نفسه على فضيلة الصمت: فضيلة الصمت مرحلة متقدمة جداً قل من بلغها من الرهبان في شيخوخته، وقد

حاول معه رئيس الدير أن يثنيه لكنه صمت ولم يرده، حتى خرج من عزلته بعد تمام العامين إنساناً جد مختلف: بشوشاً، سريع البديهة، حاضر الذهن، يحب الاختلاط بالزوار الشبان ويحب أن يمحضهم النصح، ويسمح لهم بتلفنته على تليفونه المحمول البسيط – «نوكيا ٣٣١٠» – الذي كان قد أرسله إليه أحد المهاجرين كهدية ولم يقبل بعدها أن يبدله، فصار كأنه «راعٍ أبوي كبير» للشباب. وشغف به الشباب على قلة اهتمام الكبار به نظراً لأنه لم يكن «رجل معجزات» بالصورة التقليدية، وتجد عند الطابونة دائماً من المريدين والزوار، يسامرهم ويتناقش معهم حول الأمور الدينية ويقنعهم بأبسط الحجج الحياتية، وله فكر مختلف عن الفكر المتحجر الذي تجده عند بعض رجال الدين التقليديين. لكم أفاده الرجل! وكيف كانت لتصبح الحياة من غيره؟...

– 'هو إيه الغاية من خلقتنا يا ابونا؟'

– 'إننا نمجد اسم الله!'

– 'طب ولو مش بإمكانّا كلنا إننا نمجد اسمه؟'

– 'المسيح قال: "بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً".'

– 'طب يا ابونا أنا في أسئلة كتيرة محيراني. أنا مش مفكر ولا حاجة بس انا عاوز افهم: إزاي ممكن أعرف إرادة الله؟'

– 'ربنا بيكلمك من جوه، ومن بره. من جوه عن طريق الروح القدس الساكن فيك، ومن بره عن طريق الإشارات والرسايل اللي بيبعتها ليك عند كل موقف. غير كده يا ميشيل يا حبيبي ربنا مش خالقك عشان تكون عروسة لعبة، لازم يكون لك اختيارك ولازم تحسم إنت بنفسك أمور، ربنا زي الأب: الأب ممكن –وفي أحيان كتير– بيساعد ابنه، خاصة لما بيكون لسه عضمه طري، لكن لما بيكبر الابن، لازم يتولى بنفسه مسئولية بعض الاختيارات.'

– 'يعني أفهم من كده إن ربنا عاوزني أختار لنفسي؟'

– 'ربنا بيحط قدامك الصح والغلط، وهو عاوزك تختار الصح، لكن في النهاية الاختيار بإيدك.'

– 'بإيدي... ؟'

– ’أيوه يا بني بإيدك، ولولا كده كان زمانّا عايشين في الجنة اللي أخرجنا منها أبونا آدم!‘

– ’طب وازاي أعرف مين الصح ومين الغلط ؟‘

– ’دي يا مشمش للأسف خصلة إحنا اكتسبناها بالوراثة من أبينا آدم وأمنا حوا، ها تلاقيها جواك موجودة زي أي غريزة تانية بالظبط.‘

– ’لكن يا ابونا أنا بجد مش عارف! أنا لما ربنا ناداني حسيت إن له رسالة خاصة يوصلها لي، لكن مع الوقت، فعلاً أنا بازداد إيمان وصلاة، لكن—هل مثلاً الرهبنة ممكن تكون مكتوبة لي ؟‘

– ’ها ها ها، إنت الرهبنة مش ليك يا دكتور ميشيل.‘

– ’طب وليّ إيه يا ابونا ؟‘

– ’دا دورك إنك تعرف، وربنا ما عليه إلا إنه يحط لك الإشارات.‘

– ’طب ولو أنا قريت الإشارات دي غلط... ؟‘

– ’أنا لا أعتقد أبداً إن انت يا ميشو ممكن تقراها غلط.‘

– ’ليه طيب يا ابونا ؟‘

– ’عشان ما كنتش ها تكون قدامي هنا دلوقتي يا «دكتور»‘.

هل هذا الإنسان من لحم ودم ؟ كيف بلغ تلك القامة من الحكمة البسيطة بعد أن كان خاطئاً «عادياً» مثله ؟! لذلك ألح عليه فكر الرهبنة مراراً وتكراراً، ما السبيل إلى الأمن والملكوت إلا بحضرة أمثال ذلك الراهب ؟ وكيف للمرء أن يسمح لأدنى شيء أن يفقده بصره من بعدما «أبصر» ؟! العالم أخطر ما يمكن، ومترع بالطرق الكثيرة المعبدة نحو جهنم، حتى لو ’سار سيرة حسنة‘، وصار غنياً يعطي للفقراء وكل ذلك الكلام الذي يقرؤه في قصص من أمثال سيرة المعلم إبراهيم الجوهري وأم الغلابة، فمن «ذاق» مثله يمكن أن يرتد في أي لحظة. ريم وأخواتها، يوسف وإخوانه، حتى من لا حول لهم ولا قوة مثل ريمون وأحمد وروماني شنودة وصبحي عزمي وغيرهم، فهم ’أصدقاء السوء‘ في النظر الجديد. إنه يحس براحة ’بشعة‘—أي عظيمة—في الدير، غير أن الراهب لا يفتأ يقول له أن لا يحسب أنه سيجد الرهبنة سمناً على عسلاً أو أنه سيلفي قديسين ينتظرونه في الدير، فهذا وهم، فالرهبنة طريق وعر أخفق فيه كثيرون

وضلل كثيرون، ومحاربات الشرير فيه أضعاف أضعاف محاربات ساكن العالم.

لكنه للحق لا يطلب الرهبنة من قلبه، فهو لا يتصور نفسه في قلاية محبوساً بها أربعة وعشرين ساعة، ويخشى أن يمل ويسيء للرهبنة فينال لعنة لا بركة. ثم ماذا عن—ولكن أوه، فقد وصل بالفعل لدير العذراء بدرنكة ويحسن به الحين أن ينسق أفكاره وأموره.

وخلّى عن السيارة عند المرتفع قبل الأخير وكان هناك كذا مرتفع مرصوف بدءاً من البوابة بالأسفل التي جلس إليها شابان وخفير، حتى أن المسافة الكلية التي يقطعها الزائر الماشي على الأقدام لتربو على الكيلومتر، ومشى مشياً وئيداً بعد أن داس زر الأمان في ميدالية السيارة فأزت ويداه في جيبي سرواله. كان الدير شبه خالٍ في ذلك الوقت من السنة، اللهم إلا من بعض الرحلات وحفنة قليلة من زوار المدينة الملتمسين البركة، شتان بينه وبين الدير في موسمه الذي كان في أغسطس المنقضي، حيث تعج نفس هذه الطرقات المرصوفة الخاوية بآلاف مؤلفة من البشر من مختلف الأديان والأقطار. ويعد دير العذراء بدرنكة أكبر مركز للحج المسيحي في مصر، حيث يؤمه أكثر من أربعة ملايين نسمة سنوياً في موسمه، يليه مباشرة دير مارجرجس بالرزيقات بمجمل حجاج بمقدار مليونين تقريباً. الأنبا ميخائيل أسقف أسيوط أضاف للمكان بركة باهتمامه بموسم الحج وصار منذ أمد بعيد من معالم موسم العذراء، حتى لا يتخيل الموسم بدون شوريته[٣٦] العطرة ودورته دون الأيقونة ذائعة الصيت والتي التقطت منها منذ أعوام اللقطة الشهيرة جداً للحمامة البيضاء الكبيرة التي ترفرف بجناحيها بينه والصورة، ولا تكف الأحدوثات أن الأسباب بينه وبين العذراء لا تنقطع... لكن الدير فضاء الآن: هيصة الجموع وضجيج الحشود كله غير موجود، يوحي بالعزلة وينضح بروحانية قد لا تكون جلية بهذا الشكل في الموسم الصاخب. إنها العذراء: النبع الذي بزغ فنهل منه إيمانه وتقوى، وها هو دير من أشهر أديرتها، يحس بحضورها معه وفي أفكاره،

---

[٣٦] مبخرته.

ويلمس أثرها في كل خطوة خطتها مع رب المجد في هذا الموضع الطاهر. كيف يا ترى كان المكان قبل ألفي عام... عندما زارته العائلة المقدسة؟ يتخيله جبلاً مقفراً — ولكن كلا، فقد تذكر أنه قرأ عن تاريخ الدير فعرف أن جبل أسيوط الغربي (جبل الدير) كان موطناً للمحاجر، وأن ذات المغارة التي لجأت لها العائلة المقدسة كان يستخدمها الفراعنة في السابق لاستخراج الأحجار عن طريق ميكانيكية غريبة بدفع ألواح من الخشب بين الصخور ثم بلها بالماء حتى تتمدد وتنكسر الصخور. لا يعرف يقيناً كيف كان شكل المكان، لكنه لا يتمالك نفسه وهو يتصور نفسه بعد ألفي عام يسير في عين الدرب الذي مسته الأقدام الطاهرة قبيل المغادرة نهائياً من مصر إلى بيت لحم. يا للتاريخ!، ويا لروعة الخلق ويا لجمال الزمن! ألفا عام مرا وها المكان كما هو. كم من مريد قصده، وكم من حكايات حوتها الجدر الصخرية؟ إن هذا الموضع كمثل جولته بالسيارة: رحلة عبر الزمن، لكنها رحلة نقية نورانية، ليس فقط لأنها تقص عن واهب الكون، لكنها تحكي أيضاً عن المخلوق الإنسان أفضل مخلوقاته وعن تاريخه في كل الدنيا، وهنا كل عام تجتمع كل الدنيا.

وكان الطابق قبل الأخير (إذا عنَّ لنا أن ندعوه طابقاً) يحوي كنيسة أيضاً داخلية، لها وللدور بوابة حديدية، فتخطى الطابق جميعاً وصعد عن تمهل المطلع الأخير — ويعد أقصرهم — حيث ربض في قاعه أتوبيسان للرحلات. وكان الطابق الأخير أجملهم جميعاً، وهو مقصد المكان، تماماً كالجوهرة التي تزين التاج في أعلاه، ففيه تقع المغارة التي زارها رب المجد، وكذا كنيسة، والمكان كله يعد قطعة من الجبل ويتميز بطابع سياحي، وطرقاته المتسعة الهادئة تعطي سلاماً داخلياً ومزاراته مباركة تتضوى برائحة البخور والحنوط وتعمها مشاعر نادرة صادقة. وتعدى بوابة الدور العلوي (قمة الجبل) فكانت ساحة متوسطة المساحة مكشوفة للهواء الطلق (وكانت الساعة نحو الرابعة عصراً) تبحثر فيها بعض الزوار وميز أناساً جمال المنظر لا يعرفهم قدر أنهم غالباً من أثرياء القاهرة، وحتى كاهنهم كان «هيئة». لكن كان ثمة قس آخر لفت نظره: كان شاباً قد لا يتخطى الخامسة والثلاثين، ضيق العينين، شاحب الوجه، مشرقه، يهرول من هنا لهناك بشيء من الوهن خلف طفلته الصغيرة التي كانت

نسخة منه في ملامحها، وكان يكتفي بارتداء طاقية قماشية سوداء بسيطة عوضاً عن العمة، مثل الرهبان. ثمة شبه بينه وبين أبونا حزقيال، وإن كان الثاني أكبر سناً. وخطا ينقب حوله عن أثر ففوجئ بالقس الشاب يقترب منه وعلى فيه ابتسامة، وقال له وهو يجاهد أن يحكم ابنته التي كانت تحاول الهرب:

— 'إزيك يا دكتور ميشيل؟ ماما جوه في المزار بتصلي.'

ارتبك ميشيل فحاول أن ينحني ويقبل يد الكاهن لكنه سحبها منه. وابتسم له ميشيل وشكره ثم مضى نحو الدرجات القليلة القائدة للمزار والكنيسة يبحث عن أمه. وفي طريقه تعرف بعض الوجوه المألوفة من أهالي نجع حمادي. ووجدها مع خطيبته وسط لمة أخرى من أهل نجع حمادي، الجميع يردد تمجيداً للعذراء في المزار. صلى صلاة قصيرة بعد أن أومأ لهما، ثم جلس على كنبة خشبية ينتظرهما إلى حين الفروغ من التمجيد ثم الصلاة. وبعد أن انتهت الصلاة أسرعت إليه أمه تلثمه على الوجنتين، وأعقبتها سيلفيا فمسكت يده وضغط عليها ومكثا متصلين، ثم أتى ثروت الوالع — أخو قديس حكيم — وكان رجلاً سميناً يشبه أباه فاحتفى به وضربه على الكتفين، ثم أقبلت امرأة قديس حكيم الوالع ترفل في بدانتها وتعقص شعرها ووجهها الضاحك السعيد مليئاً بالأصباغ ووقفت جواره وجوار ابنتها مزهوة به، وبعدها أتى رجل أصلع فقالت أمه الأستاذ ثروت حبيب مشرف الرحلة، وبعده أتى جيشٌ الجميع يريد أن يصافحه. وكانت أمه فخورة به، وقالت للأستاذ ملاك بسطاوروس المشرف الثاني في الرحلة، وهو رجل ممتلئ بعينين خضراوين وشعر فاتح خطه الشيب:

— 'ابني ده يا أستاذ ملاك: الدكتور ميشيل. مد إيدك سلم ع الأستاذ ملاك يا ميشيل، الأستاذ ملاك من بهجورة قريب ألفونس جوز عمتك. ودي يا ميشيل الأبلة فايزة مراة البشمهندس حنا توفيق، سلم ع الأبلة يا واد يا ميشيل، وسلم كمان على عم تادرس! سلم يا واد يا ميشيل ده قريب أبوك!'

— 'الله الله الله، إيه الطول دا كله امال؟ ها توصل للسقف ولا إيه؟'

– 'ها ها ها، ما كفاياه كده كبر وكفاية يا عم تادرس، ربنا يسترها على اخوه كمان، تصدق إنه بيغير جزمتين في السنة ؟! كل كام شهر يجيني ويقول جزمتي ضاقت على رجلي يا ماما!'

– 'هو انتي ليه ما جبتهوش معاكي يا ماما؟ كنت عاوز اشوفه الواد ده.'

– 'ما رضيش ابوك، قال "خليه يسليني". هه، خليه يسليه، وبالمرة يذاكر... تعالي تعالي يا بطة!... دي يا مشمش بطة، حلاوتنا في الرحلة، على قد ما هي قصيرة لكن مية من تحت تبن! مش كده يا بطة؟ ها ها ها، سلمي ع الدكتور ميشيل ابني يا بطة. وسلم كمان يا ميشيل – ماعلهش انا عارفة انك عاوز تقعد مع خطيبتك لكن الواجب الأول عيب – سلم على الأستاذ لوكاس وعياله، سلم يا بش بش! ما تتكسفش يا ماما، ده الدكتور ميشيل ولدي مش ها يعملك حاجة، ها ها ها، سلم بشويش طيب! ها ها ها . . . .'.

تسلل مع سيلفيا للخارج. لبثا معقودي الأيدي. تذكر الظروف التي صنعت هذه الخطبة: إلى هذه اللحظة يظل غير متأكد تماماً من مشروعية ما فعل، غير أنه يثق بالله ويعرف أن كل الأمور تعمل معاً للخير بلا ريب. مرجحا اليدين وهما يذرعان المنحدر - المطلع. كانت هي فرحة جداً، مهللة جداً، رائعة جداً، وأنثى جداً، لم يجرؤ على اختلاس النظر من مفاتنها في الدير، لكن هالتها وأريجها دوخاه. تلت عليه بضعة حوادث طريفة من التي حدثت في أثناء الرحلة وهي تضحك من حين لآخر:

– '. . . . وجرينا وراها وقلنا لها: "يا مجنونة ارجعي!" لكن ما فيش فايدة. بطة دي مصيبة! ما فيش غير أبونا مينا – اللي انت شفته هناك فوق ده واحنا طالعين – اللي قدر يجيبها من جوه.'

– 'هو اسمه أبونا مينا؟'

– 'إنت ما سمعتش عنه لسه، لكن هو وابونا بيشوي اترسموا في كنيسة العدرا الجديدة وعاملين شغل كويس جداً! الناس دلوقتي سابت اجتماعات ماريوحنا وبقت تحضر في العدرا— المهم بس سيبك، أكمل لك: وبعد ما طلعناها م الهيكل وصلينا وجايين نمشي، دورنا عليها ما لقيناهاش! الأستاذ ثروت والأستاذ ملاك لفوا عليها الدنيا كلها، وفي

الآخر، طلعت في المكتبة بتاعة الدير، وجابوها لنا بصينا لقيناها لابسة أربع صلبان مرة واحدة ومشترية ييجي عشرين علبة بخور! ها ها ها... كله ده كوم، واللي حصل في سانت كاترين كوم تاني: إنت ما شفتش، تروح هناك تلاقي بازارات ياما بتبيع حجارة «العليقة»: حجارة بيضا كده بيقولوا موسى لما ظهرت له العليقة انطبعت في الصخر، والمفروض إنك لما تكسر الحجر تلاقي نفس الصورة مطبوعة جوه. كل الرحلة اشترت، وانا ومنال اشترينا — منال اللي كانت معايا فوق قبل ما اجيلك (بنت كويسة خالص على فكرة) — كلنا اشترينا م الحجارة دي، وقعد الأستاذ لوكاس ومراته يجيبوا للراجل زباين، وفي النهاية رحنا اكتشفنا كلنا انها مضروبة! شوية مية على مسحوق غسيل، وتلاقي كل اللي عليها اتمسح! بيقولوا ان الحجارة الأصلية فوق خالص في الجبل ما حدش يقدر يجيبها إلا بصعوبة خالص، وإنها نادرة، عشان كده بيقلدوا ويزيفوا. لكن اسكت يا مشمش، طلعة الجبل دي بالدنيا كلها: تشوف شروق الشمس وهي طالعة كده «قرص» كبير من تحت... وانت قاعد من فوق... منظر مش قادرة اوصف لك... كان نفسي تكون معانا!...'

لشدما تؤثر فيه سعادتها ومشاعرها. الدنيا هذه عجيبة، هذه واحدة من ضحايا الدنيا.

وجعل يغيظها ممازحاً بالثناء على حسن الزائرات اللائي قدر أنهن وافدات من القاهرة، وكانت هي تتمثل الغضب وتزوم فتقطب وتركل الأرض بقوة فتدق دقاً له صدى بكعب حذائها ذي الرقبة فيقهقه هو.

لكن، كم هي جميلة، وجذابة!

أقسام معينة في المستشفى الجامعي بأسيوط كان لها ثقل خاص، وفي الغالب كان هذا الثقل راجعاً لمجموعة الأساتذة المدرسين بالقسم: فمثلاً قسم الجراحة، بسبب أطباء مثل الدكتور عبد الودود حسن، والدكتور السبيتي، والدكتور عبد الرارزق حسن، ثم الدكتور فاروق مراد والعسيلي وغيرهم، وقسم النساء والتوليد بسبب الدكتور فتح الله، والدكتور ممدوح شعبان، وقسم جراحة المسالك البولية بسبب الدكتورين الشهيرين شلبي والعقاد، ومستشفيّهما المتقاربين في حي الزهراء، بيد أن القسم الذي انفرد بصيت بالغ لم يضاهه فيه أي من الأقسام السالفة، كان قسم جراحة العظام. ومعظم طلبة الطب في أسيوط (بل والناس عامة) عدوا قسم جراحة العظام أفضل قسم بالمستشفى على الإطلاق، ليس فقط بسبب أسمائه العملاقة التي قد لا يصدق بعضٌ أنها تمشي على قدمين مثل: «الدكتور جلال زكي»، و«الدكتور عصام الشريف»، وغيرهما، إنما أيضاً بالرجوع إلى نشاطه ونظامه. وكان من أكثر الأقسام التي لها اتصال عالمي، ودائماً ثمة مؤتمر أو آخر يرأسه طبيب أجنبي، كذلك كان أطباء القسم دائمي السفر والترحال وجابوا أغلب العالم المتحضر، هذا سبب من أسباب أنهم في معظم الأحيان أناس ظرفاء، متفتحون، غير متعصبين أو متزمتين أو إرهابيين، وأكفاء في عملهم. وكان في ذلك الوقت (ما زلنا في نوفمبر) مؤتمر لإصابات المفاصل بالقسم: أقيم ذات صباح في غرفة المؤتمرات بالقسم (أوالتي يطلق عليها بين العاملين بالقسم: 'الكونفرنس': conference) بجوار العمليات. وكان المؤتمر برعاية أحد شركات الأدوية العالمية، فأغرقت المكان ببطاقات دعاياتها لمنتجاتها المختلفة، وأقامت على جانبي مدخل 'الكونفرنس' — مستندتين على حامل ذاتي من تلك الأنواع الذي كانت قد ظهرت حديثاً وقتها — لوحتين طوليتين، إحداهما تعريفاً بمحتوى المؤتمر، والأخرى على الناحية الأخرى إعلاناً عن المنتج الجديد الذي تروج له على أساس المؤتمر، كأنهما خفيران نافذا البصر لاستكشاف «الجواسيس» والمدسوسين. وقد وقف إلى مدخل الكونفرنس

أيضاً عامل نصف زنجي من القسم يدعى عم طه لتنظيم الدخول والخروج (حسبما تسمح له سلطاته إزاء 'الدكاترة').

وأتى عصام فحيا العامل على عجل واستفسر عن المؤتمر بصوت خافت فأعلمه العامل بأنه لم يبدأ إلا قبل ثلث ساعة با لأكثر. ففتح عصام الباب بهدوء، وحشر جسمه من ضيق، ثم دخل يتلمس أقصر السبل لموضع شاغر بدون إحداث صوت. وكانت حجرة المؤتمرات عبارة عن قاعة صغيرة جداً، قد تتحمل مائة شخص بالكاد، يتخللها كذا عامود يحول دون الرؤية في أحيان عدة. وكانت مقاعدها خضراء وثيرة لكنها قليلة، فاضطر باقي المتأخرين أن يجلسوا على منضدة طويلة بالخلف حملت بعض العينات الجراحية المعروضة، وطفقوا يلعبون بها. كذلك كانت هنالك ترابيزة مربعة في الركن تحمل علباً مكيسة للحلويات وعبوات بيبسي وكولا وسبرايت «كانز» على أساس أن توزع على الإخوة الحاضرين بعد المؤتمر. وكانت أنظار المجموعة الأخيرة تتجه إليها من فينة لأخرى. وراح عصام يتابع المحاضر (الذي جلا أنه أمريكي). كان يتحدث عن مادته التي ابتدعها ويقول أنها تساعد على التآم أنسجة المفاصل بعد الإصابات بطريقة معقدة راجعة للصفائح الدموية، ثم عرض نماذج لأشخاص قال أنه عالجهم على شاشة البروجيكتور، جميعهم كان مبتسماً سعيداً، غير أن أقوى حجة لديه كانت في لاعب كرة قدم من فريق برازيلي قال أنه عالجه، وعرض صورته. جل الحضور تابعوه بشغف مصحوب بتحفظ، إلا أن الدكتور حاتم جلال زكي — وكان رجلاً جاداً — حاججه في نقطة أو نقطتين فيما عرضه، وسأله فيم سيساهم عقاره الباهظ الثمن في بلد مثل مصر فقير؟

عصام جعل ينظر حوله إذ فقد طرفاً — أو عدة أطراف — من خيط الحديث. أدرك اثنين من نفس دفعته قاعدين على الكراسي الخضراء حياله: أيمن سليم، ورامي سعيد. هز ساقيه في تململ. إن علاقته بالمسيحيين بسيطة جداً لكنهم دائماً يعقدونها. لقد عاش جل عمره في السعودية، فلم يعد لمسقط رأسه إلا عند الجامعية، وعايش أناساً من مختلف الديانات، ربما هو الوحيد من بين زملائه الذي عامل الهندوس والبوذ مثلاً، فلم يجد فرقاً. لم ينشئه والده على فلسفة معينة في التعامل مع «الآخر»، بيد أنه استنبط كنه الفلسفة من نفسه: لا شيء. لم يكن هنالك «آخر» في مخيلته،

ربما أشخاص من أصول مختلفة لكن لكلٍ دينه ولكلٍ شخصيته أيضاً: دين المرء كخصلة من خصاله لكنه ليس شخصيته. فليكن مسيحياً، أو مسلماً، أو يهودياً، أو من عباد البقر، فطالما هو شخصية جيدة ووفي، فهو صديقه. ولقد خبر الشاميين مثلاً ووجد أن الكيان «الشامي» لأكثر استقلالاً ووضوحاً من الكيان «المسيحي»، فما هو الكيان المسيحي؟ هل ثمة شبه بين هذا المحاضر ومينا موريس على سبيل المثال؟ عله لم يفكر بذات الطريقة عن دينه، لأسباب إيمانية، فهنالك كيان إسلامي حتماً، ويشعر بالقربة مع كل مسلم، لكن يبرز ذلك عندما يكون المسلمون أقلية ليسوا أكثرية، وهذه ندرة. ثم أنه مجرد ارتباط «ودي»، أي أنه اختياري، وبإمكانه أن يتجاهل الأمر تماماً إن لم يرق له، وبإمكانه أن يضحي بنفسه لأجله: الأمر ودي وإنساني بحت. اصطدم في مصر حينما جاء بموضوع الأديان. لم يكن يظن أن الأمر هكذا، لكنه لقي هنا ما لم يلقه في المملكة العربية السعودية. الأمر ليس في حد ذاته احتقان أو كراهية، وإن كان كذلك فليس هذا الذي شغله، الأمر عبارة عن أعراق ها هنا، حتى لو أحب الناس بعضهم بعضاً جميعاً هنا، فموضوع «إنت منهم ولا مننا» يضجره. من هو المسلم ومن هو المسيحي؟ مينا موريس أقرب إليه من أصحابه المسلمين كافة، مع أنه لم يعرفه إلا منذ عامين، ولم يخالطه إلا هذه السنة. ومما لا شك فيه أنه يحمِّل المسيحيين ('الإخوة الأقباط') مسئولية القسمة، ففشلهم في الاندماج في الوسط المحيط هو لب المشكلة. ربما من المسلمين فعلاً من يكرههم، غير أن هذا ليس مشكلاً، فثمة آلاف بل ملايين ممن يهفون لتناسي الفوارق والاتحاد معهم: هو عمره ما همه الموضوع ويتعامل مع الجميع بحسن نية تام، لكن أشد ما يمضه ويحنقه أن يجدهم هم من حوروا الموضوع ليصير أمر «مسيحي ومسلم» خالصاً مسلماً به. وكلما اقترب منهم ألفاهم يكشون، كالقطط المذعورة، ويشعرونه بالفارق الديني أولاً بأول، لا عن طريق ذكر الاختلافات، بل عن طريق تجاهلها تجاهلاً مبتذلاً. يذهب عند آسر عطاالله فيراه يخفي بعض السيديهات عن ناظريه ويضعها أسفل الوسادة، وفي مناسبة سمعه يتلو أمام جورج باخوم وفضل الله وهاني طلعت آيات قرآنية بالنص وأحاديثاً فقطعها ما أن هل، وأيام كان روماني عبيد الله حاضراً مرة حاول شد الكلام

معه في الدين – ببساطة قحة – فاختلف روماني وتظاهر أنه لم يسمعه، هاني طلعت يضحكه بتعصبه الصارخ الذي لا مؤدى له ويمثل أنه متسامح، أيمن سليم إنسان جيد لكن لديه حفنة من الأفكار الأصولية الغاضبة التي تناسب «الإنسان المدمر» ولا تناسب شخصاً متفوقاً أنيقاً مثله من المحقق أن إزاءه مستقبل زاهر كطبيب، وتلاحظ أنه «يقنّع» – إذا أتيح له اللفظ – أفكاره الراديكالية فيخلع عليها طابعاً مصرياً أو إنسانياً عاماً إن تحدث بها كأنه يظن أنه أحمق أو كأنه يخشى منه أن يخبر «الأعداء» إن أفرغ أمامه كل ما في نفسه. لماذا الخوف من الكلام في الدين؟ في السعودية على القوانين الرهيبة كان يتجادل مع المسيحيين العرب ومع أصحاب الديانات الأخرى بحرية تامة، ويذكر أنه وهو في الثانوية جلس مع فيتنامي بوذي على مقهى وصرح له مباشرة أنهم في عقيدتهم يعتبرون كفرة، وأنهم يسجدون للتماثيل ويعبدون دون الله وغيره، هكذا الأمر بمنتهى البساطة، وشغل عن هذا الحديث حين قابل البوذي (وكان عامل بناء في موقع يشرف عليه والده المهندس كانت له قصة طويلة مؤداها أنه كان هارباً من بلده لأسباب شخصية) في المرة التالية فكأنه لم يكن. حادثة كهذه لا يمكن أن تحدث في مصر. هنا تجد عبارات 'الفتنة الطائفية' و'الإساءة للأديان' و'أمن الدولة' تقفز في الأمخاخ فوراً بمجرد استثارة الموضوع، وفي سنة رابعة طب كانت هنالك ضجة بالمدينة الجامعية بسبب موضوع مشابه. هو لا يرى مصر بلداً مشدداً أو منغلقاً أو محكوماً 'بالحديد والنار' كما يقول بعض زملائه، لكن الناس هم من خلقوا الرعب. تقلصوا وكشوا وخشوا وتحاموا حتى صنع كل فرد لنفسه ألف قضيب جاء المجتمع مشكوراً وصنع منهم سبعين مليون زنزانة. خير مثال لذلك ما وقع بصدد شجار صاحبه مينا موريس مع زميلهم الملتحي. على عكس المتوقع فإن نبتة الفتنة ما مكثت أن ديست بالنعال سريعاً وردمت: الجميع خاف أن تنتشر الفتنة، وهم في نهايات السنة ليسوا في بدايتها، وحسبهم ما نالوه من مشرفي الاستراحة والتحقيق شبه السري الذي حدث بعد واقعة الأكل إياها، ثم أن هذا أمر يمكن أن يفتح الباب على مصراعيه لأمن الدولة، وسيبدأ النبش في القبور، وتمحيص كل من حضر الواقعة، ثم تجريم أيٍ كان لغلق المحضر... هذا كله غير خيالات «السكاكين

والسواطير» وهي خارجة تتقابل فوق السلالم التي لم تكن مشاهد ظريفة أيضاً. لذلك فقد عكف الجميع على «دفن المشكلة» بالطرق شتى: عوضاً عن جلسة حكيمة لتقريب الآراء وتبادلها بين الطرفين المتضادين انتهى الوضع بقطيعة تامة بين «الخصمين»، وشبه تامة بين «ناس» كل خصم والآخر. عصام نفسه شارك في ذلك، ليس تخاذلاً أو وهناً، لكن لأنه لم يثق في قدرة المجتمع المصري على النقاش الحكيم الهادئ.

ها هو المحاضر يحرج مرة أخرى لكنه يتماسك قبيل الانتهاء من محاضرته. نجل الدكتور جلال زكي سريع البديهة وصلب جداً، يقال أنه من أصغر من أتموا الدكتوراة في مصر بأجمعها. يتجاوز المحاضر عن النقاط الضعيفة وهو يلخص لب ما قاله في الجلسة. يتشتت الآن من فرط الدخول والخروج من قبل الحاضرين على غير ما كان قبل ساعة واحدة. فشل ذريع: بجلاء هذه نهاية هذه الجولة.

وفض المؤتمر فانطلق الجميع نحو الترابيزة غير المستورة آخر الركن. طبيب بجسمان قوي تولى التوزيع مع أنه لم يمنع أحداً من مد يده، وتسابق كلٌ إلى البيبسي والكوكاكولا والسبرايت قبل ظهور مشروبات البرتقال المخبأة بالأسفل. لسوء حظه حظي أيمن سليم بمشروب برتقال، وساخن، لكنه قال أنه لا يهتم. وخرج ثلاثتهم — عصام ورامي وأيمن — مترافقين وهم يراجعون ما حدث في أثناء المؤتمر ويضحكون. عند السلم توقف رامي ليرص علب حلوياته الثلاث وعبوتي الكانز الخاصتين به في حقيبته السوداء الجلدية وهو مقطب في جدية كأنهما فعلا جرماً بعدم الاقتداء به.

وقضى كل منهم باقي اليوم يحلم بنيابة العظام، التي لن يحصل عليها أيهم.

الإصحاح السادس: كتابة السفر

I. كانت ثمة ما تدعى بالأوراق الصفراء لدى هاني طلعت، وهي عبارة عن ورق لصق صغير من ذاك الذي يلصقون به الملحوظات على الثلاجات في البلاد الأجنبية، وكان يسطر فيها بعض الملحوظات اليومية والتأملات، فكأنها يوميات لكن من نوع أخف وأبسط، وكان قد تعود أن يدسها في داخل كتب تفاسير أبونا تادرس يعقوب ملطي التي كان مدمناً لها قبل «الانهيار». وقد جلس ذات مساء خاوٍ من تلك الأماسي التي صارت تتكرر بكثرة، فتذكر تلك الملحوظات التي أحياناً كان يسخر منها زملاؤه فيهتف فيهم مفاكهاً: 'الأوراق الصفرا دي مستقبل العالم! بعد ما يختفي الإنسان ها تيجي حضارات تانية تدور مش ها تلاقي غير الورق الأصفر دا! إنتو مش عارفين!'، فانحنى إلى الرف السفلي في دولابه وأخرج كتاب أبونا تادرس لتفسير سفر التثنية، ثم استخرج الأوراق المدسوسة داخله وقرأها. فأحس بشيء من الراحة. من هنا —بدءاً من الأسبوع الثاني في نوفمبر— تلقحت في ذهنه الفكرة بأن يدون يومياته، وتمخضت عن فعل بسرعة جداً على أول الأسبوع الثالث: فابتاع من مكتبة الشروق بشارع المكتبات أجندة ذات كسوة زرقاء جميلة من أجندات «الشمرلي»، وابتدأها مستهلاً بأجمل خط يمكن أن يخرج عنه، وأسماها: 'سفر أسيوط'. وقد كتب مقدمة طويلة، مفعمة بعبارت شاعرية ضخمة على غرار تلك التي تكتب في الروايات، كـ: 'إني لا أدري لماذا اشتريت هذه الأجندة ؟؟'، أو: 'إلى من يا ترى سيخرج كلامي ؟؟'، أو: 'سأكتب هنا ذكرياتي وأحلامي وأيام الشباب'، و'سيأتي يوم'.... إلخ، على أنه بعد المقدمة، تعسر عليه أن يكتب الكثير، أحداث الحياة اليومية كانت ذروة في الضحالة، والعالم عبارة عن فراغ كبير، ثم أن ليس من مستقبل يحلم به ويسطر عنه. حتى جاء في يوم وكتب التالي:

'الأحد ١٩/١١/٢٠٠٦م
'في غرفتي باستراحة الأطباء بنايلة خاتون
'أسيوط

'سميح صفوت صاحبنا من سنة ثالثة، والذي تعمل والدته أستاذة بكلية التربية، دعانا اليوم لزيارته في بيته بشارع المحافظة. شقتهم كانت في عمارة في شارع مسدود عرضه يمكن متر x متر، وعربيتهم اللادا البيضاء سدت الشارع أكثر مما هو مسدود. رحت أنا ووائل دميان وكان معنا وسيم هلال، وخبطنا على الباب حتى فتح أبوه. أبوه كان رجلاً كبيراً بصوت تخين، وفتح لنا بالبيجاما. ولم يدخلنا أبوه، بل انتظرنا بالخارج وقلنا أننا لن ندخل غالباً. لكن خرج سميح وهو يضحك وهتف وائل: "يخرب بيتك إنت تخنت خالص!" وكان فعلاً سميح تخن عن زمان بعدما كان نحيلاً أكثر من وائل دميان. ومشينا خلف سميح حتى دخلنا بيته. البيت كان أكثر بيت شفته في حياتي معبأً! معبأ البيت بكل شيء: من الأنتيكات، للصور، للعفش نفسه وكان زانقاً المكان كله، لساعات الحائط، للكتب، أشياء وأغراض وخردوات كثيرة جداً كأني رحت مخزن! وأجلسنا سميح في غرفة الجلوس وكان بها كمبيوتر وبيانو! لأول مرة في حياتي أرى بيانو. وأخذ وائل يكلمنا وسميح غير موجود عن 'DWAM'، التي قال أنها كلمة اختصار لـ'Doctors With A Mission'[٣٧]: أطباء بمهمة. كان مبهوراً بها بشدة، واستغرب أن يجدني —ووسيم معي طبعاً— لم نسمع بها. ثم حضر سميح بالينسون ووضعه لنا على الترابيزة وسأله وائل هل سمع عن DWAM؟ فقال سميح طبعاً أنه سمع عنها. DWAM هي منظمة إنجيلية —كما فهمت— هدفها إرسال بعثات طبية وخيرية للأماكن الفقيرة في العالم. لكن أيضاً ترسل DWAM لبعض الدول العربية مثل الأردن والبحرين والسودان. وسيم (كالعادة والمتوقع طبعاً) اهتم اهتماماً شديداً بموضوع DWAM. سأل عن المرتبات، والأماكن التي يرسلون إليها، وهل هناك شغل في «السعودية» أو «الكويت» مثلاً؟! رحت أنا أضحك على

---

[٣٧] أطباء برسالة.

وسيم وهو مهتم: يعتقد أنه وقع على كنز سيسفره للسعودية والكويت! وأجابه وائل وهو يبتسم أن الهيئة تسفر فقط لأماكن مثل كينيا وزامبيا.

'أغراب جداً الأسايطة دول، كلما أجلس معهم أحس أنني لست في مصر. لهم صفات غريبة جداً: البلد أغلبيتها مسيحيون، لكنهم مسيحيون وليس مسيحيون في نفس الوقت: ليس عندهم تدين حقيقي مثلما عندنا في الأقصر، وربما بسبب أنهم كثيرون فنادراً ما يتكلمون عن الدين الذي يجمعهم إلا على أنه «واقع» فقط. أفهم دلوقتي لماذا يختلف المسلمون فيما بينهم. هنا في أسيوط مثلاً أحس أن هناك مسيحيين أكرههم! الغريبة أن هذا لم يحدث قبل ذلك في الأقصر، لأننا كنا أقلية فكنت أتغاضى عن أي مشاعر سلبية لأي أحد مسيحي...... الأسايطة لهم أصناف محددة لا تتغير: فإما الأسيوطي «الثقيل» وهو غالباً رجل عجوز يتكلم بمناخيره ويكشر وصوته خشن وليس عنده دم! وإما الأسيوطي النسوانجي الذي يقف طول النهار مع النسوان مع أنك لا تطيق أن تقف معه لحظتين. وإما الأسيوطي «البارد» «الغريب» الذي تفحصه فلا تجد أي شيء! ليس بارداً لأنه لطخ، لكنه «بارد» يعني «غريب»... كيف أعبر؟ إنه الشخص من الآخر الذي يتكلم بالصعيدي ولا يهمه أي شيء إلا الألحان والشغل وينظر إليك فلا تجد داخله شيء، أو تجد أنه يفكر في الاستقرار في مكانه طول عمره ويحملق فيك من خلف نظارته بدون معنى، وتحس أنه بداخله معنى لكنه في كون آخر. وإما الأسيوطي الغني الذي يتفشخر كثيراً. وإما الأسيوطي الإنجيلي المهذب الدمث السعيد الذي يحب الرب إلهه من كل قلبه ليت كل العالم مثله! وإما الإنجيلي أيضاً المنافق، مثل سامح عبد الله.

'سميح ينتمي لعائلة الأسيوطي الغريب. إنسان في قمة الطيبة ولا يوجد داخله أي شيء سيء، لكن تفاجأ عنه بأنه عاش سنة كاملة تقريباً وحده في الشقة حينما كانت والدته تحضر دراسات عليا في جامعة بالجزائر وذهب معها زوجها. يحملق فيك. يخرج مع ناس

غريبة! تجد دائماً أنه مثقف جداً في كل المجالات لكنه «قاعد مكانه»، لماذا؟! أخوه في أمريكا ولم يزره حتى الآن! يقتصد في الملابس. لا يكلم البنات. لا يحلم بشيء!

'ومشينا من عند سميح ووائل يتكلم أيضاً عن DWAM. وإني أكتب هذا الموقف لسبب آخر، فقد حدثت اليوم حادثة مهمة خالص بالنسبة لي: ونحن نتمشى في شارع الكورنيش ونبصبص على البنات، رأيتها. هي بنفسها نفس الفتاة التي رأيتها يوم أن ذهبت للإنجيلية الثانية مع ريمون عادل! كانت تتمشى وحدها مثل المرة الماضية. ممتلئة، و«شهية»، وكنا نمشي قصادها فلمحتنى أنظر إليها فنظرت إلي وغمزت! انكسفت جداً وبصيت على الأرض ولم يلاحظ وائل ولا وسيم اللذان كانا يتحدثان عن مرتبات DWAM.

'يا يسوع المسيح! هل تغمز البنت؟!

'هذه هي الحادثة المهمة التي أردت تدوينها اليوم. أعتقد أنني لن أرى يوماً ثانياً تغمز لي فيه أي أنثى.

'الغريبة أني فرحان جداً!

'أريد أن أنام الآن، أنا تعبان'.

II. وفي يوم آخر كان مضطرباً بشدة:

'السبت ٢٠٠٦/١١/٢٥م

'في غرفتي باستراحة الأطباء بنايلة خاتون

'أسيوط

'أول أيام صوم الميلاد. يحزنني أنني لم أتذكر الصيام إلا عندما اتصلت بي أمي من كام يوم.

'أكتب الآن وأنا مكتئب. زمان لم أكن أعرف شيئاً عن السياسة، الآن السياسة هي كل حياتي. العالم في الخارج -والداخل - يغلي. أحمدي نجاد يقول: "يجب ألا نخجل أن الإسلام مستعد لأن يحكم العالم". الإخوان يجندون مئات للم معونات لأجل حماس. أحمد موسى مر علينا ونحن في قسم الباطنة ولم من المسلمين، نفسي كان ييجي ناحيتي عشان أقول له: "المعونات دي عشان حماس ولا عشان فلسطين؟" الكلمة كانت حارقاني لكن للأسف ما جاش ناحيتي. دلوقتي انتشرت قوي إعلانات مقاطعة البضائع الدانمركية وفي ورق بيتوزع عليه الأصناف «البديلة». آسر يقول أن بعض الأصناف الموجودة في الإعلان ليست دانمركية. آه بخصوص آسر، الكل عرف أنه يخرج مع بنت مسلمة. جورج عبد الملاك (الفيل الأبيض) شافه مع فتاة محجبة من كام يوم. حاولوا التكلم معه لكنه في معظم الأحيان ينكر أنه يعرف على ماذا يتكلمون!... رجوعاً للسياسة: العالم محتقن بالخارج وقرأت على النت كلام غير جيد عن المستقبل ونهاية العالم. الموضوع أخطر ما يمكن إذن! هل نهاية العالم على وشك؟! هل سنقابل الله؟! وماذا أقول له؟!... موضوع انتخابات اتحاد الطلبة دي عملت ضجة، والإخوان عاوزين يعملوا «اتحاد طلبة موازي». في برنامج على التليفزيون قال الضيف إنهم المفروض يعملوا دولة موازية.

'حاجات كثيرة عن الدستور لا أريد أن أفهمها.

'مالي أنا يا ربي بالحاجات دي! عاوز أعيش مبسوط ومرتاح وفي سلام وفي دنيا كبيرة.

'راجعت أفكاري في بعض صفحات المذكرات وجدت أنها مجرد شتائم! أشتم كل شيء. هل هذا ما وصلت إليه: متعصب «قميء» على رأي أحد أساتذة النساء؟!

'اندهشت من عدة أيام لما وجدت مع زميل معنا في الاستراحة اسمه مروان رواية السكرية بتاعة نجيب محفوظ. هل مازال أحد يقرأ في زماننا هذا؟!

'مينا موريس يريد أن يتزوج البنت التي يحبها، ساخط حالياً هو خالص بسبب الدنيا والظروف، بيقول إن عائلة هذه الفتاة عائلة لواءات وضباط كبيرة جداً في منفلوط. ميشيل جورج قال أن منفلوط كلها عائلات كبيرة.

'ملل... ملل... ملل.

'هل أمزق المذكرات؟

'من كام يوم أنقذني الأسوانلية عندما قالوا أنهم ذاهبون لمشاهدة فيلم في السينما. لبست بسرعة وخرجت معهم. إني أحب رامي خير الله أكثر واحد. رأفت وشيرين خرجا معنا. ذهبنا جميعاً للسينما وأعجبت باختلاس النظر إلى البنات المسلمات الجميلات اللاتي كن مع «مرافقين» حسدناهم جداً. اخترت لأول مرة الفيلم الأجنبي وحضره معي رامي خير الله وباقي الأسوانلية، أما رأفت وشيرين فشاهدا الفيلم العربي. الفيلم: «Miami Vice»، سألت رامي قال لي أن Vice معناها رذيلة. عالم تانية ودنيا تانية المشاكل فيها الفساد مش الدين.

'نفسي أمشي أروح عالم تاني. عالم «مليان» مش فاضي، حتى بالوحش مليان، مش بالموت والفناء.

'في واحد دكتور في الباطنة اجتمع بنا بتوع الامتياز أول امبارح يوم الخميس. شرح شوية عن الـdifferential diagnosis[38] وكان لابس كاب وشكله متفتح خالص من اللي قاله عن الخارج. رجعلي الأمل لما سمعته وشفته. لكن فوجئنا بعدين إنه قعد يقول إنهم بره ما يعرفوش الله سبحانه وتعالى، وشتم أمريكا والغرب كله (اللي واخد منه الدكتوراة بتاعته) وقال أن تاريخهم كله «وسخ»! طلعت من المحاضرة كنت هابكي. كل شيء اتحطم تاني. الغريبة إني دلوقتي مش عاوز اسافر ومش عاوز اقعد. عاوز حياتي تنتهي. لكن منين أجيب الشجاعة؟ كان يومها الأمور خبط لزق. لكن

---

[38] التشخيص التبايني: أي مجموعة الاشتباهات التي يجمعها عرض أو علامة معينان.

دلوقتي استحالة. كمان في حاجة غريبة عندي اسمها أمل. عندي أمل.

'هل ياترى أنا متخاذل عشان سبت السينما؟

'أنا كان نفسي أحقق حلمي لكن ازاي دلوقت؟

'كفاية كده أنا نفسي زهقت واكتأبت من الكلام ده'.

الجزء السادس
مقتطفات من حفل ختامي تقليدي

١. نهاية العلاقة

على قدر ما يظهر من استهتاره وهذره، ثمة لحظات يبدو فيها آسر إنساناً جاداً، حكيماً، ورجلاً كاملاً مهموماً محملاً بمسئوليات. الأمر لا يتعلق بشيماء ولكنها قاعدة عامة لاحظها أغلب من عاشروه. ثمة أوقات يتبدل فجأة فيها ويمنع عن هزره ومجونه ويتكلم كلاماً جدياً يحرج به من أمامه، وأحياناً تلفيه آبياً بشكل قاطع الاندماج في العبث رابئاً عنه، وآناً تحسه متديناً جداً! قال له هاني طلعت مرة (وكانوا يتحدثون عن إن كان ثمَّ لقاء بينهم بعد عشر سنوات) أنه يظن أنه آسر سيصبح متديناً حكيماً في يوم، نتيجة سعي 'البلاميث'[٣٩] إليه بعد التخرج، وأنه سيقابله مصادفة فلن يتعرفه، إذ سيجد إنساناً آخر. ضحك آسر.

مكالمات هاتفية تأتيه فيترك القعدة كلها ويخرج مقطباً ويقفل مهموماً، مشاوير غامضة وسفريات لبلده، صداع من حين لآخر يدور السكن كله لأجل قرص ريفو أو رومارين، مجادلات طويلة في الدين وفي مسيرة بني إسرائيل: قال مرة أن شعب بني إسرائيل (شتيمة نابية) شعب وجد في الأرض، شجار كبير مع سامح سيف، يستمع للنصائح المزجاة إليه بصدد الفتاة المحجبة التي شخص معها بشيء من التملي ثم ينكر جميعه، الأغاني لا تتوقف، ملحم زين، كاظم، فيروز، أصالة، جورج وسوف، شرب شاي، العشاء عنده كل ليلة وهو واجم كثيراً، لكنه أبداً ليس شارداً، آسر لا يشرد، بعد أن خلّى عن عمله في الصيدلية بحث عن عمل آخر لكنه أغضى الطرف لاحقاً، تتجلى ثقافته ومعلوماته بطريقة مبهرة للجميع: آسر قرأ حول العالم في ٢٠٠ يوم وقرأ يوليوس قيصر بالإنجليزية، وقد تصفح غرام سوان، يعرف عن الإسلام أكثر مما قد يعرفه أحد أتباعه، وعنده «رؤى» سياسية ومطلع على مجريات الأمور في الدولة كافة، لديه أيضاً

---

[٣٩] أي البروتستانت.

نظريات لافتة للنظر في الجنس، يرفض التدخين والمخدرات ويعيب على من يدمنون، ذات مرة اتضح أنه من الأطباء يعرف كيف يشخص وكيف يعالج!

كل هذا وقد اكتشف زملاؤه من أبناء استراحة الأطباء بنايلة خاتون — ليس فجأة أو بغتة إنما مع الزمن — أنهم إزاء آسر عطالله جديد، ربما هذا الـ«آسر» لم يكن موجوداً من قبل، وربما كان موجوداً بصفة جزئية وكمل تدريجياً، وربما كان كامناً في جوانيه منذ الأزل. أناس آخرون قالوا أنه نفسه آسر، لكن لعلهم لم «يشخصوه» جيداً منذ البداءة.

ولقد نمت علاقته مع شيماء. كان يعلم في داخله أن ليس مستقبل للعلاقة معها، فهو لن يهرب معها وهي لن تهرب معه ثم أن أيهما لن يقبل بتغيير دينه، لكنه — ولذلك حقيقة — عقد كامل عزمه على أن يأخذ معها «الحاضر» بطوله... أية علاقة جميلة، وأية فتاة جذابة فاتنة! حتى لو حطمت الأيام ما بينهما سيظل يذكرها بالخير. ولم يكن صاحب اليد العليا في العلاقة لكنه أمرها ألا يلتقيان سوى في شارع الكورنيش: شارع الكورنيش شارع 'الحبِّيبة' غير ذلك فبه من المطاعم المكنونة المنزوية التي لا تغشاها طبقتهما ما يسترهما عن العين. بيد أنهما مع الوقت نسيا — أو تجاهلا — النقطة الأخيرة ووهبا نفسيهما تماماً للأولى، فباتا يسيران معاً الهويني على رصيف الكورنيش، يتسامران ويتفاكهان أمام الجميع دون خوف، ولم يلاحِظا من معارف أيهما في المرات التي حدث بها ذلك. وقد مرت علاقتهما بمراحل ثلاث، كجل العلاقات الغرامية في الشرق في الواقع: ففي البداية كانت الخشية، والتردد إزاء العلاقة، كأنهما يمارسان ذنباً، لا بسبب اختلاف الدين، ولكن بسبب اللقاء في حد ذاته، وكان التلاقي ممزوجاً بحس مغامرة قوي وخفقان، ثم تلتها مرحلة الراحة التدريجية والتفكير، وكان كل منهما يدرس الآخر كأنه سيتزوجه، وكان الحب بها صافياً رومانسياً خالياً من أية 'شوشرة' أو منغصات، ولقد توصف تلك المرحلة عامة بـ«السعادة» وأيضاً بـ«عيش الحياة»، على أن المرحلة الثالثة والأخيرة سرعان ما تبعت، وهي مرحلة الشهوة، ومرحلة الاستعداد للقيام بأي نزق، ومرحلة بيع كل أحكام الأمان التي كانت تحفظهما

والخروج أمام الدنيا بصدر واسع: تلك هي المرحلة التي تهفو فيها البشرة للقاء البشرة، وتنغلق الأنامل على بعضها بعضاً في تلقائية، وتسري في الدم براكين من نار، ويود الإنسان أن يصرخ، وأن يقتل كل من أمامه! هي مرحلة الندم والذود عن الفعل أيضاً، وهي مرحلة الحب والكره، والعجز.

وبدأ كلٌ في اتهام الآخر والاعتماد عليه كليةً في آن: اتهم آسر شيماء في نفسه بأنها هي التي جرته لهذه الحفرة، وأن بسبب عدم حكمتها الخلقية (فهو لم يعد الأنثى في رأيه حكيمة إطلاقاً بطبعها) حادثت مجونه، وحادثت جنونه، واتهمت شيماء حبيبها بأنه مسيحي، وأنه لو يحبها حقاً لترك دينه لأجلها كما يبيع التاجر كل ما له ليشتري جوهرة ثمينة، إن كانت تستحق، وهي تستحق. وقال آسر في نفسه وقالت شيماء في نفسها أن «الآخر» أجدر بتحمل مسئولية خطأه.

ولقد عرفا عن بعضهما بعضاً كل شيء، كأن كلاً بالآخر كتالوج مفتوح، أو كأنه صورة فوتوغرافية دقيقة ماثلة للنظر أربع وعشرين ساعة حتى أدرك وحفرت في ذاكرته أرق ومضاتها. فثبت في شيماء أن فتاها شاب وإن مفتوح الأهواء ويمقت التقليد والعرف، لكنه سائخ الجذور في المجتمع الذي خلق فيه بشكل لا يقبل شكاً: فهو «مصري» أصلي من الداخل والخارج، يفكر كمصري، ويلبس كمصري، ويتحدث كمصري، ويغني كمصري، ويغازل كمصري، وسيتزوج كمصري ويعمل كمصري ويموت كمصري، لن تتغير تلك الخصلة فيه وإن خرج من دولته الحبيبة سيقتل مثل الشجرة التي تقتلع من الأرض. من المحقق أن هذا هو ما قربه منها وجعلها تحس بالألفة معه. ولكن الشائبة الوحيدة التي كانت تعيبه، أو تعلمه بعلامة «محيرة» حيالها، هي أنه مسيحي ديناً! كيف يرضى على نفسه أن تعيبه تلك الشائبة؟ وما مكان المسيحي ديناً في بلد عاصمتها مدينة الألف مئذنة؟! لماذا لا يحول دينه كي تصير كل الأمور 'تمام' وتكتمل خلقته ويتزوجها وتوضع النقاط فوق الحروف؟ ما هي المسيحية وما موضعها فيما هما فيه الآن؟ كذلك، وكما قص عليها آسر، فحياته لا تعتبر سعيدة: فأمه تفكر في ترك أبيه، وأخته لديها مرض غريب متعلق بشرايين الأطراف، وماليات الأسرة عامة في تدهور من بعد نبأ بيع مزرعة الفيوم، وهو قد بدأ يمقت أصحابه، فلما لا يترك كل هذا ويمضي معها؟ لن

تقدر أنثى غيرها على إتيانه الحنان والحب، فهي تحبه، تحبه حباً حقيقياً، ولكنه ينبغي أن يتغير لأجلها. آسر بدوره أدرك أنه قد بات «عاشقاً» كعاشقي القصص وليس أمامه مفر، فهو مجنون بها كليةً: بأسلوب مشيتها الهادئ الواثق تحت الجيبات الخفيفة 'المكرمشة' التي غالباً تعود اللأشجار، حيث تستوي ساقيها على فخذيها في خطين مستقيمين مذهلين وتتعامدان على الأرض المحسودة كأنها مشية رياضي، ويتحرك حوضها يميناً ويساراً حركة يسيرة غير مبالغة في رشاقة وشباب، وتعدل وضع حقائبها الصغيرة تحت إبطها الصغير من حين لآخر كأنها تضفي للمشية «نكهة» مخصوصة تشعل بها أقداح الخيال، وأحبها بلفة طرحتها، فتلفها لفة عجب محبوكة على الرأس المثلث بحيث تضيق عند مؤخرة الرأس وتسبغ في المقدمة فكأنها هالة نور حول الوجه الحسن الدقيق، بصنعة ماكياجها الواهن والـeye shadow الذي تؤثره أزرق بلون النيل، بشفتيها الصغيرتين اللتين لا تصلحان للقبل الحارة، بالحرق المخفى عند جذر خنصرها الأيسر، بجملة خواتمها وكانت تضع ثلاثة، برعشة فكها السفلي وهي تلفظ الراء، ببعض العبارات اللتي تكررها بفرط: 'بقى'، 'طب'، صيغة الجمع تتكلم بها كثيراً في أحيان، حلل صوتياتها كاملة، بمحمولها السامسونج الخفيف، بنغمتها التي خصصها لها خصيصاً تغني في اليوم ألف مرة: 'مش عاوزة غيرك انت، والله باحبك انت، والحب كله انت، وانت الناس كلها'، بتجاهلها له وروحها تبتسم من البلكونة، بكينونتها كليةً، لقد أصبح عبداً لها.

ولكن الخريف ها هو قد حل، لا يرى أشجاراً لكي تتساقط منها الأوراق، ولا يحس بدنه بضرر: آسر يتبع نظاماً عجيباً في تغييرات الفصول: فينام صيفاً شتاءً تحت بطانية الاستراحة الصوفية، ولا تتحور ملابسه كثيراً في الصيف عنها في الشتاء: دائماً يلبس الخفيف كأن جلده ليست به مستقبلات حرارة وبرودة—ولكن في الخريف دائماً يتحدد قدر الأشياء: إما أن تنتهي، أو تعبر للعام الجديد. وصمم آسر على تحديد مستقبل علاقته مع شيماء. وكان في ذلك الوقت ينظر من شباكه بعد العصر، وقد بدأت أعمدة الإنارة عملها، وسمع صدى أغاني من شقة بالدور الخامس في عمارة

لصق عمارة شيماء، وكانت مدينة أسيوط تستعد للسهرة. ودخل الفيل الأبيض ولم تمر ثوان حتى برزت رأس مينا موريس ثم ارتدت حيثما أتت، وهتف جورج عبد الملاك:

– 'يالا!'

فخرج معه آسر.

وكان الأمر بسيطاً. وعن كثب من مدخل كافتريا «هابي دولفين» المطلة على النيل، شوهد آسر يزعق ووجهه يحتقن، وشيماء تهرول مغادرة وهي تبكي وتغطي وجهها.

٢. بداية علاقة أخرى

الموت علينا حق، ولكن الموت له هو عدل، ورحمة. إن عمه سيموت، نضجت الحقيقة بين يوم وليلة مع أنها كانت مقدرة بالنيات قبلاً، تدهورت صحته فوق ما هي متدهورة، وانقض عليه مبعوثو المنية فنهشوا لحمه نهشاً، الحين عمه هو عبارة عن لحم + عظم، اظلمت سحنته فكأنه زنجي مسلول، وتعثر عليه من الآن وصاعداً الاتصال بأي قشة في الواقع، وخسرت العملية التي أجراها لانسداد شرايين الرجل بعد الكد في إقناع الأطباء، وماتت نفس الرجل قبل جسده فلم يبق إلا انفصال الروح. مارك على انزعاجه وإزعاجه لقومه بسبب عدم إبلاغه حين مرض عمه سابقاً وركبته التشنجات، شد قامته وتمالك ذكورته، وآزر في الإضطلاع بالواجب الطبي والعائلي والديني الذي ظهر له. لم يكن يحب عمه إطلاقاً، وما كرهه أيضاً، في الحقيقة كانت روحية هي محط الاستفهام والنفور والإعجاب مع آناً كثيرٍ من الشكر أو العقوق، عمه لم يكن موجوداً لا في ذهنه ولا في حياته (أو في حياة أي امرئ آخر على اعتقاده)، مات منذ أن أرقده السقم، وهو سقم لعله «روحي» – في نظره – قبل أن يكون جسدياً، فقد اعتقل روحه، وخنقها، بداخل جثمان عفن، متحلل. وكثيراً ما تساءل في ذاته، واستعلم، عن ماهية الأعماق «داخل» بدن عمه هذا وعقله: هل يفكر؟ هل يحلم؟ هل يتابع ما يجري حواليه؟ وما هي طريقة الله لمخاطبة مثل ذلك الإنسان؟، وكان يشمئز منه ويشفق عليه في آن، فهو عمه، وكافله على رغم غيبه، وهو مأساة بشرية تدفع بالمرء للريب في كل الأشياء.

وقد تعجب مارك من التحول المثير الذي صنعه عمه في عيشة البيت بسبب دائه ووصبه، فقد امتلأ الموضع لأول مرة بالحيوات: حيوات كثيرة عزيزة متضاربة غير تلك اللائي كانت تحضرهن روحية لشغل يومها، عرف أناساً عدة، وامتد إلى أقارب وصلات كانت غائبة عنه بسبب إما لاستذكاره أو مقته: عم جوزيف الذي هو بمثابة خال لوالده وهو رجل أصلع وصلعته بها بثور ويعتكز على عصا أثرية بمقبض منحنٍ له «شامة» كبيرة على ركن أنفه وهو رجل طيب طريف يحكي عن ليالي زمان ويتحرك بسرعة ميل في السنة، «تيزة» جيهان وهي امرأة قصيرة بشعر أصفر مصبوغ لها

بشرة بيضاء متغضنة وتلبس الأسود وهي من زبائن كنيسة الله الدائمين وعيالها الاثنين — الابن والابنة — في أميركا وهي امرأة ثرثارة بشكل يفوق التصديق وكانت إلى مدة قريبة خلت تظنه ليس من أتباع العائلة وكلما تراه واقفاً بجانبها تقول له: 'يا بني ما تروح بعيد يا بني دي قلة حيا دي ولا إيه!'، «صامويل وجانيت» وهما أخوان في سن أدنى من سنه يضربان على جبهتهما كثيراً وتحسهما «منتعشين» باستمرار والفتى تذكر اسم 'مارك' مرتين فكادت الفرحة تصرعه، «دلال» ابنة جارهم في بدايات عدلي يكن وهي عبارة عن 'صاروخ أرض جو' كما يقول صامويل وهو يغمز له ويضربه في كتفه ضرباً عنيفاً، ابنة عمه «ليزة» التي لم يرها مرة واحدة من قبل وهي امرأة أربعينية متحفظة وغنية، ابنها المصاب بورم في المخ وزوجته التي تزوجها حديثاً، أبناء عمه الآخرين — نظمي واسحق وجون وفهمي — الذين جعلوا يترددون على الشقة بفرط وعلى وجوههم اهتمام فائق، ابنة ابن عمه فهمي الحسناء (لولا أسنانها الكبيرة) — كريستين — التي حضرت مرة وكلمته كلمتين ثم رحلت ولم تعد، زوجات أبناء عمه مع تضاربهم وتلاقيهم، حتى عمال المصنع: فوجئ بيوم من الأيام طرق طارق متردد ومصمم على باب الشقة، خبّ للباب وفتحه، وجد بيكهام يتقدم حمدان ومعهما عم عطيتو متغبر في الجير ويربط نصف جلبابه السفلي حول وسطه، مد سامي يده بكيس عنب، رفضه في البدء لكن حمدان ما لبث أن دفعه أيضاً في يده، وتقدم عم عطيتو فأزجى اعتذارهم عن التأخر، ركبه دهش وتلعثم، استحى سامي وسأله وهو مطأطأ الرأس ما الأخبار يا دكتور؟، رده شاكراً شكراً يا أستاذ سامي، ضحك سامي في نفسه من لقب 'أستاذ'، وشكرهم ثانية ثم ودعهم، وأغلق الباب على عطيتو الذي انطلق وخبأ انطلاقه، وعلى حمدان الذي مضى بقامته الممشوقة المرتفعة، وعلى سامي المنحني كما هو كأنه يستكمل التحية ويبارح بجنبه كأنه به إزاء هيكل.

وذات مرة أخذه ابن عمه فهمي (وكان رجلاً سميناً أصلع أسمر بعينين زرقاوين) إلى حجرته وأغلق الباب وراءه وسأله في جدٍ:

– 'باقول لك ايه يا مارك يا ولدي، إحنا كلنا عايزين كدا بالظبط، تقول لي يا حبيبي، إيه يعني بالظبط حالته عمك دا ؟'

وعقد كفيه خلفه وأردف قبل أن ينطق:

– 'براحتك كدا يا مارك يا بابا، على راحتك خالص، بس نرسى على بر.'

فقال له مارك محاولاً وأد اندهاشه:

– 'يعني بصراحة كده، ما أظنش إن هو ها يعيش معانا تاني كتير — عشان ابقى قلت لحضرتك الصراحة يعني...'

فمط ابن عمه شفتيه ثم عضهما في اهتمام وتفهم، ثم سأله بمباشرة:

– 'يعني ها يعيش له قد إيه تاني كدا يعني ؟ سنة ؟'

– 'لا لا لا، كلها شهر شهرين للأسف الشديد.'

– 'أمم... شهر يا مارك يا ولدي ؟ أمم... — طب وعلى كدا رسيتو معاه على «كل حاجة»، ولا إيه، ولا لأ بدري يعني، ولا انت مش واخد بالك معايا يعني ؟'

هز مارك رأسه مستفهماً، فرناه ابن عمه بنظرة متحيرة مشاوراً نفسه إزاء فتح الموضوع.

– 'يعني اتفقتو خلاص، ولا إيه يعني، ولا إيه ما تصارحونا بالظبط ؟ — بص يا مارك يا ولدي، أنا عن نفسي كبرت، والمسيح كبرت ونفسي ارتاح بقى خلاص، وبنتي معايا اهوه فاضل لها سنة واحدة وتخلص، و... إنت عارف، هاه ؟ — إحنا كدا اتأخرنا عليهم بره ولا إيه — المهم، شوف اللي تشوفه يا مارك يا ولدي واحنا كدا معاك، كدا معاك. فاهمني خلاص ؟'

فهتف له مارك نافياً بسبابته:

– 'لا يا عمو! إنت غلطان — !'

غير أن الآخر قاطعه بصفة نهائية:

– 'غلطان ولا غلطانش، شوفوا نفسكو عاد، واحنا زي ما قلت لك: كدا معاك، كدا معاك، إحنا بس عايزين نريحوك انت والأرملة اللي مستنية جنازة جوزها بره دي... يالا بينا يا ولدي نروح نقضي لنا واجب بره، هاه'.

غير وفد من الطائفة الإنجيلية أتى كذلك، وإن استثنيت الفتيات من معارف روحية، نجد أبرز زيارة هي التي قام بها قس كنيسة الإصلاح — أبونا بيتر — بصحبة عدد من الخدام أبرزهم كذلك «الأخ ماجد»: شاب يكبره في السن، أمهق مثله، بيد أنه أحول، وأمتن شخصية وخلقاً بالإضافة للإيمان، خطب قبل فترة قصيرة خلت — على الرغم من عاهته نفس عاهة مارك سعد بالإضافة لحوّله — واحدة من أجمل فتيات الكنيسة. وقد جلس القس والخدام في الأنتريه بعد أن تلى القس صلوة عميقة لأجل المريض وقف الجميع معه فيها (حتى دلال التي لم تحرك شفتيها وكانت تحك في كوعها من حين لآخر)، وسرد القس بيتر حكاية مطولة عن شاب كان عاجزاً في الولايات المتحدة وشُفي بقوة الصلاة، كما اختلى الأخ ماجد بمارك في ركن وأنشأ يعظه عن بركة المرض وعن بركة خدمة المريض، مستعيناً في إرشاده ببعض المفاهيم المسيحية العامة، إذ اشتهر ذلك الأخ بحسن اختلاطه بخدام كنيسة مارجرجس وأيضاً بعدد من الرهبان.

فكر مارك في إيمان: أكثر من مرة تعده بالمجيء لكنها لا تلزم الوعد. كانت علاقته معها قد أصبحت «ودية»، أي مزيج من الصداقة والمقت والشهوة. بعد أن حدثها في الكافتريا ذلك اليوم جعلته ينزلق في دنيا أخرى، غير الدنيا القديمة التي كانت تصحبه فيها وغير الدنيا التي كان يشرد فيها عقله، حضته أن يندهش من نفسه بعد المقابلة الطويلة التي استغرقت أكثر من ساعة ونصف ساعة: أخذ يقول لنفسه بعدها كيف كنت أكره إيمان؟! كيف فكرت أنني أنتقم منها؟! وقد قاده هذا — دون وعي — إلى مزيد من حب الانتقام، فإيمان، على ما أعلنت له بجلاء، لم تك تفكر فيه قط في كل تلك الأيام التي شوته فيها نار الغضب والغيرة! وقالت له إيمان: 'إحنا ممكن نرجع أصحاب تاني... راجع نفسك وقل لي'. اعتلج قلبه وطفح عليه السرور، وعرفت إجابته من قبل أن يلفظها.

لكن ما وضح له بعدئذ أنها خائنة. فهي ما تزال تحب مارك «الآخر»، وبعمق. لا يفهم كيف تفعل ولكنها فعلاً تحبه: تخالطه طول النهار، وتجعله يأتي لكي ينتظرها، وأحياناً يقال أنهما يتلاقيان خارج الجامعة، كما أنه رآه مرة مع والدتها! أكأن الموضوع رسمي إذن؟ غير هذا فهي تخطئ

في نطق اسمه آناً، مرة قالت له: 'يا بيتر'، ومرة: 'يا جون'، فكأنها «تعزله» عن «الآخر» كي تخصه بالاسم، وبدلال الاسم.

إنه ما فتئ يحبها، هذا ما وضح له، وهذا محزن، فإيمان قد جلت ورحلت بعيداً ولن تعود، لم تبق له من حياة ودنيا غير أمل المشرط... أمل المشرط.

أما روحية، فكأنها من بعد أن خلّت عنه إيمان، قد حدست أن من حقها الحين أن تستأثر به، بل «تأكله أكلاً» إن أتيح لها كما تأكل القطة أبناءها. تربت عليه الآن، بوفرة، تبتسم في وجهه كأنه صار ملكاً مليكاً لها، تغيظه بأن تقرظه في عيون الناس، رح يا مارك، تعال يا مارك، الشقة العفنة (الأنيقة!) تطبق عليه بلا هوادة، عمه المقتول، الأقارب والجهات، يحب أسيوط وأسيوط حياته لكنه يكره المكان.

وذات مرة خيل إليه أنه حلم أنه يضاجع روحية. وقفز من النوم مرعوباً، فكأنه يضاجع أمه، لكن من الرأفة به أن عنّ له بعد ثوانٍ أنه لم يكن يضاجع روحية، إنما مدام رجاء، أو دلال، أو إيمان! وفعمه الحلم الجديد — الذي بزغ بعد الاستيقاظ — وشكر أنه لم يكن يضاجع روحية.

وقبيل وفاة عمه بيوم واحد (في ديسمبر) خرج ليحضر اجتماعاً لهيئة «DWAM» في جمعية خلاص النفوس. الجميع كان هناك، الجميع ممن يعرفهم ممن يرتقب أن يحضروا اجتماعاً مثل هذا. وكان الدكتور مجدي (واعظ شهير) هناك أيضاً وكذلك كان الأخ ماجد رغم أنه ليس بطبيب. ووعظ مندوب من الهيئة يعمل في مستشفى خاصة بمنوف عن أهداف DWAM ورؤيتها، وقال: ﴿فإن كل من يدعو باسم الرب يخلص. ولكن، كيف يَدعُون من لم يؤمنوا به؟ وكيف يؤمنون بمن لم يسمعوا به؟ وكيف يسمعون بلا مبشر؟﴾. ريمون عادل تحمس كثيراً للفكرة، جون نعمان قال أنه سيسافر، ميرال قالت أنها ستمضي للسودان، وائل دميان قطب في تمعن. واختير ميعاد لرحلة صغيرة إلى مستشفى منوف.

٣. الحرية

اختيار ميشيل أن يرتبط بسيلفيا لم يأت من فراغ، وإن من ناحية أخرى فقد يعد كذلك. لقد بحث الأمر طويلاً، وفككه كاملاً، وقارن وعاد وزاد حتى توصل إلى قراره هذا – الأخير – في النصف الثاني من ديسمبر. وما أن قر عزمه حتى تنهد في راحة، فقد رأى الحين – بغير التباس – أن عائقه الوحيد في الارتباط بخطيبته كان الموت ذاته في ثوب ملائكي... كان حباً للتدمير أو لعله كذلك.

كانت أزمته الكبيرة آنئذ هي إيمانه الأعمي بالإشارات، وبعد توبته فقد خال أن أدنى مصادفة هي رسالة. حينما يرى «أصدقاء السوء» فهذا لتذكيره بخطيته الماضية، وحينما يسمع تغريد طير فهو إيماءً لوجوب الصلاة، وأن يرى فتاة جميلة فهذه تجربة من عند الشيطان. مريم كانت من ضمن الإشارات الكاذبة. حينما شاهدها في الدير (دير المحرق) قال ها هي الواحدة، فأحبها مباشرة من قبل أن يحادثها. ثم حادثها، وضاق بتحفظها وحملقتها الباردة. مايكل شمشون – فتى كان يتسلى بالبيع داخل مكتبة الدير – قال له: 'سيبك منها يا خي دي مبوّمة!'، لكن كيف؟! مريم هي الواحدة... وجعل يتقرب منها لكنها لم تعطه أقل راحة. تكلمه بكلام غريب، ليست أنثى، اعتذر لها عن عدم حضوره جنازة أخيها رزيقي (الذي تبرع له بدمه) فقبلته في صمت، تتهرب منه كأنه وغد العجيب أن هذا هو الشعور الأوحد الذي يمت للأنثى الذي وجده فيها، تحمل كتب بستان الروح وطريق السماء وغيرها هذا جيد لكن . . . قال له مايكل شمشون أنها تعيش في قرية صغيرة تابعة للدير كل آلها نصارى، وأن على ثراء سكان القرية (إذ أن كثير من شبانها مهاجرون) لكن هذه العائلة ليست بالغنية على الإطلاق، فربها الأرضي ميت، وأخوها ها قد توفى، وخالها – الكافل الوحيد – في الكويت ورحل، ومريم الآن تعيش مع والدتها ووالدتها – التي تتكلم بصيغة المذكر – تعيش معها. انتعش وقال أيضاً هذه رسالة، وأن عليه أن «ينتشل» الأسرة الفقيرة من براثن الفاقة.

في هذا الوقت هاتفه أبوه يعلمه أنه قد خطب له.

لكنه كابر، وكلم أبونا باخوميوس – أب اعتراف الفتاة – وقال له أنه ينوي التقدم لخطبتها، لكنها لا تحدثه وهو يود التعرف على شخصيتها قبل الارتباط. الأب على تحفظه وتقلقه وافق وقال أنه سيكلمها بشرط الاحترام. جالسها مرات، ألفاها سعيدة بخطبتها، له ولطبيب، وأسكرته فرحتها هي فقد حسب أنه شفي. لكن مريم لا تتغير ولا تختلف: حجر في صورة إنسان.

كيف أنت هكذا يا مريم؟ لماذا لا تشعرين؟ أنا أحبك وأنت بعيدة؟! غيرك كان ليحبني ألف حب.

مريم.

إنه الحين كرهها حقيقة وليس لأنها كدرته، كره طبيعتها الثقيلة، وروحها البليدة، ونظراتها المحدقة العجيبة نظرة طفل ساذج، وملابسها على احتشامها لكنها مقيتة، إنها ليست ملابس أنثى، ومرضها الفتاك الذي نجاه الله منه، وكره كل ما فيها وإن عدها إنسانة طيبة مسكينة.

وقد تخيل مشاهد مضحكة طريفة – بالة أي شافية في آن واحد – مستخدماً ما عرفه في مريم وما عرفه في سيلفيا: رأى سيلفيا تزور مسكن أم رزيقي الذي غشاه مرتين، تستنكر سيلفيا «الكنب» و«الحصيرة» لكنها تقنع بحال أهل البيت الطيبين، تنظر لصور القديسين، وتقابل مريم فتقول لها: 'أنا جاية لكي عشان موضوع . . .' وتصمت سيلفيا، ثم تتابع: 'موضوع عاوزة فيه جواب فاصل: إنت في حاجة بينك وبين ميشيل، ولا لأ؟'، فتنظرها مريم بنظرة ملتهبة (عجيب أن النظرة ملتهبة) وتقول: 'هو مين حضرتك؟ !'، فتقول سيلفيا في ثقة: 'خطيبته'، تبكي مريم، لكنها «تمتثل لمشيئة الله» وتقول في «وداعة»: 'الدكتور ميشيل كان بيزورنا ويعطف علينا ربنا يباركه... وانت حضرتك ربنا يسعدكم مع بعض'، فيرق قلب سيلفيا وتحتضن مريم وتقول لها بخفوت: 'إحنا اصحاب، هاه، احنا بقينا اصحاب'. وسيلفيا إنسانة طيبة جداً، الآن هو يدرك هذا، وسيلفيا كاملة، وجميلة، وحبيبته.

وأخذ ميشيل نفساً عميقاً جداً من أمام ترعة الإبراهيمية ذلك المساء. ثم آب لسيارته المركونة إلى الطوار قبالة خلفية الجامعة ففتح للمسجون الصغير بالخلف وقال له:

– 'إمشي يالا. روح! روح يا بني شف لك حياة تانية!'.

وسيحل ميشيل عن أسيوط قبل نهاية الشهر وسيختفي، ولن يقدر لنا أن نراه مرة أخرى. سينغمس في عالم آخر جديد من أبونا مينا وبطة وسيلفيا وآل نجع حمادي، قبل أن يرحل نهائياً عن هذه البلاد...

٤. رواسب السفر (الإصحاحان الأخيران)

I. الأحد ١٤/١/٢٠٠٧م
غرفتي باستراحة الأطباء بنايلة خاتون
أسيوط

نائل سيرافيم أغلق محله!
منذ يومين وأنا سائر مع وسيم (الذي ارتاح من 'غلاثة' رأفت وشيرين عليه) شاهدت المكان مظلماً، وصادفنا وائل دميان مع سماحة (الذي صار مثل فرس النهر) فأخبرانا أن نائل أغلق لأن صاحب العمارة طلب زيادة في الإيجار.
الواحد لا يكاد يصدق، كنت أحب ذلك المخلوق الطريف!
شيء آخر حدث: ذهبت يوماً أيضاً مع وائل ومارك سعد إلى معرض للقراءة للجميع في قصر الثقافة في ميدان البنوك. لقد حضرت مرة سابقة معرضاً مماثلاً حينما كنت أبحث عن كتب في السينما. قلت ربما زيارة جديدة للمعرض من دون «سينما» قد تجعلني أخف. ويبدو أننا ذهبنا مبكراً لأن الجموع كانت تنتظر بالخارج ولم يسمح لنا أحد بالدخول بعد. وقابلنا جورج كامل زميلنا الذي لا أراه كثيراً. أين أنت يا وسيم؟ فقد كان جورج يعمل مندوباً في شركة للأدوية. ودردشت شويا مع جورج فإذا بي أمام إنسان مثقف، حكيم، متدين، أين كان من زمان؟! وتحدثنا عن أبونا متى المسكين، وقال جورج أن كذا كتاباً وعظة صدرا ضده من قبل البطريركية. كان هناك عدد ضخم من اللحى حوالينا. لحى ضخمة ولحى صغيرة والغريب أن ليس من علامات صلاة بنفس القد. وكان كلهم يعرف بعضهم بعضاً وكانوا يصافحون بعضهم بعضاً ويسألون عن أحوال بعضهم بعضاً. منهم، وهو الذي أخذت بالي منه، شاب نحيل دقيق القوام أبيض، ذو لحية مشعثة صغيرة، وقف أمامي مباشرة. لا أدري لما أنا بالذات، فهل لم يكن غيري في الكون ليقف أمامه مثل هذا الشخص؟! وجعل هذا

الشخص يتحدث في الدينيات، ويستشهد بآراء سيد قطب والشيخ كشك، كل ذلك وأنا مزنوق وجورج خلفي لا أكاد أتلمس سبيلاً للتنفس. وكاد بعضهم يتشاجر معه إذ اختلفوا في الدينيات، وصاح وهتف فيهم: 'يعني إيه وهابية ؟! حد فيكم يقدر يشرحها لي!'، ثم انفثأوا في التنافس على حجز كتب مقدمة ابن خلدون التي كانت بالعدد. خبطت في الشاب لأنهم كانوا يدفعونني فحدجني بنظرة مرعبة لكني اعتذرت فسكت. خيال أن أخشى من شخص أصغر مني سناً وأقل مني مقداراً، فهو — على ما وضح — من خريجي الصنايع!... ثم جاء حضرة المحافظ وقص الشريط ورأيت رجلاً ببالطو أنيق بجانبه (المحافظ أيضاً كان في بالطو أنيق) 'منشكح' جداً وهو يقول له: 'اتفضل يا محمد بيه'. وقص المحافظ الشريط لكن لم يسمحوا بعد بـ«الهجمة الكبيرة» لأن التليفزيون كان يصور مع المحافظ، الذي أخذ يتظاهر بقراءة بعض الكتب وهو يتكلم.

لكني فرحت جداً إذ أنني لأول مرة أرى محافظاً، أو مسئولاً كبيراً!

وكان الهجوم. واندفع الناس كالنسور التي تنقض على الفرائس على الكتب. كنا أمام القاعة (وهي ليست قاعة ولا شيء لكنها عبارة عن جدران ألومنيوم مفتوحة من أعلى لولا غطاء خفيف) الصغيرة بالخارج، وزقوني معهم فرطموني بأول منضدة. لكني رحت أدور معهم وألف في عند كي أدرك ماهية تلك الكتب التي انبرى الناس يتقاتلون لأجلها. في ثوان كانت مقدمات ابن خلدون قد نفذت، لكني لاحظت فقط أن غلافها بنفسجي، ثم كانت ثمة كتب دينية أخرى في «الفقه» نفذت بدورها. وأخذني جورج إلى ركن ومسك كتاباً ذا غلاف أصفر فقال لي: 'دا كتاب حلو، فيه مذكرات الشيخ مصطفى عبد الرازق' لكني سألته عمن هو ابن خلدون ؟ فقال لي: 'دا كان راجل كويس، كتب إن العرب دول أي كلام وحاجات زي كدا'. وجعلت أتفرج على الكتب. كانت هناك بعض العناوين الشائقة خاصة في الجيولوجيا والأرشفة! الأرشفة يعني من الأرشيف... كتب إيه دي يابوي ؟ كتب أغلبها عقيمة، أو هكذا

ظننت نظراً لضحالة ثقافتي. لكن دخلت للقاعة الأخرى حيث بادر مارك سعد. القاعة الأخرى كانت قاعة بجد وكانت فسيحة، كشقتين متصلتين في المساحة. آه، نسيت أن أقول أن بالخارج كانت هناك منضدة (لسبب ما شبهتها بالعربة الكارو) عليها أطنان من الكتب «الكسر»: عشرون كتاباً بخمسة جنيهات، يا بلاش. كأنها فاكهة بالوزن. المهم، في القاعة الأخرى بحثت عن مارك سعد لكني لم أجده في البداية. رأيت أن القاعة الكبيرة هي قاعة «الناس الكبار»، أي قاعة الكتب الباهظة والمهمة والناس الذين يملكون نقوداً. وكانت هناك موظفة سمينة أنشأ ابنها يلف ويدور في القاعة وهو ينفخ بالونة، وكان بكامل ملابس السهرة. كان ركن لدار الكتاب المقدس، وهذا ما أدهشني وطيب قلبي شيئاً، فها لنا مكان في مصر ومعارض مصر على الأقل. وكانت الكتب غالية جداً وأغلبها ليس تبع القراءة للجميع. رأيت بعض ترجمات لتشارلز ديكنز، وبعض قصص أجاثا كريستي، وأعمال لكتاب أجانب لم أسمع بهم قبلاً مثل يوجين يونيسكو وأناس مثل هذا. مارك وقف بجانب مجلد ما وقال: 'عارف مين ده؟ ده ديوان لنصر لوزا الأسيوطي'.

وزهقت بسرعة فآثرت العودة وحدي، لكن مارك رافقني. وفي الطريق حكى لي مارك أن الستافات يطاردونه وأنهم يهددونه إذا اختار قسم الأنف والأذن. وقال لي أن كعبول زاره في المنزل! وأن روحية — امرأة عمه وهو دوماً يذكرها باسمها مجرداً — ظننته صديقاً له أتي ليعزيه في عمه فطفقت تجاذبه الحديث وتسعد به. قال لي مارك أن كعبول إنسان طيب، وأنه يخاف عليه، وأنه أنقذه مرة من يد أحمد زيدان راغب ووائل طلعت (زميلنا الذي يشبه أحمد حلمي الممثل). اكتأبت في لحظتها من كلامه ورغبت عن سماعه وودت أن أفارقه. لماذا يا مارك يا ولدي تحكي لي هذا الكلام؟! أنا إنسان مريض من هذه الناحية فلا تكدرني!

قال لي مارك أيضاً أن عمه ترك له نصيبه في المصنع. وأنه هو لا يريده ويريد الجراحة. قلت له مواسياً: 'طب يا مارك، ما تختار

حاجة تانية غير الأنف والأذن، زي الجراحة العامة، طالما هما بيهددوك، إحنا كدا كدا بناخد نيابتنا ونمشي؟' فهزأ بكلامي وقال لي: 'إنت ما سمعتش عن النائب فادي ياك؟'.

تركته في نصف الطريق متحججاً أني سأذهب لزيارة قريب وطفت المدينة كلها وحدي حتى أقبل منتصف الليل.

في شارع المساحة اعترفت لنفسي باعتراف عجيب: قلت لنفسي أنني على أتم استعداد لو شاهدت مومساً في الشارع، أن أتبعها إلى منزلها حالاً الآن!

بحثت عن مومس هنا، هناك، في أي مكان، لم تأت المومس.

II. السبت ٢٠/١/٢٠٠٧م

نايلة خاتون

أسيوط

أكتب الآن هذه المذكرة بسبب الموضوع الذي رج الاستراحة رجاً أمس.

الإخوان أمسكوا آسر اليوم واحتجزوه في الدور الذي دوننا. كنت في غرفة رامي سعيد آنئذ، وكنت أحاول أن أمزح مع الشاب الذي يريد أن يتزوج. وبغتة صعد إلينا فضل الله قادماً من الخارج، وأنبأنا مروعاً أن آسر محتجز بالأسفل. جورج باخوم كان أول من هب من موضعه، وصرخ بشتيمة نابية وشخر! ثم تبعنا جورج إلى أسفل ففوجئنا بأن آسر محبوس في غرفة عصام! عصام صاحبنا! وكاد جورج يكسر الباب حتى فتح له الأخ عبد المتين فما أن رآه حتى تراجع قليلاً، وقال كأنه يطمئننا: 'ما فيش حاجة يا جماعة، إحنا بندردش مع بعض شوية بس'. جورج اقتحم المكان وشد آسر وكان جالساً على كرسي ثم رحل به كالإعصار.

سألنا بعد هذا آسر عما حدث كان ممتقعاً جداً وقال أن جميعه بسبب البنت التي كان يواعدها فقد أخبرت بلال، الذي اتضح أنه

«متدرب» جديد في جماعة الإخوان، وبلال أخبر باقيهم. ثربنا آسر على أفعاله لكنه طلب منا أن نتركه لحاله وأغلق الباب. لم يبق معه غير إبرام الذي كان يسكن معه في تلك الفترة.
بعد شوية خرج إبرام وقال لنا أن آسر يبكي. دخلنا عليه الحجرة وجدناه يبكي فعلاً! كان يحب تلك الفتاة كما بان. وأخذه جورج باخوم في حضنه الكبير وأخذ يساهيه ويلاهيه لكن آسر لم يقطع العياط.
إنـي الآن متـأثر بسـبب آسـر، وأشـعر بـه. أحـس أننـي مليـئ بالأحاسيس منذ صدمت نفسي، وأريد أن أحتوي الناس جميعاً وأحبهم!
أفكر أن أقرأ الشعر، فلعل الشعر يواسيني.
حاولت العودة لقراءة أبونا تادرس لكني حُجزت. أتذكر القصة التي كانت تحكى لنا عن قديسة لا أذكر اسمها أن الملاك كان يحجزها عن دخول الكنيسة بسبب خطاياها إلى أن تابت. الآن أنا كذلك... أنا شيطان!
اليوم كلنا جالسنا آسر. ما يزال ممتقع المحيا متأثراً. رفض أن يستمع للأغاني. جلس ثانياً ساقاً تحته وجعل يعب من الشاي الذي يحبه. رفض أيضاً أن يسك الشباك، أظن أن على أمل أن يشاهد حبيبته.
الجو العام شجي وداكن. تشاجر مينا موريس مع عصام وعبثاً حاول عصام الاعتذار. لكن عصام كان حاضراً! قال عصام أنه آثر أن تكون القعدة في حجرته على أن تكون في مكان آخر، لأنه يحب آسر ويبغي مصلحته وحمايته. طلع عصام أكثر من مرة وفي النهاية أنهينا الموضوع ودياً. عانق مينا عصام وعانق عصام مينا. لكن لا أظن أنهما سيصيرا صديقين مرة أخرى. شيء محبط أن تنتهي الصداقة بهذا الشكل. مثل «قدري» الذي كنا نظن أنه يحبنا لكنه هرب ولم نجده. وكلنا كنا نحب عصام الآن لا نطيقه، مع احتمال أنه ما برح نقياً من الداخل.

أمر آخر. النيابات تحضر من الحين. عصام نفسه ممتعض أنه لن يدرك نيابة العظام. رامي سعيد لديه أمل أنه سيقبل في العظام. أيمن سليم يتشوف للتخدير. جورج ملقي يفكر في أكاديمية الشرطة. مينا موريس ينعي قانون التكليف الجديد. بلغنا خبر أن قانون التكليف الجديد يدعى «نظام الدوران»، فيه يدور الطبيب على أربع أقسام: الوحدات الريفية، ومراكز رعاية الأمومة والطفولة، وتنظيم الأسرة، والإسعاف تقريباً. هذا لا يصلح وهذا خراب بيوت.

اليوم أيضاً أخذني وسيم هلال إلى قمة كافتريا قصر الشوق وجعل يحكي طويلاً عن الأكاديمية الحربية. في أغلب الحديث شردت. قال أن الحربية أفضل من الشرطة، وأنهم أناس محترمون، وأنهم غير متعصبين. قال –وهو يشرب من «الشاي» –أن لا مستقبل للطبيب سوى شيء من هذا القبيل. فالمرتبات ضعيفة، والعيشة غالية، ووسيم يريد المال. حكى كثيراً وطويلاً، وقال أنه سيقدم في الحربية. واشترى حذاءً وطفق طوال اليوم يسألني ما رأيي فيه. قلت له ألف مرة أنه حذاء جيد لكنه لا يستمع لكلامي. أحب وسيم هذا، فهو طيب ووفي.

الآن بالليل بعد رحيل ميشيل وخلوتي لنفسي الدنيا ظلام مرة أخرى. ميشيل بالمناسبة نذل، فهو لا يهاتفني، لا أدري لما؟ فألم نكن أصدقاء؟ أم لعله انطلق وتركنا في الجحيم الذين نحن فيه؟ هل أسيوط جحيم؟

ماذا سيحدث غداً؟ وبعد غدٍ؟ وبعده؟ وبعده؟ هل سيحدث شيء في حياة البني آدم يستحق؟ من زواج حقير لنسل حقير لموت ثم حساب؟

الإنسان بدون رسالة أشبه بالآنية الخاوية.

بعد هذا مزق هاني مذكراته ثم أحرق الأشلاء المتبقية. لقد تأخر كثيراً عن إتيان هذه الخطوة في الواقع.

5. الانتحار

I. لم يحدث كثيرٌ قبل أن يكتهل فبراير. تبودلت «الأوتوجرافات»، خط كلٌ للآخر ملحوظات ساخرة أو شجية، تلوا ذكريات مطولة، وختموا بمذكرات مقتضبة من أمثال: 'تذكر أخوك المجنون «فلان الفلاني»'، بكى فضل الله وقالوا كيف فضل الله مرهف الحس!، ريمون عادل أخذ يفكر في التخصص كطبيب أطفال إذ أنه يحب الأطفال ويحب سيكولوجيتهم، مينا موريس بدا دوماً منزعجاً بسبب قانون التكليف الجديد، آسر للعجب ارتد كما كان: أغاني ونكات وسكس، تحاشى ذكر موضوع شيماء وكان يهز منكبيه استهانة، تحلقه أصحابه وابتاع محمول سامح سيف الضخم، اتضح أن سامح سيف من أقارب هاني البعيدين!، نال السكس من وسيم هوساً: لأول مرة يشاهد مثل تلك الأفلام، وكان يغلق على نفسه باب حجرة فضل الله وإبراهيم ويتفرج في انبهار، وحضر أخو جورج عبد الملاك وكان صبياً هزيلاً، قالوا كالعادة أن أخاه يأكل أكله، جورج باخوم أنهى مسابقة دينية وربح، هاني طلعت اشترى فوق الأوتوجراف الخفيف كتابين مقدسين: واحداً بالعربية والآخر بالإنجليزية، عصام خفت قدمه من الشقة، تعطل السخان الذي كانوا يحضرون عليه الأكل ونكصوا عن ابتياع واحد جديد، وبدأت حملة النيابات في النصف الثاني من الشهر: كتب رامي العظام فقط، وأيمن سليم رتب كل التخصصات، بعض المسيحيين غير المتفوقين كتب في عناد، مينا موريس يضحك: 'ها اكتب مخ وأعصاب!'، بلغهم أن مارك سعد يجاهد ضد الستافات، شجعوه في سرهم وعلنهم، الأول والثاني والخامس على الدفعة اختاروا العظام، قسم العظام مطمح الصفوة، ليس للخامس — الملتحي — تثبيت لكنه ضحى بكله من أجل المجال الذي يحبه، الشيخ عبد المتين في الباثولوجيا الإكلينيكية وله تثبيت، عثمان في الجراحة العامة، عصام كتب العظام على أمل لكن من المرتقب الجراحة العامة أيضاً بلا تثبيت، وائل طلعت ابن أخت الدكتور طلعت مرسي في جراحة القلب والصدر، أحمد فروجة (وهو زميل لهم ظريف قصير بشعر أسود لامع) في المسالك مع عبد الله يوسف، ياسين شريك عصام في الحجرة في الباطنة العامة مع احتمال تثبيت،

سوزي عطية أيضاً في الباطنة العامة لأن لها ترتيب، خالد نشأت الأول على النصارى في القلب، محمد فضل في العصبية، سمير حشمت كتب كل النيابات مع أن ترتيبه يتعدى الثلاثمئة، بعد ذلك فاحت أخبار الارتباطات: ريموندا رمزي من مهندس، زميلهم جون أنور تزوج فجأة!، وائل دميان قال: 'طب انا محتار دلوقتي أشتري له إيه هدية! ؟ ده عنده كل حاجة في البيت!'، بيتر سميح تقدم ورفض وتعجب كيف يرفض وهو بهذه القوة، مينا عبد المسيح سيهاجر إلى كندا ترافقه فتاة من الدفعة الأصغر بعام، لورا شمشون تزوجت بالفعل في الأسكندرية، جينا ميلاد ستتزوج من سمير غطاس، مريم شنودة خطبت مرتين أخريين وفلتت، وائل صموئيل الذي كان يحبها مات...

وكان هاني يرتب دولابه ذات ظهيرة حين درأ عليه مينا موريس كالفاتح وهتف:

– 'إنت ما سمعتش ؟! ميشيل جورج مسافر أمريكا!'

سقط منه كيلوت أبيض نظراً للخضة، على أنه ما تلعثم أن انحنى فالتقطه وسأل بتعجب:

– 'يا سلام ؟ !'

فتقدم مينا للداخل وهو يقول في غبطة عارمة لاحتكاره «السر»:

– 'عارف الواد مايكل عجيب—الواد صاحبي ده اللي اكبر مننا بسنة ؟ لسه كان مقابلني في الكلية ما لهوش حاجة، قال لي إن كل نجع حمادي عارفة. أتاريه «الأخ» كان جاييله الجواب الأول من شهر ٥ و«مغطي» ع الموضوع!'

وضرب كفاً بكف:

– 'يا سلام يا خي! آدي اللي كنا فاكرينه موسى طلع فرعون!'

ثم استدرك:

– 'لكن والله الواحد بقي يصدق ويآمن بربنا دلوقتي، بص ازاي صلّحه ونقاه قبل ما يسفره. يا سبحان الله يا خي!'.

لبث هاني طول اليوم يفكر في أمر رفيقه السابق. غبطه على سعادته وتدينه وسفره، وغطاه الهم بصدد حالته هو الحالية والمستقبلية. كان يفكر

في العودة للكنيسة مرة أخرى، لكن ما تلبث الفكرة أن تبرز حتى تقابلها حمم من نيران الغضب والثورة... لن يقبل بأن يعيش ذليلاً مقهوراً، ولن يأخذ مأخذ أجداده في الخنوع والاستسلام لوهم مدمر... ولكن أين الطريق ؟... وهل العالم واسع ؟... العالم واسع بالخارج لكن هنا في ضيق ثقب الإبرة. وومضت في ذاكرته آية بصدد ثقب الإبرة فهزأ من نفسه.

وقام هاني فبحث عن مذكراته لكنه تذكر أنه مزقها.

II. وبلغهم أن نقابة الإطباء، بالاستعانة بشركة أدوية كبيرة، تنظمان حفلة ضخمة في نادي الجيش للخريجين. تولى سمير حشمت الدعاية، وطاف عليهم ووزع الدعوات، كان يبدو في أناقته وطلاوته وأديمه الممسوح اللامع، وقصر قامته، وسعيه المحموم، كأنه دمية خشبية مسحورة بقدميها زنبلكات. وتناقشوا في الاستراحة فتوافقوا على ضرورة الذهاب. رامي سعيد كان آخذ القرار نيابة عنهم ولكنهم وافقوه. وتصرف كلٌ فاستحضر بدلته من داره: سافر فضل الله وإبراهيم وإبرام وجورج ملقي إلى القوصية وعادوا في نفس اليوم، وريمون عادل كانت بصحبته حلته منذ آن حفلة خلاص النفوس، آسر استلف بدلة من بيتر لطفي، والأسوانلية وهاني ومينا موريس تسلموا بدلهم عن طريق سائقي القطارات. وفي اليوم الذي تهيأ فيه هاني لاستلام حلته مضى للمحطة وانقبضت نفسه من مناظر الناس المتعلقين بالعربات: أغلبهم كان يتهرب من قطع تذكرة، بأحذية رديئة وملابس متسخة متقبضة، والصوف الرخيص الذي ذكره بنفسه، الملامح غير الوسيمة هو أيضاً، وكره نفسه وكره الناس وكره البلد لكنه تسلم بدلته وشكر سائق القطار، الذي لم يسلمه حاجته إلا بعدما عاين بطاقة الرقم القومي.

وفي صباح اليوم المحدد (وكان جمعة)، خرجوا من الاستراحة في نحو التاسعة فرادى وزرافات. على أن جلهم كان في مجموعات. هبط وسيم هلال ببدلته الجديدة وكرافتته القرمزية المقلمة بالأسود الحالك وكان أكملهم لباساً، وهاني طلعت يعوم في حلة واسعة سوداء (جميعهم تقريباً

كان في الأسود)، سامي حنس جاء من ديروط وبات معهم ليلتها وأخرهم فقد ارتد قافلاً للاستراحة كي يضبط كرافتته، القوصاوية، ومينا موريس، والأسوانلية في النهاية، والمسلمين على الضفة الأخرى من الشارع مع بعض التحيات. وركبوا تاكسيات كلٌ يحاول الحفاظ على تسريحة شعره وبهاء زيه، وركب وسيم وهاني ومينا موريس في تاكسي منفصل، أما آسر وبيتر لطفي وجرجس ثروت فأخذوها مشياً.

وبلغوا نادي الجيش فألفوا بعضاً هناك خاصة من المجهزين للحفل وبعض الإخوان، يرتدون بذلاتهم ببناطيلها القصيرة ولحاهم تغطي فوق رابطات العنق. وكان النادي كبيراً بالغ الاتساع، ففقد هاني ووسيم ومينا موريس طريقهم وسط الخضرة والفراغ، وكانت ثمة بعض الممرات الفسيحة المتقاطعة، وكثير من المباني المترافقة والقاعات، وكان الجو صحواً لذيذاً والسماء صافية في ذلك الوقت، وسألوا عاملاً عن الطريق فأشار لهم نحو اتجاه بعيد وقال أن هناك الحفل. وتبعوا بضع فتيات محجبات ميزوهن أنهن من دفعتهن فقدنهن إلى القاعة. وشعر هاني بسعادة من التغيير ومن الخضرة ومن وجوده وسط أصحابه، لكن على أمتار من القاعة وصل إليهم ترتيل إسلامي. وقفوا دون القاعة وقال مينا موريس:

— 'ماعلهش، ما فيهاش حاجة يعني، أكيد دول مشغلينه بس لغاية ما نيجي...'

احمر وجه هاني وقال أنه سينتظر إلى حين ابتداء الحفل.

وكانت القاعة تقع بجوار الجانب المطل على النيل من النادي، وإلى حين الانتهاء من التراتيل الدينية وتلاوة القرآن لجأ المسيحيون (الذين تراكموا بالخارج تدريجياً) مع بعض المسلمين غير المتدينين إلى ذلك الجانب، فتحلقوا المناضد، وجابوا بحذاء النيل. ياسين وشاب آخر يدعى محمد فوزي جعلوا يستكشفون النادي. حتى بدأت الحفلة وخرج أحد الملتحين من الداخل يدعوهم للدخول. فدخلوا فاقتعدوا الكراسي وكانت الكراسي إلى ترابيزات كبيرة في القاعة مفروشة بالمشمع وعليها بعض النشرات والمنشورات. وكانت القاعة متوسطة الاتساع، مظلمة شيئاً ما،

تتصدرها ترابيزة طويلة بالعرض إليها سيجلس أمين عام النقابة والنقيب مع بعض كبار الموظفين في شركة الأدوية منظمة الحفل. وجلس المسيحيون جلهم في الجانب الأيمن إلى أن لمسوا زيادة الإقبال على هذا الجانب من الفتيات المسلمات، فهاجروا إلى الجانب المقابل. وبعيداً في المقدمة راحت زمرة من الشبان ترتل تراتيلاً إسلامية مرة أخرى، كل منهم قارعاً على دفٍ، ومسك هاني طلعت أحد المنشورات الموزعة على الترابيزة فمزقه في غضب، ومسكه المسيحيون وأخذوا يهمسون له في رعب: 'إهدا الله يخليك! ها تدبحنا هنا!'، وكان هاني طلعت أول مغادري القاعة.

لاحقاً قيل: الفارق بين هاني طلعت ومارجرجس أن الأخير مزق المنشور، ثم تعذب سبع سنوات، أما هاني فقد تعذب سبع سنوات أولاً (في دراسة الطب)، ثم مزق المنشور.

وفي دقائق كان كل المسيحيين قد انسحبوا للخارج، حيث الهواء الطلق. استهجنوا سلوك النقابة، وشركة الأدوية، واستوقفت سوزي عطية سمير حشمت وزعقت به:

– 'إيه هو ده ؟!'

لكنه كان عابساً فقال لها:

– 'اللي مش عاجبه يروح'.

ولم يكذب هاني طلعت خبراً، فقد دار على عقبيه على نية القفول للاستراحة، لكن إبرام مسكه من مرفقه ثم ما عتم أن ارتفقه هو وهو يقوده ناحية النيل، وقال له:

– 'أنا معاك في كل اللي انت عملته. لكن إن مشيت دلوقتي يبقى انت ضعيف. خليك، وكلنا خلينا هنا زي الشوكة في حلقهم، ولما ييجي وقت التكريم، ها نهيص لبعض.'

وقدم مينا موريس من الجهة المقابلة مع سامي حنس، فقال لهم بعدها:

– ’إنتو عارفين إن نقابة الأطباء بقت كلها دقون دلوقتي ؟ مايكل عجيب حكى لي. قال إنه لما راح يستخرج كارنيه النقابة اتخض وهو داخل‘.

وأتى آسر وصحبه متأخراً جداً، ولما وجد الحال على هذه الصورة، وثب فجلس على مرتفع حجري عن كثب من أصص مزروعة، ووقفت إليه سوزي التي كانت من معجبينه، وقد راحت تناكفه وهو يمازحها ويغازلها وبين كل مقطع ومقطع من كلماته كان يغني ويشدو. وقد أطال في أغنية ’خدك المياس يا عمري‘ فغناها كاملة تقريباً، مع جرجس ثروت الذي كان يهز رأسه في نغم وهو يغني معه.

وخرج عدد لا يستهان به من المسلمين أيضاً، وانبروا يذرعون الممرات بين الحدائق. وأقبل أحمد كحلاوي الأول على الدفعة (وهو شاب نبيل المنظر متين الجسمان ذو شعر أسود ناعم) وزوجته أمل عصفور فلفتا الأنظار. وجعل كعبول يتحدث مع الفتيات ويهزر. وخرج الشيخ عبد المتين وصابر يعقوب وأحمد موسى بلحاهم الطويلة ونظروا لـ«الخارجين» ثم عادوا للداخل.

وسارت ريموندا رمزي وخطيبها الهويني على الشاطئ المسور وكانت تعقد ذراعيها ومبسوطة، أما شلة الأسايطة الأرثوذكس بقيادة جرجس إدوارد وشنودة لمعي وغيرهم، فقد انتبذوا ترابيزتين مع الفتيات وأخذوا يقهقهون عالياً، وكانت جينا ميلاد إلى جانب خطيبها سمير غطاس، إيمان مختار كانت مع خطيبها مارك رفعت (خطبا رسمياً) بدورهما، لكنا أخذا جانباً بعيداً. وكان آسر وجرجس وبيتر لطفي وحربي (الذي ظهر وسيماً جداً في بدلته الـ«بيير كردان») يقفون إلى الحاجز الحجري الذي يفصل النادي عن النيل يتطلعون إلى السطح الأزرق والسماء الصافية، ويستنشقون الهواء المنعش، فقال بيتر:

– ’كل دفعتنا اتجوزت بعض!‘

فرد عليه آسر وهو يقفز ليقف على الحاجز:

– ’ليه ؟ شواذ ؟!‘

قهقهوا. وانبرى آسر يغني متهكماً وهو يزن نفسه: ’إنت مشيتي وبكيت المعزة‘، ثم بغتة لم يعلم أحد هل زل أم هل ألقى بنفسه، فقد سقط في النيل.

وحينما أخرجه حربي بعدئذٍ وأرقده على الأرض الصلدة وجعل الجميع يوبخه: ’برضه كده يا آسر ؟! برضه كده حرام عليك نفسك!‘، حملق فيهم وقال:

– ’إزاي يا جماعة تفكروا إني ممكن أعمل حاجة زي كده ؟!... أنا–– أنا ما رميتش نفسي!‘

بيد أن أحداً لم يستمع إليه، فعاد يهتف:

– ’أنا يا جماعة ما انتحرتش!‘

أُخذ نفيه هذا على أنه تأكيد. وتساءلت سوزي ورانيا في قلق إلا أن أياً من الشبان لم يحر رداً. وركع بجواره هاني وبجانبه مينا موريس وكان ريمون عادل مع جورج باخوم ورامي سعيد مقبلين من بعد، وكانت الشمس قوية تعلوهم، وتقاطر القوم. وبدا أن آسر المبلل بالكامل يكظم ثورته بينما يمسح حربي – الجاثي جواره – على جبهته.

وأنشأت إيمان مختار تلتقط بعض الصور مع خطيبها الجديد، سمينة، وسعيدة. تكفلت مريم شنودة بالتصوير. والتصقت إيمان بذراع خطيبها في امتنان وفي سعادة، وقد وقفا حيال باب القاعة حيثما كان آسر جالساً قبل دقائق. هاني طلعت وقف بالخلف مع مارك سعد وهاني بهنا الذي جاء من أسوان. كان هاني بهنا شاباً قصيراً في الأصل من كوم امبو، يشبه العلماء في انحناء نظاراته وميل رقبته ونظرته العلوية. مارك عاني كيلا يحول ناظريه نحو إيمان ونحو «الآخر». شعر بأنه يداس بالنعال مع كل ومضة من ومضات الفلاش... يلطم لطمة عنيفة تخبره عن مقدار كرامته وقدره. فهي الآن «إنسانة كاملة»، قوية، جائرة، أنثى ذات شخصية وكيان كبير، فإنها هي بطلة القصة وليس هو الأمهق الباهت الذي لا طعم له ولا لون.

ثم تبدى كعبول في ملابسه السوداء ومعه أحمد زيدان، ودنوا منه وفي طريقهما انضم إليهما وائل طلعت (وهو شاب قصير بشعر مفلفل وعوينات يشبه الممثل أحمد حلمي)، فقال كعبول لمارك في دلالة بعد أن صافح الآخرين:

— 'ممكن لحظة يا مارك ؟'

فزايل مارك زميليه مستأذناً فأخذه ثلاثتهم إلى ركن قصي تحت شجرة لبخ. وسأله أحمد زيدان بقلق:

— 'إنت كتبت إيه في النيابات يا مارك ؟'

ضاقت عيناه وأجاب في نفاذ صبر ونفور:

— 'أنف وأذن.'

حملقت فيه أعين من نار. وربت كعبول على صدره وقال للحين في نبرة لينة:

— 'مش احنا قلنا خلاص ؟... مش فهمناك، ووعيناك، وشرحنا لك الوضع، وقلت خلاص ؟... هاه ؟ إيه امال يا عم ؟ إنت ها تزعلنا منك ليه ؟'

كان يسمع تغريد العصافير.

وتدخل أحمد زيدان في عصبية:

— 'سيبه سيبه! إحنا ها نعرف نربيه ازاي كويس! إنت فاكرنا زي أي حد ؟! ينعل ميتينك يا أخي! إصحى! فوق!'

فدفعه كعبول بعيداً بكتفه فشتمه:

— 'أمك يا مصطفى! إنت إيه ؟ البودي جارد بتاعه ؟! أديني سايبه لك تركبه زي ما انت عاوز.'

وكاد يرحل بالفعل إلا أنه استدار مرة أخرى ثم — ودون إنذار — دور قبضته فضرب مارك في صدره. تأوه مارك وسعل ووضع يده على موضع الضربة بينما تشاجر كعبول مع أحمد زيدان. وكان شجارهما قوياً بحيث أنه لفت الأنظار البعيدة.

وحين أذن ميعاد التكريم تجمهر الجميع داخل القاعة. كلهم صفق لأحمد كحلاوي وقال ريمون عادل وسامي حنس: 'يستاهل!'، وعثمان صفق له الجميع أيضاً، وكذلك فرج، ومحمود أحمد علي. لكن المسيحيين

تريثوا حتى آن أول نداء لأحدهم وكان خالد نشأت (وترتيبه الواحد والتسعون)، فأغرقوا الدنيا هيصة وضجيجاً. حتى مينا موريس الذي كان من أواخر الدفعة — 'أوائل الدفعة من تحت' على حد تعبيره — حاز على تصفيق ممتاز في النهاية. لكن وجد أن ثمة ثلاثة مفقودين رئيسيين: آسر عطالله (بألف واحدة)، وهاني طلعت، ومارك سعد. اختفوا جميعاً في آن غامض لم يسع أحد أن يتذكره. ونوديت أسماؤهم لكن لم يخرج غير التصفيق الحار من زملائهم الأوفياء.

٦. هاني يستفيق أخيراً

وكان صباحاً دنو انقضاء فبراير حتى أن كثيراً لم شيله ورتب حاجياته استعداداً للرحيل. وجاء رامي سعيد أخيراً من القاهرة ومعه حقيبة كاملة ملأى بمظاريف التقديم في تكليف الوزارة وكان قد كلف بالمهمة مقابل تذكرتي السفر. تقاطروا على حجرته. لكن جورج باخوم نظم المرور كأنهم على عتبة مزار مقدس، هذا غير سلوك رامي المتغطرس حيث أنه جلس على فراشه واضعاً قدماً فوق الأخرى كأنه المندوب السامي عن وزارة الصحة، وجعل ينادي بالاسم من قائمة طويلة مطوية كان يضعها في حافظته.

وأثار التكليف زوابع الحيرة بين المقدمين. قال مينا موريس أنه يفكر في الذهاب للأماكن السياحية مثل الغردقة أو شرم الشيخ أو مرسى علم:

– 'هناك الواحد يا خي بياخد له في الشهر ع الأقل ألفين، ده زائد الـ«private» [٤٠] لو جالك سياح وعالجتهم، يعني العملية كلها ممكن تطلع منه بـ٣ أو ٤ آلاف! أنا إيه اللي يرميني ع الصحة يلعن أبو الصحة ؟!'

أما هاني بهنا – وأغلب الباقين في الحقيقة – فقال أنه يؤثر بلده، وقال هاني وهو يميل برأسه ويرمق محدثه لأعلى كعادته: 'دراو فيها شغل من نار'. وسيم هلال أحضر ملف التقديم للأكاديمية الحربية وراح يعيد ويزيد ويثني على الأكاديمية ومستقبلها مرة أخرى، على الرغم من ذلك جورج ملقي تكاسل عن الاشتراك في أكاديمية الشرطة.

وجلس هاني في حجرته مراراً يفكر. كان لديه ميل غريب لحسن الحظ لم يصارح به أحداً وإلا لذاق من «برميل» الهزء إلى الغرق. ما برح يؤمن بالإشارات، مثل زميله الذي رحل، لكن الفارق بينه وبين ميشيل أن الأخير كان موقناً من «إيجابية» خط سيره، عكس هاني الذي كان يرى أن الرسائل التي تنهال عليه شريرة جداً. ولكن ينبغي طاعتها في نهاية الأمر، فهو ليس بندٍ لمرسل الرسائل وها الزمان قد كشف السجف – سجف الغفلة – عن عينيه ليدرك هذا. فوق هذا كانت لديه نزعة للعزلة والهلاك

---

[٤٠] الشغل الخاص.

إن أمكن، سيعتزل العالم كله كالرهبان، وعكس الرهبان. وجلس في مساء ذلك اليوم (الاثنين ٢٦ فبراير ٢٠٠٧، وهو اليوم الذي ستتغير فيه حياته) يمعن في الأمر ويتذكر محادثة جرت بينه وبين وائل دميان قال فيها الأخير أنه ينوي السفر للسودان أو كينيا للخدمة تبع DWAM. يا لجسارة وائل كيف يخطو تلك الخطوة ؟! وتذكر اسم أفيون فرقصت أمعاؤه طرباً وخزياً. وائل أفيون حدد مصيره بيسر بالغ وهو الذائع عنه التردد، ألا يعسى به – هاني – أن يرتب الخطوة دون تقلقل ؟ وقام هاني في ذلك اليوم فألصق الطوابع – طوابع التقديم – وكانت أول رغبة هي الوادي الجديد. وما أن فعل كأن لدغته حية فتعثر في بكاء طويل.

وانطلق من الاستراحة وحيداً يهيم كمن سقط داره. قال أشياء كثيرة لنفسه في ذلك المساء، قال أن الجو في الوادي الجديد يساعد على العزلة والروحانية، وقال أنه دمر نفسه بيده، وقال أنها خطوة «ربانية» مرحة كعنق الزجاجة يخلق به أن يجتازها كي يشتد عوده وينضج عن الوهم والسوداوية، وتساءل كيف يزجي الخبر لآله. وطاف في الشوارع في شجى يبكي المدينة التي اتضح له الآن أنه يحبها. قصر الشوق ونسكافيه، تويتي وباتيسيا، المنفذ، النميس والجمهورية، كلها أماكن عشقها طول إقامته، أحب الأسماء الكبيرة في أسيوط: عصام الشريف، البرنس، العجار، عبد الرازق حسن، السمالوطي، لأنه ألف العيشة وألف الناس. مكتبة بيت الأنبا باخوميوس على عهد التدين والروحانية، وفي الكورنيش تقطن فتاة أحبها سراً طول النصف الأول من الكلية، النصارى والمسلمين أحبهم على تناقضهم وتلاقيهم، وجولات وسيم، وذكريات جورج حنا، كله إلى فناء.

وقد اختار لجولته شبه الأخيرة درب النميس والمحافظة لأنه طريقه المفضل حينما يكون وحيداً. سار حذاء كنيسة الملاك، ومحل مستحضرات التجميل «جولييت» الذي دله عليه مينا موريس لحذقه في تلك الشئون، ثم النساجون الشرقيون وكافتريا «تمر حنة»، ثم نادي الواي، حتى جاء أمام مدخل المحافظة كي يلجه لكنه تخدر مكانه. كانت الفتاة «الشهية» التي تتراءى له من حين لآخر مقبلة من جهة الكورنيش. قال وهو ينتظرها وقد تشدد وقوّى قلبه: فتاة ممتلئة رابية، ذات جفون

ملونة حمراء، وشفتين حمراوين، ووجنتين حمراوين، وبلوزة حمراء، وتشبه الصينيين الذين يعيشون بعد هذه البحار الشاسعة، وكل ما فيها يهتز وهي تمشي. وكان يلبس بلوفر حديثاً بعض الشيء مقارنة بباقي زيه له رقبة «سبعة» تبرز منها ياقة القميص، فجعل يتظاهر بأنه ينتظر شخصاً ما من ناحية المحافظة (حيث يسكن سميح صفوت) وهو يضم ياقة هذا القميص. وكانت الفتاة — أو المرأة بالأحرى — تحمل كيساً مترعاً بالبضاعة: اسطوانات لانشون، وعلب جبن أبيض، وخبز فينو، كأنها على أهبة إقامة حفلة، وكانت تتمشى باتئاد يكاد يغدو رتابة، وهي تنظر حولها كأنها سائحة. وتريث الشاب حتى مرت فسبقت فانبرى يتتبعها بحذر وخشية، خشية مريئة كأنه يجوب بلاداً وهو يمشي في أثرها، ولعل «صينيتها» قد أوحت له بهذا الترادف فتذكر أيضاً أن المرة الوحيدة التي 'عاكس' فيها امرأة من قبل كانت منذ أعوام مع رأفت وسامي حنس، حيث قطعوا شارع الجمهورية كله خلف امرأة عربية فاتنة اتضح بعدئذ أنها زوجة نائب يمني بالمستشفى الجامعي. وسرعان ما انحرفت «القطعة الشهية» في أحد التفرعات، ثم وقفت أمام سوبر ماركت وابتاعت علبة سمن كبيرة وبسكويت أيضاً، وحولت وجهها ناحيته خطفاً لكن بدا أنها لم تنتبه أو لم تأبه. سخر هاني من نفسه لكنه أكمل. ودارت ولفت به ربما لتأمن جانبه، وشاف نفراً من الأطفال — أحدهم أعور — يلعب الكرة في مقتبل شارع ضيق غشته فتبعها، حتى نفذت أخيراً من خلال بوابة فسيحة لعمارة شماء، حينئذ توقف المطارِد. ومكث موضعه وقد شمله الإحساس أن الأمر لم ينته بعد، بيد أنه انتظر دقيقة، دقيقتين، خمساً، وربع ساعة، واطمأن أن الأطفال لا يحدجونه بنظرات استعلامية، إلى أن سئم فقرر المغادرة. وقتئذ طلت له من شرفة بالطابق الثالث ونادته بصوت خافت مسموع:

— 'هس، هس. إنت... إطلع'.

صعد وبقلبه ابتهاج عظيم كأنه عبر امتحان. وفي الدور الثالث كانت تنتظره فارجة الباب. وما أن دخل حتى انبرى يستجلي الشقة. كانت صغيرة، أنيقة، حسنة الإضاءة، وكانت مزدحمة ذلك الوقت. أربعة رجال

جلسوا في الأنتريه يقدحون بعض السجائر، مع فتاتين. وقالت له المضيفة وهي تغلق الباب ببساطة:

— 'إحنا كنا عاملين حفلة، وشفتك من تحت قلت مش معقول بعد اللف ده كله يرجع فاضي.'

وضحك أحد الرجال وكان في الثلاثينيات متيناً بقميص أبيض وهتف:

— 'هو ها يرجع فاضي؟ ده ها يرجع خرمان!'

وضحك الباقون عدا فتاة كانت تعبد ترابيزة الأنتريه كأن احتفاءً بالضيف الجديد. وظل هاني إلى حين مرتاباً فيما أفضاه له فكره، وطلبت منه صاحبة المكان أن يجلس مع باقي الضيوف فسأله أحد الرجال وكان خمسينياً بكرش، وهو يحتسي من السيجارة:

— 'الاسم ؟'

— 'هاني. هاني طلعت.'

ونفض الرجل ثم سأله:

— 'بتشتغل ايه يا هاني—ولا لسه طالب؟'

— 'لا. حضرتك أنا دكتور.'

فعوج رجل ثالث (يشبه الرجل الأول بشكل كبير) رأسه وقال للمضيفة:

— 'زبون حكاية دا يا ريم.'

فردت ريم في فخار وكانت تفرغ «الطلبات» فوق ترابيزة أخرى:

— 'أنا كل اللي بيجوني دكاترة ومهندسين يا روحي.'

وقهقه الرجل الرابع وكان أسمر بوجنتين خشنتين من أثر حب الشباب وهتف:

— 'ريم دي أصلها مدرسة!... حد يعمل في المدرسة كده يا ولد؟'

ونهض بعد العبارة الأخيرة يروم أن يداعبها من الخلف. لكنها ما لبثت أن صدته وقالت وهي تشوح بوجهها بعيداً:

— 'والله يا اخويا انت ما جيت هنا إلا اما عتمت، دا انا كنت اعرف سيد سيدك، وابقى اسأل بره يا عينيّ عن ريم.'

أخذ هاني راحته وانبسط. بدأ يستلطف الجو والقعدة، وكان كل الناس الموجودين طيبين وخفيفي الدم. واستحضر ذكرى أن قال لآسر

ذات مرة في مقتبل العام أن أسيوط لا توجد بها ’شقق‘ فسخر منه لكنه قال في صمود: ’برضه ما فيش شقق‘. الآن هو داخل ’شقة‘ حقاً، لولا الملامة لأسماها معجزة! فقد تغير بمجرد ولوجه هذا الدار، ولن يعود الإنسان القديم عوض.

وجعل يتطلع إلى ’البنتين‘ فأعجبتاه كلتاهما: كانت إحداهما قمحاوية بكتفين عاريتين وهي التي راحت تعاون ريم صاحبة الشقة في ترتيب ’الليلة‘، أما الأخرى فبيضاء مليحة ببشرة ناعمة لكن أنفها كان ضخماً. ومال عليه الرجل الرابع وكان أدناهم إليه فهمس:

— ’بص يا دكتور، النظام هنا انك ما تختارش، بطل النظام ده ودلوقتي هما اللي بيختاروا. يعني تستنى حضرتك زي الأفندي كده لغاية ما تشاور لك واحدة فيهم تقوم تدخل معاها «تأدي واجبك». وممكن واحدة تكون «غاوية» تقوم تاخد لها نفرين في الليلة وممكن تقوم بكل الليلة... بس بيني وبينك، أنا باعوف، ما احبش أدخل مكان حد.‘

ومرت الفتاة البيضاء فصفعها الرجل الأول على فخذها فتأوهت بأسلوب ظاهر، ثم أكملت فرصت الأطباق بالتدريج. وفي النهاية كانت ثمة أطباق الجبن مقطعاً مكعبات مع نتف من الخضار، واللانشون مقلياً في مستطيلات، ومايونيز في سلطانية صغيرة، وخيار مشرحاً في طبق صيني كبير، وأجسام مقلية منتظمة قيل له أنها سمك بانية، ثم بيرة. واستهلوا فقال الرجل الثاني: ’بسم الله‘. ومد هاني يده وهو يرنو حواليه.

وبعد أن خرج هاني طلعت من ’الشقة‘ في ذلك اليوم أحس أن الدنيا لها طعم آخر... طعم يختلط بالسمك البانيه والبيرة... طعم مستحسن، ومتسامح. وسار في الشوارع مزهواً سعيداً بنفسه أنه رجل، وأنه «عبر»، وأنه كذلك تخلص من عزلته واكتئابه وآرائه المتطرفة. ولم يكن من الغريب أن تسترده أحلام السينما مرة أخرى وهو سائر هكذا مبسوط، فقد تراءى له الحين أن طوال تلك المدة كان هو غبياً، ضيق الأفق، متشائماً، ومستسلماً للشيطان.

وتذكر هاني طلعت هذا اليوم بتاريخه فيما بعد.

٧. نهاية كل شيء

I. وذهب فبراير وقُضيَّ عام الامتياز. وانحسر الخريجون الراحلون عن غرف خاوية وعن متدربين جدد جاءوا ليعاينوا الغرف في صباح الأول من مارس. وجلس عم مختار يشرب الشاي أمام الاستراحة في الصباح وهو يترقب وصول الوافدين «الخام»، وحياله كان عم رضا يجلس إلى ترابيزته النحاسية وقد رصت فوقها علب السجائر. إن صح كلام جورج حنا فلهذا المكان ألف روح، ولكل روح عام واحد من العمر، فأين شباك آسر من تلك الفجوات الحالكة؟، وأين بلكونة الإخوان؟، وما الذي تبقى من نفوس ساكني الغرف لعام كامل؟ لاشيء. لا شيء سوى بضع قصاصات ورق وأكياس بلاستيك فارغة وصور وشخبطة على الحيطان. لقد فاض الساكنون الذين أصبحوا قدامى فكأنهم لم يخلوا غير قمامتهم.

حتى الشارع كأنه تغير. مسحته مسحة جديدة من ازدواج الهواء والشمس، ولونه تغير كأنه يدهن نفسه بدهنة جديدة تزيل عنه آثار الشهور المنقضية. لكن ظلت الجيرة هي الجيرة. وما برحت شيماء وصاحباتها موجودات يتطلعن من البلكونة الكبيرة والبلكونة الصغيرة، والفتى الذي يرفع صوت الكاسيت ينظر بملابسه الداخلية، والسيدة المحافظة التي تسك الستائر أمام الشبابيك القاتمة يتراقص شبحها الهادئ، والمطعم، والطابونة، والمكوجي، والصيدلية التي تقاطع المنتجات الدانمركية، والمخبز الآلي، والسوبر ماركت، يتثائبون غير آبهين بشيء، وكأن السنة قد مرت عليهم مرور الكرام لأنهم لم يشاركوا فيها بحكاية أو بقصة.

ووفد تاكسي فوقه شيل فقام عم مختار من موضعه في انتباه، واعترض طريقه كلب أصفر جعل يزوم حول ساقيه — اللتين انتصبتا حيال مدخل الاستراحة — لكنه ركله بشيء من الاحتراس وزعق به:

— 'إمش... غور.'

وتقدم نحو التاكسي بروح متيمنة عملية.

II. وذهبت روحية في تلك الظهيرة من يوم الاثنين الخامس من مارس إلى كنيسة الإصلاح تبكي. كانت تثق في قوة الصلاة، وتبطن نحيباً طويلاً متضرعاً إلى الله لأجل أن يحل لها مشكلها. وكانت الكنيسة في ذلك الوقت خالية، والأنوار الكهربية مطفأة، على أن اعتدال الجو لم يأت بحزن ولا بظلام، فتسللت ظلال الشمس من الشبابيك لطيفة محببة، وبهية. وفعلاً راحت روحية في بكاء مطول يخترقه النشيج كما تخترق ضوضاء الحرب طلقات مدفع، واستعبرت عيناها الجميلتين وكانت تلبس الأسود على زوجها. وقالت للرب بصوت هامس شجي: 'أنا يا رب إنسانة كبرت، وشاخت أيامي، مش عاوزة أنتهي نهاية سيئة أرجوك. إهيء إهيء... أنا يا رب باحبك ومش عاوزة اسيبك، لكن انت كنت وعدتني مش ها تخلى بيّ أبداً... فاكر يا رب لما جبته لي يتيم الأب والأم وقلت لي: "هو ده ابنك"؟... فاكر يا رب ولا ناسيني؟... إهيء إهيء... ارحمني يا رب وساعد ضعفي، أنا إنسانة وحيدة جداًا!'. وانخرطت في نشيج طويل هذه المرة، ثم أكملت: 'يا رب بولس وانت أخدته مني. ورضيت واستكنت وقلت الرب أعطى والرب أخذ... أنا كنت باحب بولس بجد! كان حبيبي وجوزي وكانت عيشتنا هنية على الرغم من إننا ما جبناش عيال. أنا مش قوية قوي زي ما يبان عليّ، أنا هشة جداً يا إلهي! وما اقدرش أعيش من غير ابني اللي انت أعطيته لي. شوفه يا رب كلمه في قلبه قل له هو مش راضي عني ليه! هو انا عملت له حاجة وحشة يا رب؟ ده انا باحبه حب أكتر من نفسه. واعمل إيه دلوقتي يا ربي لو سابني وراح الجامعة ولا الأرياف؟! أروح أعيش مع مين يا رب ده انا اكبر من اختي فريال؟! أنا باحبك يا رب وواثقة في عظيم حكمك!...'.

واستمرت روحية في صلاتها، وفي نحيبها ونشجها، حتى جاءت «مدام فيبي» (وهي خادمة شابة بالكنيسة)، فلحظتها عن مصادفة فقصدت صوبها في هرع وطوقتها بذراعها وهي تقول لها: 'مالك؟ مالك؟'، ثم أخذتها للخارج تستنشق بعض الهواء. لكن روحية أحست في طيتها أن الله سيستجب دعاءها.

وكان مارك يصلي بدوره لكنه جعل «مخدعه» الأرض كلها تحت السماء المفتوحة والسحب الجميلة المتناثرة. ولم يذهب بعيداً إذ كان يخشى من التعرض لشعور العزلة، فجاب وذرع يسري راغب من أوله لآخره عدة مرات. كان قد تعرض لإهانة أخرى منذ عدة أيام وهو يدور يجمع توقيعات الإخلاء: أحمد زيدان اعترضه هو وشاب أسمر ضخم يصاحبه أحياناً يدعى محمد أبو المجد فدفعاه إلى السور المواجه لحمامات مدرجات السنة الثالثة وهدداه ثانية وقرصه محمد أبو المجد قرصة قوية جداً في بطنه بسبابته وإبهامه، ولم يسترا فوق الأمر فأعلناه أنه 'نصراني' وأن ليس له مكان ولا مستقبل هنا. هذه القرصة ما زال مكانها يؤلم واحمرت، وهو الآن يراجع أولوياته ويرتب مفاهيمه. ذكريات عنصرية بعيدة كان قد تجاهلها طويلاً معولاً على «عناية الله» رجعت إليه الآن: عناء الشفوي، التعليقات على ملابس المسيحيات، إخفاء الصلبان بالأكمام الطويلة والهوية عن طريق الأسماء «المشتركة» (التي يتم التنقيب خلفها في جدٍ ومهارة مثيران للإعجاب)، آراء متطرفة كان يسمعها يومياً من أناس يفترض أنهم أناس علم وخبرة، التزمت والتحزب بين الشباب الصاعدين، ملصقات ولافتات دينية في كل مكان، كل شيء كان يسير من سيء لأسوأ عبر السنين. أسيوط نفسها كانت، على ما يسمع من عمه جوزيف وتيزته جيهان، في ذات يوم مختلفة، كانت مقر العائلات المسيحية الكبيرة: ويصا، الخياط، الكسان، حبيب المصري، ودوس، وغيرها. أين تلك الأسماء الآن؟، وأين عائلته هو؟ ليسوا جميعاً إلا في خندق. وقد اطرد نزوح المسيحيين من المنطقة منذ زمن بعيد خلا، اللجوء إلى أمريكا بالذات، حتى صارت هنالك صلة ملاحظة بين أسيوط وأمريكا... وبين أسيوط والإرهاب. وكأن التاريخ يتكرر في سخرية، فهنا ثمة ١١ سبتمبر في كل يوم.

فكر في كل هذا، غير أن روح الثوران التي ملكت هاني طلعت صاحبه القديم لم تسيطر عليه، فهو إنسان هادئ مطمئن نوعاً، وعلى ما بدا له من خذل «العناية» له لكنه لم يفقد إيمانه. إنما، حقق مع نفسه، هل الأمر يستأهل كل تلك الضجة؟ إن الحياة ليست هي نيابة مؤقتة يذوق فيها المر ثم يطرد، فالحياة واسعة وهي أكبر من هؤلاء جميعاً.

الحياة ممتلئة وسعيدة على ما فيها من سخط، وبها من الدروب المختلفة المطروقة وغير المطروقة ما يفيض عن احتياجات السكان. وفكر في كنيسته فنال انشراحاً خفيفاً في الصدر. كنيسته هي أولويته في العيشة، وهو يؤثر أن يغدو خادماً محترماً على أن يصارع كائناً من الصخر لا تجدي فيه ضربات العناد أو يؤتي فيه الصبر ثمراً. ويمكنه أن يخدم في DWAM وينال بركة عظيمة بنشر البشارة المفرحة للشعوب. لكنه لا ينزع للهجرة أو المغادرة وهذه سجية أصيلة فيه، فهو يحب الاستقرار ولا يبغي مفارقة مكانه أو معارفه الذين لمهم بالكاد. وبرقت له صورة المصنع كأنها أتت له من خلفيات الذكريات، مع أنه يشاهده عشرات المرات يومياً. أجل يمكنه أن يحصل على إرثه في المصنع الذي وهبه إياه عمه الراحل — رحمه الله — وقد تدر عليه التجارة دخلاً مقبولاً ويصير ذا مال حسن يصد عنه الضيقات ويساعده — لعله يساعده — في الخدمة... أو يمكنه أن ينفق على دراسات الطب. ربما الأمور ليست سيئة إلى هذا الحد، فالرب قد أعد له «إرثه» مسبقاً، وهو راعيه وحاميه من بلطجية لا قبل له بهم، وساتره عن أعين شانئيه وحاسديه قطعاً.

وقطع الأسفلت القديم في ذات السرعة حتى بعد أن اتخذ قراره. وكان يدنو من نقطة إبراهيم باشا حينما رأى «مجدي» — مجذوب أسيوط الشهير — يعترض وسط الشارع ويشتم كديدنه، بجسمانه القوي وشاربه الكث، ووجهه الأحمر الغاضب. كان مجدي أسيراً لدى الإسرائيليين عقب حرب أكتوبر، ومنذ أن أطلق — منذ عقود — وهو يطوف بشوارع المدينة يصرخ سابياً الرؤساء والدول وكل ذي شأن. وهو في حد ذاته لغز، فلم تنجل قط طبيعة ديانته (إن كانت ثمة)، أو من هم آله، أو أين يعيش وكيف يأكل، ودوماً يشاهد بحالة جسمانية ممتازة ويلبس أردية محترمة، حتى أنه ما ينفك يلفت الانتباه والعجب والحيرة. ورفع مجدي حنجرته بالسباب عالياً، وتحاشاه مارك وهو ينعطف إلى عدلي يكن.

وكان قد أعمل ذهنه في تلك الخطوات القليلة حتى باب الشقة أضعاف ما فعل طوال جولته في يسري راغب، فالأدرينالين الذي انتشر في دمائه المسالمة الفائرة مط في الزمن من حوله، فكأنه، وهو منشغل

في تركيز وجدية هكذا يرص النتائج في جداول وهمية ويزوي حاجبيه ويرنو لأسفل للسطح «الجغرافي» المعثر الذي يسير عليه، كأنه يحكم الكون. وما أن فتح باب الشقة حتى نظر فرأى امرأة عمه جالسة على كرسي من كراسي الأنتريه تبكي وجانبها وقفت كريستين ابنة ابن عمه تربت على كاهلها. وكانت والدتها — مارجريت — تجلس على كرسي آخر وبجانبها مدام سامية، بوجهها الأحمر المكتنز، تمسك فكها السفلي كافة (إذ كان صغيراً) بيدها وتتأمل الأرملة بحسرة وحدب. ودخل فبادرته مدام سامية في وعظ:

— 'إنت دلوقتي يا مارك يا ولدي سندها وراجلها اللي تتكل عليه. إنت مكان عمك الله يرحمه.'

ومتى كان عمه حاضراً؟ على أنه أمال رأسه وهو يدس المفاتيح في جيب بنطلونه الجينز:

— 'طبعاً يا طنط.'

وقالت له مدام مارجريت:

— 'عاوزينك تعاملها زي أمك بالظبط يا مارك. دي أمك برضه، مش هي اللي ربتك؟'

— 'من غير ما تقولي يا طنط.'

وعادت الضيفة الأولى تقول:

— 'أيوه. إنت راجل البيت دلوقتي يا حبيبي.'

رنا إلى كريستين. وفكر أن ما برحت هناك مسافات يقطعها حتى يبلغها. فتاة جميلة في العشرين، بشعر كستنائي أصلي، وبشرة بيضاء نقية، وطالبة بالصيدلة. لولا أسنانها... لولا أسنانها.

ورفعت روحية وجهها المبلل بالدموع فآنس من الموقف واجباً لأن يقبلها. وبالفعل انحنى عليها فلثمها على الجبين. وربتت هي على ظهره في شكر، وظهر استحسان الحاضرات. وقالت مدام سامية في تفاؤل:

— 'كل حاجة ها تبقى زي الفل بإذن المسيح، ولدك اهو معاكي اهوه، وقرايبك - أهلك هنا معاكي كمان، عاوزة إيه تاني بس يا ستي؟ قومي بس اغسلي لنا وشك، اللي راح راح واحنا ياما شيعنا ميتين. قومي بس يا شيخة بلا كلام هبل، الميت ومات ودفناه، ها نبكي على مين؟ قومي والنعمة عليكي يا شيخة، خلينا نطمن عليكي لا تجرى لك حاجة!...'

وخطا مارك نحو البلكونة (التي نادراً ما ولجها قبل ذلك) بخطوات بطيئة. ما انفكت بلسانه آثار قبلة امرأة عمه المشربة بالملح (روحية دائماً عانت من زيادة في نسب بعض الأملاح)، وشاف ضوء الغروب المثير للتأمل بالأعلى فبث صلوة مقتضبة. ورمى بنظره لأسفل فرأى الشاب الذي يسكن قصدهم يزين سيارة «فيات ١٢٨» قد اشتراها مستعملة مؤخراً، وعطيتو يجلس بجواره على الرصيف المتسخ. ثم رفع رأسه مرة أخرى فرأى قمة المسكن المقابل لهم، بسقفه المحدد وزواياه القائمة، وابتدأ يحسب في لحظة شرود درجة انضباط الزوايا وخيل إليه أن في الزوايا والأضلاع عالم رومانتيكي عجيب يساعد على الخيال. وانتهى من هذا التأمل بأن أفضى لنفسه آسفاً: كم أنا موهوب... كم أنا موهوب!...

وظن أنه سمع وقعاً خفيفاً من خلفه وظنه كريستين، لكنه استدار فلم يجد أحداً، فتنهد مارك باستسلام. شعر أن لا مقاومة ترجى فيما بعد، ولا عناد يفضي لمشروع مع «المشيئة»، وأين الحياة وأين الآمال إلا مع الخنوع للتيار اللطيف الجاري؟... وقال مارك لنفسه أن الإيمان يؤدي إلى سكك عظيمة غير مفضوضة، وأن «القدر» صنَّاعٌ للأحلام وأن الأحلام من صنع القدر ومن عمل المشيئة. 'مكتوب'، تراءت له الكلمة التي قرأها في أحد الترجمات، تراءت له بمعنى أوسع وأشمل وأجل، واخترمت كيانه فرحة عجيبة، بهية، شاكرة.

وهز رأسه الناصع قبل أن تحتويه الشقة مرة أخرى، نهائية.

III. ستمر أسابيع قبل أن يكون مارك سعد قافلاً من «سنتر» الإنجيلية — القائم على الترعة — في ذلك الصباح، وفي طريقه سيتخذ الجمهورية. لن يكون متحسراً أو آسفاً على قراره فيما بعد، لأنه اتخذ وفُض، كما ارتبط بأواصر ألفة طيبة مع بيكهام وعطيتو وحمدان، وتوطدت علاقته بأبناء عمه، وروحية صارت أمه رسمياً الآن، لكنه سيبقي على مراجعة ذكرى الأمر في حسبانه مرات ومرات. سيتذكر سنة الامتياز بشجى عام، وستنبت في مخه أفكار مارقة سيتحاشاها سريعاً، وسيلتقط الأنباء عن إيمان بخبث يتعجب منه: إيمان تم تكليفها في الأقصر وأبته، وتزوجت

من مارك رفعت منذ ما ينيف على الأسبوع في شقة بالجمهورية ثمنها ربع مليون، وهما الحين في شهر عسل في دهب. وسيبدأ مارك في التأهب لمرحلة الخدمة والوعظ... وها الزمان يمر.

وسيتطلع ناحية «معمل البرج» في أحد أبراج الجمهورية، ثم يستكمل طريقه، ويصل إلى آخر الشارع، حيث داود سيدهم ثم حلواني الخزان الذي كان أشهر حلواني في المدينة في حينٍ، حينئذ ستقطع أمامه الطريق سيارة أوبل سوداء مغبرة، وسيناديه صاحبها أن يصعد... وسيفعل هذا وهو يضحك.

وسيتردد مارك قليلاً ثم يصعد.

وتكون تلك هي بداية لصداقة جديدة، صداقة من نوع خاص، يعبر فيها مارك وصاحب السيارة فوق مطبات السجن الوعرة، ويجتازان في نفق الزهراء الجديد، ويخترقان من خلال المنفذ الأزلي، ويسيران من أعلى مسامير، وحفر، وأرض غير ممهدة، ويطوفان من أمام مبانٍ جديدة، وأبراج قائمة، ودور دينية متعددة، ومراكز ثقافة، ومقاهٍ، ومحلات نت، وأماكن خربة كثيرة. لكن السيارة السوداء تجول بهما مع ذلك، وتطوف، وتسير متحدية الزمن والمكان، وقد انزاح عنها غبارها ولمعت تحت الشمس...

(تمت)

مايكل برنس

الأحد ٥ مايو ٢٠٠٨